

حسام عبد الكريم

معوود معاوية

مفّين، الخوارج، ونهاية عليّ

3



دراسة في المصادر الإسلامية

مَعُودٌ مَعَاوِيَّةٌ
قُدَّسَ فِيهِ الْمَمَامُ الْإِسْلَامِيَّةُ

3



الأهلية للنشر والتوزيع

e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأول (التوزيع)

المسلكة الأردنية الهاشمية، عمان، وسط البلد بناية 12
هاتف 00962 6 4638688، فاكس 00962 6 4637445
ص.ب: 7855 عمان 11118، الأردن

Facebook: AlAhliaBookstore

Instagram: alahlia_bookstore

الفرع الثاني (المكتبة)

عمان، وسط البلد شارع الملك حسين، بناية 34



صعود معاوية: دراسة في العصور الإسلامية / تاريخ
(الجزء الثالث)

صَلَوْن، الخولج، ونهاية علي
حسام عبد الكريم / الأردن



الطبعة العربية الأولى، 2019
حقوق الطبع محفوظة



تصميم الغلاف: زهير أبو شبيب، عمان، هاتف 00962 7 95297189



الصفّ الخولي: إيمان زكريّا خطاب، عمان، هاتف 00962 7 95349156
لوحة الغلاف: الواسطي، ثروت عربي



*All rights reserved. No part of this book may be reproduced in
any form or by any means without the prior permission of
the publisher.*

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، إلا بإذن خطي مسبق من الناشر.

الأراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

الترقيم الدولي: 4 - 902 - 09 - 6589 - ISBN 978

دار الفکر للطباعة والنشر

حسام عبد الكريم

معود معاوية

مؤين، الخوارج، ونهاية عليّ

3

دراسة في المصادر الإسلامية



المقدمة

هذا الكتاب هو جزء من عملي ضخيم، يمكن وصفه بالموسوعي، يبحث في أحداث قضية كبيرة جدا في تاريخ صدر الاسلام، ويفورس في تفاصيلها. وهو يتناول وقائع الفتنة الكبرى التي امتدت أحداثها في الفترة ما بين سنة 23 للهجرة (بداية حكم الخليفة عثمان) الى سنة 41 للهجرة (سيطرة معاوية على مقاليد الحكم). وهذا العمل أساساً هو بحثٌ وتنقيبٌ في أمهات الكتب والمصادر الأصلية للتاريخ الإسلامي بهدف المساهمة في جلاء الحقيقة التاريخية لمن يسعى لها.



وأنا أزعّم أن عملي هذا يختلف عن الاعمال المشهورة التي تناولت موضوع الفتنة الكبرى: يختلف عن طه حسين في كتابه «علي وبنوه» و«الفتنة الكبرى/ عثمان»، كما يختلف عن كتاب هشام جعيط «الفتنة / جدلية الدين والسياسة في الاسلام المبكر»، ويختلف عما كتبه عباس العقاد في سلسلة عبقرياته، ويختلف عن كتابات فلهاوزن وغيره من المستشرقين، ويختلف طبعاً عن سرديّة الاسلام التقليدي (السنّي) لأحداث الفتنة الكبرى، كما في كتابات علي الصلابي على سبيل المثال. وكذلك يختلف عن كتب المحاجة الشيعية وسرديتها لأحداث الفتنة، كما في كتابات وأعمال علي الكوراني مثلاً. أنا أزعّم أن كتابي فريدٌ من نوعه، وبه إضافة نوعية لكل ما سبقه.



وبالامكان قراءة هذا الجزء من سلسلة «صعود معاوية» ككتاب مستقل،

لمن أحب الاطلاع حصرياً على موضوعه: صراع عليّ ومعاوية وحريهما في صفين وتطورات الاحداث الى أن استولى معاوية على السلطة وأسس لأول حكم سلاطي في الاسلام. لا ضير في ذلك. ولكن من الأفضل طبعاً الإحاطة الكاملة بالموضوع عن طريق الاطلاع على الجزئين الذين قبله: أولاً «خلفيات الفتنة الكبرى... عهد عثمان» وكذلك: «عليّ وعائشة... حرب الجمل».

وأتمنى ان أكون قد وفقتُ في ما كتبتُ، وأن يجد القارئ في كتابي مادة غزيرة وغنية تلبي رغبته في المعرفة عن تلك الفترة الحرجة في تاريخنا والتي لا زالت تلقي بظلالها علينا الى الان.

حسام عبد الكريم

آب 2018

الجزء الاول:

حربُ صفين

الفصل الأول: معاوية

شخصية معاوية⁽¹⁾

إن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية، هو الشخصية المحورية الثانية في كل أحداث الفتنة الكبرى التي جرت ما بين 36 و41 للهجرة، بالإضافة طبعاً إلى الشخص المحوري الأول: علي بن أبي طالب. فلا بد من إلقاء الضوء على خلفيات هذه الشخصية ومراحل صعودها المدهش.

نشأ معاوية وهو يرى نفسه سليلاً لمجد أبي سفيان وحرب وأميه، وامتداداً لعمّ قريش بين العرب. وكثيراً ما عبّر معاوية، وهو خليفة، عن اعتزازه الشديد بأبيه، وقد قال مرة لابنه يزيد: «... وإن كان أبو سفيان ما علمتُ لتقبل الحلم، يفظان الرأي، عازب الهوى، طويل الأناة، بعيد القعر، وما سؤدته قريش إلا لفضله»⁽²⁾. وغالباً ما كان معاوية يصف أباه بأنه كان «أكرم قريش وأشرفه»⁽³⁾ أو «سيد قريش» أي أن معاوية، وهو خليفة، كان يعتبر مجد الحكم والزعامة

(1) مصادر هذا البحث: شرح نهج الخلافة لابن أبي الحديد (ج 18 ص 130 وص 309 وج 3 ص 188-190)، أسباب النزول للواحدي (ص 306 وص 163)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج 3 ص 165-167)، تاريخ دمشق لابن عسكّر (ج 11 ص 494 وج 23 ص 439)، المستدرک علی الصحیحین للحاکم (ج 2 ص 332).

(2) شرح نهج الخلافة لابن أبي الحديد

(3) على الرغم من حرص أبي سفيان على مظاهر «الشرف» الجاهلية، ومنها إغاثة الملهوف، إلا أن الكرم، بمعنى البلد والمطاء التابع من النفس، لم يكن أبداً من خصاله الحقيقية، ولا كانت نفسه تجود بشيء إلا إن كان وراء ذلك هدف ومنفعة: «كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسير جزووين. فأناء يقيم فسأله شيئاً ففرمه بمصا، فأنزل الله تعالى (أرأيت الذي يكذب باليمين. فذلك الذي يدع اليمين). ذكر ذلك الواحدي في أسباب النزول

ليس أمراً جديداً عليه، بل هو شأنٌ طبيعي وصله عن طريق أبيه وأجداده، مع الفارق طبعاً، لأن أبا سفيان كان ينظر معاوية، سيد قريش، بينما هو الآن أصبح سيد العرب.

وبحكم انتمائه للفرع الأموي من بني عبد مناف، فقد شبَّ يشعر، كأيهِ وأجداده، بحساسية بالغة، تصل إلى حد الحقد، تجاه أي تميّز قد يناله الفرع الهاشمي من بني عبد مناف. وتروي كتب التراث تفاصيل كثيرة عن التنافس والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، جيلاً بعد آخر.

ورغم أن الفرعين، الهاشمي والأموي، هما أبناء عم، ويتحدّران كلاهما من عبد مناف، إلا أنه لم يكن غريباً في ذلك الوقت أن تكون الخصومات بين الأقرباء أشدَّ حدة، وأعمق أثراً، من الخصومات بين البطون المتباعدة في نسبها. فالأخيرة كانت في الغالب تزول بزوال أسبابها المباشرة، بعكس خلافات أبناء العمومة التي كانت تتميز بالطابع الشخصي.

ويمكن القول أن بني أمية وعبد شمس، كانوا في الجاهلية أكثر عدداً⁽¹⁾ وثراءً من بني هاشم، وأنهم بالتالي كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر أهلية للزعامة والصدارة منهم. مع العلم بأن بني هاشم كانوا معروفين بحسن الأخلاق أكثر، وتجلّى ذلك بحلف «الفضول» الذي تمَّ بمبادرة من بني هاشم، وضمَّ معهم بني المطلب وزهرة وتيم، والذي كان هدفه نصرة المظلوم في مكة، ولم يشارك بنو أمية / عبد شمس في هذا الحلف.

بالتالي لم يكن بنو أمية في وارد أن يسمحوا بأن ينال بنو هاشم تميّزاً عظيماً، بحجم النبوة. وقرروا، ممثلين في أبي سفيان خاصة، أن ذلك لا يُطاق، ولن يكون، تحت أي ظرف. فبنو أمية لم ينظروا إلى دهوة محمد(ص) في

(1) وقد ذكر الإمام عليّ مرة مقارنة بين بني هاشم وبني أمية في جوابه لرجل سألَه عن قريش: «... وأما بنو عبد شمس فأبعدوا رأياً، وأتمتها لما وراء ظهورها. وأما نحن فأبطل لما في أيدينا، وأسمع عند الموت بنفوسنا. وهم أكثر وأمكر وأنكر، ونحن الصبح وأنصح وأصبح». وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه لكلام عليّ أنه «أراد كثرة بني عبد شمس، فبالكثرة تمنع ما وراء ظهورها. وكان بنو هاشم أقل عدداً من بني شمس، إلا أن كل واحد منهم على انفراده أشجع وأسمع بنفسه عند الموت من كل واحد على انفراده من بني عبد شمس»

مكة إلا على أنها محاولة جديدة من أبناء صومتهم الهاشميين للانفراد بالمجد والشرف والصدارة، وهذا ما لم يكن بمقدورهم أن يتساهلوا بشأنه.

وميل معاوية، وهو خليفة، إلى اعتبار الفترة النبوية التي كان فيها محمد(ص) يقود بالفعل العرب والمسلمين، وخاصة بعد فتح مكة سنة 8 للهجرة إلى حين وفاة الرسول(ص) سنة 11 للهجرة، استثناءً طارئاً نجح فيه بنو هاشم في الانفراد بمجد النبوة والحكم معاً، وفي تحية منافسيهم من بني أمية جانباً.

وهو يعتبر أن وصوله للحكم سنة 41 للهجرة تنويعاً للجهود المتواصلة التي بذلها بنو أمية من أجل استعادة مجدهم الغابر، والتي بدأت مباشرة بعد وفاة الرسول(ص).

ومن المفيد في هذا السياق عرض الرسالتين اللتين تبادلتهما محمد بن أبي بكر ومعاوية بن أبي سفيان سنة 38 للهجرة:

نص رسالة محمد بن أبي بكر إلى معاوية:

«من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر»

سلام على أهل طاعة الله، ممن هو سيّلم لأهل ولاية الله، أما بعد...

فإن الله بجلاله وقدرته وعظمته، خلق خلقه بلا ضعفٍ كان منه، ولا حاجزٍ به إلى خلقه. لكنه خلقهم عبيداً وجعل منهم شقياً وسعيداً، وغوتياً ورشيداً. ثم اختارهم بعلمه واصطفاهم بقدرته. فانتحلّ منهم وانتجب محمداً(ص) فبعث رسولاً وهداياً ودليلاً، ويشيراً ونذيراً، وسراجاً مُنيراً. فدعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

فكان أولُ من أجاب وأناب، وأوفى وأسلم وسلم، أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب. فصَدَّقَه بالغيب المكتوم وآثره على كل حميم، ووقاه كل قول، وواساه بنفسه في كل حال. وحاربَ حرته، وسالَمَ سيّلمه، حتى برز سابقاً لا نظيرَ له ممن اتبعه، ولا مشاركَ له في فضله.

وقد أراك تساميه وأنت أنت، وهُوَ هُوَ: السابق المميز في كل خير، أطيب

الناس قرية، وأفضل الناس زوجة، وخير الناس ابن عم. أخوه الشاري بنفسه يوم مؤتة، وعنه سيد الشهداء يوم أحد، وأبوه الدّابّ عن رسول الله (ص). وأنت اللعين ابن اللعين. لم تزل أنت وأبوك تبغيان لدين الله ورسوله الغوائل، وتحالفان عليه القبائل وتبدلان فيه المال وتحالفان فيه الرجال.

على ذلك مات أبوك، وعليه خلفته. والشاهد عليك من تزوي وتلخي من رؤوس أهل الشقاق وبيعة الأحزاب ونوي الشناعة لرسول الله (ص) وأهل بيته. والشاهد لعلّي سبقه القديم وفضله المبين، أنصار الدين الذين ذكروا في القرآن فهم حوله عصائب ويجنيه كئائب. يرجون الفضل في اتباعه ويخافون الشقاق في خلافه.

كيف تعدل نفسك بعلّي وهو كان أول الناس له اتباعاً وآخرهم به عهداً، يُشركه في أمره ويطلعه على سرّه، وأنت عدوّه وابن عدوّه؟

تجتمع في باطلك، وليمدد لك عمرو في غوايتك، فكان قد انقضى أجلك، ووَهَنَ كَيْلُكَ. فستبين لمن تكون العاقبة!

واعلم أنك يا معاوية إنما تكاد رَيْكَ الذي قد أمنت كيده ومكره، ورشت من روحه، وهو لك بالمرصاد وأنت منه في غرور. وبالله ورسوله وأهل بيته عنك الغنى. والسلام على من تاب وأناب.

رسالة معاوية الجوابية إلى محمد بن أبي بكر:

من معاوية بن أبي سفيان إلى محمد بن أبي بكر، الزاري على أبيه!

سلام على من اتبع الهدى وتزود التقوى

أما بعد. فقد أتانني كتابك تذكر فيه ما الله أهله، وما اصطفى له رسوله، مع كلام لففته وصنعت لرباك فيه تضعيف ولك فيه تعنيف.

ذكرت حقّ ابن أبي طالب وسوابقه وقرابته من رسول الله ونصرتة إياه. واحتججت علّي بفضل غيرك لا بفضلك. فأحمد إلهاً صرفَ عنك ذلك الفضل وجعله لغيرك.

فقد كنا وأبوك معنا في حياتك من نبينا، نرى حق ابن أبي طالب لنا لازماً،
وفضله علينا مبرزاً. فلما اختار الله لنبه ما عنده، وأتم له وعده، وأفلج حجة
وأظهر دعوته، قبضه الله إليه. فكان أبوك - وهو صديقه - وعمر - وهو
فاروقه - أول من أنزله منزله منزله عندهما. فدعواهما إلى أنفسهما فبايع لهما. لا
بشركانه في أمرهما ولا يظلمانه على سرهما، حتى مضيا وانقضى أمرهما.
ثم قام عثمان ثالثاً يسير بسيرتهما ويهتدي بهديهما. فعبته أنت وصاحبك حتى
طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي. وظهرتما له بالسوء وبطتما حتى بلغتما
فيه مناكما.

فخذ يا ابن أبي بكر حذرَكَ، وتيس شريك بفترك، تقصر عن أن تسامي أو
توازي من يزن الجبال حمله، ويفصل بين أهل الشك علمه ولا تلين على قسر
قناته: أبوك مهذ مهذ، وثنا لملكه وساقه.

فلن كان ما نحن فيه صواباً فأبوك أوله، وإن كان خطأ فأبوك أسسه ونحن
شركاؤه. اقتدينا وقعله احتدينا.

ولولا ما سبقنا إليه أبوك، وأنه لم يره موضعاً للأمر، ما خالفنا علي بن أبي
طالب ولسلمنا إليه. ولكننا رأينا أباك فعل أمراً اتبعناه واقتضونا أثره. فغيب أباك
ما بدا لك، أو كبح.

والسلام على من أجاب ورد غوايته وأناب⁽¹⁾

واضح تماماً أن معاوية يعتبر أباً بكر وعمر هما اللذان وضعوا الأسس
لملكه، حين نجحوا في إبعاد المرشح الطبيعي للمخلقة وهو علي بن أبي طالب.
ومعاوية يلتفت نظر ابن أبي بكر إلى أن الصراع الذي يخوضه سنة 38 للهجرة
ضد علي، هو في الحقيقة امتداداً طبيعياً للصراع - غير المسلح - الذي جرى
يوم السقيفة سنة 11 للهجرة، حين قرر أبو بكر وعمر منع بني هاشم من تولي
حكم المسلمين بعد محمد (ص).

(1) الرسالتان من أنساب الأشراف للبلاذري. وكذلك وردنا في شرح نهج البلاغة لابن
أبي الحديد.

فينظر معاوية، هو ببساطة يتابع سياسة قريش، وتقلعها وأرسي دعائمها المهاجرون، بأن بني هاشم لن يجمعوا بين النبوة والملك. وما دام الحكم هو لقريش وحدها، دون بني هاشم، فلا ضير في أن ينبري معاوية ليزعجه لنفسه، لأنه ابن سيد قريش القديم. وهو يعتبر أن بني أمية قد «عوقبوا» بما يكفي عن طريق تسليمهم بقيادة البطين الضعيفين من قريش، تيم وعدي، طوال اثني عشر عاماً من حكم أبي بكر وعمر.

وفي معرض رده على ابن أبي بكر، الذي ذكره بتاريخه، وأبيه، العدائي تجاه الرسول (ص) ودعوته، لم ينف معاوية ذلك، ولم ينف لعنه وأباه من قبل الرسول (ص)، ولم يجادل بشأن خصال علي وأهليه، قام فقط بإعلامه بأنه يتخذ سياسة قريش التي كان أبوه رائدها.

وكان معاوية يدرك ولا شك مدى ضعف أهليه الإسلامية. فمعروف عن أبيه أنه كان أشرس أعداء النبي (ص). وكان معاوية يعلم أن رسول الله (ص) قد لعن أباه مع غيره من طغاة قريش من شدة ما أصابه من ألم يوم أخذ بسبب قتلهم لعنه حمزة، رفيق دويه ونصيره، وتمثيلهم بجثمانه. روى ابن حساكر في تاريخ دمشق عن ابن عمر قال: «قال رسول الله (ص) يوم أحد: اللهم العن أبا سفيان. اللهم العن الحارث (بن هشام). اللهم العن صفوان بن أمية».

وأبو سفيان موصوف في القرآن بأنه من أئمة الكفر «نزلت الآية (وإن كنوا إيمانهم من بعد عهدهم وطمعوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر) في أبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد وهم الذين هموا بإخراج الرسول»⁽¹⁾

ولكن الزمان تغير. ولم يعد معاوية مضطراً خاصة بعد صفين، إلى المدارة. فالرسول (ص) توفي قبل أكثر من ربع قرن، وهناك حقائق على الأرض صنمها الخلفاء الثلاثة. ولم تعد الخصال الإيمانية ولا الشرعية الإسلامية تكفي لتحديد مصير الحكم والقيادة. وإذا كان أبو سفيان وقريش،

(1) أسباب النزول للواحدي. وكذلك روى ابن حساكر في تاريخ دمشق وفيها ذكر أبي جهل وعتبة بن ربيعة أيضاً. ومثل ذلك رواه الحاكم في المستدرج على الصحيحين.

قد فشلوا في المواجهة الطويلة الدامية مع محمد(ص) وبني هاشم والأنصار، فإن الأوان قد آن لمعاوية وقريش، أن يرقوا الصاع وينجحوا في الصراع، الدامي أيضاً، ضد عليّ وبني هاشم والأنصار.

رهان معاوية الخامس

وبالعودة إلى نشأة معاوية، فهو لم يُظهر تمايزاً عن أبيه، طوال كل تلك السنين التي أمضاها في حروبه الضارية ضد رسول الله(ص)، وبقي معه إلى النهاية، حتى أحاط بهم جيش النبي(ص) فاستسلم أبو سفيان ودخل الدين الجديد مكرهاً، ومعه ابنائه، يزيد ومعاوية وعتبة. ولذلك يمكن بالفعل مؤاخلة معاوية على جرائم أبي سفيان. فهو أصبح رجلاً ناضجاً واعيّاً، ومع ذلك استمرّ في ولائه لأبيه وسيره على نهجه (كان قد تجاوز الثلاثين عاماً من عمره عند فتح مكة). وهناك رواياتٌ عدّة حول استعمال أبي سفيان لابنه معاوية في تربيته وتحضيراته الكثيرة أثناء صراعه الطويل مع النبي(ص). فيمكن اعتبار معاوية شريكاً لأبيه في كل مواقفه.

وإذا كان مُمكناً فهمُ دوافع أبي سفيان في سعيه للمحافظة على وضعه القيادي في مكة، بحكم سنّه ومرتبته، إلّا أن إحجام معاوية، الشاب، عن اللحاق بدعوة محمد(ص)، بما تحمله من آفاق للإصلاح والتغيير، يشير إلى ولاء، غريب فعلاً، من الشاب معاوية، لتلك المنظومة البالية من القيم القرشية. كانت أمام معاوية الكثير من الفرص للانضمام إلى الدين الجديد، ولم يفعل.

ضخّى مصعب بن عمير بمجده وراثته، ووضعه في بني عبد الدار، في مكة في سبيل الرسول(ص) ودينه.

ورأى معاوية خاله، أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة⁽¹⁾، وهو يترك أباه، وقريشاً، وعزّ بني عبد شمس، لينضم إلى محمد(ص) ودينه.

(1) ويدعو أن معاوية كان يشارك أنّه رأبها في أخيها الذي انضمّ مبكراً إلى ركب محمد(ص) وترك أباه! قالت هند تهجو أخاهما أبا حذيفة:

فما شكرت أباً رَساك من صغر
حتى شيبَتْ شاباً غير محجور
الأحول الأحمم المشهورم طائره
أبهر حلقة سُرّ الناس في الدين
رؤى ذلك ابن صاكر في تاريخ دمشق (ج 70 ص 176)

رأى معاوية الكثير من الأمثلة على الشباب الساعين إلى الحقيقة، ولكنه لم يتأثر بكل ذلك.

بل إن أخته، رملة، لم تمسك بأيها، فكانت من بين المهاجرات إلى الحبشة، مع زوجها المؤمن.

إذن تمسك معاوية بأبيه حتى الرمح الأخير. وبالتالي كان من أصحاب الرهانات الخاسرة. فوجد معاوية نفسه من «الطلقاء»، وهم الذين من عليهم عدوهم، محمد(ص)، فعفا عنهم مقابل إعلانهم الخضوع والاستسلام. وهكذا انقلب الزمان على معاوية، الشريف القرشي، الذي وجد نفسه مفضولاً امام أناس كان يعتبرهم من المثالات الوضيعين! ولم يُعَد معاوية بقادر حتى أن يسامي أشخاصاً من أمثال بلال بن رباح وعمار بن ياسر، الذين أصبح لهما، بسبب سبق في الإيمان، وضعية معنوية رفيعة في منظومة الإسلام النبوي.

ولكن رسول الله(ص) اتبع سياسة تجميعية للعرب بعد الفتح العظيم. ومن هنا كان «المؤلفة قلوبهم» الذين قرر رسول الله(ص) أن يتألفهم بالمال لعله يفيد في جعلهم يعتقدون بالفعل بنبوته.

وبالإضافة إلى العطايا المالية للزعماء القرشيين، قرر النبي(ص) أن يستفيد من القدرات الشخصية للناهبين من أبنائهم، وتسخيرها في خدمة الإسلام. ومن هنا كان معاوية، الشاب الذكي اللامع، من ضمن مجموعة من أبناء زعماء قريش الذين قرر رسول الله(ص) أن يختارهم ليستفيد من مؤهلاتهم وقدراتهم العقلية والعلمية، ولكي يدمجهم بالتدرج في منظومة الإسلام. وقرر رسول الله(ص) أن يستعملهم في مراسلاته التي أصبحت كثيرة جداً، مع القبائل العديدة في أنحاء الجزيرة العربية حول الأمور المالية والإدارية.

وهكذا فإن معاوية وجد الفرصة ليكون من ضمن الذين يحتكون بالنبي(ص).

قال هشام جعيط «إن هذا الشاب، ذا الذكاء والحساسية البالغين، ما كان في استطاعه أن لا يحس، بحكم هذا القرب من الرسول، بالجابزية

والإعجاب الذين يشعر بهما كل فكر وقاد حين يجاور عقلاً رفيعاً. ولا شك أن هذا السياسي بتوجهه، قد راح يفهم، ميدانياً، الجُهدَ التوحيدى والتشيدى الكبير الذى كان يجري أمام عينيه، والبنية الداخلية لشبكات الولاء والسابقة فى الإسلام، وربما الإشعاع الروحى الذى كان يفيض من الشخصية النبوية⁽¹⁾

عقيدة معاوية⁽²⁾

ورغم ذلك، إلا أنه من المشروع التساؤل عن حقيقة عقيدة معاوية، بعد الإسلام، وإلى أن صار خليفة. فعلى الرغم من حرص معاوية، أثناء حكمه، على الالتزام بشعائر الإسلام من صلاة وصيام وحج، وإظهار التوقير لشخص الرسول (ص) ودينه، إلا أن هناك الكثير من المؤشرات والشواهد التى تدعو للشك فى حقيقة إيمان معاوية. فالمرسوم الذى أصدره الخليفة معاوية بشأن إلزام ولاته وزعماء الأمصار بشتم العائلة النبوية، ممثلة بعلي بن أبي طالب، على المنابر، لا يمكن أن يصدر من شخص مؤمن حقاً بنوة محمد (ص). فعملية الفصل التعسفى بين الرسول، وأله، لا تتفق مع النصوص الشرعية الداعية بكل صراحة إلى تعظيم آل البيت، ولا مع تاريخ الإسلام النبوى، الذى لعب فيه آل الرسول (ص) الدور الرئيسى فى حماية دعوة الإسلام، وخصوصاً فى البدايات، وتمكينها من الصمود، حتى الانتصار.

ومن الممكن أن يكون معاوية، حتى وهو خليفة المسلمين، متأثراً بعقيدة أبيه.

والأرجح أن يكون أبو سفيان من «الزنادقة» فى قريش فى الجاهلية. وهم الملحدون الذين لا يؤمنون بشيء بعد الموت والقاتلون ببقاء الدهر. وقد عده ابن حبيب فى مقدمة زنادقة قريش بالإضافة إلى عقبة بن أبي معيط والوليد بن

(1) من «الفتنة» لهشام جعيط (ص 178)

(2) مصادر هذا البحث: مسند أحمد بن حنبل (ج 1 ص 246)، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابورى (ج 3 ص 542)، كتاب المنطق فى أخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادى (ص 312)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 8 ص 22)، صحيح البخارى (ج 4 ص 55)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 6 ص 32 وج 2 ص 65 وج 5 ص 130 وج 10 ص 101).

المغيرة والمعاص بن وائل وأبي بن خلف والنضر بن الحارث⁽¹⁾ وهؤلاء لم يكونوا يدافعون عن الأصنام إلا بحكم الحماية وحفاظاً على النظام القائم في مكة الذي يضمن لهم المصالح المادية. وفي حقيقتهم لم يكونوا يؤمنون أن الأوثان تضر أو تنفع.

فأبو سفيان، كان أذكى بكثير من أن يؤمن بعبادة أصنام مصنوعة من خشب أو حجارة. وعلى الرغم من أنه كان قاد كل حروب قريش على محمد (ص) حاملاً راية الأصنام، إلا أن ذلك كله كان بهدف المحافظة على الامتيازات ونظام الهيمنة القرشي. ولم تكن صرخة النصر التي أطلقها أبو سفيان يوم أحد «أهل قبل» إلا تعبيراً عن انتصار القوى القرشية الرافضة للتغيير، الساعية للمحافظة على مكاسبها الموروثة، أكثر منها إيماناً من أعماق أبي سفيان بذلك الصنم الكبير!

وعندما انفرد معاوية بالحكم، سوف يصرّ دائماً على إبراز دور «الإرادة الإلهية» في ذلك، ويلبسها مرات مع نبوءات نبوية. كل ذلك من أجل تعزيز عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، بطريقة مشوهة، لدى الرعية المسلمين:

فهو قال إن رسول الله (ص) قال له «يا معاوية: إن تملكْتَ فأحسن»⁽²⁾

وقد روى معاوية حديثاً «مسرّحياً»، يتلخص محتواه في أن الرسول (ص) قد بشر بأن معاوية وجماعته سيظهرون على مَنْ خالفهم ا وكان دائماً يجد من عبيد المال وخدم السلاطين من يؤيد أيّ خير يرويه، ويل ويزايد عليه فيه!

فمثلاً جاء في صحيح البخاري عن معاوية:

«سمعتُ النبي (ص) يقول: لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك».

قال عمير: فقال مالك بن يخامر قال معاذ: وهم بالشأم.

فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول وهم بالشأم».

(1) كتاب المنطق في اخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي

(2) البدلية والنهاية لأبن كثير، نقلاً عن البيهقي.

والملفت للنظر هو ذلك التابع الرخيص الذي يتنطع ليضيف بهاراته إلى ما قاله سيده معاوية: وهم بالشام!



وفي حالة نادرة، أفلتت من معاوية عبارات تنم عن نوع من الاستهزاء بكلام للنبي (ص):

«... ذلك أن النعمان بن بشير الأنصاري جاء في جماعة من الأنصار إلى معاوية. فشكوا إليه فقرهم، وقالوا: لقد صلق رسول الله (ص) في قوله لنا: ستلقون بعدي أثرة. فقد لقيناكم.

قال معاوية: فماذا قال لكم؟

قالوا: قال لنا: فاصبروا حتى تردوا عليّ الحوض.

قال: فافعلوا ما أمركم به صاكنم تلاقونه غداً عند الحوض كما أخبركم. وخرّتهم ولم يعطهم شيئاً»⁽¹⁾

وفي حالة أخرى لم يتردد معاوية في مخالفة فعل بين الرسول (ص)، حتى في موضوع العبادات، البعيد عن السياسة وشؤونها. فقد روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل:

«رأيت معاوية يطوف بالبيت، عن يساره عبد الله بن عباس، وأنا أتلوهما في ظهورهما، أسمع كلامهما.

فطلق معاوية يستلم ركن الحجر. فقال له ابن عباس: إن رسول الله (ص) لم يستلم هذين الركنين!

فيقول معاوية: دعني منك يا ابن عباس! فإنه ليس منها شيء مهجور.

فطلق ابن عباس لا يزيده كلاماً وضع يده على شيء من الركنين قال له ذلك»⁽²⁾

(1) شرح نهج البلاغة لأبي الحنيد. ونقل ابن أبي الحديد أيضاً عن شيخه أبي القاسم البلخي قوله إن معاوية وعمر بن الخطاب كانا ملحقين.

(2) وكذلك روى الحاكم النيسابوري في المستدرک علی الصحیحین .

ويبدو أن قريشاً كانت تفعل ذلك قبل الإسلام، فرغب معاوية بمتابعة
ستها.

وفي أواخر عهده، وبعد أن توطدت أركان حكمه وسلطانه، عبر معاوية
لبعض أوليائه وخاصته، عن أقوال فيها كفرٌ بمحمد (ص) ونبوته. فلما نصحه
المغيرة بن شعبة بأن يصل رحم بني هاشم لأنه لم يعد لديهم شيء يخافه،
وحتى يبقى له ذكرٌ حسن، رده عليه:

«هيهات هيهات! أتى ذكرى أرجو بقاءه؟»

تملك أخو تميم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا
أن يقول قائل: أبو بكر.

ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى
هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر.

وإن ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات (أشهد أن محمداً
رسول الله)!

فأني عملي يبقى؟ وأني ذكرى يدوم بعد هذا لا أبالك؟ لا والله إلا دفناً دفناً⁽¹⁾

«وروى أحمد بن أبي طاهر في كتاب (أخبار الملوك) أن معاوية سمع
المؤذن يقول (أشهد أن لا إله إلا الله)، فقالها ثلاثاً. فقال: (أشهد أن محمداً
رسول الله) فقال: لله أبوك يا ابن عبد الله! لقد كنت عالي الهمة. ما رضى
لنفسك إلا أن يقرن اسمك باسم رب العالمين»⁽²⁾

معاوية في ظل عمر⁽³⁾

قال هشام جعيط عن سياسة أبي بكر وعمر⁽⁴⁾ «لقد أراد هذان الخلفيتان،

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

(3) مصادر هذا البحث: تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النسيري (ج 2 ص 686 وج 3
ص 826 وص 832 وص 817)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 70 ص 185-186)،
تاريخ الطبري (ج 3 ص 287 وص 165)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج 2 ص 7)،
كتاب الموطأ للإمام مالك (ج 2 ص 634).

(4) «الفننة» لهشام جعيط (ص 176-179).

بالأخص عمر، أن يُخرجوا الجيل الأموي الجديد من الظل والرداءة، من خلال تكليفه بمهام قيادية. ومثال ذلك، يزيد بن أبي سفيان، الأخ الأكبر لمعاوية، الذي شارك مشاركة فعالة وبارزة في فتح الشام، والذي عيّنه عمر والياً على هذا العصر بالذات سنة 18 هجرية، وكُلّف يزيد معاوية ببعض المسؤوليات القيادية، لا سيما الاستيلاء على قيسارية، إحدى المدن القلائل التي أخذت عنوة. بعد عدة أشهر، مات يزيد واستبدله عمر بأخيه. ولم يكن ذلك من جانب عمر مجرد اهتمام بربط الاستقرارية القرشية على نحو أفضل بالإسلام، بل كان نوعاً من إضفاء الاعتبار والتقدير عليها لأنها كانت حقاً قد تألقت وبرزت في فتح الشام، سواء كانت من أمة أم من مخزوم أم من بطون أخرى، ولأنّ شبابها كان دفع ضريبة دم في معركة اليرموك الحاسمة (15 هجرية).... لقد عرف عمر كقائد شعب، وقائد حقيقي للعرب، مع نزعة قومية، كيف يطبق استراتيجية عربية مجمعة، وكيف يمحو الردة والصراعات القديمة بين القرشيين...

وفي الشام كان ميالاً الى تعيين قرشين: أولاً من كبار الصحابة مثل أبي عبيدة، ثم رجالاً ذوي قيمة، لكن دون ماضي إسلامي مرموق. لقد كانت الشام المختبر الذي جرى فيه اختبار صديق الانصواء القرشي في الاسلام، صدق اولئك الذين كانوا قد اعتقوا الاسلام منذ أمد بعيد، كما صدق المنضويين في الساعة الأخيرة على حد سواء: من خالد بن سعيد بن العاص إلى خالد بن الوليد إلى عمرو بن العاص إلى يزيد وإلى معاوية...

وعلى هذا النحو، تفوص جلور ارتقاء معاوية في ظروف فتح الشام بالذات بقدر ما تفوص في سياسة عمر المقتنة أو المخططة. ومما سهّل ارتقاء معاوية موت أو تغيّب القرشين من أهل السابقة، بسبب الحرب، وانفتاح أمصار أخرى أمام الفتح (مصر)، والضرية القاضية التي أصابت صفوفهم من جرّاء طاعون حمّاس (17-18 هجرية). فقد مات من جرّاه خالد بن سعيد بن العاص وخالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد وسواهم، وانتقل عمرو بن العاص من فلسطين الى مصر. وبالتالي بقي معاوية، وقد نجا من كل هذا، في موقع ممتاز ليخلف شقيقه، بقدر ما كان قد أثبت قيمته

وقال مؤكداً على الدور الذي لعبه عمر بن الخطاب في إعادة تأهيل
أرستقراطية قريش بعد هزيمتها:

«كان معاوية يرتجف أمام عمر، ولم يكن في السباق المحموم على
الفنوحات الذي كان يحرك قبائل كل الجزيرة العربية، ويزرع الممالك
والامبراطوريات، ويقيم مكانها النظام الاسلامي الجديد، مكاناً للارستقراطية
القرشية والأمية إلا ما كان يمنحه عمر لها، بشكل أبوي. فعندما أظهر رجل
عظيم من رجال الحروب والاسلام، مثل خالد بن الوليد، المحب بنفسه،
نظراً للمزايه القتالية، لم يتردد عمر في ضرب عنجهيته وعزله...»

لقد فهم أبو سفيان حجم المصيبة التي أصابته بانتصار الرسول (ص)
وانصاره، وهزيمته المدوية هو وقريش كلها. وعرف أبو سفيان أن الدنيا
تغيرت ولا يمكن العودة إلى الوراء، وأن تأخره هو وقومه عن اللحاق بركب
الرسول (ص)، إلى أن دخلوه مرغمين، قد أدى إلى ضياع «الشرف» الذي
كان أبو سفيان يدعيه لنفسه، وأدى أيضاً إلى أن من يعتبرهم أقل منه «شرفاً»
قد أصبحوا ذوي الفضل الأعلى في ظل منظومة الدين الجديد الذي بناه
الرسول (ص)، وبالتالي أصبح لا أمل له هو وقومه في أي مكان في المجتمع
الجديد إلا عن طريق الانصياع لمن يعتبرهم هو دونه في «الشرف»، واتباعهم
إلى أن تحين الفرصة التي تمكنه هو وقومه من النهوض من جديد وبالتالي
الانتقام مما حصل واستعادة المكانة الضائعة.

فكان أبو سفيان نفسه، برغم عنجهيته وفخره، يصانع عمر بن الخطاب
وينافقه. فقد روى ابن شبة حادثتين يظهر فيهما أبو سفيان أقصى درجات
الطاعة والولاء لعمر:

«أتى عمر رضي الله عنه على أبي سفيان رضي الله عنه وهو يئني له، قد
أضر بالطريق.

فقال: يا أبا سفيان! انزع بناءك هذا فإنه قد أضر بالطريق.

فقال: نعم وكرامة يا أمير المؤمنين...»

وأيضا:

«خرج عمر رضي الله عنه ومعه أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه، فمروا بلبن في الطريق، فأمر أبا سفيان أن ينحيه.

فجعل ينحيه...»⁽¹⁾

وفي السنة السابعة عشرة للهجرة، كان طاعون حمواس. وذلك كان كارثة بكل المقاييس. فمات بسببه حوالي 25 ألفاً من المسلمين بالشام، ومن بينهم كل القيادة الفعلية للجيش: أبو عبيدة، معاذ بن جبل، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ويزيد بن أبي سفيان.

ونجا عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان من ذلك الطاعون الرهيب. فأمر عمرو بن العاص الناس بالتفرق في الجبال إلى أن تزول آثار الوباء، وفرّ هو بنفسه إلى مصر. واستخلف يزيد وهو في الرق الأخير أخاه معاوية على عمله - ولاية دمشق - فأقره عمر في ذلك المنصب.

فقال أبو سفيان لابنه معاوية عندما ولّاه عمر «يا بني، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة. وقد وآوك جسيماً من أمورهم فلا تخالفهم، فإنك تجري إلى أمير فتأفيس فيه، فإن بلغت أورشليم عقيبك»⁽²⁾

وقالت له أمه كما يروي ابن عساكر أيضاً «والله يا بني، إنه لقلّ ما ولدت حرّةً مثلك، وقد استنصحتك هذا الرجل فاحصل بموافقتك، أحييت ذلك أم كرهت»

وقد نفذ معاوية تعاليم أبيه وأمه، فكان شديد الطاعة والولاء لعمر بن الخطاب، حتى أن الامام علي وصفه مرة بأنه «كان أطوع لعمر من بنيه» في معرض رده على عثمان حين قال له عثمان أن عمر هو الذي استعمل معاوية.

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري .

(2) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر. وتبدل لي نبوءة أبي سفيان، الكلمة الأخيرة «فإن بلغت أورشليم عقيبك»، فتضمنت على الرواية.

ويقصد علي أن معاوية أصبح فرعوناً في ظل سياسة الخليفة عثمان الذي تركه بلا حسيب ولا رقيب يتصرف بالشام كما يشاء - بعكس عمر الذي كان يراقب عماله ويتابعهم.

وقد ذكر ابن شبة رواية توضح مدى الهلع الذي كان يجتاح معاوية من عمر بن الخطاب، والحرص الذي كان يديه على استرضائه، إلى درجة تقترب به من الذل! فعندما قدم عمر بن الخطاب إلى الشام على جمليه ... ولقيه معاوية رضي الله عنه على يرقون، فنزل. ومشى معه.

وتغافل عنه عمر رضي الله عنه.

ف قيل له: يا أمير المؤمنين: جهدت الرجل. إنه يادن.

فقال: دعه.

حتى بلغ من ذلك ما أراد. ثم أمره فركب⁽¹⁾

فمعاوية هنا يتزل، ويسير على قدميه ماشياً، خلف عمر بن الخطاب الذي هو على جمله، لمسافة طويلة جداً حتى يناله الجهد والتعب الشديد، دون أن يبدي أي اعتراض، إلى أن يتطوع أحدهم ليذكر عمر أن يراف به ويراعي بداته!

وطوال سنوات حكم عمر بن الخطاب، كانت أمه هند وأبوه أبو سفيان شديدي الحرص على الاستمرار في رعاية ولدهما، وأملهما، معاوية وإسداء النصائح المخلصة له بما يمكنه من المحافظة على منصبه المهم في ولاية دمشق. وقد بلغ حرص هند عليه إلى حد أنها لما سمعت مرة أن أبا سفيان، وكان طلقها، قد ذهب لزيارة معاوية في الشام خافت أن يتهور معاوية فيعطي أباه ما لا كثيرا فيجلب عليه غضب عمر، فلحبت إليه بسرعة، فلما رأها قادمة من بلاد بعيدة:

«... قال: ما أقدمك أي أمه؟»

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة. واليرقون هو دابة من أفر وسائل الركوب في ذلك الوقت.

قالت: النظر إليك أي بني. إنه عمرا وإنما يعمل لله. وقد أتاك أباك فخشيت أن تخرج إليه من كل شيء -وأهل ذلك هو- فلا يعلم الناس من أين أعطيت، فيؤثرك ويؤثبك عمر فلا تستقبلها أبداً...»^(١)

وهكذا فإن هنداً تحمل المشقة وعناء السفر لكي تتأكد أن ابنها الحبيب لن يرتكب زلة قد تطيح بمستقبله السياسي. وقد كان عند حسن ظنّها فلم يعط أباه سوى مائة دينار وكسوة. وفعلاً حصل ما توقعته هند، فسأل عمر أبا سفيان لدى عودته عما أعطاه معاوية، فأخبره، فلم يعلق.

ويمكن ملاحظة نوع من التساهل من طرف عمر تجاه ابني أبي سفيان، يزيد ومعاوية من بعده، فيما يتعلّق بأخلاقيهما وسلوكهما الشخصي. فمهما برع ابنا أبي سفيان في المداينة والتزلف للمخليفة وإظهار التمسك بحرفية تعليماته وأوامره، إلاّ أنه لا يمكن التصديق بأن شخصاً من طراز عمر يمكن أن يخدع أو يضلّل ببساطة. وهناك ما يكفي من الإشارات إلى أن عمر كان بالفعل يعرف أن يزيداً، ومن بعده معاوية، كانا لا يتصفان، على الصعيد الشخصي، بالزهد والورع والتعفّف الذي كان عمر يطالب به قوّاده ويحاسبهم عليه.

«بلغ عمر رضي الله عنه أن يزيد بن أبي سفيان يأكل ألوان الطعام. فقال لمولى له يقال له يرفأ: إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمني. فلما حضر عشاؤه أعلمته.

فأتاه عمر رضي الله عنه فاستأذن فأذن له. فدخل فقرب عشاءه.

فجاء بشريد لحم، فأكل عمر رضي الله عنه منها. ثم قرب شواءه فبسط يزيد يده وكفّ عمر رضي الله عنه يده.

ثم قال: الله يا يزيد بن أبي سفيان! أطعائم بعد الطعام ١٩...»

وأيضاً:

«إن عمر رضي الله عنه غزا إلى الشام وعليها يزيد بن أبي سفيان فدهاه إلى طعامه.

(١) تاريخ الطبري. ورى ذلك أيضاً ابن عساكر في تاريخ دمشق.

فإذا بيّت مستور. فوضع عمر رضي الله عنه طيلسانه ثم طفق بتلك
الستور يقطعها.

وأخذ الآخر يقول: أهوذ بالله من غضب الله وغضب أمير المؤمنين!
فقال: ويحك! أتلبس الحيطان ما لو ألبسته قوماً من الناس لسترهم من
الحمر والقرء^(١)

من هذين الاقتباسين يظهر جلياً أن عمر كان يعلم بإسراف يزيد بن أبي
سفيان في ملذات الطعام، واتخاذة الأقمشة وزخارف الحيطان. ولكن لم يُروَ
أن عمر قد طَبَّقَ أي عقاب بحقه، باستثناء اللوم والزجر.

ومن المثير مقارنة موقف عمر تجاه يزيد، بموقفه من وإلٍ آخر له كان
قد استعمله على الشام أيضاً. فعندما بلغه أن عياض بن غنم الفهري قد اتخذ
مظاهر الأبهة استدعاه إلى المدينة وعاقبه بشدة: أجبره أن يرعى ثلاثمائة شاة
لمدة شهرين كاملين! إلى درجة أن عياضاً أخذ يحاول إرسال الوسايط
لطلب ودّ عمر إلى أن سامحه، بعد أن حطّ من كبريائه.

ومن الأمثلة الأخرى على ذلك التساهل من طرف عمر تجاه معاوية ما
رواه الذهبي عن الصحابي عبادة بن الصامت الذي كان عمر بعثه إلى الشام
لتعليم الناس القرآن:

«إن عبادة أنكر على معاوية شيئاً. فقال: لا أسألك بأرض. فرحل إلى
المدينة.

قال له عمر: ما أقدمك؟

فأخبره بفعل معاوية.

فقال له: إرحل إلى مكانك. فقبح الله أرضاً لستَ فيها وأمثالك. فلا إمرة
له عليك»

(١) هذا الاقتباس وما قبله من تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري. والخبر الذي بعده
عن عياض بن غنم هو من نفس المصدر.

وهنا يكفي عمر بإعادة الصحابي إلى الشام مع استثنائه -هو وحده- من إمرة وسُلطان معاوية، دون أن يتجاوز ذلك إلى إيقاع أي عقاب بمعاوية على ما يدر منه تجاه عبادة.

وروى الإمام مالك رواية أخرى تفيد أن الصحابي أبا الدرداء قد أنكر على معاوية ممارسة نوع من الربا، عن طريق بيع الذهب بأكثر من وزنه: فقال أبو الدرداء: سمعتُ رسولَ الله (ص) ينهى عن مثل هذا، إلّا مثلاً بمثل.

فقال له معاوية: ما أرى بمثل هذا بأساً!

فقال أبو الدرداء: مَنْ يعلّمني من معاوية؟ أنا أخبره عن رسول الله (ص)، ويخبرني عن رأيه! لا أسألك بأرضي أنت بها. ثم قدم أبو الدرداء على عمر بن الخطاب. فذكر ذلك له.

فكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية: أن لا تباع ذلك، إلّا مثلاً بمثل، وزناً بوزن!

وهنا أيضاً يكفي عمر بتهيئة معاوية، ولا يتجاوز ذلك إلى اتخاذ أي إجراء بحقه.

وربما يمكن تفسير ذلك التساهل الذي أبداه عمر تجاه ابني أبي سفيان، يزيد ومعاوية، بضرورات الحكم والسياسة. فولاية الشام كانت بنظر عمر أهم ولاياته، وكانت تحتاج إلى تدبير محكم للسيطرة عليها وتثبيت مواقع المسلمين فيها. فالامبراطورية البيزنطية لم تكن قد انهضت كلياً، بل انكفأت وتراجعت بعد هزيمتها المرة على أرض الشام. ولكنها، وبمكس الامبراطورية الساسانية في إيران التي سقطت في عقر دارها، حافظت على تماسكها كدولة وبقيت قادرة على الدفاع عن نفسها إلى الشمال من سورية، بل كانت تشكل تهديداً حقيقياً ومتواصلاً للسيطرة العربية في الشام. كان الخطر الروماني موجوداً على الدوام ومثالاً أمام ناظري عمر، الذي كان يخشى من أن ينجح الرومان في لَمّ شملهم وشنّ هجوم كاسح على العرب لاسترجاع ما خسروه في بلاد الشام.

فكانَ عمرُ قرراً إعطاء الأولوية المطلقة لحسن الإدارة والكفاءة في سياسة القوات لضمان الجاهزية التامة لمواجهة الرومان، على أي اعتبار آخر. ويمكن الاستنتاج أن عمر كان حَسَنَ الرأي في الخصال الشخصية لابنَي أُمَي سفيان فيما يَتمَلِّقُ بالقُدرة على القيادة والتعامل الواقعي مع المخاطر والتحديات.

وقد عبّر عمر مرة عن ذلك حين عزل شرحبيل بن حسنة عن قيادة أحد المقاطعات التي كان ولّاهُ عليها - الأردن - في الشام وضمَّ عمله إلى معاوية:

«... وعزل شرحبيل واستعمل معاوية....»

فقال له شرحبيل: أهن سُخْطُكَ عزلتني يا أمير المؤمنين؟

قال: لا. إنك لكما أحب، ولكنني أردتُ رجلاً أقوى من رجل...»⁽¹⁾

وكانت النتيجة النهائية أن معاوية نجح في المحافظة على ثقة عمر لأكثر من أربع سنوات كاملة، إلى أن قتل عمر، دون أن يُروى أن عمر قد طبّق عليه عقاباً يماثل ما كان يفعله بغيره من العمّال. أبقاه عمر حاكماً لنصف بلاد الشام. لم يعزله، لم يقاسمه ماله، ولم يطبّق بحقه أي عقوبات تذكر.

صعود معاوية بفضل سياسة عثمان

ولما تولى عثمان بن عفان الحكم، قُتِحت أمام ناظري معاوية أنفائق هائلة لا حدود لها. فالرجل ابن عمه. والأهم من ذلك أنه حبيب قريش والمفضل لديها والمعروف بودّها وصلة رحمها. وكان معاوية يعرف من خصال عثمان وطباعه ما يجعله متأكداً أنه سيكون له ولبقيّة قومه من بني أمية نصيبٌ وافٍ من شؤون الحكم والقيادة في دولة الخلافة في كل مكان.

وبعكس عمر بن الخطاب، كان عثمان رقيقاً ودوداً، تجاه قومه بالأخص. ولم يكن لعثمان قوة شخصية عمر ولا هيته.

وعدا من ذلك، فقد كان عهد عمر بن الخطاب عهدَ الفتوحات، والجهاد، والمعارك، والتضحيات. وأما عهد عثمان فهو منطقياً سيكون عهدٌ «مضم»

(1) تاريخ الطبري

تلك الفتوحات وجني الفوائد منها، حتى وإن لم يخلُ الأمر من حروبٍ لشيت تلك الانتصارات أو توسيع حدودها.

وكان بنو أمية جاهزين تماماً للإقتضاض على كل مفاصل الدولة، وعلى رأسهم كان معاوية.

وسَّعَ عثمان صلاحيات معاوية، وزاد في ولايته وجعلها تشمل كل بلاد الشام والجزيرة، بعد أن كانت تقتصر على دمشق. وفوق ذلك، شَهِرَ عثمان أسلوب التعامل مع الوالي. فبعد أن كان عمر يحكم قبضته على كل كبيرة وصغيرة من شؤون الحكم في الولايات كلها، لجأ عثمان إلى أسلوب تفويض الصلاحيات إلى الوالي. وسواء اتخذ عثمان هذا المنحى بسبب ضعف في شخصيته، أم بسبب صعوبات موضوعية ناتجة عن بُعد المسافات وضخامة حجم الدولة، فالنتيجة واحدة وهي المزيد من اللامركزية في الإدارة والقرارات.

فتخلص معاوية، أخيراً، من شبح عمر المُهيمن، وأصبح حراً طليقاً في ولايته الضخمة والغنية. فعدا عن المبلغ السنوي الذي يرسله معاوية من خراج الشام إلى مركز الخلافة في المدينة، صار معاوية مستقلاً بالفعل فيما يختص بشؤون الجيوش والإدارة، والتجمعات العربية التي استوطنت الشام، والعلاقة مع أهل البلاد القدماء ومع دولة الرومان في الشمال.

واستغل معاوية قرابته من عثمان وصلاته العائلية به، في ترسيخ هيئته وسيطرته على مقاليد الأمور في الشام. فكان يقول لرعيته إن كل ما يأمر به ويقرره إنما هو أمر الخليفة وسياسته. ولم تكن هناك قنوات تواصل بين الخليفة في المدينة وبين الرعية في الشام، إلاّ من خلال معاوية. ويمرور الوقت، أخذ الناس في الشام يسمون أن معاوية هو فقط مَنْ يعبّر عن مؤسسة الخلافة وينطق باسمها، ويمتلك صلاحية القرار بالنيابة عنها.

أراء في سياسات معاوية

قال عنه عبد الرحمن الشراقي:

حقاً .. حقاً.. إن رجل هذا العصر هو معاوية! فهو وحده يخاطب

الأطعام ويشبعها، ويستفر الأهواء فيرضيها. ملكٌ قادرٌ قاهر، لا يفت عن شيء يخدم به هدفه، حتى القدر نفسه... وحتى سفك الدماء ونهب الأموال وانتهاك الحرمات، وسي النساء المسلمات!

... وهو يصنع كل شيء، وأي شيء، مهما يكن من شيء، للوصول إلى الغاية.... وغايته الملك..

وهو قد استقى من منبع أبي سفيان وهند، وترى على اكساب المنفعة من أي سبيل.

ووجد عصرًا سلطانه المنفعة، وهدفه المنفعة، وقانونه المنفعة، فكان بحق رجل العصر.

.... ثم إن معاوية ليصطنع لنفسه الكثيرين من رؤساء القبائل العربية: يثير فيهم العصية القبلية، والتعرات المتعصبة، ثم يفتق عليهم ويجزل لهم من العطاء بغير حق...

... ومعاوية يحسب حساب الربح والخسارة. فالحياة عند معاوية صفقات، يبرم منها ويتقضى، ويساوم، ويتنازل، ويهادن بقدر ما تدر من ربح أو تجلب من خسارة!

وقال عن نشأة معاوية:

«... نشأ معاوية في بيت أبي سفيان، رأس الكفر في الحجاز. وربته أمه هند بنت عتبة التي عرفها المسلمون باسم آكلة الأكباد...»

وترى معاوية منذ نشأ، في قصر ضخم، يملكه رجلٌ من أكبر أغنياء مكة، يعمر لياليه بالمتاع، وما من شيء ينيه إلا قتل محمد وصحبه وهدم الإسلام قبل أن يرتفع بنيانه وتتوطد أركانه!

... كلا الوالدين يملأ قلبه الضغن وطلب الثأر، وخوف ضياع المكانة، أو فقدان السكينة إذا انتصر محمد وأتباع محمد....

كان معاوية فتى مترفًا، يلبس كل يوم حلتين ثميتين، ويتحلى بالنفائس. وهو يحب الطعام الفاخر مهما يتكلف. وكان يتخير من أنواع الطيور والأحياء

المائة ما يجلب إليه من أماكن بعيدة، وعلى مائتته من الحلوى وحدها عشرة أصناف»⁽¹⁾



قال هشام جميع «سوف يميل معاوية، لأن هذا كان يوافق، إلى وضع النبي فوق الاعتبارات العشائرية والعائلية، وإلى إبراز خصوصية رسالته الاعجازية وطابعها الشخصي جداً. فالتبني للجميع. إنه ملك مشترك. فلا يستطيع أحد أن يدعي لنفسه باسم الأواصر الدموية الضيقة. لكن قرشياً بمجملها، يمكنها ادعاء ذلك، أكثر من سواها، لأنها قبيلة الله»⁽²⁾



وقال عباس محمود العقاد عن معاوية «كانت له حيلة التي كررها وأتقنها ويرع فيها واستخدمها مع خصومه في الدولة، من المسلمين وغير المسلمين. وكان قوام تلك الحيلة، العمل الدائب على التفرقة والتخفيل بين خصومه، بإلقاء الشبهات بينهم، وإثارة الإحن فيهم، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوي قرياه.

كان لا يطيق أن يرى رجلين ذوي خطر على وفاق، وكان التنافس (الفطري) بين ذوي الأخطار مما يعينه على الإيقاع بهم.

ومضى معاوية على هذه الخطة التي لا تتطلب من صاحبها حفا كبيراً من الحيلة والروية - فلما أنه استطاع أن يجعل من كل رجل في دولته حزياً منافذاً لغيره من رجال الدولة كافة لفعل»⁽³⁾

وهناك الكثير من الشواهد التي تدل على صحة تحليل العقاد. فمثلاً روى ابن هساکر⁽⁴⁾ أن معاوية كان يحاول الإيقاع بين اثنين من أقربائه وأعمدة

(1) من كتاب «علي إمام المتين» لعبد الرحمن الشرقاوي (ص 648).

(2) من «الثقفة» لهشام جميع (ص 178)

(3) من كتاب «شيخ المشيرة» لمحمود أبو رية (ص 204) نقلاً عن كتاب «معاوية في الميزان» للعقاد.

(4) تاريخ دمشق لابن هساکر (ج 21 ص 127).

حكمه، مروان بن الحكم وسعيد بن العاص. وملخص القصة أن معاوية كتب لسعيد بن العاص حين كان والياً على المدينة يقول له «بلغني أن مروان ابنتي داراً، وأنه خرج في الطريق. فإذا أتاك كتابي هذا فاهدم داره»، ولكن سعيد يبدو أنه فطن إلى مآرب معاوية فلم ينفذ. وفي العام التالي عيّن معاوية مروان والياً، ثم كتب إليه بهدم دار سعيد. وأراد مروان التنفيذ فأخرج له سعيد كتب معاوية له، والتي كان قد احتفظ بها، وأعلمه بمقصد معاوية، مما دفع مروان إلى كتابة شعر لمعاوية يلومه على ذلك.

ذكر اليعقوبي في تاريخه:

«وكان لمعاوية حلمٌ ودهاء، وجودٌ بالمال بالمطالبة....»

وقال سعيد بن العاص: سمعتُ معاوية يوماً يقول: لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني.

ولو أن بيني وبين الناس شجرة ما انقطعت أ قيل: وكيف يا أمير المؤمنين؟ قال: كانوا إذا مدّوها خلتها، وإذا خلّوها مدّتها⁽¹⁾.

وكان إذا بلغه من رجلٍ ما يكره، قطع لسانه بالأعطاء، وربما احتال عليه، فبعث به في الحروب، وقمعه.

وكان أكثر فعله المكر والحيلة⁽²⁾.



وأما في ميزان الشرعية الإسلامية، والتفاضل المبني على أساس ما بذله الرجال من تضحيات في سبيل الدين وما ورد بشأنهم من أحاديث على لسان النبي (ص)، فلم يصح بشأن معاوية أي ذكر على لسان النبي (ص) إلا حديث رواه مسلم في صحيحه، وليس فيه تشريف له أبداً:

«عن ابن عباس قال: كنت ألعب مع الصبيان، فجاء رسول الله (ص) فنواريتُ خلف باب. فجاء فخطأني خطأة، وقال: انعب وادع لي معاوية.

(1) ومن هنا راج المثل المشهور: شجرة معاوية!

(2) تاريخ اليعقوبي (ج 2 ص 238).

فجئت فقلت: هو يأكل.

ثم قال لي: اذهب فادع لي معاوية.

فجئت فقلت: هو يأكل.

فقال: لا أشبع الله بطنه⁽¹⁾

عمرو بن العاص: حليف معاوية الأول⁽²⁾

ولا يكاد يُذكر معاوية إلا ويذكر معه حليفه الأكبر والأهم: عمرو بن العاص بن وائل السهمي.

لقد شكّل معاوية وعمرو بن العاص ثنائياً متكاملًا من كل النواحي. وأثبتا فعالية حقيقية في المواجهة الكبرى ضد عليّ بن أبي طالب.

كان اجتماعهما أمراً طبيعياً. فهناك الكثير من عناصر الشبه بينهما تجعل أمر التقائهما في جهة واحدة أمراً شبه حتمي. كان عمرو بن العاص، مثل معاوية، ذا ماضي غير مشرف في المنظور الإسلامي:

(1) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب (ص 979).

وفي سيرة معاوية اللاحقة ما يؤكد شدة نهمة بالطعام. وقد روى الشيخ أبو رية في «شيخ المضيرة» (ص 226) نقلاً عن ابن كثير في البداية والنهاية أن معاوية كان يأكل في اليوم سبع أكالات بلحماً ووصف الأحف بن قيس طعام معاوية بقوله: دخلت على معاوية فقدم لي من الحار والبارد والمطر والحامض ما كثر تعجبي منه. ثم قدم لونا لم أهرق ما هو. فقلت: ما هذا؟ فقال: مصارين البط مسحوة بالبخ قد قلى بمن النفس، وذر عليه بالطرز.

ويروي في كتب التراث الكثير حول مدى نهمة معاوية، وولعه بالطعام، وعشقه لأصنافه، إلى درجة أنه قد أصيب بأحد أمراض التخمّ، فصار يخطب وهو جالس، فكان أول من خطب جالسا في الإسلام.

ويروي ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (ج 18 ص 398) نقلاً عن المدائني «كان يأكل في اليوم أربع أكالات، أضرأمن عظماءه. ثم يمشي بعدما يشربه عليها بصل كثير، وبعن كثير قد شغلها. وكان أكلة فاحشا، يأكل فيلطن منهلين أو ثلاثة قبل أن يفرغ. وكان يأكل حتى يستلقي ويقول: يا غلام: ارفع. فلأني والله ما شجيت ولكن ملكت».

(2) مصادر هذا البحث: كتاب المغازي للواقدي (ج 2 ص 201)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 6 ص 291 وج 2 ص 247 وج 1 ص 270)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج 1 ص 110)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 21 ص 11).

فقد اختارته قريش ليكون مندوبها الرئيسي عند النجاشي من أجل تسليم المسلمين الأوائل الفارين يدينهم إلى الحبشة وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب، لقريش. ولم تكن قريش لتتخيه هو بالذات لهذه المهمة الإجرامية، لولا أنه من أوثق رجالها المعروفين ببغض الرسول (ص) ومن تبعه والحرصين على رفض التغيير والدين الجديد الذي جاء به.

وعندما استعدت قريش للمسير لقتال محمد (ص) يوم أحد، بعثت أربعة من أبنائها المتحمسين لاستفزاز قبائل العرب ومن حالفهم لدعم قريش في حربها. وكان عمرو بن العاص على رأس هؤلاء المندوبين، إلى جانب هيرة بن أبي وهب، وابن الزيمري وأبي عزة الجمحي.⁽¹⁾

وقد هجا عمرو بن العاص رسول الله (ص) هجاءً كثيراً كان يعلمه صبيان مكة فيشدونه ويصيحون برسول الله (ص) إذا مر بهم رافعين أصواتهم بذلك الهجاء. فكان رسول الله (ص) يقول وهو يصلي بالحجر: اللهم إن عمرو بن العاص هجاني، ولست بشاعر، فآلمته بعدد ما هجاني.

وروى ابن أبي الحديد عن الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات عن الحسن بن علي أنه قال لابن العاص:

«وأما أنت يا ابن العاص، فإن أمرَكَ مشترك: وضعتك أمك مجهولاً من حُهر وسفاح، فتحاكَمَ فيكَ أربعة من قريش، فقلَبَ عليك جزاها، الأُمُهم حَسَباً وأخبرهم منصَباً.

ثم قام أبوك فقال: أنا شانه محمداً الأبر، فأنزَلَ الله فيه ما أنزل.

وقالت رسول الله (ص) في جميع المشاهد وهجوته وأذيته بمكة، وكِدْتُهُ كَيْدَكَ كله، وكنت من أشد الناس له تكليفاً وعداوة.

ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة، لتأتي بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة، فلما أخطأك ما رجوت ورجعت الله خالفاً، وأكذلك وأشيأ، جعلت حذك على صاحبك عمارة بن الوليد فوشيت به إلى النجاشي حسداً لما ارتكبت مع حليلاك. ففضحك الله وفضح صاحبك.

(1) كتاب المغازي للواقدي .

فانت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام.

ثم إنك تعلم وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله (ص) بسبعين بيتاً من الشعر. فقال رسول الله (ص): اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينهي لي. اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة. فعليك إذا ما لا يحصى من اللعن. وكان عمرو بن العاص أكبر سناً من معاوية. وكان أيضاً أكثر حكمة منه حين أحسن تقدير موازين القوى واتجاه الرياح، فتدارك نفسه في اللحظات الأخيرة قبل فتح مكة فذهب إلى يثرب وأشهر إسلامه أمام النبي (ص)، وبذلك تمكن من تجنب صفة «الطليق» البغيضة في المنظور الإسلامي، والتي كانت لاصقة بمعاوية الذي لم يستطع منها فكاًكاً. ولذلك كان وضعه في منظور الشرعية الإسلامية أفضل قليلاً من معاوية، خاصة وأنه استفاد من سياسة النبي (ص) المتسامحة تجاه خصومه، فقاد سرية أرسلها النبي (ص) إلى ذات السلاسل لإخضاع بعض القبائل التي كان بينها وبينه علاقة خوولة.

وفي عهد الخلفيتين أبي بكر وعمر، نال عمرو بن العاص فرصته الذهبية. فقد أحسن تقدير خصاله القيادية المميزة حقاً في ميدان الصراع الحربي والسياسي. فكان من قيادة الجيش الذي أرسله أبو بكر لفتح الشام. وأما إنجازاته الأبرز فكان في عهد عمر، حين كان قائد الحملة التي نجحت في فتح مصر.

وهذه الإنجازات الحربية المهمة أضفت نوعاً من الشرعية الإسلامية على شخصية عمرو بن العاص، وغطت، قليلاً، على ماضيه المظلم في الإسلام.

واشتهر عمرو بن العاص بلهائه الشديد في مواجهة خصومه، حتى لقد لُقّب بـ«داهية العرب». وعرف عنه فصاحته وذعته الحاضر. ولا يمكن الجدل حول صفاته القيادية الفذة، ولا حول حنكته وحسن إدارته للجيوش وللرجال. ولكن لا يمكن أبداً اعتباره فارساً مغواراً على الصعيد الشخصي. فقد كان قصير القامة ولم ترو عنه بطولات تذكر في القتال أو المبارزة.

قال عنه علي بن أبي طالب:

«صحباً لابن النابتة ...»

لقد قال باطلاً ونطقاً أثماً. أما وشتر القول الكذب، انه ليقول فيكذب،
ويعبدُ فيخلف، ويسأل فيلحف ويسأل فيخل ويخون العهد ويقطع الألف.

فلذا كان عند الحرب فأتي زاجر وأمر هو، ما لم تأخذ السيوف ما خلها.
فلذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنع القرم سبته ...

وأنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة. أنه لم يبايع معاوية حتى شترط
له أن يؤتية أتية، ويرضخ له على ترك الدين رضيخة⁽¹⁾

وقد وصفه ابن عباس وصفاً بليغاً فقال له:

«لا أراك فخرت إلا بالغدر ولا منيت إلا بالقجور والنفس.

وذكرت مشاهدك بصفين فوالله ما ثقلت علينا وطأتك ولا نكأت فينا
جراتك.

ولقد كنت فيها طويلاً للسان، قصير البنان! آخر الحرب إذا أقبلت وأولها
إذا أدبرت.

لك يمان: يد لا تقبضها عن شرويد لا تبسطها إلى خير!

ووجهان: وجه مؤنس، ووجه موحش.

ولعمري إن من باع دينه بدينيا غيره، لحرق حزنه على ما باع واشترى.

أما إن لك بيتاً ولكن فيك خلط.

وإن لك لرباً ولكن فيك فشل.

وإن أصغر عيب فيك، لأعظم عيب في غيرك⁽²⁾

وكمكافئة له على إنجازهِ بقيادته للجيش الذي فتح مصر، ثبته عمر بن

(1) نهج البلاغة بشرح محمد عبد.

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، نقلاً عن البلاذري.

الخطاب في منصب والي مصر. وربما قلَّد عمر أن الوضع في مصر غير مستقر، وتهدها مخاطر جدية من قبل الرومان، مما يتطلب رجلاً من طراز عمرو هناك.

ولكن عمرو بن العاص تعرَّض إلى نكسة في عهد عثمان بن عفان. فقد أسفر صراعاً باطنياً، طويلاً ومُضني، بين عمرو بن العاص ورجلٍ يمثله في الخلق: عبد الله بن أبي السرح، على أرض مصر، قِوائمه المكائد والشايات، عن انتصار الأخير، الذي لا شك استغلَّ علاقته الوطيدة بالخليفة، وكونه أخاه بالرضاعة. فقام عثمان بعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وتعيين ابن أبي السرح مكانه. والمرجح أن عثمان أراد حاكماً لمصر يدين له شخصياً بالولاء والطاعة، فكان ابن أبي السرح هو الحل. فابن أبي السرح يدين بحياته كلها لعثمان الذي أنقذه من حكم الإعدام الذي كان النبي (ص) قد أصدره عليه، وإخلاصه لشخص عثمان لن تشوبه شائبة.

وجد عمرو بن العاص نفسه مهتماً تماماً بعد أن عزله عثمان. وتوجد روايات كثيرة تصف مدى مشاعر السخط⁽¹⁾ على عثمان، الذي اعترى عمرو بن العاص بعد أن فقد حكم مصر. ولا شك أن ذلك صحيح. فالأحداث أثبتت أن عمرو بن العاص كان مهووساً بولاية مصر، التي يبدو أنه كان يعتبرها ملكاً شخصياً له. ولم يهدأ ابن العاص ولم يقرَّ له قرار حتى استرجع منصبه بعد بضعة سنوات، كوالي لمصر، نتيجة تحالفه الناجح مع معاوية بن أبي سفيان.

وكانت تكثفت الاتصالات بين الرجلين فور سماعهما أنباء تولي علي بن أبي طالب منصب الخلافة. فكتب عمرو بن العاص لمعاوية عما كنت صانعاً فأصنع، إذا قُسرَكَ ابن أبي طالب من كلِّ مالٍ تملكُهُ كما تَقْشُرُ عن العصا لحاماء⁽²⁾ وسرعان ما توصل الرجلان إلى تفاهم واتفاق على استراتيجية لمواجهة الخطر الداهم: حُكم علي.

(1) بل وتذهب بعض الروايات إلى حد تصوير عمرو بن العاص كمنعز على قتل عثمان!

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

وتجمع الروايات على أن الشرط الرئيسي الذي وضعه عمرو على معاوية من أجل تسخير طاقاته لحرب عليّ معه، كان استرجاع حكم مصر، بصلاحيات مطلقة. وطبعاً لم يكن لدى معاوية أيّ مانع في ذلك. فتلية هذا الشرط مرهونٌ بكسب معاوية الحرب ضد عليّ، ولو تحقق ذلك فلا ضير في منح ولاية مصر لعمرو، بل وأكثر. وكان معاوية مصيباً في تقديره مدى أهمية شخصية مثل عمرو بن العاص له في صراعه المصيري ضد الخليفة عليّ. فقد كانت بصمات ابن العاص ظاهرة في كل مراحل ذلك الصراع المرير. ومن أبرز تلك المحطات الهامة التي برزت فيها فوائده عمرو كان قرار رفع المصاحف على الرماح في صفين، ودوره في مؤتمر التحكيم، وأخيراً قيادته للجيش الذي أرسله معاوية لفتح مصر وقتل محمد بن أبي بكر.

فكان معاوية وعمرو ثنائياً لا يتفصم في كل مراحل المواجهة.

ومن شدة قربه من معاوية وملازمته له، أثار ابن العاص غيرة بني أمية على منزلته تلك. فمثلاً قال له سعيد بن العاص مرةً حين لاقاه عمرو على تفاخره على معاوية *«إذا شجيت العير نهي! ما لبني سهم وعبد شمس؟ ولكنك كالذباب على كل شئ تقع! أنا والله أحب إلى ابن حرب وأعز عليه منك»*⁽¹⁾

كانت كتلة الذكاء والدعاء التي نتجت عن اجتماع هذين العقليين المتفاهمين تصنع سياسةً جبارةً تعرف هدفها وتسير إليه بتدرج وثبات، وتحتاج في طريقها كل سياسات علي بن أبي طالب الأخلاقية والمبدئية.

الشك في تفاصيل حوارات ومفاوضات معاوية وعمرو بن العاص تروي لنا المصادر تفاصيل كثيرة جداً حول مفاوضات ومساومات معاوية وعمرو بن العاص، والشروط التي وضعها الأخير من أجل انضمامه لمعسكر معاوية. وهذه الحوارات والتقاشات كلها من وحي الخيال، لا شك عندي في ذلك.

وسوف آخذ رواية واحدة طويلة، كنموذج، وأعلق عليها فقرة فقرة .

(1) تاريخ دمشق لابن عسكـر .

روى يعقوبي في تاريخه^(١):

«ويعت معاوية من ليلته الى عمرو بن العاص أن يأتيه وكتب اليه: أما بعد: فإنه قد كان من أمر علي وطلحة والزبير وعائشة ما قد بلغك. فقد سقط اليثا مروان في رافضة أهل البصرة، وقدم علي جرير بن عبد الله في بيعة علي. وحسب نفسي عليك حتى تأتيني. فاقدم على بركة الله»

والى هنا لا مانع في قبول الرواية. فمعاوية يريد تجميع الشخصيات القرشية البارزة من حوله. ولكن بعدها تبدأ في الحديث عن نسية ابن العاص، وتردده بين الدنيا والآخرة، وتصميمه على قبض ثمن باهظ مقابل أن يبيع دينه.... الخ

«فلما انتهى الكتاب اليه دعا ابنه عبد الله ومحمدا فاستشارهما. فقال له عبد الله: ايها الشيخ! ان رسول الله قبض وهو عنك راض، ومات أبوك بكر وعمر وهما عنك راضيان، فلذلك إن تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية فتضجمان غداً في النار»

ورغم ما في ظاهر هذه الرواية من وصف لمعاوية بأنه رجل دنيا ربما يجر معه عمراً الى النار، إلا أنها تحوي في ثناياها مدحاً شديداً لابن العاص، حين تقول ان النبي (ص) مات وهو راض عنه، وكذلك خليفته!

«ثم قال لمحمد: ما ترى؟»

قال: «بادر هذا الأمر. فكن فيه رأساً قبل أن تكون ذنباً. فأنشأ يقول:

تطاول ليلى للهموم الطوارق وخوف التي تجلو وجوه العواقر

فإن ابن هند سألتني أن أزوره وتلك التي فيها بنات البواقر

أنا جرير من عليّ بخطوة أمرت عليه الميث مع كل دائق

فإن نال منه ما يؤمل رده فإن لم ينله ذلّ ذلّ المطابق

فوالله ما أدري وإني لهكذا أكون ومهما قادني فهو سائق

(١) ج ٢ ص ١٨٤-١٨٥

أأعده؟ فالخدع فيه دنية أم أعطيه من نفسي نصيحة وامق
 أم أجلس في بيتي وفي ذاك راحة شيخ يخاف الموت في كل شارق
 وقد قال عبد الله قولاً تعلقت به النفس إن لم يعتقني عرائقي
 وخالفه فيه أخوه محمد وإني لصلب العود عند الحقائق
 فلما سمع عبد الله شعره قال: يا الشيخ على عقبيه! وباع دينه بدنياه

ومن المستبعد أن يكون عبد الله قد تلفظ بهذه الكلمات الجارحة بحق
 أبيه. فلو كان حقاً أنه يعتبر أباه «شيخاً يبول على عقبيه» وأنه «باع دينه بدنياه»
 فلم إذن اتبعه وكان معه في صفين وغيرها؟ إن تبرير تلك التبعة من عبد الله
 لأبيه بمبدأ «طاعة الوالدين» لا يصح وغير مقنع، لأن من البديهيات لكل
 المسلمين أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. والروايات تقول إن عبد
 الله كان ورعاً تقياً، فكيف يطيع أباه الذي يعتبره «باع دينه»؟ فلا يبقى إلا أن
 عبد الله لم يكن رأيه بأبيه كما تصوره هذه الرواية، ولم يتلفظ بتلك العبارات
 أبداً.

«فلما أصبح دعا وردان مولاه فقال له: ارحل يا وردان. ثم قال: حطّ يا
 وردان!

فحطّ ورحل ثلاث مرات! فقال وردان: لقد خلطت أبا عبد الله. فإن
 شئت أخبرتك بما في نفسك. قال: هات!

قال: اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت: عليّ مع آخرة بلا دنيا،
 ومعاوية مع دنيا بلا آخرة، وليس في الدنيا عوض من الآخرة، فلست تدري
 أيهما تختار؟

قال: لله درك ما أخطأت مما في نفسي شيئاً، فما الرأي يا وردان؟

ولو كانت الأمور في ذهن عمرو بن العاص بهذا الوضوح، عليّ مع
 الدين والآخرة، ومعاوية مع الدنيا بلا آخرة، لما جاز له أن يتردد بينهما أبداً.
 فهو رجل عجوز في الثمانينات من عمره فما الذي يريد من دنيا معاوية؟ بل

ما الذي بقي له من الدنيا بأسرها؟ أقول ذلك لأن الرواية تصوره مؤمناً حقيقياً بالدين والآخرة.

فإما أن ابن العاص، المؤمن الحقيقي، لم يكن يرى أن علياً مع الحق وأن معاوية على باطل، وإما أنه كان يعرف ذلك بالفعل ولكنه اختار الباطل لأنه لم يكن مؤمناً حقاً.

ولا يجوز الجمع بين الحالين كما يظهر في الرواية.

قال: الرأي أن تقيم في منزلك، فإن ظهر أهل الدين عشت في صفهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغن عنك.

قال عمرو: الآن، وقد شهرتني العرب بمسيرتي إلى معاوية! ارحل يا وردان. ثم أنشأ يقول:

يا قاتل الله وردان وفطسته أبدي لعمرك ما في الصدر وردان

تقدم على معاوية، فذاكره أمره فقال له: أما علي، فوالله لا تساوي العرب بينك وبينه في شيء من الأشياء. وإن له في الحرب لحظاً ما هو لأحد من قریش، إلا أن تظلمه.

قال: صدقت. ولكننا نقاتله على ما في أيدينا، ونلزمه قتل عثمان.

قال عمرو: واسوءناه! إن أحق الناس ألا يذكر عثمان لا أنا ولا أنت!

قال: ولم ويحك؟

قال: أما أنت فضلكه ومعك أهل الشام حتى استغاث يزيد بن اسد البجلي فصار إليه. وأما أنا فتركته حياً، وهرئت إلى فلسطين.

وهنا تروج الرواية لفكرة أن معاوية تقاعس عامداً عن نصره عثمان.

فقال معاوية: دعني من هذا، ثم يدك فبايعني.

قال: لا لعمر الله! لا أعطيك ديني حتى آخذ من دنياك.

وهنا أيضاً الكلام عن إعطاء الدين وأخذ الدنيا، فأَيّ دين هذا الذي يمكن أن «يعطيه»؟ وهل من كان عنده دين يجوز أن يتنازل عنه؟

«قال له معاوية: لك مصر طعمه.

فغضب مروان بن الحكم وقال: ما لي لا أستشار؟»

وهنا يظهر التنازع على تقاسم الفنائم، ولكن هل الوقت كان مناسباً لذلك؟ إن مروان كان لتوّه قد وصل من البصرة بعد أن نجا برقبته من موت محقق مرتين: يوم الدار ويوم الجمل، فهل هو في وضع يتيح له النقاش حول تقاسم البلاد والعباد؟ اليس البقاء والحفاظ على الذات كان غاية المنى في تلك المرحلة؟

«فقال معاوية: اسكت، فإنما يستشار بك.

فقال له معاوية: يا أبا عبد الله، بت عندنا الليلة. وكره أن يفسد عليه الناس. فبات عمرو وهو يقول:

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

فإن تعطني مصرأ فأريح بصفقة أخذت بها شيخاً يضرب ويضع

وما الدين والدنيا سواء وانني لأخذ ما أعطي ورأسي مقنع

ولكني أعطيك هذا وانني لأخدع نفسي والمخادع يخدع

أعطيك أمراً فيه للملك قوة وأبقى له إن زلت النعل أخدع

وتمنعني مصرأ وليست برغبة وإن ثرى القنوع يوماً لمولع

فكتب له بمصر شرطاً، وأشهد له شهوداً، ونخم الشرط، ويأبعه عمرو،

وتعاهدا على الوفاء»

وأخيراً: لا بد من ملاحظة الركافة في الشعر المنسوب الى عمرو بن

العاص.

ركائز جبهة معاوية

أظهر معاوية مقدرة فذة على التماطي والتعامل مع تيارات وشخصيات متنوعة، ذات مآرب مختلفة، ولها مرامي ومصالح متعددة، وتجميعها لخلق

اتتلاف رهيبة يخوض به المواجهة مع علي بن أبي طالب، بكل ما له من ثقل وشرعية في الإسلام.

ونجح معاوية تماماً في الاستفادة من ذلك الخليط من البشر الذي يمكن القول أنه لا تجمعهم صلة ولا رابطة سوى كراهية علي بن أبي طالب والرهبة في إزاحته عن منصب الخلافة بأي ثمن. لقد نصب معاوية نفسه علماً مرفوحاً وعنواناً معروفاً يؤوب إليه كل من يريد معادلة علي بن أبي طالب. فما على من يكره علياً، أو يخشى منه شيئاً، أو يريد الفرار منه، سوى الذهاب إلى الشام، ليضم جهوده إلى معاوية وحزبه.

ولم تكن تلك الشخصيات التي نجح معاوية أخيراً في حشد خلفه، ترتبط معه بالضرورة برابطة الولاء والتبعية، خاصة عند بدء الصراع والمواجهة مع علي بن أبي طالب.

والرسائل التي بعث بها معاوية إلى أهل المدينة ومكة قبيل معركة صفين هي مثال بارز على دهاء معاوية وحرصه على إزالة حساسية كل من هو كارهٌ لعلي، ولكنه مترددٌ باللاحاق بمعاوية بسبب ما هو ظاهرٌ من ضعف أهليته الإسلامية:

«أما بعد، فإنه مهما غابت عنا من الأمور فلن يغيب عنا أنّ علياً قتل عثمان. والدليل على ذلك مكانُ قتلته منه. وإنما نطلب بدمه حتى يدفئوا إلينا قتلته فنقتلهم بكتاب الله. فإن دفعهم علي إلينا كففتنا عنه، وجعلناها شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب. وأما الخلافة فلست نطلبها.

فأعينونا على أمرنا هذا وانفضوا من ناحيتكم. فإن أبدينا وأيديكم إذا اجتمعت على أمر واحد، هاب علي ما هو فيه»⁽¹⁾

والإبداع الذي أظهره معاوية كان في حرصه على مخاطبة كل فئة كان يشعر أنها يمكن أن تفيده باللغة التي تناسبها، وبالمنطق الذي يطابق مصالحها واهواءها. فخطابه لكبار صحابة النبي (ص)، من أمثال سعد بن أبي وقاص،

(1) وقمة صفين لتصر بن مزاحم (ص 63).

كان يختلف تماماً عن خطابه لزعماء القبائل العربية. وكلامه مع أم المؤمنين عائشة كان بعيداً تماماً عن كلامه لقومه من بني أمية. وأسلوبه مع زعماء البطون القرشية كان مغايراً لتعامله مع أهل الأمصار أو رؤساء الأجناد.

وأقام معاوية ائتلافه القوي اعتماداً على محورين يكملان بعضهما البعض:

الجهاز السياسي / الإداري / العسكري لمعاوية: وكان يتكون من:

بني أمية / عبد شمس، من أمثال أخيه عتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعبد الله بن عامر بن كريز، ومروان بن الحكم، وأبناء عثمان بن عفان. وأضاف إلى هؤلاء، بعد اغتيال علي بن أبي طالب وانفراده بالسلطة، شخصية قيادية مهمة، وهو زياد بن أبيه، الذي عقد معه صفقة تضمنت أن يدعيه ويغير اسمه إلى زياد بن أبي سفيان.

زعماء البطون القرشية الأخرى: من أمثال عمرو بن العاص (سهم)، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد (مخزوم)، ويسر بن ارطاة (عامر بن لؤي)، وحبيب بن مسلمة (فهر)، والضحاك بن قيس (فهر).

زعماء القبائل العربية، من أمثال شرحبيل بن السمط الكندي، وأبي الأحرور السلمي⁽¹⁾، ومسلم بن عقبة المري (غطفان)، وحزمة بن مالك الهمداني.

وهذا الجهاز الإداري / العسكري كان أساس قوة معاوية ودعامة حكمه الرئيسية. وهو كان جهازاً فعالاً يمتلك خيرة جداً تراكمت خلال عهد الخلفاء الثلاثة. كان معظم، إن لم يكن كل، رجالات معاوية قد تقلدوا مناصب قيادية ولعبوا دوراً مهماً في نجاح حركة الفتوحات الكبرى، خاصة في الشام.

(1) أبو الأحرور السلمي من أهم قادة جيش معاوية كانت قد نزلت الأية فيها أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين فيه وفي أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل حين قدموا المدينة بعد أخذ. جاء ذلك في أسباب النزول للواحدي (ص 236). وربما الأصح أنها نزلت في والده سفيان بن عبد شمس السلمي الذي كان من قيادات الأحزاب التي هاجمت المدينة في غزوة الخندق.

نهم كانوا متنادين على الممارك والمواجهات والتخطيط الحربي المحكم،
وظهرت خبرتهم وقوتهم في حرب معاوية ضد الإمام عليّ.

الجهاز الدعائي / الإعلامي لمعاوية: كان يتكون من:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر

كان معاوية يقدر عالياً الدور الذي لعبته عائشة في الصراع ضد عليّ،
وخاصة في مراحله الأولى. فموقف عائشة كان هدية إلهية له. فهي التي
أشعلت فتيل أول حرب أهلية بإعلانها الحرب عليّ الخليفة عليّ، قبل معاوية!
فإذا كانت زوجة الرسول(ص)، وابنة الخليفة الأول، تشهر السيف في وجه
عليّ، فبِمَ يختلف معاوية عنها؟ هو ببساطة يتابع دريها ويقتدي بنهجها! بل إن
معاوية قد أضاف سبباً آخر لاستعماله في الأغراض الدعائية: الانتقام لكرامة
أم المؤمنين التي أهدرها عليّ يوم الجمل!

ويفضل عائشة، يستطيع معاوية أن يُعلن للمسلمين بأنه لم يكن هو
أول من سَفَكَ الدماء في قتالٍ داخلي في الإسلام. كانت عائشة هي التي
كسرت ذلك الحاجز النفسي وعَيَدَتِ الدربَ الذي سار عليه معاوية إلى
نهايته.

وإذا كان صحيحاً أن عائشة عندما أعلنت تمرداً عليّ عليّ وأشعلت
حرب الجمل لم تكن آنذاك تسعى لخدمة شخص معاوية أو تهدف إلى
جعله خليفة، إلا أن سيرة أم المؤمنين أثناء خلافة معاوية تظهر أنها قد
نوصلت إلى تفاهم معه بحيث تتمتع بوضع مميز، ومقام رفيع، وتحاط
بالتوقير البالغ والاحترام في دولة معاوية، في مقابل قبولها ودعمها
المعنوي له، وسكوتها عن انحرافات الكثيرة عن مبادئ الإسلام النبوي.
فلم يُرَ أبدأ أن عائشة غضبت أو اعترضت عليّ تولي معاوية، وهو من
الطلقاء، المنصب الأعلى في دولة الإسلام، غصباً وقهراً. لم تدعُ عائشة
المسلمين إلى معارضة معاوية، ولم تطالب بخلعها، ولم تحشد الجيوش
ضده.

بعض «الصحابية» من أمثال المغيرة بن شعبه، وسمرة بن جندب⁽¹⁾

كان معاوية محتاجاً جداً لأي شخصي يمكن أن يطلق عليه اسم «صحابي» لكي يستغله في دعايته، فيظهر أن في معسكره مَنْ صاحبوا رسول الله.

وقد وجد ضالته في المغيرة بن شعبه⁽²⁾، الداهية الانتهازية. فلأن المغيرة قد أسلم قبيل صلح الحديبية، كان بإمكان معاوية أن يقول لجماعته من أهل الشام: هذا صحابيٌّ جليلٌ القدرِ ممن عرفوا الرسول (ص)، وهو معنا وعلى نهجنا!

لم يشارك المغيرة مع معاوية في حرب صفين وبقي في الحجاز. ويبدو أن سبب ذلك كان غموض الموقف بنظر المغيرة وعدم يقينه بقدرة معاوية على الصمود في المواجهة مع عليٍّ أو الانتصار فيها.

ولكنه لما رأى الأمر قد استتب لمعاوية في آخر المطاف، شترَ عن ذراعيه واتخرط بكلّيته في جبهة معاوية. وبلغ به الولاء لسيده إلى درجة أنه كان يثابر في كل جمعة على شتم علي بن أبي طالب من على المنبر، حينما عيّنه معاوية والياً على الكوفة.

وقد أدى المغيرة دوره بكفاءة⁽³⁾.

(1) ويمكن أن يضاف أبو هريرة إلى هذين الصحابين. وقد خصصنا فصلاً عن وضعية أبي هريرة وأحاديثه في خدمة دولة معاوية عند تطرقنا إلى غزوة بدر أوطاة للمدينة المنورة بأسر معاوية سنة 40 للهجرة. فليراجع في موضعه لاحقاً.

(2) والكلام عن سلوكه الشخصي وأحرفاته يطول. ويكفي ذكر حادثة الزنا التي اتهم بهم في زمان عمر بن الخطاب، حين شهد عليه ثلاثة، أبو بكر ونافع بن الحارث وشبل بن معبد، اتهم «أزوه يولجه ويخرجه» في امرأة في البصرة، ولكن الرابع، زياد بن أبيه، أنقذه من الأعدام حين أبي أن يشهد بذلك أمام عمر. روى ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء (ج3 ص27).

(3) ويمكن بسهولة اشتتام رائحة السياسة ومآربها في كثير من الأحاديث التي رواها المغيرة بن شعبه. ومن ذلك ما رواه أحمد بن حنبل في مسنده (ج4 ص247) عن المغيرة... «وقد رأيت رسول الله (ص) صلى خلف عبد الرحمن بن عوف ركعة من صلاة الصبح... فيبدو هذا الحدث مصمماً لكي يسهّل الأمر على المتكلمين من أهل الشام ويمنهم بشرعية الصلاة خلف رجلي فاقد الشرعية كمعاوية، قال لهم إن رسول الله (ص) صلى خلف غيره من المسلمين! فإذا كان رسول الله (ص)، القائد والمعلم والمثل الأعلى، يصلي خلف رجلي من المسلمين، فلا بأس إذن من الصلاة خلف معاوية.

وكذلك كان سمره بن جندب موظفاً رخيصاً لدى معاوية، استعمله ليساهم في تثبيت حكمه في العراق أيام زياد بن أبيه. وروى ما يروق له من الأحاديث.

عيد الله بن عمر بن الخطاب⁽¹⁾

لقد أحسن معاوية بن أبي سفيان، بدعائه المشهود، الاستفادة من عيد الله بن عمر بن الخطاب حين لجأ إليه. كيف لا وهو يمثل كتراً ثميناً فهو يحمل اسم عمر بن الخطاب. وما أشد حاجة معاوية في موقفه المحارب للخليفة الشرعي إلى اسم من طراز عمر بن الخطاب.

يروى نصر بن مزاحم:

«لما قُتِلَ عيد الله بن عمر بن الخطاب على معاوية بالشام، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص:

تقال: يا عمرو! إن الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدم عيد الله بن عمر.

وقد رأيت أن أقيمه خطيباً فيشهد على عليّ بقتل عثمان. ويتال منه.

تقال: الرأي ما رأيته. فبعث إليه فأتى.

تقال له معاوية: يا ابن أخي! إن لك اسم أليك، فانظر بعلمه عينك وتكلم بكل فيك فأتت المأمون المصدق. فاصعد المنبر واشتم علياً واشهد عليه أنه قتل عثمان.

تقال: أيها الأمير! أما الشئمة، فإنه عليّ بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، فما عسى أن أقول في حسبه؟

وأما بئسه، فهو الشجاع المطرق، وأما أبياته فما قد عرفت. ولكنني مُلزمه دم عثمان.

وكذلك روى المغيرة حديث «الضحاح» المشهور والذي يؤكد فيه أن مصير أبي طالب، والد علي، هو نار جهنم.

(1) وعيد الله هذا عنده خشية قديمة من عليّ بن أبي طالب تعود إلى يوم اختيال أبيه عمر عندما قام بقتل الهرمزان وابنة الصغيرة انتقاماً منه لأبيه وبدون أدلة بل بالشبهة فقط. فكان رأي عليّ أن يعاقب بالاعدام ولكن الخليفة عثمان حفى عنه.

فقال عمرو بن العاص: *إذا والله قد نكأت القرحة*⁽¹⁾

النعمان بن بشير الأنصاري⁽²⁾

كان معاوية بحاجة ماسة إلى أشخاص من أوساط الأنصار في صفوفه. وكان النعمان جاهزاً ليلعب ذلك الدور الذي قدره معاوية عالياً، فعينه في مناصب قيادية.

فالنعمان بن بشير ورث عن أبيه الولاء لقريش. فأبوه كان أول من شق الصف الأنصاري يوم السقيفة فبايع المهاجرين. ويبدو أنه قدر أنه من الأفضل أن لا يعاكس التيار الغالب، وأن التبعية لقريش ستعود عليه بالفوائد، وذلك أنفع من تحديها بلا طائل.

فالنعمان بكل بساطة قلبٍ ولاء أبيه لقريش عامة إلى ولاءٍ شديد لبني أمية خاصة، إلى درجة دفعت معاوية لتعيينه في منصب والي الكوفة في فترة معينة⁽³⁾، وهو منصب حساس جداً في دولة بني أمية، لأنه يتطلب والياً بمواصفات خاصة جداً لقمع أنصار عليّ الكثيرين في عاصمة حكمه.

واستمر النعمان في إظهار طاعته العمياء، وإخلاقه الشديد لبني أمية، حتى في عهد ما بعد معاوية. فمثلاً روى خليفة بن غياط أن يزيد بن معاوية، سنة 63 للهجرة، قد بعث النعمان بن بشير رسالاً له إلى ابن الزبير في مكة يدعوه إلى بيعة يزيد! وأن ابن الزبير قد أجابه بأنه لن يبايع رجلاً يشرب الخمر، ويدع الصلاة، ويشيع الصيد⁽⁴⁾

واستفاد معاوية أيضاً من تيار الاعتزال الذي من أبرز رموزه:

سعد بن أبي وقاص

كان معاوية يحاول أن يظهر لعامة أهل الشام أن حربه مشروعة ولذلك

(1) وقعة صفين لتصر بن مزاحم (ص 83).

(2) ورد في تاريخ ابن معين برواية الدوري (ج 1 ص 170): قال يحيى بن معين: *أهل المدينة يقولون: لم يسمع النعمان بن بشير من النبي صلى الله عليه وسلم. وإنما يروي أحاديث النعمان من النبي صلى الله عليه وسلم الكوفيون والشاميون*

(3) التاريخ الصغير للبخاري (ج 1 ص 134 و ص 140).

(4) تاريخ خليفة بن غياط (ص 193).

كان يبذل أقصى الجهد لحشد أية أسماء لها ماضي معين في الإسلام في صفه، لعلها تعطيه بعض الشرعية في موازنة ما يمثلته عليّ من ثقل عظيم في الإسلام. وحتى لو لم تكن بعض الشخصيات في صفه ولم يصدر منها أي تأييد مباشر له، فقد كان يحاول أن يظهرها وكأنها ضمناً معه في حربه لعلّي.

وكان معاوية حريصاً على معاولة استمالة كل من يمكن أن يكون ذا فائدة على الصعيد الدعائي في حربه ضد عليّ. ولذلك كتب إلى سعد بن أبي وقاص:

«إن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش، الذين أثبتوا حقه، واختاروه على غيره.

وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكان في الأمر، ونظيرك في الإسلام. ونصت لذلك أم المؤمنين.

ولا تكرهن ما رضوا، ولا تردن ما قبلوا»⁽¹⁾

وهنا يظهر معاوية منسجماً مع نفسه في منهجه. فكما استفاد من عيب الله بن عمر، الذي يحمل اسم أبيه، في حملته الدعائية، يحاول الآن الاستفادة من سعد الذي يعتبر من الصحابة الكبار، وأحد الستة الذين رشحهم عمر للخلافة. وفي مواجهة البون الشاسع الذي يفصله عن عليّ في مجال الأهلية الدينية والشرعية الإسلامية، كان معاوية يحاول تجميع أكبر قدر ممكن من الخصوم لعلّي، وبما حبذا لو كان هؤلاء الخصوم ذوي ماضٍ في الإسلام، يعوّض قليلاً عن مكانة معاوية الناقصة في دين محمد(ص). كان يكفي معاوية أن يكون هؤلاء خصوماً لعلّي، وليس شرطاً أن يكونوا من تابعيه وأشياعه. لأنه في النهاية فإن كل من وقف على الحياد كان يصب في مصلحة معاوية. فالحياد يعني بالضرورة نوعاً من المساواة الأخلاقية بين الطرفين المتنازعين. ولذلك لم يتأثر معاوية كثيراً عندما رفض سعد طلبه وأصر على منهجه الداعي «لاعتزال الفتنة».

(1) تاريخ اليعقوبي (ج 2 ص 187).

فمعاوية يكفني من سعد بما كان يرويه ويذيعه بين المسلمين:
 فأشهد أن رسول الله (ص) قال: إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من
 القائم. والقائم خير من الماشي. والماشي خير من الساعي.
 قال: أرايت إن دخل على بيتي وسط يده إني ليقطنني. قال: تجن كاهن
 آدم⁽¹⁾

وسوف يعبر سعد بن أبي وقاص، بعد فوات الأوان، عن استيائه من مال
 الأمر إلى معاوية وتحولَه إلى ملكٍ وراني للأموين دون غيرهم من بطون
 قریش:

ودخل إليه سعد بن مالك فقال: السلام عليك أيها الملك!
 فغضب معاوية فقال: ألا قلت السلام عليك يا أمير المؤمنين؟
 قال: ذلك إن كنا أمرناك. إنما أنت مُستَر⁽²⁾

أبو موسى الأشعري:

كان الدور الشيطاني⁽³⁾ الذي لعبه أبو موسى تجاه عليّ وحكمه ودعوته في
 الكوفة ذا فائدة عملية كبيرة لمعاوية وحزبه. ورغم أن أبا موسى لم يكن يدين
 بالولاء الشخصي لمعاوية، بل ربما كان يزدريه ويعتبره ناقص الأهلية والشرعية
 الإسلامية، إلا أن إصراره الشديد على نشر فكر «اعتزال الفتنة» بين المسلمين،
 وبالتحديد من أهل العراق، كان أيضاً مفيداً جداً لمعاوية، لأن دعوة أبي موسى
 هذه تعني إعلان المساواة الأخلاقية بين الطرفين المتصارعين، وذلك ما كان
 يطمح له معاوية ويسعى إليه.

وأخيراً جاء الدور المشبوه الذي اضطلع به أبو موسى في مؤتمر
 التحكيم، وفشله بالدفاع عن صحة موقف الخليفة عليّ، بل وخيائته له وقيامه
 بخلعها علناً، ليكمل مسلسل المواقف السلبية، بل العدائية، لأبي موسى تجاه

(1) سنن الترمذي (ج 3 ص 329).

(2) تاريخ الخلفاء (ج 2 ص 217).

(3) تفاصيل دوره الشيطاني أوردناها في سياق كلامنا عن حرب الجمل، وتفاصيل دوره في
 قضية التحكيم ستأتي لاحقاً عندما نصل إلى مرحلة ما بعد صفين.

عليّ. وتجدر الإشارة إلى أن معاوية استند إلى مهزلة مؤتمر التحكيم وموقف أبي موسى فيه في إعلان طموحه المعلن لمصنّب الخلافة. فأهل الشام بايعوا معاوية بالخلافة فقط بعد مؤتمر التحكيم، وقبل ذلك كانوا ينادونه بـ«الأمير» وأصبح «أمير المؤمنين» بعد أن أعلن معاوية لهم إن مندوب العراق، أبا موسى، قد خلع علياً بينما ثبته مندوبه، وبالتالي فالتحكيم قد انتهى لصالحه! وبقي معاوية يذكر أبا موسى بالخير، تقديرًا للدور الذي لعبه خلال مجرى صراعه مع عليّ، حتى أنه لم ينس أن يوصي ابنه يزيد بأن يحسن لابن أبي موسى، ويدعى أبا بردة، فقال له:

«إن وليت من أمر المسلمين شيئاً فاستوصى بهذا، فإنّ أباه كان أخاً لي (أو خليلاً أو نحو هذا من القول)، غير أنني رأيت في القتال ما لم يَرَ»

وقد ذكر أبو موسى نفسه مرة أن معاوية كان شديد الإكرام له، فقال عنه:

«... فلما وليّ أتيته فلم يفلق دوني باب، ولم تكن لي حاجة إلاّ تفضيت»⁽¹⁾

عبد الله بن عمر بن الخطاب:

فابن عمر، الذي قرر «اعتزال الفتنة» وبالتالي نأى بنفسه عن الطرفين، وكان قد أصر على رفض مبايعة علي بن أبي طالب، مساوياً بينه وبين معاوية من ناحية أخلاقية، لم يتردد وهو في أواخر عمره، شيخاً طاعناً في السن، في مبايعة وجل من أمثال عبد الملك بن مروان!

فقد روى البخاري أن عبد الله بن عمر كتب إلى عبد الملك بن مروان: «إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت، وإن بني قد أقرّوا بذلك»⁽²⁾

وكان قبل ذلك قد بايع يزيد بن معاوية! وتشدّد في الوفاء ببيعته، كونه إماماً شرعياً فابن عمر لا يرى في مخالفة طاغية كيزيد إلاّ غدرًا!

«لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر حشمه وولده

(1) هذا الاقتباس وما قبله من الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 4 ص 112).

(2) صحيح البخاري (ج 8 ص 123).

فقال: إني سمعت النبي (ص) يقول: ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة. ولنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله. وإني لا أعلم غدرًا أعظم من أن يبيع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال. وإني لا أعلم أحدًا منكم خلعه ولا تابع في هذا الأمر، إلا كانت الفيل بيني وبينه⁽¹⁾

ومن البديهي أن يكون شخص بهذه المواصفات مناسباً جداً لاستعمالات معاوية. فلم تكن المشاعر الداخلية في نفس ابن عمر، ومدى اقتناعه بأهلية معاوية لمنصب الخلافة، تهم معاوية على الإطلاق. فقط ما كان يهمه هو أن يرى الناس شخصاً يحمل اسم عمر بن الخطاب يبايعه، وبإخلاص، بينما رفض بيعة علي بن أبي طالب!

ولا بد من الإشارة إلى أن نزعة ابن عمر لمهادنة الحكام وطاعتهم، وترويعه لهذه الفلسفة تحت مسمى اجتناب الفتن بين المسلمين، لم يطبقها في حالة علي بن أبي طالب بالذات. فهو أظهر شجاعة وثقة بالنفس - ولعلها ليست ثقة بالنفس بقدر ما هي معرفة بخصال الإمام علي الإسلامية وسماحته، بخلاف الآخرين من جبايرة بني أمية - دفعته إلى إبلاغ علي أنه لن يبايعه. ولكن ابن عمر لم يفعل ذات الشيء مع معاوية ولا مع يزيد ولا مع عبد الملك، فبايعهم.

ولما امتنع وأبى، لم يرغمه علي على البيعة.

فلم يكتب بذلك، بل أخذ يشيع بين الناس ما يفيد أن علياً إنما هو رجل من عامة الناس، فلا يمتاز بشيء، ولا يسمو إلى مستوى الخلفاء الثلاثة! فهو قد روى:

«كان رسول الله (ص) ولا يعدل به أحد.

ثم تقول: خير الناس أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان.

ثم لا تفاضل

(1) صحيح البخاري كتاب الفتن (ج 9 ص 72). وهكذا سرى الناس أن الصحابي عبد الله بن عمر قد بايع كلاماً من: معاوية ويزيد وعبد الملك، بينما رفض مبايعة علي!

قال: فيبلغ ذلك النبي (ص)، فلا ينكره.⁽¹⁾

وهذا الكلام، والممارسة، يدل على منهج عدائي، مقصود وثابت، من ابن عمر تجاه عليّ بن أبي طالب بالذات.



وهكذا اكتملت عناصر ماكينة معاوية الرهيبة: جهاز إداري وعسكري خبير وفعال، وجهاز دعائي وإعلامي قوي.

(1) تاريخ دمشق لابن عسّكر (ج 39 ص 166).

الفصل الثاني: الطريق الى صفين

بدء عهد عليّ: عزل معاوية عن ولاية الشام⁽¹⁾

كان أول قرار للخليفة علي هو عزل معاوية من منصبه. ولم يستمع لمن اقترحوا عليه التريث في ذلك. روى البلاذري:

«قال عليّ لعبد الله بن عباس: سير إلى الشام فقد بعثتك إليها.

فقال ابن عباس: ما هذا يرأي! معاوية ابن عم عثمان وعامله، والناس بالشام معه وفي طاعته، ولست آمن أن يقتلني بعثمان على الظنة. فإن لم يقتلني تحكم عليّ وحسبي. ولكن اكتب إليه فمته وحيدته، فإن استقام لك الأمر بعثني إن أردت»⁽²⁾

ولكن علياً رفض أن يبعث معاوية ويمنيه، وقال «لا والله! لا كان هذا أبداً»⁽³⁾

وفي رواية ابن عساکر عن الكلبي ان علياً قال «قد كان المغيرة بن شعبه اشارة عليّ وأنا بالمدينة أن استعمل معاوية على الشام فأبيت ذلك ولم يكن الله ليراني أن اتخذ المسلمين عضداً»

(1) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص10)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص139)، الإمامة والسياسة لابن كثير (ج1 ص174)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج2 ص278)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج2 ص197 - 201)، تاريخ دمشق لابن عساکر (ج59 ص131).

(2) أنساب الأشراف، من طريق أبي مخنف.

(3) سير أعلام النبلاء للذهبي

وسوف يبقى موقف عليّ المبدايّ هذا، منهاجاً ثابتاً لا يتغير مهما كانت الظروف، وبغض النظر عن عظم العواقب، أو حسابات الربح والخسارة. وبعد معركة صفين، وحين كان عليّ يبذل جهداً عظيماً من أجل إعادة تجميع أهل العراق وتحشيدهم للسير إلى الشام مرة أخرى، وكان بحاجة إلى تأييد كل من له تأثير على عموم الناس، سيرفض أيضاً التنازل عن مبادئه قيد أنملة: «ثم قام رجالٌ من أصحاب عليّ فقالوا: يا أمير المؤمنين! أعطِ هؤلاء هذه الأموال، وفصل هؤلاء الأشراف من العرب وقرّش من الموالي، ممن يتخوف خلافه على الناس ورفاقه. وإنما قالوا له: هذا الذي كان معاوية يصنعه بمن أتاه. وإنما عامة الناس همهم الدنيا ولها يسمون، وفيها يكسحون. فأعطِ هؤلاء الأشراف، فإذا استقام لك ما تريد حدثت إلى أحسن ما كنت عليه من القسم.

فقال عليّ: أناأمروني أن اطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من الإسلام؟

فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم!

والله لو كان لهم مالٌ لَسَوَّيْتُ بينهم، فكيف وإنما هي أموالكم»⁽¹⁾

إن هذا الرجل البسيط من أنصار عليّ أراد أن يساعد إمامه عن طريق اقتراح فكرة «ذكية» بنظره: أن يُداهنَ عليّ ويَجاوِلَ في سياسته، إلى أن يستتب له الأمر، ثم يعود إلى العدل بعدها! ولكن غاب عنه أن علياً يعتبر الحق كلاً لا يتجزأ وأنه لا يمكن له أن يظلمَ قليلاً ويعدّل أكثر، لأن ذلك تقيض معننه ورسالته.

كان الامام عليّ يعرف أن طريق الحق باهظة التكاليف وأن التمسك بالمبادئ قد يؤدي إلى خسائر دنيوية فادحة ولكن رغم ذلك فهو إمامٌ هديّ ولا يساوم. قال «والله ما معاوية بأدعي منّي، ولكنّه يغدر ويغدر. ولولا كراهية الغدر لكنّت من أدعي الناس. ولكن لكل غدره فجرة، وكل فجرة كفره.

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة

ولكل غادر لواءٌ يُعرف به يوم القيامة. والله ما استغفل بالمكيبة، ولا استغمر بالشديدة»⁽¹⁾

قال ابن أبي الحديد «أكثُ الأسباب في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمر المال. فإنه لم يكن يفضل شرفاً على مشرف، ولا عربياً على عجمي. ولا يُصانَع الرؤساء وأمرأة القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحداً إلى نفسه. وكان معاوية بخلاف ذلك، فترك الناس علياً والتحقوا بمعاوية.

.... إن امرأتين أتتا علياً عليه السلام، إحداهما من العرب والأخرى من الموالي. فسألته، فدفع إليهما دراهم وطعاماً بالسواء.

فقال: إحداهما: إني امرأة من العرب، وهذه من العجم!

فقال: إني والله لا أجد في هذا الفسق فضلاً على بني اسحاق»⁽²⁾

وهكذا قرر عليّ تجلير المواجهة: لن يكون هناك حلّ وسط مع رجال عهد عثمان، وأبرزهم معاوية. وما على هؤلاء سوى الرحيل! وسوف يسير عليّ إلى هدفه بطريق مستقيم، مهما تكن المواقف.

قميص عثمان⁽³⁾

روى ابن قتيبة في الامامة والسياسة:

«ركبت نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية تصف دخور القوم على عثمان، وأدخله المصحف ليحرم به، وما صنع محمد بن أبي بكر. وأرسلت بقميص عثمان مضرجاً بالدم ممزقاً، وبالمخصلة التي نفضها الرجل المصري من لحيته، فعقدت الشعر في زر القميص. ثم دعت النعمان بن بشير الأنصاري فبته إلى معاوية»

(1) نهج البلاغة، بشرح محمد عابد

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، نقلاً عن المجلد الثاني والمجلد الثاني.

(3) مصادر هذا البحث: الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 64 وص 100)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 59 ص 117 وص 122)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج 3 ص 139 وج 2 ص 536)، الأعيان الطوال للدينوري (ص 142)، انساب الاشراف للبلذري (ج 3 ص 76)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 255)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 561).

وروى ابن كثير في البداية والنهاية فخرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين حاجفت عنه بيدها فقطعت مع بعض الكف. فورد به على معاوية بالشام فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلق الأصابع في كم القميص، وزدب الناس إلى الأخذ بهذا الثأر والدم وصاحبه. فتباكى الناس حول المنبر، وجعل القميص يرفع نارة ويوضع نارة»

وقد ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق روايتين⁽¹⁾ حول قميص عثمان: الأولى عن أبي سبرة تقول أن زوجته نائلة بنت الفرافصة هي التي أرسلت لمعاوية بالشام قميص عثمان الملطخ بالدم مع رسالة تصف له فيها ما جرى له وأن معاوية قد أطاف بالقميص على أجناد الشام وحرصهم على الطلب بدمه فبايعوه على ذلك. والثانية تقول إن أم حبيبة بنت أبي سفيان قد أخذت قميص عثمان من اهله وأرسلته مع خصلة الشعر التي تنفت من لحية إلى معاوية مع النعمان بن بشير، فشر معاوية القميص على المنبر وباعه الشاميون على الطلب بدمه.

وروى البلاذري في انساب الاشراف ان ام حبيبة ارسلت بالقميص الملطخ بالدماء الى معاوية «فأخذه ابو مسلم الخولاني من معاوية فكان يطوف به في الشام في الاجناد ويحرض الناس على قتلة عثمان»

وفي رواية الامامة والسياسة:

«فصعد المنبر معاوية بالشام، وجتمع الناس ونشر عليهم القميص. وذكر ما صنع بعثمان، فبكى الناس وشهقوا، حتى كادت نفوسهم أن تزهد.

ثم دعاهم إلى الطلب بدمه. فقام إليه أهل الشام فقالوا: هو ابن عمك وأنت وليه، ونحن الطالبون بمك بدمه»⁽²⁾

(1) وروى القمحي في سير اعلام النبلاء نفس الروايتين اللتين رواهما ابن عساكر (الأولى عن الواقدي، والثانية عن الشعبي).

(2) الإمامة والسياسة لابن قتيبة

وروى الطبري «وضع معاوية القميص على المنبر وكتب بالخبر الى
الاجناد وثاب اليه الناس ويكوا سته وهو على المنبر والاصابع معلقة فيه»

وقد وصف أحدهم مدى الشحن النفسي الذي مارسه معاوية في الشام
على النحو التالي «إني قد خلفت بالشام خمسين ألف شيخ، غاضبي لحاهم
بدموح أهيتهم، تحت قميص عثمان، واقميه على أطراف الرماح. قد عاملوا
الله ألا يسموا سيوفهم حتى يقتلوا نكته، أو تلتحق أرواحهم بالله»⁽¹⁾

وربما تكون هناك مبالغة في هذا الوصف. ولكن لا شك أن رجالاً
كمعاوية ما كان له أن لا يستغل، إلى أقصى حد، قميص عثمان الملطخ
بالدماء. وعامة الناس في الشام لا بد لهم أن يتأثروا بذلك المنظر وبما يسمعه
من كلام عن قتل الخليفة، الشيخ الكبير، الصائم، المظلوم، نبياً على أيدي
عصابة من الغرغاء.

ووصف الذهبي في سير اعلام النبلاء، مشهداً مثيراً على لسان مندوب
عليّ جريّر بن عبد الله عندما وصل الى الشام حاملاً رسالة علي. قال، «فانك
هو (معاوية) يخطب والناس يكون حول قميص عثمان وهو معلق على رمح»
ولكن من المرجح أن تكون ذروة الشحن النفسي الذي مارسه معاوية
لرجالہ بشأن مقتل عثمان قد تأخرت إلى بضعة أشهر من مقتل، حين اتضحت
الصورة أكثر لمعاوية، خاصة مع التطورات في البصرة وبده استعداده لمعركة
صفين.

معاوية يهيئ المجتمع الشامي⁽²⁾

كان عامة أهل الشام جزءاً مهماً من المجتمع العربي الواسع المتشر
حديثاً في الأمصار التي تم فتحها. وكان المجتمع الشامي - على خلاف ما
تحاول بعض المصادر التاريخية أن تصوّره بمظهر القوم الجفاة الذين لا حسّ

(1) الأعيان الطوال للدينوري

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 59 ص 134-135 وص 130)،
وقعة صفين لتصر بن مزاحم المقرئ (ص 46 وص 49-50)، الأعيان الطوال
للدينوري (ص 160)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج 2 ص 509 و 518).

دينيا لهم ولا يعرفون سوى طاعة معاوية العمياء- يمتلك الخصائص العامة للمجتمع المسلم. لا شك أنه كان بينهم من يمكن أن يُسموا «القراء»⁽¹⁾ الذين تميزوا بتدينهم وبتعلقهم برموز الإسلام وحرفية نصوص القرآن. وهؤلاء ينظرون «قراء» الكوفة المشهورين، مع الاختلاف في العدد وفي القدرة على التأثير. وهؤلاء «القراء» كانوا مصدراً مهماً «للشرعية» وخاصة على الصعيد الشعبي بين العامة. وكان معاوية حريصاً على تقديم تبرير «شرعي» لتمرده على عليّ، مهما بدا ذلك التبرير سطحياً أو كاذباً، ولم يكتفِ فقط بممارسة سياسة القوة.

ويادر معاوية إلى التهيئة الشعبية الواسعة لحربه المقبلة ضد الخليفة الشرعي. فتشاور معاوية مع عمرو بن العاص حينما قدم جرير بن عبد الله من عند عليّ طالباً منه البيعة، فأشار عليه عمرو بأن يبذل جهده لشراء ذمة شرحبيل بن السمط الكندي وأن يتجنب في هذه المرحلة المبكرة الدعوة العلانية لأهل الشام إلى رد بيعة عليّ لأن الوقت لذلك لم يحن بعد:

«ورأى الشام شرحبيل بن السمط الكندي، وهو عدو لجرير المرسل إليك. فأرسل إليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس أن علياً قتل عثمان، وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل، فلأنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب. وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء أبداً»

وكانت نصيحة عمرو في غاية الذكاء. فشرحبيل شيخ القبائل اليمانية في الشام، وهو يعرف أن له تأثيراً كبيراً على عامة الناس ولا بد من كسبه بأي وسيلة.

وبالفعل بدأ معاوية في تنفيذ خطة شراء شرحبيل والهيمنة عليه. فأرسل إليه يستدعيه من حمص «لأمر جليل». وفي نفس الوقت طلب معاوية من مجموعة من أتباعه المقربين، الذين هم من رؤساء القبائل اليمانية وأبناء عمومة شرحبيل، أن يلقوه في الطريق ويخبروه أن علياً قتل عثمان.

(1) روى ابن عساکر أن رجلاً معاوية، شرحبيل بن السمط الكندي، التاء دوراته على مدن الشام محرّضاً الناس للنهوض مع معاوية «فأجاباه أهل حمص ألا نفر من نساكهم وقرالهم فإنه أبوا ولزموا بيوتهم»

فلما وصله كتاب معاوية، استشار شرحبيل أهل حمص في الأمر. وحصل بينهم نقاش وأخذ ورد. فنصحه بعضهم، وخاصة عبد الرحمن بن غنم الأزدي «وكان أئمة أهل الشام»، بأن ينأى بنفسه ويقومه عن حرب عليّ لأنه الخليفة الشرعي «وقد بايعه المهاجرون والأنصار» وطلب منه ألا يسير إلى معاوية وأن يجنب قومه الهلاك، بل وطرح عليه فكرة أن يلحظ إلى عليّ فيبايعه باسم أهل الشام⁽¹⁾

وهذا الموقف يشير إلى أنه كانت في مجتمع أهل الشام شرائع وفتات يمكن لعليّ بن أبي طالب أن يركّز عليها ويستهدفها، فيستيلها عن طريق مخاطبتها مباشرة، وتجاوز معاوية. ولكن علياً لم يفعل، ولم يرغب في أساليب ملتوية لاستقطاب أناسٍ بعينهم.

ولكن شرحبيل لم يكن ليتخذ هكذا قرار دون أن يقابل معاوية ويسمع ما عنده. فقرر التوجه إلى دمشق، حيث وجد معاوية بانتظاره وقد جهّز له كل مظاهر التوقير والتعظيم وأظهر له وداعة ورقة ليس لها نظير، حتى صوّر له نفسه وكأنه السيد ومعاوية التابع:

قال نصر بن مزاحم لما قدم شرحبيل على معاوية تلقاه الناس فأعظموه. ودخل على معاوية، فتكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا شرحبيل! إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة عليّ. وعليّ خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان. وقد حبست نفسي عليك. وإنما أنا رجل من أهل الشام. أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا»

ولا بدّ من ملاحظة مدى الدهاء في خطاب معاوية. فهو في هذه المرحلة لا يطرح نفسه ندّاً لعليّ، وإنما هو «رجل من أهل الشام»!

وكان معاوية طبعاً يعرف أن أي زعيم عشائري يوضع في هكذا موقف، لا بدّ له أن يرجع إلى قومه ليشاورهم. وكان معاوية قد أعد العدة لذلك عن

(1) وقد أخرج ابن عساکر في تاريخ دمشق هذا الخبر عن الكلبي، ولكن دون الجزء الأخير الذي فيه اقتراح عبد الرحمن بن غنم بمبايعة عليّ.

طريق عملاته من أقرباء شرحبيل الذين سيرجع إليهم للتشاور. وفعلًا قام شرحبيل يشاور عشيرته في الأمر^(١). وأدى عملاء معاوية من أقربائه دورهم على أكمل وجه! فهزّلوا الأمر - مقتل عثمان - على شرحبيل وأظهروا له ضرورة حرب عليّ وقتله عثمان، إلى درجة جعلت شرحبيل يعود إلى معاوية مطالباً بإياه بحرب أهل العراق! وهكذا نجحت خطة معاوية وعمره. وانعكست الآية فبدا وكأنّ معاوية فقط يستجيب لضغط شرحبيل وأهل الشام! نتابع نص نصر:

«فخرج فلقيه هؤلاء النفر الموطؤون له، فكلهم يخبره أن علياً قتل عثمان بن عفان. فخرج مغضباً إلى معاوية فقال: يا معاوية: أيّ الناس إلّا أن علياً قتل عثمان. ووالله لئن يابعت له لنخرجنك من الشام أو لنقتلنك! قال معاوية: ما كنت لأخالف عليكم. وما أنا إلّا رجل من أهل الشام. قال: قرّ هذا الرجل إلى صاحبه إذاً. قال: فعرف معاوية أن شرحبيل قد تفذت بصيرته في حرب أهل العراق. وأن الشام كله مع شرحبيل»

ويروي نصر بن مزاحم أن معاوية بعدما ضمن تأييد شرحبيل بن السمط الكندي قال له:

«... فير في ملائكت الشام ونادر فيهم بأن علياً قتل عثمان، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه.

فسار فبدأ بأهل حمص، فقام خطيباً، وكان مأموراً في أهل الشام ناسكاً مثأله. فقال: يا أيها الناس! إن علياً قتل عثمان بن عفان. وقد غضب له قوم فقتلهم؛ وهزم الجميع وغلب على الأرض فلم يبق إلّا الشام. وهو واضح سيفه على عاتقه، ثم خالف به غمار الموت، حتى يأتيكم أو يحدث الله أمراً. ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية، فجدّوا وانهضوا.

(١) وفي رواية ابن أعمش أن الناس الذين شاورهم شرحبيل كانوا من «رؤوس أهل الشام» من أمثال حابس بن عبد سعد الطائي وأبي الأعمود السلمي ويزيد بن أسد والحسين بن نمير وذي الكلال الحميري، وأن معاوية كان طلب منهم أن يساعدوه في انتاع شرحبيل فوافقوا وشهدوا أن علياً هو القاتل فانتع شرحبيل بذلك شهيداً عند المفلول أن علياً قتل الخليفة ظلماً»

فأجاباه الناس إلا نساك أهل حمص، فإنهم قاموا عليه فقالوا: بيوتنا قبورنا
ومساجدنا، وأنت أعلم بما ترى.

وجعل شرحبيل يستنهض مدائن الشام حتى استغرضها⁽¹⁾. لا يأتي على
قوم إلا قبلوا ما أتاهاهم به⁽²⁾.

وهكذا فإن معاوية، وبمساعدة فاعلة من شرحبيل بن السمط، نجح في
تصوير عليٍّ لمعوم الشاميين بمظهر الغازي القادم إلى الشام فاتحاً، عدا عن
كونه قاتل الخليفة المظلوم، وبالتالي نجح في تحريضهم على الدفاع عن
تراثهم ونسائهم وهرضهم، فثال منهم تعبئة نفسية كبيرة. وكان هذا نجاحاً
عظيماً لمعاوية، وتوجباً لجهوده العظيمة في حملة دعائية هائلة. فمن المؤكد
أن علياً لم يتصرف أبداً كفاتح إزاء مسلمين آخرين «ضالين»، مثلما أثبت ذلك
في البصرة، ومثلما سيثبت ذلك لاحقاً في النهروان.

ورواية ابن اعمش هذه تظهر حرص معاوية على إظهار الجانب الدفاعي
في موقفه وكيف أنه، وأهل الشام، يتعرضون إلى تهديد ظالم بالعدوان من قبل
عليٍّ وأهل العراق «اللهم فاتصرونا على أقوام يرقطون نائمنا ويخيفون قاعدنا
ويريدون إراقة دماءنا وإخافة سبلنا».

وبالتوازي مع جهود شرحبيل لم يكن معاوية يتوقف عن مخاطبة أهل
الشام وعرض حجته وتوضيح سلامة موقفه وتذكيرهم بتاريخه معهم. روى
ابن عساكر أن معاوية قال «أيها الناس قد علمتم أنني خليفة أمير المؤمنين عمر
وأنني خليفة أمير المؤمنين عثمان عليكم وأني لم أقم رجلاً منكم على خزاية
قط وأني ولتي عثمان وابن عمه، وقد قال الله في كتابه: ومن قتل مظلوماً فقد
جعلنا لوليّه سلطاناً»

(1) الأحداث تشير إلى أن موقف شرحبيل بن السمط، الحاسم في تأييد معاوية وحشد أهل
الشام خلفه، لم يكن ببساطة ناتجاً عن عملية «غشام» تعرض لها علي يد معاوية الذي
«ضلله» وأتته بأن علياً قتل عثمان، بل كان ثمرة صفقة كاملة بينهما. لا بد أن ترتيباً
قد تم بين معاوية والزعيم القبلي وتضمن أموالاً ووعوداً بمكائنة ومناصب. فالحساس
الذي أظهره شرحبيل، حين سار في مدائن الشام ليحشد أهلها خلف معاوية، لا ينجم
مع شخص متردد أو مخدوع بل شريك كامل في القرار والمسؤولية.

(2) وأورد اللججوري في الاختيار الطوال نصاً مشابهاً لهذا إلى حد كبير.

قبل المواجهة: مبعوث عليّ الى معاوية⁽¹⁾

قرر عليّ ان يقوم بالخطوة الاخيرة الواجبة عليه قبل ان يتجه في مسار المواجهة الشاملة مع اهل الشام. فقد كان لا بد من عرض السلام عليهم أولاً، بفض النظر إن كانت هناك فرصة حقيقية للسلام أم لا، انما لا بد من عرض السلام ولا بد أن يأتي الرفض قبل الانطلاق نحو حل المواجهة العسكرية.

أرسل عليّ رجلاً علماً من قبيلة بجيلة اليمانية⁽²⁾ الى معاوية، هو جرير بن عبد الله⁽³⁾. وهناك ملاقات كثيرة حول قرار عليّ هذا ولقط كبير في الروايات التاريخية بشأن هذه الشخصية وتفاصيل ما جرى. لذلك ستطرق لهذا الموضوع بشيء من التوسع، وبالذات لأن هناك ملاحظة تكررت في سيرة الامام عليّ في الكوفة: أشخاص من جماعته، مندوبيه / ولاته / مثليه / قيادته، يتركونه بعد خلافات ومشاكل وبعضهم ينضمون الى عدوه ! فهل هي مسألة سوء اختيار من طرف عليّ ؟ هل يسعى اختيار الأشخاص المناسبين ؟ ام انه كان مخدوعاً بهؤلاء ثم توضحت له الصورة فيما بعد ؟ أم ماذا ؟

ستطرق هنا الى حالة جرير بن عبد الله (وفي فصول لاحقة سنأتي للحالة الأشهر: ابي موسى الاشعري).

في تاريخ دمشق لابن عساكر عدة روايات حول إرسال عليّ لجرير لأخذ بعة معاوية، ألخصها كما يلي:

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 59 ص 127-128 و ج 60 ص 57)، كتاب وقعة صفين للنصر بن مزاحم (ص 27-49)، أسد الغابة لابن الأثير (ج 1 ص 280)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري (ج 2 ص)، شرح نهج البلاغة لابن أبي العليّ (ج 4 ص 74-75 و ص 93 و ج 3 ص 83-116)، الأخبار الطوال للبيهقي (ص 161)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج 2 ص 536)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 121)، كتاب الفتح لابن اعثم (ج 2 ص 506 و 515).

(2) روى ابن الأثير في ترجمته لجرير ما يفيد بأن جريراً كان سينا في قومه بجيلة وأرسله عليهم عمر بن الخطاب إلى العراق بعد هزيمة الجسر. وقال انه مات سنة 51 أو 54.

(3) وروى ابن شبة في تاريخ المدينة أن جرير بن عبدالله كان قدم على رسول الله (ص) على رأس وفد قومه من بجيلة في السنة العاشرة للهجرة وأن الرسول (ص) شَرَّ به ووصفه بأنه من غير نبي يمن وعلمه أصول الإسلام.

كان جرير عاملاً على همدان فترعه عليّ لما تولّى، فقدم عليه وباعه.

طلب جرير بنفسه من عليّ أن يكون هو رسوله إلى معاوية لأن علاقته به ودية (لم يزل لي مستصحباً ووداً فأتيه فأدعوه عليّ أن يسلم هذا الأمر لك ويجمعك على الحق وأن يكون أميراً من أمرائك وعاملاً من عمالك ما عمل بطاعة الله واتباع ما في كتاب الله^(١))، ومعظم أهل الشام من قومه (وأدعوا أهل الشام إلى طاعتك وولايتك فإن جلدتهم قومي وقد رجوتُ ألا يعصوني).

إذن يبدو ظاهراً أن جريراً كان من دعاة الحل السلمي مع معاوية ويسعى إلى ترتيب تفاهم معه يدخله في طاعة عليّ ولكن مع الحفاظ على وضع مقبول له. وهذا ما أثار اعتراضات العناصر الراديكالية في معسكر عليّ من أمثال مالك الأشتر الذي عبّر لعليّ عن شكوكه بجرير (لا تبعه ولا تصدقه، فوالله إني لأظن هواء هواءهم ونيتهم)

وافق عليّ على إعطاء جرير الفرصة ليمارس سفارته، ولكن مع التشديد على رفض إصدار أية وعود لمعاوية (فأرّت معاوية بكتابي فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلاّ فأتّبذ إليه على سواء وأعلمه أنني لا أرضى به أميراً وإن العامة لا ترضى به خليفة). وفيما يلي نص كتاب عليّ فمن عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان. أما بعد فإن بيعتي لزمك واتت بالشام لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا عليه. فلم يكن لشاهدٍ أن يختار ولا لفائبٍ أن يرد وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإذا اجتمعوا على رجل وسوّوه إماماً كان ذلك رضى. فإن خرج من أمرهم خارج بطعنٍ أو رغبة ردّوه إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله على ما تولّى ويصله جهنم وساءت مصيراً. وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي وكان نقضها كردعاً فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. فأدخل فيما دخله المسلمون فإن أحبّ الأمور إليّ فيك العافية، إلاّ أن تعرض للبلاء فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت بالله

(١) نفس هذا النص، بالحرف تقريباً، ورد في كتاب الفتح لابن اعثم الكوفي. وهو مصدر قديم.

عليك. وقد أكثرت في قتلة عثمان فادخل فيما دخل فيه الناس ثم حاكم القوم التي أحملك ولما هم على كتاب الله. فأما تلك التي تريد يا معاوية فهي خدعة الصبي عن اللبن. ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجفتي أبداً قرش من دم عثمان. وأعلم يا معاوية أنك من الطلقاء الذين لا تحمل لهم الخلافة ولا تعرض فيهم الشورى. وقد أرسلت اليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان فابيع ولا قوة إلا بالله»

الظاهر أن أداء جرير لمهمته كان مقبولاً، بل وجيداً. فبعد أن سلم معاوية كتاب علي، ألقى خطبة أكد فيها على صحة والزامية بيعة علي بل أنه وصل إلى حد التهديد (أما بعد يا معاوية فإنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصيرين وأهل الحجاز واليمن ومصر وسمان والبحرين واليمامة، فلم يبق إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها لو سال عليها من أوديته سيلاً غرقها)، واختتم كلامه بفكرة رائعة وبلغية: تداول السلطة، حين قال لمعاوية (فإن قلت استعملني عثمان ثم لم يعزلني فإن هذا أمر لو جاز لم يقم لله دين، وكان لكل امرئ ما في يده. ولكن الله جعل للخير من الولاية حق الأول، وجعل تلك الأمور موطأة وحقوقاً ينسخ بعضها بعضاً).

قام معاوية باحتجاز جرير لديه لفترة طويلة، إلى حد أن شكوك علي قد ثارت بشأن جرير فكتب إليه يأمره بعدم المكوث في الشام وأن لا يساوم معاوية بل يختاره بين الدخول في الطاعة التامة أو الحرب (حرب مجلية أو سلم مغزية)^(١). ويبدو أن معاوية احتجز جريراً لأنه أراد التأكد من صلابته تأييد قاعدته في الشام له إذا قرر الذهاب إلى آخر الشوط واختيار المواجهة. وكان بحاجة إلى وقت قبل أن يعطي جوابه النهائي.

وخلال وجوده في الشام تواجه جرير مع خصمه القبائلي: شرحبيل بن السمط الكندي ودار بينهما كلام كثير، ومنه مثلاً (قال له شرحبيل: إنك أتيتنا بأمر ملغف لتلقينا في لهوات الأسد فأردت أن تخلط الشام بالعراق وقد

(١) وفي رواية ابن هشام أن علياً كتب لجرير مخاطبته إن بايعك الرجل، وإلا فأقبل. ولا تكن رغو الجبان»

أطربت علياً وهو القاتل عثمان والله سائلك عما قلت يوم القيامة. فقال جرير: أما قولك اني جئتُ بأمر ملفف فكيف يكون ملففاً وقد أجمع عليه المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وقاتلوا معه طلحة والزبير. وأما قولك اني ألقيت في لهوات الأسد فني لهواته ألقيت نفسك. وأما خلط الشام بالعراق فخلطهما على حق خير من فرقتهما على باطل. وأما قولك ان علياً قتل عثمان فوالله ما في يديك من ذلك إلا قذفٌ بالغيب من مكان بعيد وإن ذلك لباطلٌ ولكنتك ملئت إلى الدنيا وأهلها وأمر كان في نفسك⁽¹⁾. بل ان نصر بن مزاحم يقول أن جريراً كاد أن يقلب أفكار شرحبيل رأساً على عقب، حين أكد له براءة علي من دم عثمان وذكره بفضله في الإسلام وموضعه من الرسول الى درجة ان شرحبيل عاد متردداً وقال «لا والله لا أصجل في هذا الأمر بشيء وفي نفسي منه حاجة». مما استدعى تدخل معاوية القوري ليتدارك الموقف، «ولقّف له معاوية الرجال يدخلون إليه ويخرجون. ويعظمون عنده تكل عثمان ويرمون به علياً، وقيمون الشهادة الباطلة والكتب المختلفة، حتى أعادوا رأيه وشحنوا عزمه»⁽²⁾.

وأخيراً أطلقه معاوية عائداً الى العراق حاملاً جوابه النهائي الى علي: لن أبايحك، وأهل الشام معي⁽³⁾!

ويحدثنا ابن أبي الحديد - نقلاً عن نصر بن مزاحم - أن جريراً عندما عاد للكوفة واجه اتهاماً قاسياً من الأشتر الذي شكك به وقال انه لو كان هو المندوب.. «لحملت معاوية على خنطة أصجله فيها عن الفكر» وأن جريراً دافع عن نفسه وقال ان أهل الشام، وبالأخص عمرو وحوشب وذو الكلاع، يتهمون

(1) ولدى مراجعة كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم يظهر تشابه يكاد يصل حد التطابق بين روايات ونصوص ابن عساكر أعلاه وبين ما ذكره نصر (توفي سنة 212). ولكن توجد تفاصيل أكثر وأشعار لدى نصر.

(2) وقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة أخبار جرير بن عبد الله وشرحبيل بن السط نقلاً عن كتاب صفين لنصر بن مزاحم، وهي في إجمالها تشابه مع روايات ابن عساكر أعلاه.

(3) وقال ابن عبد البر في الاستيعاب انه لما جاء جريرٌ معاويةً...حبه مدة طويلة، ثم رقه برقٌ مطبوع غير مكتوب، وبعث معه من يخبره بمطالبته له»

الأشتر بقتل عثمان ولو وصلهم لقتلوه. وتابع: أن الأشتر قال لجريز أيضا «إنما أتيتهم لتخلف عنهم بدأ بمسيرك إليهم، ثم رجعت إلينا من عندهم تهددنا بهم، وأنت والله منهم ولا أرى سعيك إلا لهم! لئن أطاعني فيك أمير المؤمنين ليجبئك وأشباهك في حبس لا تخرجون منه حتى تستم هذه الأمور ويهلك الله الظالمين»

واختتم ابن أبي الحديد الرواية بالقول أن ذلك أدى إلى مفارقة جريز لعلي «فلحق بقرقيساء ولحق به ناس من قسر من قومه، فلم يشهد صفين من قسر غير تسعة عشر رجلا ولكن شهدا من أحسن سبعائة رجل»⁽¹⁾

ورواية الدينوري في الأخبار الطوال تتشابه في معالمها الأساسية مع ما ذكره ابن عساكر وابن أبي الحديد ونصر. ولكن فيها تفصيل أدق بشأن مفارقة جريز للإمام علي عند عودته من سفارته، حيث يظهر السياق أن هروب جريز نتج بالتحديد عن موقف الأشتر الذي اتهمه وهدده «فغضب جريز مما استقبله به الأشتر، فخرج من الكوفة ليلا في أناس من أهل بيته، فلحق بقرقيساء، وهي كورة من كور الجزيرة فأقام بها.»

وموضوع مفارقة جريز لعلي ولجونه إلى الجزيرة يكاد يتفق عليه المؤرخون⁽²⁾. وقد روى ابن أبي الحديد أيضا بشأن جريز نقلا عن كتاب المعارف لابن قتيبة «واعترزل عليا عليه السلام ومعاوية، وأقام بالجزيرة ونواحيها حتى توفي بالشرية سنة 54 في ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة»

-
- (1) قسر وأحس بطنان من قبيلة بجيلة.
 (2) وابن الأثير في أسد الغابة لم يذكر أي شيء عن سفارة جريز لدى معاوية وتجاهل الموضوع كليا في ترجمته لجريز. ولكنه قال عرضا قولما أتى علي الكوفة وسكنها سار جريز عنها إلى قرقيساء فمات بها وقيل مات بالشرية. ورغم أن ابن عبد البر لم يذكر انخيارا عن خلاف بين علي وجريز إلا أنه روى هونزل جريز الكوفة وسكنها، وكان له بها دار، ثم تحول إلى قرقيساء ومات بها سنة 54. وروى الذهبي في سير أعلام النبلاء عن ابن سعد نقلا عن الواقدي «ثم يزل جريز معتزلا لعلي ومعاوية بالجزيرة ونواحيها حتى توفي بالشرية في ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة»

وتقول الروايات^(١) ان هروب جرير أثار غضب عليّ الشديد. روى الدينوري في الاخبار الطوال «وغضب عليّ لخروجه عنه. فركب الى داره فأمر بمجلس له فأحرق. فخرج ابو زرعة بن عمرو، ابن عم جرير فقال: إن كان إنسان قد أجرم فإن في هذه الدار أناسا كثيرا لم يجرموا إليك جرما. وقد روعتهم! فقال عليّ: أستغفر الله». وقال ابن أبي الحديد «ويذكر أهل السير أن عليا عليه السلام هدم دار جرير ودور قوم ممن خرج معه، حيث فارق عليا عليه السلام منهم أبو اراكة بن مالك بن عامر القسري، كان ختنة عليّ بته» كما نقل عن اسماعيل بن جرير قوله «هدم علي دارنا مرتين»!

وهناك روايات تفيد بأن جريرا كان «شُبُخْضا» للإمام عليّ أي أن مشكلته معه اكبر من مجرد الخلاف بشأن سفارته لمعاوية. فمثلاً ذكر ابن أبي الحديد اسم جرير بن عبد الله البجلي ضمن قائمة المفارقين لعليّ والمبغضين له. وروى عن الأعمش حادثة فيها أن جريرا والأشعث بن قيس كانا مجتمعين يلعبان عليا فمرّ بهما ضُبٌّ يعدو «فنادياه: يا أبا حنبل! هلم يدك نبايكت بالخلافة. فبلغ عليا عليه السلام قولهما فقال: أما انهما يحشران يوم القيامة وإمامهما ضب». وذكر أيضا أن حنظلة الكاتب قد خرج هو وجرير بن عبد الله من الكوفة إلى قرقيسيا وقالوا «لا نقيم ليلة يعاب فيها عثمان». كما أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق رواية يترحم فيها جرير على المغيرة بن شعبة لدى وفاته حيث قام جرير خطيبا وقال «أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تسمعوا وتطيعوا حتى يأتيكم أمير. استغفروا للمغيرة بن شعبة غفر الله له فإنه كان يحب العافية»

مع ان سيرة المغيرة في لعن الامام عليّ على منبر الكوفة معروفة، ولا تخفى على جرير.

وقال الذهبي في سير اعلام النبلاء «بعث عليّ الي ابن عباس والأشعث وأنا (الراوي: ابن جرير بن عبد الله) بقرقيسياء فقالا: امير المؤمنين يقرئك

(١) والروايات هذه تتحدث عن هدم عليّ لبيت جرير، أو إحراقه، بل وبعضها يقول ان غضب عليّ امتد ليشمل بالهدم دورا لأقربائه وهذا أمر لا يتسجم مع اخلاق الامام عليّ المعروفة، ولذلك لا يمكن تصديقها.

السلام ويقول: نعم ما رأيت من مفارقتك معاوية. واني أنزلك بمترلة رسول الله (ص) التي أنزلكها.

فقال جرير: ان رسول الله (ص) بعثني الى اليمن أقاتلهم حتى يقولوا لا اله الا الله، فاذا قالوا حرمت دماؤهم وأموالهم. فلا أقاتل من يقول لا اله الا الله.

وهذه الرواية تظهر ان جريرا حين قام بالسفارة الى معاوية لم يكن يفعل ذلك من منطلق ولائه لعلي، بل انه كان من أنصار الحل الوسط منذ البداية، ولما لم تسر الامور باتجاه التفاهم السلمي بين علي ومعاوية اعتزلهما معا. فالرواية هذه تظهره قريبا من أفكار ابي موسى الاشعري.

وقد استغضنا في الحديث عن جرير بن عبد الله وسفارته الى معاوية ليس لأهميتها بحد ذاتها (كان من كان شخص مندوب عليّ: لن يغير معاوية موقفه) بل كمثال على الفوضى التي كانت موجودة في معسكر عليّ وتعدد الرؤوس مما كان يؤدي الى قرارات غير مفهومة وباعثة على الحيرة من جانب عليّ.

مبعوث معاوية الى عليّ في العراق: معاوية يقيم الحجة⁽¹⁾!

ذكر نصر بن مزاحم «ان أبا مسلم الخولاني قدم إلى معاوية⁽²⁾ في أناس من قراء أهل الشام.

فقالوا له: يا معاوية! علام تقاتل علياً وليس لك مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته؟

قال لهم: ما أقاتل علياً وأنا أدعي أن لي في الإسلام مثل صحبته ولا

(1) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لنصر بن مزاحم المتقري (ص 86 وح 58)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 59 ص 132)، كتاب الثقات لابن حبان (ج 2 ص 285)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج 3 ص 140)، انساب الاشراف للبلخاري (ج 3 ص 66-70).

(2) وفي رواية لابن عساكر عن الكلبي أن معاوية هو الذي استدعى أبا مسلم وطلب ان يبحث معه برسالة لعليّ

مجرته ولا قرابته ولا سابقته^(١). ولكن خبروني عنكم: أليس تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً؟

قالوا بلى.

قال: فليدفع إلينا قتله فنقتلهم به، ولا قتال بيننا وبينه.

قالوا: فاكذب إليه كتاباً يأتيه به بعضنا.

فكتب إلى عليّ هذا الكتاب مع أبي مسلم الخولاني. فقلّيم به على عليّ.

فقام أبو مسلم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد... فإني قد تمت بأمر وتوليته. والله ما أحب أنه لغيرك إن أعطيت الحق من نفسك. إن عثمان قتل مسلماً محرماً مظلوماً، فادفع إلينا قتله وأنت أميرنا! فإن خالفك أحد من الناس كانت أيدينا لك ناصرة، وألستنا لك شاهدة وكنت ذا عذر وحنة^(٢).

وفي تمة رواية نصر أن علياً طلب من أبي مسلم أن يأتيه في الغد ليأخذ الجواب على كتاب معاوية^(٣). وضاف نصر أنه بعد ذلك فإن الناس من جماعة عليّ لما علموا يطلب الخولاني تجمعوا وأخذوا يصيحون: كلنا قتلة عثمان! يتابع نصر ويقول أن علياً دفع بكتابه الجوابي لمعاوية في اليوم التالي وفيه:

«والله ما أردت أن أدفعهم إليك طرفة عين. لقد ضربت هذا الأمر أنفه وعينه، ما رأيته ينبغي لي أن أدفعهم إليك ولا إلى غيرك.

وأما قولك: ادفع إلينا قتلة عثمان، فما أنت وعثمان! إنما أنت رجل من بني أمية، وبني عثمان أولى بذلك منك! فإن زعمت أنك أقوى على دم

(١) رواية الحمصي في سير اعلام النبلاء (عن كتاب صفين ليعلى الجعفي) تشبه هذه ولكن فيها إضافة على لسان معاوية هي: لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني. فليدفع إلينا قتلة عثمان، وأسلم له». وأنا أستبعد صحة هذه الإضافة.

(٢) لم تذكر روايات ابن عساکر في تاريخ دمشق تفاصيل الحوار بين علي وأبي مسلم ولا من كلام حموم العراقيين «كلنا قتلة عثمان» ولا من عودة أبي مسلم مؤيداً للحرب علي.

أبيهم منهم، فادخل في طاعتي ثم حاكم القوم إليّ، أحملك وإياهم على المحجة»

ويذكر نصر أن الخولاني بعدها «نخرج بالكتاب وهو يقول: الآن طاب الضراب»

ويقول ابن حبان في كتاب الثقات ان أبا مسلم الخولاني بعد رجوعه إلى الشام قال لمعاوية «والله لتقاتلن علياً أو لتقاتلنه فإنه قد أقر يقتل أمير المؤمنين عثمان/ فقام معاوية فرحاً فصعد المنبر واجتمع إليه الناس فحمد الله وأثنى عليه. وقام أبو مسلم خطيباً وحرّص الناس على قتال علي»

وهناك نصّ طويل لرسالتين متبادلتين بين معاوية وعليّ اوردّه البلاذري نقلاً عن ابي مخنف، أنقلهما هنا بتمامهما نظراً لأهميتهما في توضيح وجهة نظر كل فريق. ولست أرى ما يمنع من قبول مضمونهما:

كتب معاوية هذه الرسالة وحملها لابي مسلم الخولاني «من معاوية بن ابي سفيان الى علي بن ابي طالب، أما بعد

فإن الله اصطفى محمداً بعلمه، وجعله الامين على وجهه، والرسول الى خلقه، ثم اجتبى له من المسلمين أعواناً أيده بهم فكانوا في المنازل عنده على قدر فضائلهم في الاسلام. وكان أنصحبهم لله ورسوله خليفته، ثم خليفة خليفته ثم الخليفة الثالث المقتول ظلماً عثمان. فكلهم حسدت وعلى كلهم بغيتا عرفنا ذلك في نظرك الشرر وقولك الهجر وتنفسك الصعداء وابطالك عن الخلفاء، في كل ذلك تقاؤ كما يُقاؤ الجمل المشوش. ولم تكن لأحذر منهم أشد حسدا منك لابن عمك، وكان أحقهم أن لا تفعل به ذلك لقرابته وفضله. فقطعت رحمه وتبحت حسنه وأظهرت له العداوة وبطنت له بالفش وألبت الناس عليه حتى ضربت آباط الابل اليه من كل وجه، وقيدت الخيل من كل أفق، وشهر عليه السلاح في حرم رسول الله(ص) فقتل معك في المحلة وأنت تسمع الهائلة لا تدرا عنه بقول ولا فعل. ولعمري يا ابن ابي طالب لو قمت في حقه مقاماً تنهى الناس فيه عنه وتقيح لهم ما انتهكوا منه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحداً، ولمحى ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من

المجانبة له والبغي عليه. وأخرى أتت بها عند أولياء ابن عفان ظنيا: أيواك قتلت، فهم عضبك ويدك واتصارك. وقد بلغني أنك تتصل من دم عثمان وتبرأ منه، فإن كنت صادقا فادفع إلينا قتلتهم به، ثم نحن اسرع الناس إليك وإلا فليس بيننا وبينك إلا السيف. ووالذي لا اله غيره لنطلبن قتلة عثمان في الجبال والرمال والبحر حتى نقتلهم أو تلحق ارواحنا بالله. والسلام»

وكانت رسالة علي الجوابية كما يلي:

«من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد

فإن أخا خولان قدم عليّ بكتاب منك تذكر فيه محمدا وما أكرمته الله به من الهدى والوحي. فالحمد لله الذي صدق له الوعد ومكّن له في البلاد وأظهره على الدين كله وقمع به أهل العداوة والشتان من قومه الذين كذبوه وشتموا له وظاهروا عليه وعلى إخراج أصحابه وقلبوا له الأمور حتى ظهر امر الله وهم له كارهون. فكان أشد الناس عليه الأدنى فالأدنى من قومه، إلا قليلا ممن عصم الله.

وذكرت أن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه اختار له من المؤمنين أحوانا أيده بهم فكانوا في منازلهم عنده على قدم فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلهم خليفته وخليفة خليفته من بعده. ولعمري إن مكانهما من الإسلام لعظيم وإن المصائب بهما لرزة جليل. وذكرت أن ابن عفان كان في الفضل ثالثا، فإن يكن عثمان محسنا فسيقى ربا شكورا بضاعف الحسنات ويجزي بها. وإن يكن سيئا فسيقى ربا غفورا رحيمًا لا يتعامله ذنب أن ينفره. واني لأرجو إذا أعطى الله المؤمنين على قدر أعمالهم أن يكون قسمنا أو فرسهم أهل بيت من المسلمين.

إن الله بعث محمدا (ص) فدعا إلى الإيمان بالله والترحيد له، فكان أهل البيت أول من آمن وأناب، فمكثنا وما يعبد الله في ريع سكن من أرباعي العرب أحد غيرنا، فبخانا قومنا الغوائل وهموا بنا الهموم والأحقوا بنا الوشائط، واضطرونا إلى شمع غيب، وضجروا علينا فيه المراصد، ومنعونا من الطعام والماء العذب وكتبوا بينهم كتابا أن لا يواكلونا ولا يشاربونا ولا يبايعونا ولا

ينأكلون ولا يكلمونا أو ندفع اليهم نينا فيقتلوه أو يثلوا به. وعزم الله لنا على منعه والذب عنه، وسائر من أسلم من قريش أخطياء مما نحن فيه، منهم من حليف ممنوع وذو عشيرة لا تبغيه كما بفانا قومنا، فهم من التلف بمكان نجوة وأمن. فمكثنا بذلك ما شاء الله. ثم أذن الله لرسوله في الهجرة وأمره بقتال المشركين. فكان إذا حضر البأس ودعيت نزال أقدم أهل بيته فوقى بهم أصحابه. فقتل حيلة يوم بدر وحمزة يوم أحد وجعفر يوم مؤتة، وتعرض من لو شئت أن أسية ستيه لمثل ما تعرضوا له من الشهادة، لكن آجالهم حضرت ومنيته أخرت.

وذكرت أبطالي عن الخلفاء وحسبي لهم. فأما الحسد فمعاذ الله أن أكون أسرته أو أهله. وأما الابطاء فما اعتلر إلى الناس منه. ولقد اتاني أبوك حين قبض رسول الله (ص) وباع الناس أبا بكر فقال: أنت أحق الناس بهذا الأمر فأبسط يدك أبيامك. قد علمت ذلك من قول أبيك، فكنت الذي أبيت ذلك مخافة الفرقة، لقرب عهد الناس بالكفر والجاهلية. فإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه نصيب رشك ولا تفعل فسيغني الله عنك.

وذكرت عثمان وتآكبي الناس عليه. فإن عثمان صنع ما رأيت فركب الناس منه ما قد علمت وأنا من ذلك بممزل إلا أن تتجنى فتجنى ما بدا لك.

وذكرت قتله -بزعمك- وسألتني دفعهم اليك. وما اعرف له قاتلاً بعينه. وقد ضربت الأمر أنه وعينه فلم أره يعني دفع من قبلي ممن اتهمته وأظنته اليك.

ولكن لم تنزع عن غيوك وشقاك لتعرفن الذين تزعم انهم قتلوه طالين لا يكلفونك طلبهم في سهل ولا جبل. والسلام

لماذا رفض علي تسليم قتلة عثمان؟

يبدو أنه كان هناك إجماع في المعسكر العراقي على رفض سياسة «فرق تسد» التي يريد معاوية أن يطبقها عليهم، بحيث يجبرهم على أن يفرزوا من بينهم مجموعة يسمونها «قتلة عثمان» ليقوم هو بقتلها بينما يفرج الباقون عنهم!

كان الناس في المعسكر العراقي بصريتهم «كلنا قتلة عثمان» يعربون عن رفضهم لإعطاء الحق لمعاوية، من حيث المبدأ، في تطبيق الحد الشرعي على من نَقَلُوا عملية القتل.

فبالإضافة إلى أن معاوية لا يمتلك أية صفة تميز له أن يكون مسؤولاً عن تطبيق حد شرعي بوجود خليفة عادل، كان هناك إدراك جمعي بأن ما يطلبه معاوية هو المستحيل بعينه. فـ «قتلة عثمان» مصطلح فضفاض وغير محدد فمن الذي يعرف على وجه الدقة من هما الشخصان، أو الثلاثة، أو الستة الذين قتلوا الخليفة في داره في ظل تلك الفوضى؟

وعلى فرض أن القاتل عُرف، فهل يكفي معاوية بالشخصين أو الأربعة الذين قاموا بعملية القتل، أم أنه سيوسّع الدائرة لتشمل كل من تَمَرَدُوا على عثمان (وهم حوالي الألف) وكانوا في المدينة حين ذاك؟ ومن يضمن أنه لن يوسّع الدائرة أكثر لتشمل كل من كانوا من مستقدي عثمان والمُعَيَّن عليه؟

وماذا عن من لم يكن على انسجام مع عثمان في سياساته كلها؟ إذن كان هناك إدراك بأن الموافقة على «مبدأ» تسليم القتل إلى معاوية كان في معناه العملي نقضاً لبيعة عليّ وإنكاراً لشرعية خلافته!

فمعاوية يصبح عندئذ في موقع يتيح له أن يضع ما شاء من شروط على عليّ، وأن يطلب منه المستحيلات، وكل ذلك دون أن يكون معاوية قد ألزم نفسه بأي تعهد تجاه عليّ وخلافته، حتى وإن لبى له كل رغباته!

كان شرط معاوية ذاك في صميمه نوعاً من الاستسلام المطلوب من عليّ، لأن معناه أن يتخلى عليّ عن أنصاره وحماته، مقابل ماذا؟ أن يصبح رهينة لمعاوية وجماعته!

وللذلك لم يكن جواب عليّ للخولاني إلا تعبيراً عن وحدة موقف، بين الإمام وورعيته، تجاه هذا الأمر الجلل.

لقد كان معاوية حريصاً على أن يعث بكتابه إلى عليّ مع قراء الشام

لأنه يريد لهم هم بالذات أن يكونوا في صفه ويشهدوا له. كان بإمكان معاوية أن يتوقع جواب عليّ وأتصاره. وكان يدرك أن القراء بسذاجتهم لن يفهموا موقف الخليفة عليّ وإصراره على رفض المطلب «السيط» الذي عرضه عليه، وأنهم سوف يخرجون بنتيجة أكيدة وهي أن علياً كان ضالماً في قتل عثمان! وذلك ما حصل من قبل أبي مسلم الخولاني، وذلك ما أراده معاوية.

لم يكن جواب علي لأبي مسلم وقراء الشام تهوراً ولا عدم خبرة في السياسة. بل كان على العكس تماماً: إدراكاً لمخبت المطلب، ووعياً لأثاره المدمرة على خلافته في حال تليته.



والنتيجة النهائية لكل جهود معاوية الإعلامية كانت أنه نجح في ترسيخ وتعميم فكرة «الطلب بدم عثمان»، التي كانت عاتشة أول من أعلنها، كأساس رسمي مُعلنٍ لتمرّده وانتشاقه على الخليفة علي. وبرز معاوية في استعمال هذا الشعار حتى جعله سيفاً مُصلّاً يُشهره بوجه علي في كل حين. وبذلك وفر معاوية لكل أشياعه وأتباعه، ولكل من كره علياً وسياسته، عنصراً «شرعياً» يستعملونه لتبرير سلوكهم وعدائهم لعلي بن أبي طالب.

وقد بلغ هذا الشعار حداً من الذبوع والانتشار في أوساط مُبغضي علي إلى درجة الابتغال والصفاقه. فرجلٌ مثل طليحة بن خويلد الأسدي، بكل ما له من سجلٍ رديٍّ، وتاريخٍ قميٍّ معروفٍ ومشهور في الإسلام، لم يتردد في القول أنه «يطلب بدم عثمان» في معرض رفضه لحكم وسلطان علي في الكوفة⁽¹⁾

نساؤل بشأن الحس الامبراطوري لدى معاوية

وما كان لرجل له مثل دعاء معاوية وحته السياسي أن يغفل عن الخطر الخارجي الذي قد يتهدد دولته في الشام من قبل الرومان. ولذلك كان لا بد

(1) كتاب «الفتاح» لابن حبان (ج 2 ص 274). وطليحة هذا كان من ضمن «الأنبياء» الكذابين الذين ظهروا بعد وفاة الرسول (ص) مباشرة. وبعد أن هُزم وأتباعه في حروب «الرقّة» أعلن توبته.

له وهو يتجهز لخوض حرب طاحنة ضد أبناء جلدته من العرب العراقيين أن يأمن خطر الرومان بأي وسيلة. فلجأ معاوية إلى المهادنة، وقبل أن يدفع لهم نوعاً من الجزية، مقابل تعهد بعدم شن هجوم على الشام في تلك الظروف الدقيقة والصعبة على معاوية «وبعث إلى قيسر بالهدايا فرأى»⁽¹⁾

وهنا لا بأس من طرح تساؤل جدي حول الحس الامبراطوري لدى معاوية. فمن المسلم به أن معاوية بن أبي سفيان كان رجل دولة وسياسياً من طراز رفيع، ولكن قراره بالمضي قدماً في حرب شاملة ضد الخليفة عليّ الذي يقود جيوش العراق، يلقي ظلالاً من الشك حول سلامة أولويات معاوية الاستراتيجية. فهو بقراره ذلك كان يعرض الامبراطورية العربية كلها لخطر الانهيار. فمعاوية يعرف أكثر من غيره مدى ضخامة وفعالية القوة الحربية الموجودة بأمرته في الشام، وكذلك التي تناظرها، إن لم ترّد عليها، في العراق. ويغض النظر عن حجم الخلاف بشأن قتل عثمان، أو حول خلافة عليّ، أو عزل الولاة وغير ذلك من أمور إشكالية، فإنه كان على معاوية أن يدرك أن تلك كلها شؤون عربية داخلية، وهو بالفعل كان يدرك ذلك، وأنه لا يجوز السماح بالمخاطرة بتدمير تلك القوة ذاتياً وبالتالي تقض الانجازات التي تحققت على يد الرسول والخلفاء.

لقد اتخذ معاوية القرار ومضى إلى نهاية الشوط.

وإن فشل قيادة الدولة البيزنطية في استغلال الحرب الأهلية الهائلة داخل صفوف أمة العرب، أمرٌ مذهل حقاً. لقد أضاعت تلك القيادة فرصة تاريخية نادرة لاستعادة ما خسرت على مدى ربع قرن من حروبها مع العرب. ولم تذكر المصادر التاريخية أي مبادرات هجومية، ولا حتى ضغوطات، من جانب الرومان أثناء الأشهر الطويلة التي استغرقتها معركة صفين وما تلاها. وإن الأموال والهدايا التي أرسلها معاوية للقيادة الرومانية ليست بأي مقياس ثمناً مناسباً يمكن لتلك القيادة أن تتقاضاه مقابل موقفها الساكن أثناء تلك الظروف العصيبة التي مرت بها أمة العرب.

(1) وقعة صفين لابن مزاحم المقرئ (ص 44). وكذلك جاء في الأخبار الطوال للذهبي (ص 138) أن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يرسل إلى قيسر الروم فبرأه وصالحه ويرد إليه كل أسرى الرومان لديه.

الفصل الثالث: معركة صفين

عليّ يصر على الحسم⁽¹⁾

لم يُظهر عليّ أدنى تردد في سعيه لتحقيق هدفه. كانت إعادة توحيد أمة محمد(ص) تحت قيادة تمتلك شرعية إسلامية، مسألة لا تحتمل المماطلة ولا أنصاف الحلول بنظره. وكان عليّ يعرف أكثر من غيره أن معاوية ومن معه لا يمكن أن يدخلوا في طاعته، لأن ذلك يبسطة يعني نهاية وجودهم. وفي الواقع لم يكن عليّ يعرض أي صفقة يمكن لرجل مثل معاوية أن يقبلها.

لم يكن هناك أي لبس أو تردد في ذهن عليّ. فهو يعرف أنه يسير إلى حرب طاحنة، ولكنه كان يراها واجباً دينياً، قبل أي شيء. هو قال عن معاوية وحزبه:

وقد قَلَبْتُ هذا الأمر، بطنه وظهره، فما وجلتني يسمني إلا قتالهم أو
الجهود بما جاء به محمد(ص)!

فكانت معالجة القتال أهونَ عليّ من معالجة العقاب، وموتاتُ الدنيا
أهونَ عليّ من موتات الآخرة⁽²⁾

إذن هو يرى أن ترك معاوية وحزبه يعادل الكفر بكل ما جاء به النبي(ص). ولم يكن يسعه عمل ذلك.

(1) مصادر هذا البحث: نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج 1 ص 42 وص 80 و ج 3 ص 318)، الإمامة والسياسة لابن تقيّة (ج 1 ص 178)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج 3 ص 140)، تاريخ دمشق لابن عسّكر (ج 59 ص 135).
(2) نهج البلاغة بشرح محمد عبده.

وهو قد وصف أعداءه مرة فقال لأتباعه:

«إنما تقتاتلون الطلقاء وأبناء الطلقاء، ممن أسلم كرهاً وكان لرسول الله (ص) حرياً. أعداء السنة والقرآن، وأهل الأحزاب والبدع والأحداث، ومن كانت بهواته تقى، وكان من الذين منحرفاً. وأكلة الرشا وعبيد الدنيا... وإن منهم لمن شرب فيكم المحرم وجلد حلاً في الإسلام، فهؤلاء قادة القوم ومن تركت ذكر مساوية منهم شر وأضر. وهؤلاء الذين لو ولوا عليكم لأظهروا فيكم الغضب والنفخ، والتسلط بالجبروت، والتناول بالفضب، والفساد في الأرض. ولا تبعوا الهوى وحكموا بالرشا...»⁽¹⁾

كان معاوية رجلاً عملياً، يقوم بحسابات الريح والخسارة بدقة، وكان من المؤكد أن علياً، لو أراد، لكان بإمكانه أن يعقد معه صفقة تتضمن اعترافاً من معاوية بشرعية علي وخلافته وسلطته على كل بلاد المسلمين، مقابل المحافظة على وضع قيادي لمعاوية في الدولة. كان معاوية سيكتفي من علي بإقراره على ولاية الشام⁽²⁾، الغنية والقوية، وإطلاق يده فيها. فما دام معاوية سيستمر مسيطراً على مصادر قوته في الشام، المال والرجال، فلا بأس بعدها من الاعتراف بخليفة في المدينة يمتلك «مؤهلات» إسلامية لا تتوفر عند معاوية. لا شك أن هكذا ترتيب كان مناسباً، في حينه على الأقل، لمعاوية الذي كان يدرك أن الظروف لم تنهياً بعد لإعلان طموحه إلى المنصب الأعلى في دولة المسلمين. وعلى الرغم من البغض الشخصي الذي كان معاوية يكنه لعلي، بسبب معارك الإسلام التي خاضها علي مع رسول الله (ص) وكان له فيها الدور الأبرز في مواجهة أبي سفيان وكل الأمويين وما نتج عنها من ناراب لهم تمكنت من نفوسهم، إلا أن معاوية كان حتماً قادراً على تجاوز البعد الشخصي في الموضوع إذا عُرِضت عليه تسوية مقبولة⁽³⁾.

(1) الإمامة والسياسة لابن كثير.

(2) روى الذهبي في سير أعلام النبلاء أن معاوية قال لمتنوب علي، جرير بن عبد الله، في ختام محاورتهما «كتب إلى علي أن يجعل لي الشام، وأنا أباع له ما عاشر»

(3) ذكر ابن عساکر في تاريخ دمشق وروايتين (عن الكلبي): الأولى تقول إن معاوية كتب لعلي من خلال مندوبه جرير بن عبد الله أنه يمكن أن يبايعه ما دام حياً على أن لا يبايع لأحد من بعده بشرط أن يجعل له الشام. والثانية بشرط أن يجعل له الشام ومصر. وأن كتابه «هذا في العرب» وأن الوليد بن عتبة كتب له شعراً يلومه فيه على ذلك ويحثه على حرب علي بلا هوادة.

طبعاً كان معاوية يَتمنى وجود شخص آخر غير عليّ في منصب زعامة الدولة، من بطون قريش غير الهاشمية، والذي سيكون لا شك أقل «مؤهلات» وشرعية من عليّ بكثير وبالتالي أقل قوة منه، إلا أن معاوية بحكم طبيعته العملية كان يدرك أن قريبه عثمان قد قُتل ولن يعود، وليس هناك أموي آخر يمتلك حُداً أدنى من الشرعية لكي يترشح للخلافة. ولذلك كان مضطراً إلى قبول خليفة من غير بني أمية.

كان معاوية يعرف أن عليه الانتظار لفترة أخرى، قد تطول، قبل أن يصرّح بذلك الطموح. فكلما مرت الأعوام ازداد المسلمون بُعداً عن العهد النبوي، وقَلَّ أيضاً عدد الأشخاص الذين يمتلكون شرعية تنبع من ماضٍ مشرف واتصال مباشر مع رسول الله (ص).

فما كان معاوية يحتاجه هو الزمن. ولكن الشرط الأساسي لأي ترتيب مع معاوية كان المحافظة على الوضع القائم. لا بد لمعاوية أن يكون متأكداً أن الخليفة في المدينة، أيّ كان هذا الخليفة من شخصيات الصحابة الذين لا زالوا على قيد الحياة، لن يتدخل في عمله وولايته.

والمعضلة الرئيسية هنا هي أن علياً لم يكن يعرض أي شيء على الإطلاق على معاوية. فما كان يصل معاوية من أخبار عليّ كان ينذر بالشؤم والشر بالنسبة له. لم يُظهر عليّ أي احترام لعهد عثمان بن عفان وحكمه وإدارته وتربيته وسياسته. بل على العكس، عبّر عليّ عن رفضه التام لتوجهات الخليفة المقتول وأعلن عليّ حزمه على نقض سياسة عثمان بن عفان وقراراته! ولا بد أن معاوية قد بلغت أولى إعلانات عليّ الذي كان يعتبر ما فعله عثمان من توزيع القطائع من أموال وأملاك المسلمين على أقرباه ويطائنه، ظلماً صارخاً وغروراً على نهج الاسلام وتعاليم الرسول (ص). وكان معاوية يعلم أن علياً مصمم على ردّ كل قطائع عثمان إلى المسلمين، بقوله «والله لو وجدته قد تزوّج به النساء وملك به الإمام لرددته. فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيّق»⁽¹⁾

(1) نهج البلاقة، بشرح محمد عبده.

ولا يمكن لشخص مثل معاوية، يسيطر على إقليم الشام منذ حوالي العشرين عاماً، أن يقبل ببساطة أن يتحول إلى ضحية لا حول لها ولا قوة لسياسة الخليفة الجديد! كان معاوية يعلم أن علياً لن يقبل منه أي حل وسط، فلا شيء غير التسليم المطلق، وبلا شروط، بسلطة عليّ يمكن أن يُجنب معاوية حرباً ضروساً وهذا ما كان يحتويه كتاب عليّ لجبرير بن عبد الله البجلي لما أرسله إلى معاوية:

«أما بعد: فإذا أتاك كتابي فأحمل معاوية على الفصل، وخذه بالأمر الجزم. ثم خيره بين حرب مجلّة، أو سلم مخزية. فإن اختار الحرب فأتب إليه، وإن اختار السلم فخذ بيته، والسلام»⁽¹⁾

بدء التعبئة والحشد⁽²⁾

كان عليّ أن يسير بجحافل أهل العراق لقتال الشاميين. ولم تكن تلك الخطوة سهلة أبداً، ولم يكن أي قائد بقادر على اتخاذ مثل ذلك القرار والشروع بتنفيذه بكل تصميم، سوى شخص من طراز عليّ، لا يعرف في الحق مهادنة.

وأعلم عليّ خاصته بقراره الصعب ذلك. وشجعه مقربوه، وخاصة عمار بن ياسر وهاشم بن عتبة ومالك الأشتر وزعماء الأنصار مثل قيس بن سعد وخزيمة بن ثابت وسهل بن حنيف، على المضيّ قدماً بلا تردد في حرب أهل الشام.

ولكنّ علياً سمع أيضاً من بعض أتباعه قلّة من الأصوات المخالفة، والمتردة والداعية إلى المفاوضات مع أهل الشام، بعضها كان متأثراً بما جرى يوم الجمل، وبعضها كان متهيّأ لمواجهة مفتوحة مع الشاميين.

(1) نهج البلاغة، يشرح محمد عبده. والفصل هو الحكم القطعي، وابتدأ إليه أي أعلنه بالحرب.

(2) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص 93/94/96/102/215)، الميجنوري في الاخبار الطوال (ص 164)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص 428)، تاريخ ابن خلدون (ج 3 ص 4)، انساب الاشراف للبلاذري (ج 3 ص 77-79)، الإمامة والسياسة لابن كثير، كتاب الفتح لابن اعثم (ج 2 ص 565).

ذكر نصر بن مزاحم فقال رجلاً من بني فزارة يقال له أريد فقال: أتريد أن
تسيرنا إلى إخواننا من أهل الشام فتقتلهم لك، كما سرت بنا إلى إخواننا من
أهل البصرة فتقتلناهم؟ كلا والله لا نفعل⁽¹⁾

وقال رجلاً من بني تميم: يا أمير المؤمنين: إنا قد مشينا إليك بنصيحة
فأقبلها منا، ورأينا لك رأياً فلا تردّه علينا. فإنا نظرنّا لك ولعن معك: أقم
وكتاب هذا الرجل، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام. فإني والله ما أدري ولا
تدري لمن تكون إذا التقيت الغلبة، وعلى من تكون الدبرة⁽²⁾

ولكن مثل هذه الأصوات كانت أقلية وسط موج من التأيد الحاسم الذي
حصل عليه عليّ من عامة أهل العراق، وخاصة الزعماء القبليين منهم، من
أمثال عدي بن حاتم الطائي ويزيد بن قيس الأرحبي وحجر بن عدي الكندي
وعبد الله بن بديل الخزاعي:

ثم قام عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي فقال: يا أمير المؤمنين! إن القوم
لو كانوا الله يريدون، أو الله يعملون، ما خالفونا. ولكن القوم إنما يقاتلون فراراً من
الأسوة، وحُباً بالأثرة وحنّاً بسلطانهم، وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم.

وعلى إحدى في أنفسهم، وعداوة يجلدونها في صدورهم لوقائع أوقعتها يا
أمير المؤمنين بهم قديمة، قتلت فيها آبائهم وإخوانهم.

ثم التفّت إلى الناس وقال: كيف يبائع معاوية علياً وقد قتل أخاه حنظلة،
وخاله الوليد، وجده حبة، في موقف واحد؟

والله ما أظن أن يفعلوا، ولن يستقيموا لكم دون أن تقتصد فيهم العرّان،
وتقطع على هامهم السيوف، وتشر حواجبهم بعمد الحديد، وتكون أمور حجة
بين الفريقين⁽³⁾

(1) نفس هذا النص ذكره الفهرست في الأخبار الطوال وفيه أن الأشتر تصدى للرجل،
فهرب، فلحقه الناس وضربوه حتى مات. فأذى عليّ دينه لأهله من بيت المال لأنه لم
يمرّف قتله. والرواية أخرجه أيضاً البلاذري في أنساب الأشراف، بلفظ «قالوا».

(2) وقمة صفيّ لنصر بن مزاحم

(3) وقمة صفيّ لنصر بن مزاحم. والأسوة هي النسوة بين المسلمين في قسمة المال.
وتقصّد: تكسر. والعرّان: الرماح الصلبة.

كما بذل عدي بن حاتم الطائي⁽¹⁾ جهداً في توحيد صفوف أهل العراق حول موقف عليّ وألقى فيهم خطاباً مؤثراً تكلم فيه عن خصال أمير المؤمنين: فأبها الناس: إنه والله لو غير عليّ دعانا إلى قتال أهل الصلاة ما أجبناه. ولا وقع بأمر قط إلا ومعه من الله برهان، وفي يديه من الله سبب. وإنه وقف عن عثمان بشبهة، وقاتل أهل الجمل على النكث وأهل الشام على البغي. فانظروا في أموركم وأمره. فإن كان له عليكم فضل فليس لكم مثله، فسلموا له وإلا فتأزحوا عليه.

والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة، إنه لأعلم الناس بهما. ولئن كان إلى الإسلام إنه لأخونبي الله، والرأس في الإسلام. ولئن كان إلى الزهد والعبادة إنه لأظهر الناس زهداً وأنهاكهم عبادة. ولئن كان إلى العقول والنحائر إنه لأظهر الناس عقلاً وأكرمهم نحيزة. ولئن كان إلى الشرف والنجدة إنه لأعظم الناس شرفاً ونجدة. ولئن كان إلى الرضا لقد رضي به المهاجرون والأنصار في شوري عمر رضي الله عنهم ويابعموه بعد عثمان ونصروه على أهل الجمل وأهل الشام...⁽²⁾

وقال يزيد بن قيس الأرحبي لعليّ إن الناس على جهاز وهيبة وأهبة وعدة، وأكثرهم أهل القوة، وليست لهم علة، فمر متاديك فليناد في الناس أن يخرجوا إلى معسكرهم في التخيلاء⁽³⁾

ولعب عمار بن ياسر دوراً بناءً في حشد التأييد للمسير إلى الشام، فكان يرتجز:

(1) هناك روايات تقول إن عدي بن حاتم الطائي بقي على ولاه العظيم لعليّ بن أبي طالب إلى آخر يوم في حياته. فمثلاً ورد في تاريخ ابن خلّوق أن عدي بن حاتم قال لمعاوية بن أبي سفيان، لما سمعه يتنصص علياً هو الله إن القلوب التي أبغضتك بها لفي صدورنا وإن السيوف التي قاتلتك بها لعليّ عواقبنا ولئن أدنيت إلينا من الفدر شيراً لنندين إليك من الشر بأحاً. وإن حز الحلقوم وحشجة المعزوم لأهون علينا من أن نسمع المسامة لي عليّ. ولكني استبعد أن يجرؤ عدي على مخاطبة معاوية، وهو خليفة متنصر، بهذه اللغة.

(2) الإمامة والسياسة لابن قتيبة.

(3) انساب الاشراف للبلاذري.

سيروا إلى الأحزاب أعداء النبي سيروا فخيرُ الناس أتباعَ علي
 وكان عمار يؤكد لعامة الناس على مشروعية قتال معاوية وابن العاص
 ويقول لهم:
 «... والله ما أسلموا ولكن استسلموا. وأسروا الكفر حتى وجدوا عليه
 أعراناً»^(١)

وأعلن قيس بن سعد بن عبادة دعم الأنصار اللامحدود لعليّ فقال له^(٢)
 «يا أمير المؤمنين: انكشيت بنا إلى عدونا ولا تتردد. فوالله لجهادهم أحب إليّ
 من جهاد الترك والروم، لإيمانهم في دين الله، واستئذالهم أولياء الله من
 أصحاب محمد (ص) من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان: إذا غضبوا
 على رجل منهم حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سبوه / وقتلنا لهم في أنفسهم
 حلال، ونحن لهم فيما يزعمون قطين. قال يعني: رقيق»^(٣)

وحسم عليّ الأمر، واتخذ القرار التاريخي الصعب، فقام وأعلن لعموم
 أهل العراق:

سيروا إلى أعداء الله. سيروا إلى أعداء السنن والقرآن. سيروا إلى بقية
 الأحزاب، قتلة المهاجرين والأنصار»^(٤)

واستجاب العراقيون في أجمالهم لدعوة عليّ، رغم وجود أقلية من
 المشككين. روى الدينوري في الأخبار الطوال «فأجاب به جل الناس إلى المسير

- (١) وقعة صفين لتصر بن مزاحم
- (٢) وموقف قيس هذا حصل على الرغم من قيام عليّ، قبل ذلك، بعزل قيس عن ولاية مصر. وهو يدل على مدى أصالة معدن قيس وإخلاصه لعليّ. فهو لم ينظر إلى الجانب الشخصي من قضية عزله عن ولاية مصر، واستمر في تمسكه بالنتيج الانصاري العام المعادي لظفارة قريش والموالي لرسول الله (ص) وأله.
- (٣) هذا الاقتباس وما بعده من وقعة صفين لتصر بن مزاحم. والانكماش هو الإسراع والجد. والتصرّد هو الفرار والإحجام. والإدعان هو الفش والمصانعة. والقطين: الخدم والأتباع.
- (٤) وقريب من هذا النص ذكره الدينوري في الأخبار الطوال «بهذا الناس: سيروا إلى أعداء السنن والقرآن. سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار. سيروا إلى الجفأة الطغام الذين كان إسلامهم خروفاً وكرها. سيروا إلى المؤلفّة قلوبهم ليكنفوا عن المسلمين بأسهم»

إلا أصحاب عبد الله بن مسعود، وعبيدة السلماني والربيع بن خثيم في نحو من اربعمائة رجل من القراء فقالوا (يا أمير المؤمنين: قد شككتنا في هذا القتال، مع معرفتنا فضلك. ولا غنى بك ولا بالمسلمين عمن يقاتل المشركين، فولنا بعض هذه الثغور لنقاتل عن اهلنا)

فولاهم ثغر قزوين والري وولى عليهم الربيع بن خثيم وعقد له لواء. وكان اول لواء عقد بالكوفة⁽¹⁾

وبدا التحرك نحو الشام بعد أن وصلت قوات البصرة ايضا، يقودها عبد الله بن عباس⁽²⁾ وقد حضر معه رؤساء قبائل البصرة الذين ذكرهم البلاذري على النحو التالي: خالد بن المعمر على بني بكر بن وائل، وعمرو بن مرحوم على عبد القيس، وصبرة بن شيمان على الأزد⁽³⁾، وشريك بن الأعور على اهل العالية، والاحنف بن قيس على بني تميم وضبة والرباب.

وطبعا لم يكن معاوية متفاجئا بتحرك علي، بل كان يستعد لذلك من فترة طويلة وكان بالفعل قد مهّد الارضية في الشام للمواجهة الكبرى وقام بكل ما يلزم من تعبئة نفسية واستفثار لمجتمع الشام. ولذلك فإنه لم يواجه صعوبة تذكر حين ذكر الشاميين بالتهديد القادم اليهم. فخاطب الناس وقال لهم ان عليا جاءهم «ومعه أفاصي أهل العراق من ذي شرف يحمي عن شرفه وذي دين يحمي عن دينه وذي كلب يؤمل فيكم الغارة! أناكم والله من درعته الأنصار، وسيفه همدان، ورمحه عبد القيس، وسنانه أخلاط العرب. فإن كنتم تريدون الصبر فهذا وقت الصبر»⁽⁴⁾.

وسرعان ما جاءه الرد المتوقع على لسان حوشب ذي الظليم الذي عبّر عن التحدي الشامي للـ«غزو العراقي» بقوله «يا معاوية! والله ما ليأك

(1) الاختيار الطوال للبيهقي. وفي رواية الكامل لابن الاثير «وتختلف عنه تقر من اهل الكوفة، ومنهم منة الهمداني وسروقي، أخذوا أعطيتاهما وتصدت قزوين»

(2) قال ابن الاثير في الكامل «وقدم عليه عبد الله بن عباس، فبين معه من اهل البصرة».

(3) وعلق البلاذري قائلا: «فوقل انه لم يحضر من أزد البصرة الا عبد الرحمن بن عبيد، وأقل من عشرة نفر». وربما يكون ذلك صحيحا نظرا لتأثير موقعة الجمل المدتر على قبيلة الأزد في البصرة.

(4) النص من كتاب الفتح لابن اعثم الكوفي.

نصر ولا لك نغضب ولا عليك نحامي، إلا على الشام! فكفّ الخيل بالخيل والرجال بالرجال. ولا يهولتكم عليّ ومن معي، فإن ما له ولا صحابه عندي إلا حملة واحدة فأترق جمعهم وأبّد شملهم».

الجيشان يتواجهان⁽¹⁾

واتخذ عليّ من النخيلة، قرب الكوفة، معسكراً لقواته، التي تجمعت فيها للإنطلاق إلى الشام. وسار الجيش العراقي بقيادة عليّ من النخيلة إلى الصرّة، ثم المدائن، فالأنبار فالرقة⁽²⁾ إلى أن وصل صفين في شهر ذي الحجة سنة 36. وكان معاوية قد سار بقواته من الشام، بعد أن بلغه خبر سير عليّ، إلى أن وصل صفين قبل وصول جيش العراق إليها.

وتجمع الجيشان أخيراً متقابلين مكتملين في صفين، وهي من خرائب الرومان القديمة على ضفاف الفرات. وفي تلك المساحة الصغيرة بالذات كانت توجد بالفعل كل قوة العرب على الإطلاق. لقد استقر الفريقان الشامي والعراقي كل قوتها وإمكاناتها واصطفّا متواجهين يستعدان لمواجهة مرعبة لم يسبق لها مثيل. كان أبناء القبائل العربية من كافة أنحاء جزيرة العرب وأطرافها، القيسية واليمانية، يتواجدون موزعين على الفريقين! كانت للقبيلة الواحدة يقاتل جزء من أبنائها في صفوف الجيش العراقي والجزء الآخر في صفوف جيش الشام وحتى تقسيم الفرق والكتائب في صفوف الفريقين كان على أساس قبليّ: فكان لقضاة الكوفة قائلهم الذي يوازيه من الجانب الآخر قائد لقضاة دمشق. وهكذا أمر معظم القبائل.

(1) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لتصرف بن مزاحم (الصفحات 205، 206، 207، 208 و223)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص432). تاريخ الطبري (ج4 ص24 وص7)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص81).

(2) يقول البلاذري ان الرقة كان بها تجمع للعثمانية الذين اهلواهم مع معاوية. فلما وصلها عليّ طلب من اهلها ان يصنعوا له جسراً لكي يعبر بجيش الفرات ولكنهم ابوا، لولا ان مالك الاشتر مددهم فتمتعا صنعه وعبر عليّ بقواته الى الضفة الاخرى وواصل مسيره.

وكانت تبعته الجيش العراقي (الوضعية القتالية) على النحو التالي⁽¹⁾:

الميمنة: تكونت من اليمنيين، كتلة، وبالأخص مذحج وهمدان، وكان عليها الأشعث بن قيس، ثم تولى قيادتها عبد الله بن بديل. وكان على رجالة الميمنة سليمان بن صرد الخزاعي.

الميسرة: تكونت من قبائل ربيعة، وكان عليها عبد الله بن عباس، ومحمد بن الحنفية. وكان على رجالة الميسرة الحارث بن مرة العبدي.

القلب: تكون أساساً من قبائل مضر الكوفة والبصرة ومن أهل المدينة الأنصار، وكان عليه عليّ، ومعه من خزاعة وكتانة عدد مهم.

خيل أهل الكوفة: كان عليهم مالك الأشتر وعلى خيل أهل البصرة سهل بن حنيف

رجالة أهل الكوفة عليهم عمار بن ياسر، ورجالة أهل البصرة عليهم قيس بن سعد ومعه هاشم بن عتبة.

وكان القراء موزعين على الوحدات القتالية، وكانوا يتبعون أربعة قادة وهم: عمار بن ياسر وقيس بن سعد وعبد الله بن بديل ومسر بن فدكي (قراء البصرة).

الراية كانت مع عمرو بن الحرث بن عبد يغوث.

وأما جيش الشام فكانت تبعته على النحو التالي⁽²⁾:

الميمنة: تكونت من قبائل اليمن وقضاعة، وخاصة جُمير. وكان عليها ذو الكلاع الجُميري. وضمت الميمنة كلاً من أهل حمص وأهل قنسرين، الذين كان عليهم زفر بن الحارث.

(1) هذه المعلومات من وقعة صفين لنصر بن مزاحم. ورواية أبي مخنف في تاريخ الطبري فيها مثل هذه المعلومات ولكن باختصار.

(2) وهناك روايات تقول أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان على ميمنة معاوية وأن عبيد الله بن عمر بن الخطاب كان على خيله. وروايات تقول أنه كان على مقدمة قواته أبو الأحور السلمي، وعلى ساقته بسر بن أرطاة، وعلى الميمنة يزيد العبسي، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص.

الميسرة: تكونت من قبائل يمنية مثل عك، والأزد وبجيلة، وكان عليها حبيب بن مسلمة (القرشي). وضمت الميسرة كلا من أهل الأردن واهل فلسطين، الذين كان عليهم مسلمة بن مخلد.

القلب: جند دمشق، والقبائل القيسية، وغطفان وهوازن ومسلم، وكان عليها معاوية.

غيل أهل الشام: كان عليها جميعا عمرو بن العاص. وكان على غيل أهل دمشق: أبو الأحرور السلمي
وعلى رجالة أهل دمشق مسلم بن عقبة المري. وعلى رجالة الناس كلها الضحاك بن قيس (القرشي).

اللواء كان مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد (القرشي).⁽¹⁾

وبالإضافة إلى هذا التشكيل العسكري الأساسي، قام كل من علي ومعاوية بتوزيع الألوية والرايات على كل القبائل المشاركة في جيشيهما.

فمثلاً كان لواء عبد القيس - الكوفة مع صعصعة بن صوحان، بينما كان لواء عبد القيس - البصرة مع عمرو بن حنظلة. وكان لواء تميم - الكوفة مع عمير بن عطارذ بينما لواء تميم - البصرة مع الأحنف بن قيس، وهكذا في الجانب العراقي.⁽²⁾

وفي الجانب الشامي أيضاً كانت الألوية قد وزعت على القبائل. فمثلاً كان على قضاة - دمشق حسان بن بحدل الكلبي، بينما كان على قضاة - الأردن حيش بن دلجة التيمي.

(1) وأما رواية ابن الأثير في الكامل فتذكر التوزيع التالي لقوات معاوية: على الميمنة: ابن ذي الكلاع الحميري. على الميسرة: حبيب بن مسلمة الفهري. على المقعدة: أبو الأحرور السلمي. على غيل دمشق: عمرو بن العاص. على رجالة دمشق: مسلم بن عقبة المري. وعلى الناس كلهم: الضحاك بن قيس.
(2) يتحدث أبو مخنف لدى الطبري عن تنافس داخلي على راية قبيلة ربيعة الكبيرة ضمن قوات أهل العراق. ويقول إن علياً - بعد أن أخذ ورد - حسم الأمر وأعطى راية كل ربيعة لعنات بن المعمر.

التردد الطويل قبل الاشتباك⁽¹⁾

كانت فكرة الحرب الشاملة بين الجيشين العربيين مخيفة ومرعبة لكليهما. وعلى الرغم من أن التعبئة الأيدولوجية من كلا الطرفين قد بلغت أوجها، وعلى الرغم من الحماسة الظاهرة للقتال التي كانت تبديها العناصر الأكثر تصميمًا من الجانبين، إلا أنه، ولا شك، كان هناك خوف حقيقي من المواجهة المفتوحة بين الجيشين بكامل طاقتهم. كان أفراد المعسكرين ينظرون إلى بعضهما البعض فيرون بوضوح التكافؤ العسكري الذي كان قائما بكل جلاء. وربما تؤدي مواجهة كهذه إلى الفناء المتبادل. فأكثر الروايات تشير إلى أن عدد أفراد الجيش العراقي كان يتراوح حوالي الـ 90 ألفاً ومثلهم كان عدد مقاتلي جيش الشام⁽²⁾.

والجدول التالي به مقارنة بين الأرقام الواردة في عدة مصادر بشأن عدد الجيشين المحتشدتين:

المصدر	عدد الجيش العراقي	عدد الجيش الشامي
النتيه والإشراف للمصمودي	٩٠ ألف	١٢٠ ألف
تاريخ الإسلام للهامي	٥٠ ألف، وقيل ٩٠ ألف، وقيل ١٠٠ ألف	٧٠ ألف
انساب الإشراف للبلاندي	قالوا: ٥٠ ألف، ويقال ١٠٠ ألف	٧٠ ألف، ويقال ١٠٠ ألف
الامامة والسياسة لابن قتيبة	١٩٠ ألف	٨٣ ألف

(1) مصادر هذا البحث: الأخبار الطوال للدينوري (ص 167 وص 170)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 570 وص 562 وج 4 ص 2 وص 4)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 288 وص 290)، ابن قتيبة في الامامة والسياسة (ج 1 ص 128 - 129 وص 124)، كتاب سليم بن قيس الهلالي (ص 290-293)، النتيه والإشراف للمصمودي (ص 256)، تاريخ الإسلام للهامي (ج 3 ص 542)، انساب الإشراف للبلاندي (ج 3 ص 97)، تاريخ بغداد الخطيب البغدادي (ج 1 ص 204)

(2) يقدر هشام جميع في «الفتنة» ص 199، بعد تحليله لكل الروايات الواردة حول عدد المقاتلين من الجانبين ولظروف ذلك الزمان، أن جيشي الشام والعراق كانا متعادلين، ب 70 ألفاً لكل منهما.

البداية والنهاية لابن كثير:	١٥٠ ألف من أهل العراق	«القبل معاوية في نحو منهم»
- من جابر الجعفي	١٠٠ ألف «اريزندون»	١٣٠ ألف
- عن ابن ديزيل	١٢٠ ألف	٦٠ ألف
- عن البيهقي	٨٠ ألف رجل «سوى الاتباع والحشم»	لم يذكر
الاخبار الطوال للدينوري	٧٠ ألف	لم يذكر
تاريخ الطبري ^(١)		

وهذا الخوف من الالتحام العسكري التام بين جيشين بهذا الحجم، وهما في النهاية جيشان شقيقان، شاء القادة ذلك أم أبوا، هو ما يفسر الفترة الطويلة جدا التي قضاها الجيشان معسكرين قبالة بعضهما، والتي زادت عن ثلاثة أشهر، قبل بدء المعركة الحقيقية. فالأمر كان خطيراً جداً ويحمل في طياته تهديداً لمستقبل الوجود العربي كله في الشام والعراق. فهذان الجيشان المتقابلان قاما بالفعل بإلحاق الهزيمة بجيوش فارس والروم خلال ربع قرن من الزمان. كانت المواجهة الشاملة بينهما تعني المجازفة بكل ما اتجزته أمة العرب من فتوح عظيمة وتوسع كبير، لذا فالتردد والحذر كان أمراً طبيعياً. والتمهل يشير إلى إدراك القيادتين لذلك.

وخلال تلك الفترة الطويلة كانت المراسلات تدور بين قيادة عليّ ومعاوية. ولكنهما لم تحمل أي شيء جديد. فكلّ منهما يكتفي بتكرار مواقفه ومطالبه التي يصر على أنها عادلة. كانت القيادتان حريصتين على أن تظهر كل منهما، أمام جنودها ومقاتليها على الأقل، بمظهر الراغبة في تجنب حرب إبادة لأمة العرب. ولذلك كان الاهتمام من قبل كل من عليّ ومعاوية بتفنيده حجج

(١) ويُلاحظ أن الطبري في تاريخه الضخم لم يذكر صراحة عدد جيش عليّ، وإنما ذكره عَرَضاً في سياق بيت من الشعر قاله الامام عليّ أثناء غروجه لصفين في رواية لعبد الله المروزي «لأصبحن الماصي ابن الماصي» ❖❖❖ سبحين ألفاً عاقدي التراسي». إذن هم ٧٥ ألفاً. كما أنه لم يذكر عدد جيش الشام.

الطرف الآخر وبيان بطلاتها، كبيراً. وكان هناك حرص أيضاً على «إشهاد الشهود» على ما يملكه كل منهما.

وفيما يلي استعراض للمراسلات التي حصلت:

هناك روايات أن معاوية لجأ إلى إرسال صحابة لمطالبة علي بتسليم قتلة عثمان: أبو هريرة وأبو الدرداء.

ففي تلك الفترة كان معاوية حريصاً جداً على أن يطرح نفسه كصاحب مطلبٍ بسيطٍ وشرعيٍّ وهو القصاص من قتلة عثمان، ولم يكن حينها معاوية قادراً بعد على إعلان نفسه كخليفةٍ منافسٍ لعليٍّ. وكان معاوية في مرحلة حشد أهل الشام خلفه ودفعهم للقتال معه ولذا كان يريد أن يثبت لهم أن علياً قتل عثمان، والدليل أنه يرفض تسليم قاتليه. وكان معاوية بحاجة إلى شهودٍ له على ذلك، وبالتالي فإن أبا هريرة كان مناسباً للقيام بهذا الدور لأن معاوية سيقول لمعوم جماعته: هذا أحد أصحاب رسول الله يشهد على عليٍّ! ولست أنا وعمرو ابن العاص فقط من يقول بذلك.

روى ابن قتيبة في الامامة والسياسة:

قال معاوية لأبي هريرة وأبي الدرداء لما قدما عليه من حمص، وهو بصفين:

«هستُ أزعم أني أولى بهذا الأمر من عليٍّ. ولكنني أقاتله حتى يدفع إليّ قتلة عثمان».

فقالا: إنا دفعهم إليك ماذا يكون؟

قال: أكون رجلاً من المسلمين. فأتيا علياً فإن دفع إليكما قتلة عثمان جعلتها شورى»

وطبعاً كان معاوية يعرف جوابَ عليٍّ الأكيد على هذا المطلب.

وهكذا إذن ذهب أبو هريرة إلى عليٍّ يطالبه ليس فقط بتسليم «قتلة عثمان» ولكن أيضاً بالتتحي عن الحكم وجعلها شورى (وكلمة شورى هنا

لا تعني عموم المسلمين، بل العودة لنظام عمر بن الخطاب: شورى كبار الصحابة من قريش، علماً بأنه لم يبقَ منهم حياً إلا القليل، ومعاوية يعلم تماماً أنه عملياً لم تعد شورى عمر ممكنة ولا واردة لأن الزمن تغير!

ولما رفض عليّ طبعاً، عاد أبو هريرة إلى أهل الشام بالأخبار التي يمكن لمعاوية أن يستغلّها على أحسن وجه في دعايته .

وقد أثار هذا الدور الذي لعبه أبو هريرة استياء الكثيرين من أصحاب الضمير الاسلامي الصرف والمياليين الى عليّ بالضرورة، حتى من أهل الشام أنفسهم! فيروي صاحب الإمامة والسياسة:

«وإن أبا هريرة وأبا الدرداء انصرفا إلى منزلهما بحمص. فلما قدما حمص لقيهما عبد الرحمن بن عثمان (الأشعري) فسألتهما عن سيرهما فقصّا عليه القصة.

فقال: العجب منكما أنكما من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما والله لئن كففتما أيديكما فما كففتما ألسنتكما. أتأتيان علياً وتطلبان إليه قتلة عثمان وقد علمتما أن المهاجرين والأنصار لو حرموا دم عثمان نصره، وباعوا علياً على قتله، فهل فعلوا؟ وأعجب من ذلك رغبتكما عمّا صنعوا، وقولكما لعليّ: اجعلها شورى واخلعها من عنقك! وإنكما لتعلمان أن من رضي بعليّ خير ممن كرهه، وأن من بايعه خير ممن لم يبايعه. ثم صرتما رسولني رجل من الطلقاء لا تحلّ له الخلافة»

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية عن ابن ديزيل من طريق عمرو بن سعد أن الصحابيّن الذين أرسلهما معاوية كانا أبا الدرداء وأبا أمة. فقال أنه لما كان الجيشان متواجهين في صفين «خرج أبو الدرداء وأبو أمة فدخلا على معاوية فقالا له: يا معاوية، على ما تقاتل هذا الرجل؟ فوالله أنه أقدم منك ومن أبيك اسلاماً، وأقرب منك الى رسول الله (ص) وأحق بهذا الأمر منك. فقال: أقاتله على دم عثمان وأنه أوى قتله. فاذها الى ققولا له فليقتلنا من قتلة عثمان ثم اتنا أول من بايعه من أهل الشام.

فلجأ الى عليّ فقالا له ذلك فقال: هؤلاء الذين تريان. فخرج خلق كثير فقالوا: كلنا قتلة عثمان! فمن شاء فليرمنا.

قال: فرجع ابو الدرداء وابو امامة فلم يشهدا لهم حرباً
وخلافاً للصحابية الذين ارسلهم معاوية لأغراض دعائية محضة، فإنه
أرسل وفدأ «جدياً» يمثل هو ونظام حكمه .

وقد ذكر ابن كثير، عن الطبري من طريق ابي مخنف، ان معاوية كان قبل
ذلك قد أرسل وفدأ رفيع المستوى من قياداته، أثناء اصطفاك الجيشين في
صفين:

«وبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وشرجيل بن السمط،
ومعن بن يزيد بن الاخمس الى علي، فدخلوا عليه. فبدأ حبيب، فحمد
الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهادياً
عمل بكتاب الله وثبت لأمر الله، فاستقلتم حياته، واستبطأتم وفاته،
فعدوتم عليه فقتلتموه. فادفع اليها قتلتك إن زعمت أنك لم تقتله، ثم احتزل
أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم فيؤلي الناس أمرهم من جمع عليهم
رأيهم.

فقال له علي: وما أنت لا أم لك وهذا الامر وهذا العزل؟ فاسكت فلذلك
لست هناك ولا بأهل لذلك.

فقال له حبيب: أما والله لثريني حيث تكره.

فقال له علي: وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك؟ لا أبقي الله عليك
إن أبقيت. انذهب فصعد وصوب ما بدا لك»

وجديرٌ لا يذكر ان العلامة ابن كثير توقف عن الرواية عند هذه المرحلة
وقال «ثم ذكر أهل السير كلاماً طويلاً جرى بينهم وبين علي، وفي صحة ذلك
عنهم وعنه نظر. فإن في مطاوي ذلك الكلام من علي ما يتقص فيه معاوية
وأباه، وانهم إنما دخلوا في الاسلام ولم يزالا في ترده فيه، وغير ذلك. وانه
قال في غبرن ذلك: لا أقول ان عثمان قتل مظلوماً ولا ظالماً. فقالوا: نحن
نبرأ ممن لم يقل ان عثمان قتل مظلوماً، وخرجوا من عنده. فقال علي (انك لا
تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين. وما انت بهادي العمي

عن ضلالتهم ان تسمع إلا ان يؤمن بآياتنا فهم مسلمون - النمل 80). ثم قال لأصحابه: لا يكن هؤلاء أولى بالجد في ضلالتهم منكم بالجد في حقكم وطاعة نبيكم.

وهذا عندي لا يصح عن علي رضي الله عنه⁽¹⁾

وفي هذا الموقف من ابن كثير تظهر نزعة الاموية بوضوح.

وفيما يلي الكلام الذي قاله علي لشرحيل بن السمط ومعن بن يزيد، والذي لم يُرق لابن كثير فلم يروه وأعلن عدم تصديقه له، لا لشيء إلا لأنه يتنص فيه من معاوية وأبيه. فقد روى الطبري في تاريخه من رواية أبي مخنف ان عليا قال للرجلين⁽²⁾:

«ما بعد، فإن الله جل ثناؤه بعث محمدا (ص) بالحق فأنقذ به من الضلالة وانتاش به من الهلكة وجمع به من الفرقة، ثم قبضه الله اليه وقد أدى ما عليه (ص). ثم استخلف الناس ابا بكر رضي الله عنه واستخلف ابو بكر عمر رضي الله عنه فأحسننا السيرة وعدلا في الأمة، وقد وجدنا عليهما ان توليا علينا ونحن آل رسول الله (ص)، فغفرنا ذلك لهما.

وولي عثمان رضي الله عنه فعمل بأشياء عابها الناس عليه، فساروا اليه فقتلوه. ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم فقالوا لي: يايع، فإن الامة لا ترضى إلا بك، وإننا نخاف ان لم تفعل أن يفترق الناس. فبايعتهم.

فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني، وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله عز وجل له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الاسلام: طليق ابن طليق، حزب من هله الأحزاب، لم يزل لله عز وجل ولرسوله (ص) وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الاسلام كارهين.

فلا غرو إلا تخلافكم معه واتقيادكم له وتدعون آل نبيكم (ص) الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا تخلافهم، ولا أن تعللوا بهم من الناس أحداً.

(1) ويلاحظ ان كلامه مهما اختلف عن كلامه الحاد مع حبيب بن مسلمة، ربما لأنهما خير قرشين فأبيل بأن يستميلهما بخلاف حبيب الفاقد منه الرجاء

ألا اتني أدهوكم الى كتاب الله عز وجل وستة نيه (ص) وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولكل مؤمن ومؤمنة ومسلم مسلمة .

فقال: أتشهد ان عثمان رضي الله عنه قتل مظلوماً ؟

فقال لهما: لا أقول انه قتل مظلوماً ولا أقول انه قتل ظالماً

قالا: فمن لم يزعم ان عثمان قتل مظلوما فنحن منه براء . ثم قاما فأنصرف .

فقال علي: انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين ولا أنت بهادي العمي عن ضلالتهم . إن تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون .

ثم أقبل علي على أصحابه فقال: لا يكن هؤلاء أولى بالجد في ضلالتهم منكم بالجد في حقكم وطاعة ريكهم

وبالعودة الى وفد معاوية، يلاحظ اختلاف الطلبات التي وجهها حبيب بن مسلمة الى علي عن تلك التي وجهها الصحابة (ابو هريرة / ابو الدرداء / ابو امامة) له . فهو الآن ينطق بلسان معاوية وقيادته فيطلب من علي التحني عن منصب الخلافة بدون مواربة، بخلاف الآخرين الذين كان معاوية يستغلهم بالحديث عن مظلومية عثمان وضرورة الاقتصاص من قتله .

وأما بالنسبة للمرسل الذين بعثهم علي الى معاوية: لم يكن ثمة شيء ليعرضه على معاوية سوى الدخول في طاعة علي بدون شروط . وهي بالتالي كانت مهمة فاشلة حتماً . وأخيار حواراتهم وسجلاتهم مع معاوية فيها الكثير من الخطب والمواظ والتعهدات، وأحياناً لا تخلو من طرفة .

وأهم وفد أرسله علي الى معاوية، حينما وصل جيشه الى صفين وعسكر الجيشان على ضفاف الفرات، كان مكونا من ثلاثة رجال، وهم من قبائل مختلفة: بشير بن عمرو بن محصن الانصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي . وقد اقترح شبث بن ربعي على علي حين وجههم

ان يقدم بعض الوعود لمعاوية ليحفزه على الدخول في طاعته **«ألا تطعمه في سلطان توليه اياه ومنزلة يكون له بها اثره عندك إن هو بابيعك؟»** ولكن علياً لم يجبه الى شئ وطلب منه الاقتصار على دعوة معاوية الى الطاعة بدون أي عرض محدد. فقد روى الطبري في تاريخه عن ابي مخنف ان الوفد ذهب الى معاوية في أول ذي الحجة **«فأتوه ودخلوا عليه، فحمد الله وأثنى عليه أبو عمرة بشير بن عمرو وقال: يا معاوية ان الدنيا عنك زائلة وانك راجع الى الآخرة، وان الله عز وجل محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يدك. واني أنشدك الله عز وجل أن تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها بينها**

تقطع عليه الكلام وقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟

فقال أبو عمرة: ان صاحبي ليس مثلك ان صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الاسلام والقرابة من الرسول (ص)

قال: فيقول ماذا؟

قال: يأمرك بتقوى الله عز وجل وإجابة ابن عمك الى ما يدعوك اليه من الحق فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك
قال معاوية: ونظّل دم عثمان رضي الله عنه ؟ لا والله لا أفعل ذلك.

فذهب سعيد بن قيس يتكلم فبادره شيب بن ربيع فظك .

فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا معاوية اني قد فهمت ما رددت على ابن محصن. انه والله لا يخفى علينا ما نفرو وما تطلب. انك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه. فاستجاب له سفهاء طغام. وقد علمنا ان قد أخطأت عنه بالنصر وأحييت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب. ورب متمني أمر وطالبه الله عز وجل يحول دونه بقدرته. وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته وواله مالك في واحدة منهما خير: لئن أخطأت ما ترجو انك لشر العرب حالاً في ذلك، ولكن أصبحت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحق من ربك صلى النار. فاتق الله يا معاوية. ودع ما أنت عليه ولا تنازع المرأهله .

فحمد الله واثني عليه ثم قال: أما بعد، فإن أول ما عرفت فيك سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحبيب الشريف سيد قومه منطقتك. ثم عنت بعد فيما لا علم لك به، فقد كذبت ولومت ابها الأعرابي الجلف الجاني في كل ما ذكرت ووصفت.

انصرفوا من عندي فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف. وغضب.

وخرج القوم وشب يقول: أفعلىنا تهول بالسيف؟! أقسم بالله ليعجلن بها عليك.

كما روى الطبري عن أبي مخنف أيضاً أن علياً أرسل وفداً آخر بعد ذلك، حين حل شهر محرم وتوابع الفريقان فيه، يضم عدي بن حاتم^(١) الطائي، ويزيد بن قيس الأرحبي، وشيث بن ربعي وزباد بن خصفة. وقد حصلت خلاله مشادات حادة. فمثلاً قال عدي في معرض كلامه «فانت يا معاوية لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل» فأجابه «كأنك إنما جئت متهدداً، لم تأت مصلحاً. هيهات يا عدي كلا والله! اني لا برُّ حربٍ ما يقع لي بالشأن...» ولما طالبهم معاوية بتسليم قتلة عثمان ليقتلهم أجابه شب «أيسرك يا معاوية أنك أمكنت من عمار تقتله؟» فردّ عليه معاوية بجواب صاعق «وما يمتني من ذلك؟ والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان رضي الله عنه ولكن كنت قاتله بقاتل مولى عثمان!» فانفعل شب وقال «والله الأرض والله السماء أما عدلت معتدلاً. لا والذي لا إله إلا هو لا تصل إلى عمار حتى تنثر الهائم من كواهل الأقوام وتضيئ الأرض الفضاء برحبها^١. وتضيف الرواية أن معاوية حاول رشوة زياد بن خصفة على انفراد لكي ينضم إليه ويترك علياً، فرفض.

ومن المصادر الشيعية، ورد في كتاب سليم بن قيس الهلالي أن معاوية أرسل أبا هريرة وأبا الدرداء (وهم بصفين) برسالة إلى علي يطلب منه فيها أن

(١) رغم أن إجمالي الروايات في المصادر تفيدنا بأن عدي بن حاتم كان من رجالات علي وقيادات المخلصين إلا أن هناك رواية لدى الخطيب البغدادي (من طريق علي بن المديني) تلقي ظلالاً من الشك بشأن ولائه لعلي:

فخرج عدي بن حاتم وجرير بن عبد الله البجلي وحظلة الكاتب من الكوفة فزلوا قرقسيا وقالوا: لا نقيم ببلد يشتم فيه عثمان.

يمكنه من قتل عثمان ليقتلهم ويسلم له الأمر ويبيع هو وأهل الشام. فرفض علي واشترط الدخول في طاعته أولاً ومن ثم التخاصم بين يديه والشكوى ضد من قتلوا عثمان فهؤلاء بنو عثمان رجال قد أدركوا، لبسوا بأطفال ولا مولى عليهم. فليأتوا أجمع بينهم وبين قتل أبيهم، فإن عجزوا عن حجتهم فليشهدوا لمعاوية بأنه وليهم ووكيلهم وحريهم في خصوصتهم. وليقبلوا هم وعصماؤهم بين يدي مقعد الخصوم إلى الامام والوالي الذي يقرون بحكمه ويغفلون قضاءه. وأنظر في حجتهم وحجة عصماؤهم. فإن كان أبوهم قتل ظالماً وكان حلال الدم أبطلت دمه، وإن كان مظلوماً حرام الدم أقدمتهم من قاتل أبيهم. فإن شاوروا قتلوه وإن شاوروا عفرنا وإن شاوروا قبلوا الدية⁽¹⁾.

وهؤلاء قتل عثمان في عسكري يقرون بقتله ويرضون بحكمي عليهم ولهم. فليأتني ولد عثمان أو معاوية - إن كان وليهم ووكيلهم - فليخاصموا قتله وليحاكموهم حتى أحكم بينهم وبينهم بكتاب الله وستة نيه (ص)

.... ثم خرج أبو هريرة وأبو الدرداء، فإذا نحو من عشرين ألف رجل مقنعين بالحديد فقالوا: نحن قتل عثمان ونحن مقرون وراضون بحكم علي عليه السلام علينا ولنا فليأتنا أولياء عثمان فليحاكمونا إلى أمير المؤمنين عليه السلام في دم أبيهم. فإن وجب علينا القود أو الدية اصطبرنا لحكمه وسلمنا

هذه كانت استعراضاً لما دار من مراسلات ومناقشات ومطالبات بين الطرفين من خلال الوفود المتبادلة، والتي كانت كلها بلا أي نتيجة.

وطبعا كانت فترة الأشهر الثلاثة مناسبة أيضاً لكي يُظهر كل طرف تصميمه وحسن استعداده. وكانت تحصل بشكل يومي مواجهات محدودة تقوم بها فرق معينة من الجانبين. وكانت هناك الكثير من الدعوات الفردية للقتال والبراز يقوم بها فرسان من هنا وهناك لإظهار الشجاعة وإرهاب الخصم. وكانت تحصل مناورات عسكرية يقوم بها الخيالة تستهدف هدفاً

(1) ويبدو كلام علي في هذه الرواية متطابقاً وأقرب ما يكون إلى رأيه وموقفه الحقيقي من موضوع قتل عثمان. ويرائي أن هذه الرواية في جوهرها قريبة جداً من الصحة إن لم تكن صحيحة تماماً.

معينا من الجيش المقابل، شخص مشهور، أو قبيلة معينة أو ما شابه. وكان الرماة يتبادلون التراشق بالنبال في بعض الأحيان.

وفي غالب الأحيان كانت تلك المناوشات تنتهي بالتحاجز فيما بينهما، دون خسائر كبيرة. وقد عبّر الدينوري عن ذلك بقوله:

«يزحف بعضهم إلى بعض، فيحجز بينهم القراء والصالحون، فيفترقون من غير حرب، حتى فزعوا في هذه الثلاثة الأشهر خمساً وثمانين فزعة. كل ذلك يحجز بينهم القراء»⁽¹⁾

بدء القتال⁽²⁾

بعد انتهاء الأشهر الحرم، تزايدت حدة المواجهات بين الفريقين. وأرسل عليّ متادياً يصيح في معسكر معاوية:

«إنا أمسكنا لتنصرم الأشهر الحرم، وقد نصرمت. وإنا ننبذ إليكم على سواء. إن الله لا يحب الخائنين»⁽³⁾

وبدأ القتال الفعلي بين الجيشين، ولكنه حتى تلك اللحظة كان لا زال محدوداً في حجمه. ولم ينخرط فيه كل الجيشين بعد. فكانت الكتائب يقودها قادة بارزون تواجه مثلتها من الطرف الآخر ويدور بينها قتال طاحن يسفر عن مقتل الكثيرين. ثم تتوقف المعارك لتعاود الحدوث على أيدي كتائب أخرى تخوض معارك شرسة، فيها كَرّ وفَرّ ضد نظيرتها. وفي بعض الأيام كانت الكفة تميل إلى الجانب العراقي، وفي أيام أخرى إلى الجانب الشامي. ولم يحصل تفوق ساحق لأيهما.

(1) الأخبار الطوال للدينوري

(2) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لتصر بن مزاحم (ص 214)، الأخبار الطوال للدينوري (ص 171)، تاريخ الطبري (ج 4 ص 6 وج 3 ص 26)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 297). وابن سعد في الطبقات الكبرى (ج 3 ص 257)، والمستدرك على الصحيحين للحاكم (ج 3 ص 384)، المحبر لابن حبيب البغدادي (ص 296)، مستد أحمد بن حنبل (ج 4 ص 319)، كتاب الفتح لابن هشام (ج 3 ص 158)، أسد الغابة لابن الأثير (ج 4 ص 216).

(3) الأخبار الطوال للدينوري. و(نبذ إليكم على سواء) تعني: نعلن عليكم الحرب

وارى من المناسب هنا استعراض هذا النص الذي يظهر أخلاقيات الحرب عند عليّ:

روى الطبري في تاريخه عن أبي مخنف عن جندب الأزدي «ان عليا كان يأمرنا في كل موطن لقينا فيه معه عدوا فيقول:

لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم فأنتم بحمد الله عز وجل على حجة، وتركنكم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لكم.

فإذا قاتلتموهم فهزمتهم:

فلا تقتلوا مُدبراً

ولا تجهزوا على جريح

ولا تكشفوا عورة

ولا تمثلوا بقتيل

فإذا وصلتكم إلى رجال القوم:

فلا تهتكوا سترأ

ولا تدخلوا داراً إلا بإذن

ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم

ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم،

فإنهن ضعاف القوى والآنفس»

وليس هذا الكلام مستغرباً من عليّ، وهو يشبه كلامه ووصاياه لقواته

يوم الجمل في البصرة. ولا ننسى طبعاً أن القتال يدور بين المسلمين ولذلك

التشديد على عدم هتك الأستار وكشف العورات.

وفي أرض الميدان، تحدثنا الروايات عن الدور المركزي والكبير الذي

لعبه الصحابي القديم عمار بن ياسر في شحذ الهمم والمعنويات لدى مقاتلي

الجيش العراقي عن طريق التأكيد المتواصل على صوابية موقف الامام علي

في الصراع وايضا ايضاح مدى خبث وسوء نية معاوية وجماعته.

وفي النص التالي يشن عمار هجوماً تحريضياً شديداً ضد شخص معاوية:

«يا أهل الإسلام: أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله، وجاءتكم، وبقي على المسلمين وظاهر المشركين، فلما أراد الله أن يظهر دينه وينصر رسوله، أتى النبي فأسلم وهو والله فيما يرى راهب غير راغب، وقبض الله رسوله (ص) وإنا لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم؟

ألا وإنه معاوية. فآلعه، لَعَنَهُ الله. وقاتلوه، فإنه ممن يطفئ نور الله ويظلم أعداء الله»⁽¹⁾

وفي رواية أبي مخنف⁽²⁾ لدى الطبري المزيد عن الدور التحريضي لعمار بن ياسر:

«ان عمار بن ياسر خرج الى الناس فقال: اللهم انك تعلم اني او اعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لعلته. اللهم انك تعلم اني لو اعلم أن رضاك في أن أضغ غلة سيفي في صدري ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لعلته. وإني لا أعلم اليوم عملاً هو أَرْضَى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين. ولو أعلم أن عملاً من الأعمال هو أَرْضَى لك منه لعلته»

وهنا خطبة أخرى⁽³⁾ لعمار بن ياسر أيضاً يحتمس فيها مقاتلي الجيش العراقي أثناء المعركة:

«إن عماراً قال يومئذ: من يتخي رضوان ربه ولا يلوي إلى مال ولا ولد؟ فأتته عصابة من الناس.

فقال: أيها الناس! اتصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يتفنون دم عثمان ويزعمون أنه قتل مظلوماً. والله ما قصدكم إلا أخذ بدمه ولا الأخذ بشأره. ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحلوها واستمروا الآخرة فقلوها. وعلموا أن الحق إذا

(1) وقعة صفين لنصر بن مزاحم.

(2) ونفس هذه الرواية وودت في كتاب الفتح لابن هشام الكوفي.

(3) البداية والنهاية لابن كثير. وقريب من ذلك رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى. وأجزاء من هذه الرواية وردت في المستدرک على الصحيحين للحاكم.

لزمهم حال بينهم وبين ما يترغون فيه من دنياهم وشهواتهم. ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس لهم ولا الولاية عليهم. ولا تمكنت من قلوبهم خشية الله التي تمنع من تمكنت من قلبه عن نيل الشهوات، وتمقله عن إرادة الدنيا وطلب العلو فيها وتحمله على اتباع الحق والميل إلى أهله. فخذعوا أتباعهم بقولهم إيماننا قتل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً. وتلك مكينة بلغوا بها ما ترون. ولولا ذلك ما تبهم من الناس رجلاً، ولكانوا أذل وأخس وأقل. ولكن قول الباطل له حلاوة في أسماع الغافلين. فسروا إلى الله سيراً جميلاً واذكروا ذكراً كثيراً

ولا شك عندي أن عمار بن ياسر وهو يظهر ذلك الحماس والاخلاص في تأييده علياً كان يتذكر أيامه مع رسول الله (ص) ويستحضر جهاده معه والحروب التي خاضوها معاً ضد كبار قبيلة قريش في بدر وأحد والخندق، وعلى رأسهم طبعاً أبو سفيان، والد معاوية. وكان لا بد أن تأتي النهاية: قتل عمار، وسقط في أرض المعركة شهيداً في سبيل علي، والحق الذي يمناه علي. نتائج الرواية:

«..... رأيتُ عماراً يوم صفين شيخاً كبيراً، آدم طوالاً، أخذ الحرية بيده ويده ترعد.

فقال: والذي نفسي بيده! لقد قتلتُ بهذه الراية مع رسول الله ثلاث مرات، وهذه الرابعة. والذي نفسي بيده! لو ضربونا حتى يلبغوا بنا سعات هجر لعرفتُ أننا على الحق وأنهم على الضلالة!

.... ورأيتُ عماراً لا يأخذ وادياً من أودية صفين إلا أتبعه من كان هناك من أصحاب رسول الله.

ورأيتُ جاء إلى هاشم بن عتبة، وهو صاحب راية علي، فقال: يا هاشم تقدم! الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسنة. وقد فتحت أبواب الجنة وتزيّنت الحور العين:

اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه

ثم حملاً هو وهاشم فقتلا، رحمهما الله تعالى»

ومواقف عمار هذه وكلامه في صفين ذكرها حتى اهل الحديث، وليس فقط أهل التاريخ والاختيار. فهذا الامام احمد في مسنده يُخرج عن عبد الله بن سلمة انه قال: «رأيتُ عماراً يوم صفين شيخاً كبيراً، آدم طوالاً، أخذ الحرية بيده ويده ترعد.

فقال: والذي نفسي بيده! لقد قاتلتُ بهذه الراية مع رسول الله ثلاث مرات، وهذه الرابعة. والذي نفسي بيده! لو ضربونا حتى يلبفوا بنا شعفات حجر لعرفتُ أن مصلحتنا على الحق وأنهم على الضلالة»

وكان قتل عمار بن ياسر من الأمنيات التي تحققت لهني أمة. لقد جعلوا قتل عمار من أولويات أهدافهم. وكان ابتهاجهم بقتله عظيماً، وكان عملاؤهم وأنباعهم الباحثون عن الفنائم يدركون ذلك. فتنازع عدة أشخاص «شرف» قتل عمار⁽¹⁾

ولم يكن عمار وحده من يتذكر إيامه وجهاده مع الرسول (ص)، بل قيس بن سعد بن عبادة ايضا كان يذكر جهاد قومه الأنصار، فقام بين الناس قائلاً:

«هذا اللواء الذي كنا نحفّ به، مع النبي وجبريل لنا مدّة»⁽²⁾

وقفة مع حديث: تقتله الفئة الباغية (عمار بن ياسر)⁽³⁾

روى الامام البخاري في صحيحه عن ابي سعيد «أتى ذكر بناء المسجد، فقال: كنا نحمل لبنة لبنة، وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبي (ص)، فينفض التراب

(1) وتوارث الأمويون القرعة يقتل عمار جبلاً بعد آخر! فقد روى ابن حبيب البغدادي في المحبر أنهم كانوا يسمون قتل عمار «فتح القترح»! وإن أحد الذين قتلوا عمار من الذين طال عمرهم كثيراً، ويدعى «أبو الغادية» قد أقبل على الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، فاستأذن للدخول عليه، وقال للمحارب بكل فخر: قل له هذا أبو الغادية لقاتل عمار!

(2) أسد الغابة لابن الأثير .

(3) مصادر هذا البحث: صحيح البخاري (ج 1 ص 122)، فتح الباري لابن حجر العسقلاني (ج 1 ص 452)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 32 ص 417)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 296)، مسند احمد بن حنبل (ج 4 ص 319)، انساب الاشراف للبلاذري (ج 3 ص 95).

عنه ويقول: ويتح صمار ! تقتله الفئة الباغية، يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار.

قال يقول عمار: أعرذ بالله من الفتن

وقال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ان هذا الحديث الصحيح قد روي في الكثير من كتب الحديث المعتبرة وعن طريق عدد كبير من الصحابة، بالإضافة الى ابي سعيد الخدري:

«روى حديث تقتل عمارا الفئة الباغية جماعة من الصحابة، منهم قتادة بن النعمان -كما تقدم- وأم سلمة عند مسلم، وأبو هريرة عند الترمذي، وعبد الله بن عمرو بن العاص عند النسائي، وعثمان بن عفان وحذيفة وأبو أيوب وأبو رافع وخزيمة بن ثابت ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو اليسر وعمار نفسه وكلها عند الطبراني وغيره، وغالب طرقها صحيحة أو حسنة، وفيه عن جماعة آخرين يطول عليهم»

ولكن ابن حجر رغم اعترافه بأن هذا الحديث ينطبق بالتحديد على أهل الشام في حرب صفين (وقد تحدث عن محاولات لبعض لإلصاق هذا الحديث بالخوارج والادعاء بأنهم هم الفئة الباغية، فقام برّد تلك المحاولات ويّين بطلانها) إلا أنه قدم اعتذاراً عنهم وتأويلاً لنت «الفئة الباغية» التي نلزمهم بنص الحديث.

فقال عن عمار «فإن قيل: كان قتله بصفين وهو مع علي، والذين قتلوه مع معاوية وكان معه جماعة من الصحابة، فكيف يجوز عليهم الدعاء الى النار؟ فالجواب أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون الى الجنة. وهم مجتهدون لا لوم عليهم في اتباع ظنونهم.

فالمراد بالدعاء الى الجنة الدعاء الى سببها وهو طاعة الامام.

وكذلك كان عمار يدعوهم الى طاعة علي، وهو الامام الواجب الطاعة إذ ذاك، وكانوا هم يدعون الى خلاف ذلك، لكنهم مغلورون للتأويل الذي ظهر لهم»

وابن حجر يقول هذا الكلام عن المجتهد المخطئ والصحابة المعذورون بالتأويل، نظراً لكونه فقيهاً ملتزماً على مذهب اهل السنة والجماعة. وهذا الرأي من صلب المذهب: تنزيه الصحابة، كل الصحابة، عن كل المثالب والعيوب.

وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق أنه قد روى حديث «بيع ابن سمية / تقتله الفئة الباغية» 23 صحابياً وهم: عمار نفسه، وعثمان بن عفان، ومعاوية بن ابي سفيان، وعبد الله بن عباس، وعمرو بن العاص، وابنه عبد الله، وابي رافع، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وابي هريرة، وزيد بن ابي أوفى، وجابر بن سمرة، وأبي قتادة، وعمرو بن حزم، وخزيمة بن ثابت، وابي اليسر كعب بن عمرو، وزيد بن القرد، وكعب بن مالك، وجابر بن عبد الله، وانس بن مالك، وابي امامة، وعائشة وأم سلمة.

وقد أخرج أحاديثهم بأسانيدهما، وألفاظها المختلفة والمتقاربة. ويلاحظ ان هناك روايتين حول المناسبة التي قال بها النبي(ص) هذا الكلام لعمار: الاولى هي أثناء بناء المسجد، والثانية أثناء حفر الخندق. وفي الحالتين بسبب انهماك عمار وحماسته الشديدة أثناء العمل بما يفوق غيره. وبعض الروايات فيها إضافة «وقاتله في النار» وفي بعضها الآخر «وأخر زائدك من الدنيا ضياع من لبن»⁽¹⁾.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية «وهذا مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه مع امير المؤمنين علي بن ابي طالب: قتله اهل الشام وبن وظهر بذلك سر ما أخبره به الرسول (ص) من أنه تقتله الفئة الباغية. وبن بذلك ان علياً محق وان معاوية باغ»⁽²⁾

- (1) روى الامام احمد في مسنده عن ابي البخري أن عماراً وهو في المعركة في صفين طلب شربة من لبن لأن النبي(ص) كان قال له ان ذلك سيكون آخر ما يشربه في هذه الدنيا، ثم تقدم حتى قتل.
- (2) ورغم ان هذا الكلام في ظاهره منتصف للامام علي الذي يصفه ابن كثير بأنه محق، إلا أن نظرة أعمق تكشف موقفاً في غاية السلبية والمخطورة: فابن كثير يعتبر الحديث النبوي الدلالة الوحيدة على صحة موقف الامام علي ولولاه لما عرف أي الفريقين على حق!؟

وتقول المصادر انه بعد مقتل عمار صار هناك تشكك لدى بعض الناس في جبهة معاوية بسبب حديث الفتنة الباغية، مما اضطر معاوية الى ابتكار جواب خلاق لهذه الاشكالية ا فمثلاً يقول لنا البلاذري في رواية من طريق الاعمش أن معاوية رد على تساؤل عبد الله بن عمرو بن العاص بعد مقتل عمار بقول «أنحرن قتلناه ١٩٠ إنما قتلته اللعين جالوا به، يعني علياً وأهل العراق» مما ورد اعلاه يتضح لنا ان هناك اتفاقاً وإجماعاً بين الفقهاء وأهل الحديث على صحة حديث «قتله الفتنة الباغية». ومن الصعب تجاهل ذلك خاصة وأنه مروي على لسان عدد كبير من الصحابة.

ولكنني مصرّ على موقعي: اشك في جميع الاحاديث النبوية التي فيها نبوءات وكلام عن اشخاص محددين في سياق الفتنة الكبرى. سواء لصالح الامام علي او ضده. وأرى تلك «الاحاديث» ذات مآرب وأغراض سياسية وملهية.

وانا أرى ان كون معاوية وجماعته هم الفتنة الباغية واضح كالشمس لكل ذي عينين وقلب منصف، وليس بحاجة الى حديث منسوب للنبي (ص) لاثبات ذلك. بل ان سياق الاحداث والتطورات، وما حصل بالفعل، يثبت ذلك.



وقفه مع قرشي من رجال علي: هاشم بن عتبة^(١)

ويكثر ذكر هاشم بن عتبة المرقال ضمن الرجال المخلصين في ولائهم لعلي بن ابي طالب، وخاصة عند الحديث عن معركة صفين. ويمكن اعتبار هذا الرجل حالة فريدة بالفعل: فهو قرشي صميم، وهو ابن لواحد من أشرس أعداء رسول الله (ص) في مكة. فأبوه عتبة بن ابي وقاص كان من ضمن أربعة

(١) مصادر هذا البحث: ابن سعد في الطبقات الكبرى (ج ٥ ص 32)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 21 ص 113)، ابن الأثير في اسد الغلبة (ج 5 ص 49)، ابن عبد البر في الاستيعاب (ص 747)، وكتاب المتنق لابن حبيب البغدادي (ص 397)

رجال من قريش تعاهدوا على قتل محمد (ص) قبيل بدء معركة أحد، كما روى الواقدي في المغازي، وكادوا يتجهون في مسامعهم ولكن الله سلم رسوله رغم إصابته بجروح. وإن عهدنا هؤلاء الرجال الذين عرفوا بحدة عدائهم لرسول الله (ص)، كالعاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأبي سفيان والحكم بن أبي العاص وصفوان بن أمية وغيرهم، أن يكونوا هم وأبنائهم صفاً مرصوفاً في عدائهم لعلي بن أبي طالب، وخاصة أيام خلافته. ولكن هاشماً كان على النقيض من ذلك: شديد الولاء لعلي.

ومما يزيد في غرابة موقف هاشم أن عمه سعد بن أبي وقاص كان على قيد الحياة أثناء نشاط هاشم في دعم علي. وسعد كان من أهل شورى عمر وبالتالي مرشحاً مقبولاً للخلافة بنظر النظام القرشي. أي أنه كان منافساً لعلي. ولذلك كان طبعياً أن يكون هوى هاشم مع عمه سعد، صاحب الموقف السليبي المشهور من علي وبيته وحكمه.

وليس عندي أسباب واضحة تفسر اندفاع هاشم في تأييد علي بن أبي طالب بتلك الهمة والحماسة. ولكن يظهر أنه كان من فئة الرجال شديدي التدين وصادقي النية^(١). وربما كان تاريخ أبيه القائم تجاه النبي (ص) حافزاً له لكي يعمّض عما سلف عن طريق الولاء الخالص للرسول (ص) وللعلي من بعده.

وربما كان ما يراه من انحراف وفساد في عهد ولاية عثمان بن عفان دافعاً آخر له لكي يوالي علياً، من أجل الإصلاح والتغيير. وقد روى ابن سعد في الطبقات الكبرى حادثة تظهر اصطداماً وقع بين هاشم وبين والي عثمان على الكوفة: سعيد بن العاص .

«ثم اتصرف سعيد بن العاص إلى الكوفة، فأغتر بأهلها إغتراراً شديداً. وصحل عليها خمس سنين إلا شهراً .

وقال مرة بالكوفة: من رأى الهلال منكم؟ وذلك في فطر رمضان.

(١) ولكن بشكل على سيرة هاشم ما رواه ابن حبيب البغلاني في كتاب المنق فرج عثمان أيضاً هاشم بن حبة بن أبي وقاص في الخمر، بشهادة قوم من أهل الكوفة^١

فقال القوم: ما رأيته .

فقال هاشم بن عتبة بن ابي وقاص: أنا رأيته .

فقال له سعيد بن العاص: بعينك هذه العوراء رأيته من بين القوم !؟

فقال هاشم: تعيرني بعيني؟ وإنما فقتت في سبيل الله . وكانت عينه أصيبت يوم اليرموك .

ثم أصبح هاشم في داره مفطراً . وغدى الناس عنده .

فبلغ ذلك سعيد بن العاص فأرسل اليه فضره وحرق داره .

فخرجت ام الحكم بنت عتبة بن ابي وقاص ، وكانت من المهاجرات ، ونافع بن ابي وقاص ، من الكوفة حتى قدما المدينة . فذكر السعد بن ابي وقاص ما صنع سعيد بهاشم .

فأتى سعد عثمان فذكر ذلك له . فقال عثمان: سعيد لكم بهاشم اضربوه بضربه ودار سعيد لكم بدار هاشم فاحرقوها كما حرق داره .

فخرج عمر بن سعد بن ابي وقاص ، وهو يومئذ غلام يسعى ، حتى أشعل النار في دار سعيد بالمدينة . فبلغ الخبر عائشة فأرسلت الى سعد بن ابي وقاص تطلب اليه وتسأله أن يكف ففعل⁽¹⁾

وقال ابن عبد البر في ترجمته في الاستيعاب⁽²⁾ «أسلم هاشم بن عتبة يوم الفتح، يعرف بالمرقال . وكان من الفضلاء الخيار، وكان من الأبطال اليهم، فقتل عينه يوم اليرموك، ثم أرسله عمر من اليرموك مع خيل العراق الى سعد، كتب اليه بذلك . فشهد القادسية وأبلى فيها بلاء حسناً . وقام منه في ذلك ما لم يقم من أحد . وكان سبب الفتح على المسلمين . وكان بهمة من اليهم، فاضلاً خيراً .

وهو الذي انتح جلولاء: عقد له سعد لواء ووجهه، وفتح الله عليه جلولاء، ولم يشهدا سعد . وقد قيل: ان سعدا شهدا . وكانت جلولاء تسمى

(1) وهذا النص حريفاً رواه أيضاً ابن عساكر في تاريخ دمشق نقلاً عن ابن سعد .

(2) ونفس هذا الكلام بالحرف تقريباً رواه ابن الأثير في اسد الغابة

فتح الفتح، وبلغت غنائمها ثمانية عشر ألف ألف. وكانت جلولا سنة 17.
وقال قتادة: سنة 19.

وهاشم بن عتبة هو الذي امتحن مع سعيد بن العاص زمن عثمان، إذ
شهد في رؤية الهلال وأفطر وحده، فأقصه عثمان من سعيد على يد سعد بن
أبي وقاص في خبر فيه طول.

ثم شهد هاشم مع علي رضي الله عنه الجمل، وشهد صفين، وأبلى فيها
بلاء حسناً مذكوراً. وببده كانت راية علي على الرجالة يوم صفين. ويومئذ قتل
رضي الله عنه. وهو القاتل يومئذ:

أعور يني أهله محلاً قد عالج الحياة حتى ملا

لا بد أن يفل أو يفلأ

وقطعت رجله يومئذ، فجعل يقاتل من دنا منه وهو بارك ويقول:

الفحل يحمي شوله معقولا

وقاتل حتى قتل. وفيه يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة:

يا هاشم الخير جزيت الجنة قاتلت في الله عدو السنة

أفلح بهم فزت به من مئة»



إذن تلقى الجانب العراقي ضربة موجعة في تلك المعارك حين قتل عمار
بن ياسر وهاشم بن عتبة، ومن بعدهما عبد الله بن بديل الخزاعي.

وكان عبد الله بن بديل، وهو يقود ميمنة علي، قد استبسل في القتال
بنفسه وكان يحتمس جنوده ويضرب لهم المثل في البطولة، ويلقي فيهم
الخطب المؤثرة:

«إن عبد الله بن بديل قام في أصحابه فقال:

إن معاوية ادعى ما ليس له. وتنازع الأمر أهله ومن ليس مثله. وجادل

بالباطل ليدحض به الحق. وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، وزين لهم الضلالة وزرع في قلوبهم حب الفتنة، ولبس عليهم الأمر وزادهم رجساً إلى رجسهم.

وأنتم والله على نور من ربكم وبرهان مبين.

قاتلوا الطغام الجفافة ولا تخشوهم. وكيف تخشونهم وفي أيديكم كتاب من ربكم ظاهر مبرور (أتخشونهم؟ قاله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفى صدور قوم مؤمنين) وقد قاتلتهم مع النبي (ص). والله ما هم في هذه بأزكى ولا أتقى ولا أبر. قوموا إلى عدو الله وعدوكم⁽¹⁾

وتقول الرواية انه شن حملة شديدة على مسيرة أهل الشام، وكان مصمماً على قتل معاوية ذاته. وفعلاً اقترب منه بقواته، فوجد معاوية نفسه في وضع صعب إلى أن أنقذه حبيب بن مسلمة ورجاله، الذين شنوا حملة معاكسة أرجعت قوات العراق إلى قواعدها. ولكن ابن بديل رفض التراجع وثبت في موقعه المتقدم والقريب من معاوية ومعه مائة من قراء العراق. فحوصر معهم من قبل جيش ابن مسلمة، فلم يستلموا بل استبلوا، ولم يستطع جيش معاوية القضاء عليهم بالقتال والمواجهة، بل قذفوهم بالحجارة عن بُعد إلى أن قتلوا.⁽²⁾



وفي الجانب الشامي كان معاوية وقيادته حريصين على إظهار الجانب الدفاعي في موقف أهل الشام، أمام عامة المقاتلين. وحسب النص التالي قام أحد قيادات معاوية، يزيد بن أسد البجلي، يخطب في الناس يوم صفين:

-
- (1) وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص 234).
(2) وهذا الاستبسال الذي أظهره ابن بديل ليس غريباً. فأخوه الأكبر، نافع بن بديل الخزاعي كان من ضمن الصفوة من أصحاب النبي (ص) الذين بحثهم إلى أهل نجد لفسدوا بهم وقاتلوهم حتى استشهدوا عن بكرة أبيهم في بئر معونة قبل حوالي 33 سنة. ذكر ذلك ابن اسحق في سيرة ابن هشام (ج 3 ص 171).

«... ثم قد كان مما قضى الله أن جمعنا وأهل ديننا في هذه الرقعة من الأرض. والله يعلم أنني كنتُ لذلك كارهاً، ولكنهم لم يسمعوا ريقنا، ولم يتركونا نرتاد لأنفسنا، وننظر لمعادنا حتى نزلوا بين أظهرنا، وفي حرماننا ويضتنا.

وقد علمنا أن في القوم أحلاماً وطغماً، فلما تأمن طغافهم على ذرارنا ونساننا. وقد كنا نحب ألا نقاتل أهل ديننا، فأخرجونا حتى صارت الأمور إلى أن قاتلناهم كراهية، فإنا لله وإنا إليه راجعون...»⁽¹⁾

و تعرض معاوية لخسارة قاسية حين قتل قائده العسكري الفذ والبارز، والفارس المشهور: ذو الكلاع الجهمي.

وكان ذو الكلاع قد ألقى خطبة مهمة قيل مقتله، بطلب من معاوية، توضح بجلالة الفلسفة الدعائية التي استند إليها معاوية، ولم يعمل من تكرارها أمام جنوده بشكل متواصل، من أجل استمرار ثباتهم. وفيها أربع نقاط:

«... لم أتر يسعني أن يهتد دم عثمان، صهر رسول الله (ص) نينا.... فلأن كان أذنب، فقد أذنب من هو خير منه وقد قال الله عز وجل لنبيه: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر...

.... إنا لنعلم أنه قد كانت لابن أبي طالب سابقة حسنة مع رسول الله. فلأن لم يكن مالا على قتل عثمان فقد خلله...

... ثم قد أقبلوا من عراقتهم حتى نزلوا في شامكم وبلادكم...

.. فلأن سمعتُ عمر بن الخطاب يقول سمعتُ رسول الله (ص) يقول: إنما يُبيح المقتلون على النيات⁽²⁾»

وقتل حوشب ذو ظليم، قائد رجالة حمص.

وايضاً كانت خسارة معاوية كبيرة بمقتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب⁽³⁾، أحد عناصر التبعية والدعابة المهمة له.

(1) وثقة صفين لتصر بن مزاحم (ص 242).

(2) وثقة صفين لتصر بن مزاحم (ص 240).

(3) بروي البلاذري في انساب الأشراف (ج 3 ص 102) تفاصيل كثيرة حول مقتله، وكيف أنه طلب من معاوية أن يولي قيادة «الشمسة» وهي ما يشبه وصف «قوات النخبة» في أيامنا، من أجل التصدي للضغط العسكري الذي كانت تشكله قبيلة ربيعة من الجانب العراقي، وأن ذلك أدى إلى مقتله على أيديهم واحتجاز جسدهم مما دفع زوجته بحرية، وهي من قبيلة ربيعة، إلى اللعب للقرمها المراقين للحصول عليها ودفعه.

وعلى الرغم من كل ذلك القتال الشديد:

«كان أهل العراق وأهل الشام أيام صفين إذا انصرفوا من الحرب، يدخل كل فريق منهم في الفريق الآخر فلا يعرض أحد لصاحبه. وكانوا يطلبون قتلاهم، فيخرجونهم من المعركة ويدفنونهم»⁽¹⁾

مبارزات وهمية⁽²⁾

في كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم يظهر النفس الملحمي، حيث لقاءات الأبطال والمبارزات، والأشعار والمفاخرات. وليس غريباً حدوث مبارزات ومواجهات فردية بين فرسان من الجانبين، ولكن يلاحظ مبالغات في ذلك، خاصة حين يتعلق الأمر بالقيادات العليا للفريقين، أو بكيار السن ممن يستحيل التصديق بقدرتهم على خوض منازلات تعتمد على القوة الجسدية أساساً. ويلاحظ في روايات نصر تركيز على إظهار بطولات الامام علي، وصمار، ومالك الاشر بالذات، مقابل تخاذل معاوية وعمرو.

ففيما يتعلق بعمر بن العاص، فقد كان في الثمانينات من عمره، فكيف يعقل ان يبادر الى التصدي بنفسه ليبارز الفرسان؟ ومتى كان عمرو يتصدى ويبارز القتال بنفسه؟ لقد أشار الامام علي مرة الى حرصه على حياته وعدم مباشرته القتال فقال «فلما كان عند الحرب فأني زاجر وأمر هو، ما لم تأخذ السيوف مأخضها». وهو كان قصير القامة ولم يعرف عنه القوة الجسدية أو البطولة الفردية، حتى وهو أصغر سناً بكثير.

فهل يعقل انه يتصدى ليبارز مالك الاشر؟ قال نصر: ان معاوية⁽³⁾ طلب

(1) الأخبار الطوال للدينوري (ص 179).

(2) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص 440 وص 407 وص 460 وص 458 وص 272)، ابن قتيبة في الامامة والسياسة (ج 1 ص 127)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج 2 ص 181)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 91)، ابن كثير في البداية والنهاية (ج 7 ص 292)، ابن أبي الفتح الأريلي في كشف الغمة (ج 1 ص 255)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 5 ص 20)، الأخبار الطوال للدينوري (ص 176).

(3) وجدير بالذكر ان معاوية لم يكن يمارس القتال بنفسه أبداً. وجوده كان دائماً للتخطيط والتوجيه والإشراف فقط. بل ان هناك روايات تفيد بأن معاوية كان قد ابتدع نظام «الفهمة» الذي هو موجود لدى بعض الزعماء في ايامنا هذه، حين يقوم شخص يشبه الرئيس او الزعيم بالمشاركة في مناسبات عامة بدلاً منه، فيراه الناس من بعد ولا يعرفون انه يؤدي الدور المطلوب منه. روى الدينوري في الأخبار الطوال ونصر بن

من مروان بن الحكم ان يخرج في الخيل ليقا تل الا شتر، فرفض مروان لأن معاوية يفضل عمراً عليه. فطلب معاوية من ابن العاص ان يتصدى للا شتر، فوافق وخرج في الخيل فلقبه الا شتر أمام الخيل وهو يرتجز شعراً «عمره عمرو أنه الا شتر، وفشل حيله وجبن، واستحيا أن يرجع» ثم تقدم عمرو نحو الا شتر وهو يرتجز بدوره شعراً «فلما غشيه الا شتر بالرمح زاغ عنه عمرو، فطعته الا شتر في وجهه فلم يصنع (الرمح) شيئاً، وثقل عمرو فأمسك (عنان) فرسه وجعل يده) على وجهه، ورجع راكضاً الى العسكر»

وفي موضع آخر يذكر نصر ان عمرو بن العاص كان يتقدم قوات للشاميين ويرتجز شعراً، فاعترضه علي وهو يرتجز شعراً يعارضه به «ثم طعته، فصرعه، واتقاء عمرو برجله، فبذت عورته، فصرف علي وجهه عنه! وارث. فقال القوم: أفلت الرجل يا أمير المؤمنين. قال: وهل تدرون من هو؟ قالوا: لا. قال: فإنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه.

ورجع عمرو الى معاوية فقال له: ما صنعت يا عمرو؟ قال: لقيني علي فصرعني. قال: احمد الله وعورتك...»

ويبدو التصنع ظاهراً في هذه الرواية، خاصة حين يترسل نصر في الحديث عن كلام معاوية لعمرو، وتندر عليه، وقوله شعراً يعيبه به ويمتدح عليها وشجاعته!

بل ان ابن قتية في الامامة والسياسة روى ان مبارزة ابن العاص لعلي كانت عن تصميم وإرادة، وليست عارضة كما في رواية نصر «وذكروا ان عمراً قال لمعاوية: أتجن عن علي وتهمني في نصيحتي اليك؟ والله لا يبارز علياً ولو مت ألف موة في أول لقاءه.

فبارزه عمرو. فطعته علي فصرعه، فاتقاء بعورته، فانصرف عنه علي، وولى بوجهه دونه.

مزامح في وقعة صفين «قالوا: وكان فارس معاوية الذي ينتهي به حريث مولاه. وكان يلبس بزة معاوية، ويستم سلاحه، ويركب فرسه، ويجعل مثنيها بمعاوية فلما حمل قال الناس: هذا معاوية».

وكان علي رضي الله عنه لم ينظر قط الى صورة أحد، حياءً وتكرماً،
وتترهاً عما لا يحل ولا يجمل بمثله، رضي الله عنه»

ولا بد من ملاحظة التناقض الصارخ في هذه الرواية بين حماسة عمرو
وتحذيره، وبين احتمائه بهورته!

ومن ذلك ما رواه نصر بن مزاحم من مبارزة بسر بن أرطاة لعلي نفسه.
فقد روى أن معاوية اقترح على بسر أن يخرج ليبارز علياً فوافق بعد كلام كثير
« فاستقبله بسر قريباً من التل، وهو مقنع في الحديد لا يعرف. فناداه:
أبرز التي أبا حسن. فأنحدر اليه علي تودة غير مكترث. حتى اذا قاربه طعنه
وهو دارع. فالتقاء على الأرض. ومنع الدرع السنان ان يصل اليه، فالتقاء بسر
(بهورته) وقصد ان يكشفها، يستدفع بأسه. فأنصرف عنه علي عليه السلام
مستدبراً له. فعرفه الاشر حين سقط، فقال: يا أمير المؤمنين هذا بسر بن أرطاة
عدو الله وعدوك. فقال: دعه عليه لعنة الله، أبعد أن فعلها! »

وبالإضافة الى مبارزته عمرو بن العاص وسر بن أرطاة، وفرارهما منه
بعد كشف عورتهم، يروي نصر بن مزاحم ان علياً بارز بنفسه، وقتل، عدداً
آخر من فرسان أهل الشام، منهم حريث مولى معاوية، وكريب بن الصباح
الحميري، وابو داود عروة بن داود الهمشقي، وابن عم ابي داود.

ورغم انه لا شك مطلقاً بقدرات أمير المؤمنين علي في ميدان الحرب،
وبطولته وقوته وقدرته على الانتصار في البراز، إلا أنه من المبرر الشك في
هذه المبارزات المنسوبة له يوم صفين. فهو كان وقتها القائد الأعلى لجيوش
العراق ولذلك فمن غير المنطقي أن يترك شؤون القيادة والتوجيه وينخرط
شخصياً في مبارزات مع أشخاص من جيش الشام.

ومما يؤيد هذا التحليل موقف سابق لأمير المؤمنين علي عندما اشار به
الخليفة عمر بن الخطاب بشأن الخروج الى غزو الروم بنفسه:

«إنك متى تدير الى هذا العدو بنفسك فتلقهم بشخصك فتكذب لا تكن
للمسلمين كافة دون أقصى بلادهم. ليس بمالك مرجع يرجعون اليه. فابعث

اليهم رجلاً محرباً، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهر الله فذلك ما تحب، وإن تكن الأخرى كنت ردة للناس ومثابة للمسلمين»⁽¹⁾

فهو هنا يقول لعمر إن منصب القائد الأعلى للجيوش أهم وأسمى من مباشرة الحرب والقتال بنفسه. فالقائد ينبغي أن يكون موجهاً لجنوده ومرجعاً لهم، مما يحمله مسؤولية تحول بينه وبين الانخراط في العمل الميداني بنفسه. روى ابن عبد البر في الاستيعاب:

«وكان بسر بن أرطاة من الأبطال الطغاة، وكان مع معاوية بصفين، فأمره أن يلقى علياً في القتال. وقال له: سمعتك تتمنى لقاءه، فلو أظهرك الله به وصرته، حصلت على دنيا وآخرة. ولم يزل به يشجعه ويمنيه حتى رآه، فقصده في الحرب فالتقيا، فصرعه علي رضي الله عليه، وعرّض له معه مثل ما عرض فيما ذكروا لعلي رضي الله عنه لعمر.»

ذكر الكلبي في كتابه في أخبار صفين أن بسر بن أرطاة بارز علياً رضي الله عنه يوم صفين، فطعته علي رضي الله عنه فصرعه فأنكشف له، فكف عنه، كما عرض له فيما ذكروا مع عمرو بن العاص، ولهم فيها أشعار مذكورة في موضعها من ذلك الكتاب، منها فيما ذكر ابن الكلبي والملائني قول الحارث بن النضر السهمي .

قال ابن الكلبي: وكان عدواً لعمر ووسر:

أفي كل يوم فارس ليس يتهي وعورته وسط العجاجة ياديه
يكف لها عنه عليّ سنانه ويضحك منه في الخلاء معاويه
بدت أمسي من عمرو فقتع رأسه وعورة بسر مثلها حذو حاذيه
فقولا لعمر و ثم بسر: ألا انظرا سييلكما لا تلقيا الليث ثاتيه
ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما هما كانتا والله للنفس واقيه
ولولاهما لم ينجوا من سنانه وتلك بما فيها عن العود ناهيه

(1) نهج البلاغة بشرح محمد عبده

متى تلقيا الخيل المشيخة صُبحة وفيها عليٌّ فاتركا الخيل ناحية

وكونا بعيداً حيث لا تبلغ القنا نحوركما إن التجارب كافيه

قال أبو عمر: إنما كان انصراف علي رضي الله عنه عنهما وعن أمثالهما من مصروع ومنهزم، لأنه كان يرى في قتال الباغيين عليه من المسلمين ألا يُتبع مدبرٌ ولا يُجهز على جريح ولا يُقتل أسير. وتلك كانت سيرته في حروبه في الاسلام رضي الله عنه»

وقال العلامة ابن كثير في البداية والنهاية هو قد ذكر علماء التاريخ وغيرهم ان علياً رضي الله عنه بارز في ايام صفين وقتل خلقاً، حتى ذكر بعضهم انه قتل خمسمائة. فمن ذلك ان كريب بن الصباح قتل اربعة من اهل العراق ثم وضعهم تحت قدميه ثم نادى: هل من مبارز؟ فبرز اليه علي فتجاولا ساعة ثم ضربه علي فقتله ثم قال علي: هل من مبارز؟ فبرز اليه الحارث بن وداعة الحميري فقتله. ثم برز اليه المطاع بن المطلب القيسي فقتله. فتلا علي قوله تعالى (والحرمات قصاص).

ثم نادى ويحك يا معاوية ابرز لي ولا تفن العرب بيني وبينك!

فقال له عمرو بن العاص: اغتتمه فانه قد أنخن بقتل هؤلاء الاربعة.

فقال له معاوية: والله لقد علمت ان علياً لم يقهر قط. وانما أردت قلبي لتصيب الخلافة من بعدي. اذهب اليك! فليس مثلي يخذع

وذكروا ان علياً حمل على عمرو بن العاص يوماً فضربه بالرمح فأنقذه الى الارض فبذت سواده فرجع عنه. فقال له اصحابه: مالك يا امير المؤمنين رجعت عنه؟ فقال: أتدرون ما هو؟ قالوا: لا! قال: هذا عمرو بن العاص تلقاني بسواده فذكرني بالرحم فرجعت عنه. فلما رجع عمرو الى معاوية قال له: احمد الله واستك! (1)

وفي المصادر الشيعية يظهر دور الامام علي في مباشرة القتال بنفسه أكبر

(1) وهذه الرواية، بكل ما فيها، لا يمكن تصديقها. بل هي تنلج في اطار الروايات الدعاية المتخيلة والهادفة الى الحط من قدر معاوية وعمرو بن العاص وإظهارهما بمظهر الجبن والتخاذل.

من ذلك بكثير. وهذا مثال من مبالغات الروايات الشيعة: يروي ابن أبي الفتح الأريلي في كشف الغمعة هو الأمام عليه السلام قد باشرها بنفسه، فكم قتل من رجالها وأردى من فرسانها، وكم أنحى على كنية فما عاد إلا بعد تشريق جمعها وهذا أركانها..... وأمير المؤمنين فارس ذلك الجمع وأسده وإمامه ومولاه وسيده، وهادي من أتبعه ومرشده، يهدر كالنحل ويزار كالأسد..... فما لقي شجاعاً إلا وأراق دمه، ولا بطلاً إلا وزلزل قدمه، ولا مريداً إلا وأعدمه ولا قاسطاً إلا قصر عمره.... وكان كلما قتل فارساً أعلن بالتكبير، فأحصيت تكبيراته ليلة الهرير فكانت خمسمائة وثلاثاً وعشرين تكبيرة بخمسمائة وثلاث وعشرين قتيلاً من أصحاب السعير. وقيل: إنه في تلك الليلة فتق نيفق درعه لتقل ما كان يسيل من الدم على ذراعه. وقيل: إن قتلاه عرفوا في النهار فإن ضرباته كانت على وتيرة واحدة، إن ضرب طولاً قد أو عرضاً قط، وكانت كأنها مكواة بالنار»

ومن تلك الاخبار التي لا بد من ردها ما ذكره ابن سعد في طبقاته عن أبي رزين «والتقى عمار بن ياسر وعبيد الله بن عمر. فقال عبيد الله: انا الطيب بن الطيب. فقال له عمار: انت الخبيث بن الطيب. فقتله عمار»

فعمار بن ياسر كان يقترب من التسعين من عمره، فهل يعقل انه قادر على مباشرة القتال بنفسه؟ وهل يعقل انه يتغلب على رجل شرس يصغره بما يزيد على اربعين عاماً؟

وقد أشار ابن سعد نفسه الى الشك في صحة هذا الخبر، فقال ان هناك من يقول ان عبيد الله قتله رجل من الحضارمة، أو رجل من همدان، أو من ربيعة أو من بني حنيفة.

قتال ليلة الهرير⁽¹⁾

وتصاعدت حدة القتال إلى أن وصلت إلى المواجهة الشاملة والالتحام الكلي بين الجيشين:

(1) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص 262-263)، ابن قتيبة في الامامة والسياسة (ج 1 ص 144)، الأخبار الطوال للدينوري (ص 179 وص 183-184)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 302)، كتاب «الفتا» لابن حبان (ج 2 ص 290)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 5 ص 205 وص 249 وص 340)، كتاب الفتح لابن اعثم (ج 3 ص 180).

وإن علياً رضي الله عنه أشاع أنه يخرج إلى أهل الشام بجميع الناس،
فبقائهم حتى يحكم الله بينه وبينهم.

ففرع الناس لذلك فرحاً شديداً. وقالوا: إنما كنا إلى اليوم تخرج الكنية
إلى مثلها، فيقتلون بين الجمعين. فإن التقينا بجميع الفيلقيين فهو فناء العرب.
وقام علي في الناس خطيباً فقال: ألا إنكم ملاقو القوم غداً بجميع الناس.
فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا قراءة القرآن، وسلوا الله الصبر والعفو، والقوهم
بالجدة⁽¹⁾

ويؤدوه خطب معاوية بجنوده «...يا أهل الشام: فإنما تلقون غداً العدو
فكونوا على إحدى ثلاث خلال:

إما قوماً تطلبون ما عند الله بقتالكم قوماً بفوا عليكم

وإما قوماً تطلبون بدم الخليفة عثمان، فإنه خليفتم وصهر نبيكم

وإما قوماً تدفعون عن نساكنكم وذرايعكم...»⁽²⁾

وكانت الذروة في ما يعرف بليلة الهرير:

فكانت ليلة الجمعة: تقصفت الرماح ونفذت النبال، وصار الناس إلى
السيوف.

وعلي رضي الله عنه يحرض القبائل، ويتقدم عليهم يأمر بالصبر والثبات
وهو أمام الناس في قلب الجيش، وعلى الميمنة الأشر، تولاهما بعد قتل عبد
الله بن بليل عشية الخميس ليلة الجمعة - وعلى الميسرة ابن عباس، والناس
بقتلون من كل جانب.

فذكر غير واحد من علمائنا علماء السير - أنهم اقتتلوا بالرماح حتى
تقصفت، وبنال حتى فئت وبالسيف حتى تحطمت. ثم صاروا إلى أن
تقاتلوا بالأيدي والرمي بالحجارة والتراب في الوجوه، وتعاوضوا بالأسنان

(1) الأخبار الطوال للذهبي

(2) كتاب «الفتاح» لابن حبان. ويرأي أن كلام معاوية هذا في منتهى الذكاء والتوفيق. هو
يخاطب جنوده وأهل الشام بمنطقي سلس متع

يقتل الرجلان حتى يشخنا ثم يجلسان يشربان وكل واحد منهما يهمر على الآخر ويهمر عليه ثم يقومان فيقتلان كما كانا

ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك. وصلى الناس الصبح إيماءً وهم في القتال حتى تضاحى النهار...⁽¹⁾

وقد وصف ابن قتيبة قتال ليلة الهرير «ثم اقتتلوا حتى تكسرت الرماح، وتقطعت السيوف وأظلمت الأرض من القتلى وأصابهم البهر⁽²⁾، وبقي بعضهم ينظر إلى بعض بهيراً.....»⁽³⁾

وقد وصف الدينوري في الأخبار الطوال دور علي شخصياً في قتال ليلة الهرير فقال «وان علياً رضي الله عنه لينغمس في القوم، فيضرب بسيفه حتى يشقي، ثم يخرج متخضباً بالدم حتى يسوي له سيفه، ثم يرجع فينغمس فيهم» وأضاف أنه في اليوم التالي «حمل عليٌ بنفسه على أهل الشام حتى غاب فيهم، فانصرف متخضباً بالدماء، فلم يزلوا كذلك يومهم كله والليل حتى مضى ثلثه. وجرح عليٌ خمس جراحات: ثلاث في رأسه وإثنتان في وجهه»⁽⁴⁾

وهذا وصف آخر معتبر لقتال ليلة الهرير وشراسة «وقامت الفرسان في الركب فاصطفقوا بالسيوف وارتفع الرهج وثار القتلى وتضمضت الرايات وحطت الألوكة وغابت الشمس وفجبت مواقيت الصلاة حتى ما كان في الفريقين أحد يصلي ذلك اليوم ولا سجد سجدة لله ولا كانت الصلاة إلا بالتكبير والإيماء نحو القبلة. وهجم عليهم الليل واشتدت الحرب، وهذه ليلة الهرير، فجعل بعضهم يهر على بعض ويعتق بعضهم بعضاً.. وجعل عليٌ رضي الله عنه يقف ساعة بعد ساعة ويرفع رأسه إلى السماء وهو يقول: اللهم

(1) البداية والنهاية لأين كثير

(2) القتلى هو الذيار والبهر هو انقطاع النفس أو تآلمه من الإعياء

(3) الإمامة والسياسة لأين قتيبة

(4) رغم أني لا أشك في بطولة علي في ساحات الوغى وشجاعته ورسالته، إلا أني لا أستطيع قبول هذه الرواية التي يظهر فيها علي وقد انخرط بشخصه لياشر القتال في المعركة. لقد كان القائد الأعلى للجيش، الخليفة، وكان يمتلك من الحكمة ما يجعله يعرف أن دوره في هذه المرحلة هو الإشراف والتوجيه واتخاذ القرارات، لا الانغماس في القتال لما في ذلك من خطر على المصلحة العليا.

إليك نقلت الأقدام واليك أفضت القلوب ورفعت الأيدي ومُدت الأعناق
وطلبت الحوائج وشخصت الأبصار. اللهم افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت
خير الفاتحين. ثم أنه حمل في سواد الليل وحملت الناس معه⁽¹⁾

قال هشام جميعط بشأن قتال ليلة الهرير:

«كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضاً في الجاهلية. وإنهم لحديثو عهدٍ بها.
فالتقوا في الإسلام وفيهم بقايا تلك الحماية (الغضب في القتال لأجل العرض
والدم)، وعند بعضهم بصيرة الدين والإسلام.

فصابروا واستحيوا من الفرار حتى كانت الحرب تبيدُهم. إن مفاهيم الحماية
والأحساب والدين كانت المحركات المستبطة في كل رجل، لمعركة متساوية
عدداً، لا يمكنها أن تؤدي إلى غالب أو مغلوب. إنها معركة أبطال، حيث لم يكن
أحدٌ يظهر استعداده للتراجع ولو قيد أنملة، وحيث كان كل واحد يضع حياته في
الميزان، وحيث كانت تتضافر خصال العروية والإسلام القتالية الكبرى.

إن الحماس الشديد والمقاومة في المعارك، باسم الدين، كانا فقط وفقاً
على أقلية. وإن السواد الأعظم من المقاتلين اضطر في نهاية المطاف أن ينهل
من قيم الشرف والعرض في الجاهلية، التي مقتها الإسلام. إن بعض الصور
في وقعة صفين تظهر الرجوع إلى «النداء بالأحساب» وهو مفهوم يختلط
فيه النسب واللقب والشرف بطريقة طقوسية. يتعلق الأمر بتراجع ونكوص
بالنسبة إلى الروح الإسلامية. لكنهم وصلوا إلى ذلك الحد⁽²⁾

والنص التالي يوضح كيف اضطر أبناء القبيلة الواحدة، الموزعين على
الجانبين، إلى الاقتتال فيما بينهم:

«إن عبد الله بن حنشل الخثعمي، رأس خثعم الشام، أرسل إلى أبي كعب
الخثعمي، رأس خثعم العراق: إن شئت نواقفنا فلم تقتل. فإن ظهر صاحبكم
كنا معكم، وإن ظهر صاحبنا كتم معنا. ولا نقتل بعضنا بعضاً.

(1) كتاب الفتح لابن هشام

(2) «الفتنة» لهشام جميعط (ص 201)

فأبى أبو كعب ذلك.

فلما التقت خشم وخشم وزحف الناس بعضهم إلى بعض، قال عبد الله بن حنشل لقومه: يا معشر خشم! إنا قد عرضنا على قومنا من أهل العراق المودة، صلة لأرحامها، وحفظاً لحقها، فأبوا إلا قتالنا. وقد بدرونا بالقطيعة. فكفوا أيديكم عنهم حفظاً لحقهم أبداً ما كفوا عنكم. فإن قاتلوكم فقاتلوهم.

فخرج رجل من أصحابه فقال: إنهم قد ردوا عليك رأيك، وأقبلوا إليك بقاتلوك.

ثم برز. فنادى رجلاً: يا أهل العراق!

فغضب عبد الله بن حنشل فقال: اللهم قيس له وهب بن مسعود - يعني رجلاً من خشم الكوفة، كان شجاعاً يعرفونه في الجاهلية، لم يارزه رجل قط إلا قتل - فخرج إليه وهب بن مسعود. فقتله.

ثم اضطربوا ساعة. واقتتلوا أشد القتال.

فجعل أبو كعب يقول لأصحابه: يا معشر خشم! ختموا (أي اضربوا) موضع الخلعة، وهي المخلخال، يعني اضربوهم في سوقهم).

فناداه عبد الله بن حنشل: يا أبا كعب! الكل قومك فأنصف.

قال: أي والله وأعظم.

واشد قتالهم.

فحمل شمر بن عبد الله النخعي، من خشم الشام، على أبي كعب فطعته فقتله. ثم انصرف بيكي ويقول: برحمتك الله أبا كعب! لقد قتلتك في طاعة قوم أنت أمس بي رحماً منهم، وأحب إلي منهم نفساً. ولا أرى قريشاً إلا وقد لعبت بنا.

ووثب كعب بن أبي كعب إلى راية أبيه، فأخذها. ففقت عنه وصرع.

ثم أخضعها شريح بن مالك الخثعمي. فقاتل القوم تحتها حتى صرع منهم حول رايتهم نحو 80 رجلاً، وأصيب من خثعم الشام مثلهم⁽¹⁾

وأورد نصر بن مزاحم أخباراً كثيرة عن أشخاص من الجانبين اضطروا إلى مبارزة أو مواجهة إخوان لهم، أو أبناء عم أو أقرباء غير بعيدين، وروى كيف كان البعض منهم يترجعون في اللحظة الأخيرة، بينما مضى آخرون إلى النهاية وقتلوا بعضهم البعض. وفيما يلي نص يوضح مشاعر قبيلة الأزد العراقية لما وجدت نفسها في مواجهة قبيلة الأزد الشامية، كما عبر عنها مخنف بن سليم:

«إن من الخطب الجليل والبلاء العظيم أنا حُرُفنا إلى قومنا وصُرفوا إلينا. فوالله ما هي إلا أيدينا تقطعها بأيدينا وما هي إلا أجنحتنا نحلقها بأسيافتنا. فإن نحن لم نفعل، لم نناصح صاحبنا، ولم نواسي جماعتنا. وإن نحن فعلنا فعزنا أبحتنا ونازرتنا أخملنا»⁽²⁾

ويمكن بكل يسر فهم أسباب تلك الحيرة المأساوية في كلام مخنف. فإن هم مضوا في المواجهة قتلوا إخوانهم وأقرباءهم، وإن هم تكسروا يكونوا قد خانوا إمامهم وقائدهم!

والنتيجة كانت أنهم اضطروا للقتال، وذكر نصر أسماء عدد من ضحايا تلك المواجهة بين جناحي قبيلة الأزد.

وهكذا كان القتال في ذلك اليوم شرساً، وقاسياً، ومأساوياً. والصورة التي أوردتها ابن أبي الحديد حول الرجل الخثعمي الذي يقتل قريبه من أهل العراق ثم يتصرف وهو يبكي حزناً عليه، حقيقة بلا شك، وربما تكررت كثيراً في ذلك اليوم.

ورغم ذلك كله فإن تصميم عليّ على مواصلة القتال لم يتزعزع، وإرادته لم تضعف:

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وقد أورد العلامة ابن أبي الحديد في الجزء الخامس من كتابه الكبير المزيد من نداءات القبائل العربية لبعضها أثناء المعركة، يمكن لمن شاء الرجوع إليها.

(2) وقعة صفين لنصر بن مزاحم

ثم إن علياً قام من صبيحة ليلة الهيرير في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس! إنه قد بلغ بكم وبعدوكم الأمر إلى ما ترون. ولم يبق من القوم إلا آخر نفس. فتأهبوا وحكمكم الله لِمَنَاجِزَةِ عدوكم هذا، حتى يحكمكم الله بيننا وبينهم. وهو خير الحاكمين»⁽¹⁾

روايات «فرار معاوية»⁽²⁾

قال نصر بن مزاحم في «وقعة صفين» في رواية عن ابن اسحق «وأصبح عليّ فرحل الناس وهو يريد أن ينزل على أهل الشام في عسكرهم. فقال معاوية: فأخذتُ معرقةً فرسي، ووضعتُ رجلي في الركاب، حتى ذكرتُ أبيات عمرو بن الأظينة:

أبت لي عفتي وأبى بلاتي وأخذني الحمد بالثمن الريح
فعدتُ إلى مقعدي فأصبحتُ خير الدنيا»

وأكد هذه الرواية الإمام الذهبي الذي روى في سير اعلام النبلاء عن أبي حاتم السجستاني «قال معاوية: لقد وضعتُ رجلي في الركاب وهممتُ يوم صفين بالهزيمة فما منعتني إلا قول ابن الأظينة:

أبت لي عفتي وأبى بلاتي وأخذني الحمد بالثمن الريح
وأكرهني على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشمت وجاشت مكانك تحمدي أو تشرحي»

وروى البيهقي في تاريخه «وزحف أصحاب علي وظهروا على أصحاب معاوية ظهوراً شديداً، حتى لصقوا به، فلحق معاوية بفرسه لينجو عليه، فقال له

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4: ص 4 و ص 8 و ص 13-27)، انساب الاشراف للبلاذري (ج 3 ص 103). وقصة صفين لنصر بن مزاحم (ص 395)، ابن قتيبة في الإمامة والسياسة (ج 1 ص 131)، الأخبار الطوال للدينوري (ص 181-183-186)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 293)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج 3 ص 142)، المقصد الفريد لابن عبد ربه (ج 3 ص 90)، تاريخ البيهقي (ج 2 ص 188).

عمرو بن العاص: الى اين؟ قال: قد نزل ما ترى، فما عندك؟ قال: لم يبق إلا حيلة واحدة: أن ترفع المصاحف، فتدعوهم الى ما فيها، فتستكفهم وتكسر من حدهم، وتقتل في أعضادهم. قال معاوية: ففأنتك. فرفعوا المصاحف... وبالرجوع الى ما رواه الدينوري في الاخبار الطوال يمكن ملاحظة ثلاث مرات ورد فيها كلام عن تفوق كاسح حققه جيش العراق بقيادة علي الى درجة دفعت معاوية الى التفكير بالهرب: مرتان منها تذكر ان معاوية (دعا بفرسه ليركبها) ومرة تقول انه (أخلى سراحه) 11 وانه كان يغير رأيه في آخر لحظة.

وروى البلاذري عن الزهري قلما خاف أهل الشام ظهور القوم عليهم قال عمرو لمعاوية - وهو على القتال: هل انت مطيع في أمر أشير به؟ ثم رجلا فليشر المصحف ثم يقول: يا أهل العراق بيتا وبينكم كتاب الله... 12

وروى ابن عبد ربه في العقد الفريد لما كان يوم الهير، وهو أعظم يوم بصفين، زحف أهل العراق على أهل الشام فأزالوهم عن مراكزهم، حتى انتهوا الى سراق معاوية، فدعا بالفرس وهم بالهزيمة. ثم التفت الى عمرو بن العاص وقال له: ما عندك؟ قال: تأمر بالمصاحف ترفع في أطراف الرماح، ويقال: هذا كتاب الله يحكم بيتا وبينكم 13

كانت تلك بعض الروايات التي تصوّر معاوية وهو على وشك الفرار من الميدان بسبب الهزيمة الساحقة لقواته، وهناك المزيد منها. ولكن التعمق في الموضوع أكثر وتبني الكثير من الروايات المشهورة التي تتناول سير القتال في صفين، يجعلنا نخرج برأي مغاير ويشير الى أن الجيش العراقي هو الذي هانى من ضغط عسكري أشد. فمثلا يروي الطبري في تاريخه عن أبي مخنف أن ميمنة الجيش العراقي، وهي مكونة أساسا من قبائل همدان وغيرها من اليمانية، قد انهزمت أمام ضغط الجيش الشامي، وإن الامام علي - ومعه بنوه - اضطروا الى اللجوء الى مسيرته - المكونة من قبائل ربيعة - بعد أن أصبح وضعه صعبا. وتذكر الرواية ان عليا طلب من مالك الاشتر - كونه يمانيا - ان يلحق بالفارين ليردّهم فيقول لهم 14 أين فراركم من الموت الذي لن تمجّزوه، الى الحياة التي لن تبقى لكم 15. فلما وصل علي الى قبائل ربيعة

ارتفعت معنوياتها واستثيرت حميتها وأخذ رجالها يقولون «إن أصيب علي فيكم وقد لجأ إلى رأيكم انضحم.... لا علم لكم في العرب إن وصل إلى علي وفيكم رجل حي! وإن منعموه فمعجذ الحياة اكتسبموه» فقاتلت ربيعة قتالا شديدا واستبسلت حتى أزال الخطر، وإن ذلك سرّ عليا حتى أنه وصف رايات ربيعة بأنها «رايات الله». وتقول الرواية أنه لما عاد المنهزمون اليمانيون إلى مينة علي واستأنفوا القتال بقوة، لامهم وقال لهم «إني قد رأيت جوتكم وانحيازكم عن صفوفكم، يحوزكم الطغاة الجفأة وأهراب أهل الشام، وأنتم لهاميم العرب والسنام الأعظم وعمار الليل بتلاوة القرآن وأهل دعوة الحق إذ ضل الخاطئون. فلو لا إقبالكم بعد إدباركم، وكركم بعد إحيازكم، وجب عليكم ما وجب على المولي يوم الزحف دبره وكتتم من الهالكين...»

وروى ابن كثير في البداية والنهاية قريبا من هذه الرواية: قال ابن لهيعة أنه بعد حملة أهل الشام بقيادة حبيب بن مسلمة «.. ولم يبق مع علي من تلك القبائل إلا أهل مكة وعليهم سهل بن حنيف. وثبتت ربيعة مع علي رضي الله عنه، واقترب أهل الشام منه حتى جعلت نبالهم تصل إليه...» ثم يذكر قيام علي بالطلب من الأشرار أن يلحق بالمنهزمين ليردهم، ففعل، حتى أعاد تجميعهم.

وكذلك روى الطبري عن أبي مخنف أن حامل راية علي، هاشم بن عتبة المرقالي، قال عن قوات الشام في خطبة له وهو يحتمس جنوده «لا يهولونكم ما ترون من صبرهم! فوالله ما ترون فيهم إلا حمية العرب وصبرها تحت راياتها وعند مراكزها، وأنهم لعلى الضلال وأنكم لعلى الحق...»

وظاهر من الكلام مدى المعاناة التي واجهها العراقيون من قوة وثبات جيش الشام.

وروى الطبري من طريق أبي مخنف أيضا «فلما كان اليوم الخامس خرج عبد الله ابن عباس والوليد بن عقبة فاقتلوا قتالا شديدا. ودنا ابن عباس من الوليد بن عقبة فأخذ الوليد يسب بني عبد المطلب وأخذ يقول: يا ابن عباس: قطعتم أرحامكم وقتلتم إمامكم، فكيف رأيتم الله صنع بكم؟ لم تعطوا ما طلبتم ولم تدركوا ما أملمتم، والله إن شاء مهلككم وناصر عليكم»

وجدير بالملاحظة قول الوليد بن عقبة بن ابي معيط (فكيف رأيتم الله صنع بكم). فهذا لا يصدر عن مهزوم في الميدان.

ويمكن الإشارة ايضا الى ما ورد على لسان النعمان بن بشير الانصاري في معرض لومه من الانتصار بسبب تأييدهم المتواصل لعلي. فقد روى ابن قتيبة في الامامة والسياسة ان النعمان قال لقيس بن سعد وهما بين الصفوف في صفين «... لقد والله وجدتم رجال الحرب من أهل الشام سراعاً إلى برازكم، غير أنكماس عن حركم. ثم لم ينزل بعلي أمر قط إلا هوتهم عليه المصيبة، ووعدتهم الظفر. وقد والله أخلفتموه، وهان عليكم بأسكم وما كنتم لتخلوا به انفسكم، من شدةكم في الحرب، وقدرتكم على عدوكم. وقد اصبحتم أذلاء على أهل الشام، لا يرون حركم شيئا وأنتم أكثر منهم عدداً. وقد والله كاثروكم بالقلعة، فكيف لو كانوا مثلكم في الكثرة؟ والله لا تزالون أذلاء في الحرب بعدها ابداً، إلا أن يكون معكم أهل الشام. وقد أخذت الحرب منا ومنكم ما قد رأيتم، نحن أحسن بقية وأقرب إلى الظفر، فانتقوا الله في البقية....»

والخلاصة ان الروايات التي تتحدث عن أن معاوية كان على وشك الفرار وركوب فرسه، ليست صحيحة.

عدد القتلى في معركة صفين⁽¹⁾

ذكرت اغلبية المصادر أن قتلى معركة صفين كانوا سبعين ألفاً، منهم 45 ألفاً من أهل الشام و25 ألفاً من أهل العراق

والجدول التالي به مقارنة بين الارقام الواردة في عدة مصادر بشأن عدد قتلى الطرفين:

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ خليفة بن خياط (ص146). التيه والإشراف للمسمودي (ص256). نصر بن مزاحم في وقعة صفين (ص558)، ابن حبان في كتاب «الفتن» (ج2 ص291)، ابن كثير في البداية والنهاية (ج7 ص304)، تاريخ الطبري (ج4 ص45)، تاريخ ابن خلصون (ج2 ص176)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص98).

المصدر	قتل الجيش العراقي	قتل جيش الشام
تاريخ خليفة بن خياط	٢٥ ألف	٤٥ ألف
البداية والنهاية لابن كثير:		
- عن البيهقي	٤٠ ألف	٢٠ ألف
-عن ابن سيرين وسيف	٢٥ ألف	٤٥ ألف
التنبية والاشراف للمسمودي	٢٥ ألف	٤٥ ألف
وقعة صفين لتصر بن مزاحم	٢٥ ألف	٤٥ ألف
انساب الاشراف للبلاذري (قالوا)	٢٥ ألف	٤٥ ألف
كتاب النقات لابن حبان (قبل)	٢٥ ألف	٤٥ ألف

وتبدو هذه الأرقام التي أوردتها اغلبية المصادر غير دقيقة، ومأخوذة من راي واحد يميل إلى تضخيم خسائر الجانب الشامي. والأرجح أن يكون العدد الإجمالي للقتلى هو بحدود السبعين ألفا من الجانبين، وموزعين بالتساوي تقريبا بينهما. وأستبعد تماما ان تكون خسائر الجانب الشامي أكبر بكثير من خسائر العراقيين، كما توحي بذلك نسبة 45:25

ولم أعر على روايات تتحدث عن الآثار الاجتماعية لذلك العدد الكبير من القتلى في الجانب الشامي. فسقوط 45 ألف قتيل من شأنه ولا شك أن يؤدي الى الكثير من العواقب البالغة التأثير على المجتمع الشامي بأسره: العائلات، القبائل، الايتام، الارامل الخ ناهيك عن الجرحى والمعوقين وغير ذلك من المآسي. ومهما كان معاوية مقنما في حججه أمام عامة أفراد جيشه ورعيته، ومهما بذل من جهد لتأليف زعماء العشائر ووجهاء الناس، فلا بد أن يولد ذلك العدد الكبير نوعا من المعارضة للسياسة التي أدت الى تلك الخسارة، ولا بد ان تنفجر تلك المعارضة بوجه معاوية مهما كان حاذقا.

وفي المقابل، توجد عدة روايات تتحدث عن حالات الحنن والحزن والبكاء على القتلى في الجانب العراقي. فمثلا يروي الطبري في تاريخه عن ابي

مخفف أن علياً لما رجع من صفين «مرّ عليّ بالشوريين فسمع البكاء فقال: ما هذه الاصوات؟ فقيل له: هذا البكاء على قتلى صفين. فقال: أما اني أشهد لمن قتل منهم صابراً محتسباً بالشهادة. ثم مرّ بالفائسين فسمع الاصوات فقال مثل ذلك ثم مضى حتى مرّ بالشبابيين فسمع رجة شديدة فوقف فخرج اليه حرب بن شرحبيل الشبامي. فقال علي: أيغلبكم نساؤكم؟ ألا تنهونهن عن هذا الرنين؟ فقال: يا أمير المؤمنين: لو كانت داراً أو دارين أو ثلاثاً قدرنا على ذلك، ولكن قتل من هذا الحي ثمانون ومائة قتيل، فليس دار إلا وفيها بكاء...»

وذكر ابن خلدون في تاريخه ان علياً لما رجع من صفين «دخل الكوفة، فسمع رجة البكاء في الدور. فقال: يبكين على القتلى. فترحم لهم»

ويمكن اعتبار ما ذكره ابن كثير حول زيادة نسبة خسائر الجانب العراقي عن الشامي رواية شاذة بالنظر الى كثرة الروايات المعاكسة، لكنها تبدو لي اقرب للصواب.

اذن وصلت حمى القتل إلى ذروتها، وبلغ جنون الموت حدّه الأقصى. فأرقام الخسائر هذه هائلة ومذهلة بكل المقاييس. وحتى لو لم يصل العدد الحقيقي للقتلى إلى مائة ألف، أو سبعين ألف، وحتى لو كان العدد أربعين ألفاً أو ثلاثين، فذلك لا يغير من حقيقة أن الأمر تحوّل إلى مقتلة رهيبة يمارسها أبناء قبائل العرب بحق بعضهم بعضاً.

وللمقارنة فقط، لا بدّ من تذكّر أن رسول الله (ص) في حروبه وغزواته على مدى إحدى عشر عاماً، وحّد خلالها أمة العرب كلها، لم يفقد من أتباعه وأنصاره سوى بضع مئات! ولو أضيف إليهم عدد القتلى من أعدائه أيضاً فربما يصل العدد الإجمالي للقتلى في حروب الرسول (ص) إلى بضعة آلاف في أعلى تقدير.

وها هي أمة العرب تفقد خلال أيام معدودة عشرات الآلاف من ابنائها في قتالٍ داخليٍّ رهيب.

بل إنه ربما لم تفقد أمة العرب خلال حروبها التي هزمت فيها امبراطوريتي فارس والرومان على مدى سنوات طويلة مثل هذا العدد من القتلى.

كان الأمر رهيباً، والمأساة فظيعة. فكان لا بد أن يحدث شيء ليقف هذا الترف.

وحصل ذلك بالفعل، ولكن على حساب عليّ بالذات! الجيش الشامي يدهو إلى السلم: «يا أبا الحسن! تن للزرايين من الروم إن فنيّا»⁽¹⁾

هناك إجماع بين المؤرخين على أنه لما احتدم القتال وتساقت القتلى بعشرات الألوف، أمر معاوية وعمر بن العاص جنودهما برفع المصاحف على رؤوس الرماح والصراخ على أهل العراق مطالبين بوقف القتال وبحكيم كتاب الله بين الطرفين.

وهذه رواية اليعقوبي:

«وزحف أصحاب عليّ وظهروا على أصحاب معاوية ظهوراً شديداً، حتى لصقوا به، حتى دعا معاوية بفرسه لينجوه به.

فقال له عمرو بن العاص: إلى أين؟

قال: قد نزل ما ترى. فما عندك؟

قال: لم يبقَ إلا حيلة واحدة: أن ترفع المصاحف فتدعوهم إلى ما فيها، نستكفهم وتكسر من حدهم وتفت في أعضادهم.

قال معاوية: ففأنتك.

فرفعوا المصاحف ودعوهم إلى التحكيم فيما بعد. وقالوا: ندهوكم إلى كتاب الله!

وهذه رواية ابن كثير:

«وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام.

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4 ص 34)، تاريخ اليعقوبي (ج 2 ص 189)، ابن خيطة في الإمامة والسياسة (ج 1 ص 144)، الأخبار الطوال للدينوري (ص 192)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 302).

وذلك ان الأشر النخعي صارت إليه إمرة الميمنة، فحمل بمن فيها على أهل الشام وتبعه علي، فتنقضت غالب صفوفهم وكادوا ينهزمون، وعند ذلك رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح وقالوا: هذا بيننا وبينكم! قد فني الناس فمن للشفور؟....

إن الذي أشار بهذا هو عمرو بن العاص، وذلك لما رأى ان أهل العراق قد استظهروا في ذلك الموقف.... فقال إلى معاوية: إني قد رأيتُ أمراً لا يزيلنا هذه الساعة إلا اجتماعاً ولا يزيلهم إلا فرقة!

أرى أن نرفع المصاحف ندعوهم إليها. فإن أجابوا كلهم إلى ذلك بركة القتال. وإن اختلفوا فيما بينهم فمن قاتل نجيبهم وقاتل لا نجيبهم، فسلوا وذهب ربحهم...»

وروى الدينوري في الاخبار الطوال:

«... وبلغ ذلك معاوية. فقال لعمرو: ما ترى؟ فإنا هو يومنا هذا وليتنا هذه. فقال عمرو: إني قد أعددتُ بحياتي أمراً أخرته إلى هذا اليوم. فلان قبلوه اختلفوا وإن ردوه تفرقوا. قال معاوية: فما هو؟ قال عمرو: تدعوهم إلى كتاب الله حكماً بينك وبينهم. فلنك بالغ به حاجتك.

قالوا: وإن الأشعث بن قيس قال لقومه وقد اجتمعوا إليه: قد رأيتم ما كان في اليوم الماضي من الحرب المبيرة. وإنا والله إن التقينا غداً، إنه لتبور العرب وخصبة الحرما.

قالوا: فانطلقت الميمنة إلى معاوية بكلام الأشعث. فقال: صدق الأشعث. لئن التقينا غداً ليميلن الروم على ذراري أهل الشام، وليميلن دعاة فارس على ذراري أهل العراق. وما يبصر هذا الأمر إلا ذوو الأحلام. اربطوا المصاحف على أطراف القنا....

فنادوا: يا معشر العرب! الله الله في نساكنكم وأولادكم من فارس والروم غداً. فقد فنيتم. هذا كتاب الله بيننا وبينكم»

وفي رواية الإمامة والسياسة «إن معاوية أمر أهل الشام أن ينادوهم. فنادوا

في سواد الليل نداء معه صراخ واستغاثة، يقولون: يا أبا الحسن! نحن للدارنا من الروم إن قتلنا؟ الله الله! البقية! كتاب الله بيننا وبينكم»

وفي رواية الطبري أن عمرو بن العاص قال لمعاوية «رفع المصاحف ثم نقول ما فيها حكم بيننا وبينكم. فإن أبي بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: بلى. ينبغي أن تقبل. فتكون فرقة. وإن قالوا: بلى تقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل»

وليس هناك من فكرة يمكن أن تكون أكثر ذكاء ودعاء من هذه. فهذه الدعوة العلنية إلى السلام يضرب معاوية عدة عصافير بحجر واحد:

فهو أولاً يسمى إلى المحافظة على جيشه وقواته، ودرء خطر الإبادة عنها.

وهو يسمى إلى الظهور أمام عامة المسلمين، من الجانبين الشامي والعراقي، بمظهر الداعي إلى السلام، والحريص على تجنب الفناء المتبادل بين أبناء أمة العرب.

وهو يهدف إلى زرع بذور الشقاق داخل صفوف الجانب العراقي، عن طريق خلق خلاف بين من تبعوا من هؤل المعركة وكثرة القتل، وبين من يعطون الأولوية لإنجاز المهمة التي خرجوا أساساً من أجلها وهي إلحاق الهزيمة بمعاوية وجيشه.

وهو أخيراً يسمى إلى حشر علي في زاوية ضيقة إن هو أصر على مواصلة الضغط العسكري والاستمرار في الحرب. فكيف سيفسر شخص مثل علي لقواته وجنوده رفضه قبول عرضي لتحكيم «كتاب الله»؟ أن يظهر علي حينذاك بمظهر اللابالي بمصلحة عامة المسلمين، الراض لحكم القرآن، المصمم على مواصلة طريق الموت والفناء!؟

اذن لا خلاف على ان المبادرة الى رفع المصاحف جاءت من الجانب الشامي. ولكن هل كان ذلك مؤشر ضعف وهزيمة؟؟ تحاول المصادر ان تقول ذلك، ولكن الصحيح هو: كلا. لم يكن ذلك ناتجاً عن الهزيمة. بل اني مقتنع، بعد دراسة وتحليل كل الروايات والاخبار، ان الوضعية العسكرية للجيش الشامي لم تكن أسوأ من الجيش العراقي، بل ربما كانت افضل قليلا.

وقفة: الأشعث بن قيس الكندي⁽¹⁾

يتردد اسمه كثيراً جداً في ثنايا سيرة الإمام عليّ في العراق. وقد لعب دوراً في منتهى السلية تجاه عليّ قبيل واثناء وبعد معركة صفين. والمدقق في تفاصيل علاقته بالإمام عليّ سيرى فيها شيئاً كبيراً بسيرة عبد الله بن أبي بن سلول تجاه النبي (ص) في المدينة.

فمن المفيد الفاء الضوء على شخصية الأشعث بن قيس، زعيم قبيلة كندة ورأس القبائل اليمنية في العراق.

ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمته «كان في الجاهلية رئيساً مطاعاً في كندة، وكان في الإسلام وجيهاً في قومه. إلا أنه كان ممن ارتد عن الإسلام بعد النبي (ص)، ثم راجع الإسلام في خلافة أبي بكر الصديق، وأني به أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسيراً.

قال أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كآني أنظر إلى الأشعث بن قيس، وهو في الحديد يكلم أبا بكر، وهو يقول: فعلتُ وفعلتُ، حتى كان آخر ذلك سمعتُ الأشعث يقول: استبقني لحربك، وزوجني أختك! ففعل أبو بكر رضي الله عنه.

قال أبو عمر: أخت أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي زوجها من الأشعث بن قيس هي أم فروة بنت أبي قحافة، وهي أم محمد بن الأشعث.

فلما استخلف عمر، خرج الأشعث مع سعد إلى العراق، فشهد القادسية والملائن، وجلولاء ونهاوند، واختط بالكوفة داراً في كندة، ونزلها، وشهد تحكيم الحكمين، وكان أحد شهود الكتاب⁽²⁾

(1) مصادر هذا البحث: الاستيعاب لابن عبد البر (ص 72)، اسد الغابة لابن الأثير (ج 1 ص 98)، فتوح البلدان للبلاذري (ج 1 ص 121)، وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص 21)، تاريخ دمشق لابن حساك (ج 9 ص 128 و ص 139)، كتاب اللغات لابن حبان (ج 2 ص 286)، تاريخ الطبري (ج 2 ص 200)، الأخبار الطوال للطبري (ص 156)، المعجم الكبير للطبري (ج 1 ص 239)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج 2 ص 40-41).

(2) ولم يذكر ابن عبد البر شيئاً عن تفاصيل علاقة الأشعث بالإمام علي أيام خلافته

وقال ابن الأثير في ترجمته من اسد الغابة انه كان قدم الى النبي (ص) في السنة العاشرة للهجرة في وفد قبيلة كندة⁽¹⁾ اليمانية فأسلموا. ولكن كان الأشعث ممن ارتد بعد النبي (ص). فسير أبو بكر الجنود الى اليمن، فأخلفوا الأشعث أسيراً. فأحضر بين يديه. فقال له: استبقي لحريك وزوجني بأختك. فأطلقه أبو بكر وزوجه أخته، وهي أم محمد بن الأشعث.

اذن هناك اتفاق بين المؤرخين على المعالم الرئيسية لشخصية الأشعث، الى الفترة ما قبل بدء علاقته بعلي:

فهو كان من كبار زعماء قبيلة كندة الكبيرة في اليمن. وحسب تعبير بعض الروايات «ملوك كندة»

في اواخر عهد النبي (ص) ترأس الأشعث وفدا من قبيلته وجاؤوا لاعلان اسلامهم وطاعتهم.

ولكنه بعد وفاة النبي (ص) كان من المرتدين، بل من كبار المرتدين في اليمن⁽²⁾.

تعرض للهزيمة على يد قوات ابي بكر، وألقي القبض عليه وأرسل الى المدينة مأسوراً.

عفا عنه الخليفة أبو بكر، ومن ثم زوجته اخته أم فروة.⁽³⁾

وفي عهد عمر انخرط الأشعث في حركة الفتوحات وشهد جميع معاركها في العراق⁽⁴⁾. ومن ثم استقر في الكوفة.

(1) وقال ابن عبد البر ان الأشعث كان قد وفد على رسول الله (ص) في ثلاثين ركباً من كندة هزأوا: يا رسول الله: نحن بنو أكل المرار، وأنت ابن أكل المرار! فبسم رسول الله (ص) وقال: نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفوا ما ولا ننفي من أمينا

(2) ذكر البلاذري في فتوح البلدان انه بعد ان ارتد الأشعث قاتله زياد بن لبيد الذي كان والي اليمن حينها، فلجأ وجماعته إلى حصن النجير في اليمن إلى أن استسلموا بعد حصارهم.

(3) في تقديره أن أبا بكر عامله من باب «المؤلفة قلوبهم» وقرر استمائه نظراً لمكانته القليلة الرقيقة.

(4) وقال ابن الأثير انه شهد ايضاً معركة اليرموك بالشام ونفتت فيها عينه

وفي عهد عثمان، عيّنه الخليفة والياً على أنزريجان، بعد أن تصاهر⁽¹⁾

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق المزيد من التفاصيل حول ارتداد الأشعث، وحول تصرفاته ونفسية المتكبر. فقال إن الأشعث كان هو الذي حث قومه وشجعهم على الردة بعيد وفاة النبي (ص). وروى أن بعض قومه من كتلة قد ناشدوه أن يراعي العهد والآن ينكث وذكروه بوفادته على رسول الله (ص). فلما أبى وأصرّ على رأيه خوفوه من والي رسول الله (ص) على اليمن، وهو زياد بن ليث الأنصاري. فما كان من الأشعث إلا أن أظهر الاستهزاء والاستخفاف به وقال «زياد بن ليث؟ فيضاحك الأشعث وقال: أما يرعى زياد أن أجيره؟» ثم يروي تفاصيل المعركة التي خاضها زياد ضد المرتدين وحصارهم بقيادة الأشعث في حصن النجير، والمدد الذي أتاه من الخليفة أبي بكر، إلى أن استسلموا. وذكر أن السبب الذي دفع زياد بن ليث إلى عدم قتل الأشعث هو كتاب الخليفة أبي بكر الذي ينهاء فيه عن قتل الملوك من كتلة⁽²⁾ وإن الأشعث كان أحد هؤلاء، فاكفى زياد بإرسال الأشعث مكبلاً إلى أبي بكر ليرى فيه رأيه. فلما وصل المدينة اعتذر من أبي بكر فعفا عنه ووافق على تزويجه أخته أم فروة بنت أبي حنيفة.

وعندما وصل عليّ إلى الكوفة، قرر أن يعامل الأشعث كواحد من ولاية عثمان (الفاستين). فكان أن عزل الأشعث من منصبه كوالي على أنزريجان بعد أن اتهمه بالفساد.

روى نصر بن مزاحم أن الإمام عليّ كتب له حين قدم الكوفة:

«أما بعد، فلو لا هَنَات كَرَّ فَيْكَ كُنْتُ المَقْدَم في هذا الأمر قبل الناس، ولعل أمرَكَ يحمل بعضه بعضاً إِنْ اتَّقَيْتَ الله..... وَإِنْ عَمَلْتَ لَيْسَ لَكَ بطعمة، ولكنه أمانة. وفي يديك مال من مال الله وأنت من عِزِّانِ الله عليه حتى

(1) روى نصر بن مزاحم أنه لما بويع عليّ بالخلافة كان الأشعث عاملاً لعثمان بن عفان على أنزريجان، وأنه كانت بينه وبين عثمان علاقة مصاهرة حيث كان عمرو بن عثمان قد تزوج ابنة الأشعث قبل ذلك.

وذكر الطبري في الأخبار الطوال مراكنت ولايته (على أنزريجان) مما عتب الناس فيه على عثمان، لأنه ولّاه عند مصاهرته إياه وتزويج ابنة الأشعث من ابنه

تسلمه إليّ. ولعلي ألا أكون شر ولاتك لك إن استقمت. ولا قوة إلا بالله»
 وقريب من هذه الرواية وردت في كتاب «الثقات» لابن حبان وفيه أن
 عليا كتب للأشعث وهو وال على آذربيجان «فلذا أتاك كتابي هذا فأقدم واحمل
 ما غلّكت من المال»

ويذكر اليعقوبي في تاريخه كتاب عليّ للأشعث وفيه عبارات أكثر قسوة
 وإنهما «فلما غرّك من نفسك وجراك على آخرتك، إملاء الله لك. إذ ما
 زلت قديماً تأكل رزقه، وتلحد في آياته وتستمتع بخلّك، وتلعب بحسناتك
 إلى يومك هذا. فلذا أتاك رسولي بكتابي هذا فأقبل، واحمل ما قبلك من مال
 المسلمين»

وكما هو متوقع أثار قرار عزله والتشكيك بذعته العالية غضب الأشعث
 بن قيس الشديد. يقول نصر بن مزاحم إن غضب الأشعث إلى حد دفعه إلى
 التفكير في خيانة عليّ والانضمام إلى معاوية!

«فلما أتى منزله دعا أصحابه فقال: إن كتاب عليّ قد أوحشني. وهو آخذ
 بمال آذربيجان. وأنا لاحقٌ بمعاوية. فقال القوم: الموت خيرٌ لك من ذلك.
 أتدعُ مصرَكَ وجماعة قومك وتكون نبيّاً لأهل الشام؟

فاستحيا فسار حتى قديم على عليّ.»

وقال ابن حبان ثم قال الأشعث: والله لأدعته بحال مضية، ولأفلسن
 عليه الكوفة». وتقول الرواية أن الأشعث ارتحل بالفعل نحو معاوية لولا أن
 حجر بن الأديب لحقه وناشده «أنك إن أتيت معاوية أقبلنا جميعاً إلى الشام.
 وأنشدك الله إلا نظرت إلى أيتام قومك وأياماهم فإني لا آمن أن يفتضحوا
 غداً. قال: فما تريد يا حجر؟ قال: تنحدر معي إلى الكوفة فلأنك شيخ العرب
 وسيدنا والمطاع في قومك، وسيصير الأمر إليك...» إلى أن وافق على التوجه
 للكوفة.

ويبدو أن الإمام عليّ قرّر أن يعيد النظر في تعامله مع الأشعث بعد حضور
 إليه من آذربيجان. فالظاهر أنه في بداية تعامله مع الأشعث في الكوفة، بدأ

يسير معه كمثل سيرة رسول الله (ص) مع الطلقاء والاعداء، من الأشراف والزعماء، عن طريق تألفهم. فيروي ابن عساكر أن علياً وافق على طلب من الأشعث نفسه أن يتزوج ابنة الحسن من ابنته جعدة⁽¹⁾. لا شك أن علياً أدرك مدى النفوذ الذي يتمتع به الأشعث على القبائل اليمانية الكبيرة في الكوفة⁽²⁾، فأراد أن يستميله إلى جانبه.

وهكذا حافظ الأشعث على وضعه ومكانته⁽³⁾ في الكوفة، وبقي مؤثراً جداً على قبيلته، كتدعة، ومعها قطاع عريض من القبائل اليمانية الأخرى.

ورغم نجاحه في الحفاظ على مكانته الرفيعة في الكوفة واعتراف عليّ بذلك، إلا أن الأشعث بن قيس لم يكن يوماً مخلصاً لعلي، أبداً. بقي الأشعث مصدر بلبلة وشقاق في صفوف عليّ. وكان يخالف توجهات الخليفة في كثير من القضايا، وخصوصاً تلك المتعلقة بالنظرة إلى معاوية وأهل الشام والطريقة المثلى لمعالجة الخلاف معهم.

أخرج الذهبي في سير اعلام النبلاء رواية تشير إلى التوجهات السلبية للأشعث بن قيس حتى قبل بدء حرب صفين. فخلافاً لروايات غيرها تقول أن جيش معاوية قد خلى بين جيش العراق وماء الفرات بالقوة وبعد قتال (وكان قد وصلها قبل علي) فإن رواية الذهبي هذه تقول أن ذلك تم سلمياً وبعد تدخل الأشعث «حدثني أبو الصلت الحضرمي قال: حلنا بين أهل العراق وبين الماء. فأتانا فارس، ثم حرس، فإذا هو الأشعث بن قيس فقال: الله الله يا معاوية في أمة محمد (ص) هبوا أنكم تقتلتم أهل العراق، فمن للبعوث

(1) ويدون الأشعث غار من سعيد بن قيس الهمداني لما علم أن الحسن كان ينوي الزواج من ابنته، فرأى نفسه أكثر أهلية لشرف هذا الصهر من حفيد النبي وابن أمير المؤمنين (2) خاصة وأنه كان كبير السن أيضاً. فسيرته تقول أنه سنة 11 للهجرة قاد قبيلته في حركة الردة والتسرد على الإسلام أيام أبي بكر. وابن عبد البر يقول أنه توفي بعد اختياله عليّ بأربعين يوماً (سنة 40)، وفي رواية أخرى سنة 42 للهجرة. أي أن أحداث صفين حصلت بعد 26 سنة من قيادته لقبيلته في الردة. أي أنه لا شك كان كبيراً جداً في العمر، ومكانته بين قومه تكون أكبر وأكبر.

(3) صار بإمكان الأشعث إذن أن يفخر بأنه تربطه علاقات نسب ومصاهرة مع الخلفاء الثلاثة أبي بكر (أخته أم فروة) وعثمان (أبنت عمرو) وعلي (عن طريق ابنة الحسن)!

والدراري؟ أم هبوا أنا قتلناكم، فمن للبعوث والدراري؟ ان الله يقول (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما). قال معاوية: فما تريد؟ قال: خلوا بيننا وبين الماء. فقال لابي الأعور: خل بين اخواننا وبين الماء»

وهذه الرواية تشير الى ان الأشعث لم يرد الحرب أصلاً، وأنه كان يتصور التحكيم والسلام الحل المناسب من الأساس. وبالتالي فموقفه حين رفع الشاميون المصاحف متوقع تماماً.

ومع مرور الوقت تفاقمت الخلافات بين عليّ والاشتر ووصلت الى حد الكراهية الشخصية⁽¹⁾ وتبادل التهديدات، وقد أخرج اللحي في سير اعلام النبلاء رواية توضح مدى سوء الذي بلغته علاقة علي بالأشعث «عن تيس بن ابي حازم قال: دخل الأشعث على علي في شيء، فتهلعه بالموت! فقال علي: بالموت تهلطني؟! ما ابالي! هاتوا لي جامعة وقيداً. ثم أوماً الى أصحابه. قال: فطلبوا اليه فيه. فتركه»

وسوف يأتي الكلام بالتفصيل عن الدور لخطر الذي لعبه الاشعث في معركة صفين، في موضعه.



شِقَاقُ فِي الْجِيْشِ الْعِرَاقِي: وَقْفُ الْقِتَالِ⁽²⁾

وحصل ما أراده معاوية. يروي ابن تقيّة في الامامة والسياسة وهو يصف الأجواء في الجانب العراقي، وصعوبة وضع عليّ، بعد دعوة الشاميين إلى تحكيم القرآن:

(1) ولما بعد، عندما انتصر معاوية ودخل الكوفة عقب صلحه مع الحسن، سوف يعبر الأشعث امامه عن رأي قبيح جداً في عليّ ا روى الطبري في المعجم الكبير ان الأشعث استأذن علي معاوية وهو بالكوفة، فحجبه ملياً بسبب وجود الحسن وابن عباس عنده، فغضب الأشعث وقال له «أمن عني حبيتي يا امير المؤمنين! تعلم ان صاحبهما جاءتا لعلانا كلباً، يعني علياً» مما دفع ابن عباس الى التصدي له وتوجيه كلام قاس جداً اليه.

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ اليعقوبي (ج 2 ص 189)، تاريخ الطبري (ج 4 ص 34)، انساب الاشراف للبلاذري (ج 3 ص 103)، الامامة والسياسة لابن تقيّة (ج 1 ص 147)، وقعة صفين لتصر بن مزاحم (ص 484).

«فأقبل الأشعث بن قيس في أناس كثير من أهل اليمن فقالوا لعلي: لا ترد ما دعاك القوم إليه! قد أنصفك القوم. والله لئن لم تقبل هذا منهم لا وفاء معك، ولا نرمي معك بسهم ولا حجر، ولا نقف معك موقفاً»

ورواية اليعقوبي فيها عبارات أكثر قسوة وحدة وجهها الأشعث إلى عليّ وصلت إلى تهديده بتسليمه إلى أهل الشام إن لم يأمر بوقف القتال!

فقال عليّ: إنها مكيدة! وليسوا بأصحاب قرآن.

فاترض الأشعث بن قيس الكندي، وقد كان معاوية استماله وكتب إليه ودعاه إلى نفسه. فقال: لقد دعا القوم إلى الحق!

فقال عليّ: إنهم إنما كادوكم، وأرادوا صرفكم عنهم!

فقال الأشعث: والله لئن لم تجبهم انصرفتُ عنك!

ومالت اليمانية مع الأشعث. فقال الأشعث: والله لتجيبنهم إلى ما دعوا إليه أو لتنفعنك إليهم برئتكم!

فتنازع الأشر والأشعث في هذا كلاماً عظيماً، حتى كاد أن يكون الحرب بينهم، وحتى خاف عليّ أن يفترق عنه أصحابه. فلما رأى ما هو فيه أجابهم إلى الحكومة.⁽¹⁾

وروى لنا نصر بن مزاحم مدى احباط عليّ وغضبه وهو يخاطب جيشه بعد أن اضطره لقبول وقف القتال:

«فقام عليّ أمير المؤمنين فقال: انه لم يزل أمري معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وأخذت من هووكم فلم تترك، وإنما فيهم انهى وأنهك.

ألا اني كنت أسير أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحتُ منها. وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون»

(1) وفي رواية تاريخ الطبري أن مسر بن فديك وزيد بن الحصين (من «مقرء») هما اللذان قالاً لعليّ... «ولا نفضك برئتكم إلى القوم...» وأن علياً اضطر أن يمت إلى الأشر النخعي ويوقف حملته على معسكر معاوية في لحظات حرجية، حين كان على وشك الفقر.

وهذه رواية الزهري كما عرضها البلاذري في انساب الاشراف. وفيها ان قرار الاستجابة لمصحف اهل الشام ووقف القتال اتخذه علي بإرادته⁽¹⁾ لأنه رأى اختلاف اصحابه بين مؤيد ومعارض فأراد انتهاء التنازع. ولم يذكر الزهري أن علي تعرض للتهديد من الأشعث او مسعر بن فذكي او غيرهما.

«فاختلف اهل العراق!

فقاتل طائفة منهم كرهت القتال: أجينا الى كتاب الله.

وقالت طائفة: ألسنا على كتاب الله ويبحثنا وطلب الحق. فإن كانت ها هنا شبهة او شك فلم قاتلنا؟!»

فوقعت الخصومة بين اهل العراق. فلما رأى علي ما فيه اصحابه وما عرض لهم من الخلاف والتنازع، ورأى وهنهم وكراهة من كره منهم القتال، قارب معاوية فيما دعا اليه وقال: قبلنا كتاب الله»

علي يحدد نفسه في الدوامة: ما الذي حصل بالضبط في الجانب العراقي؟⁽²⁾

واضح من النصوص أعلاه كيف أن الأشعث بن قيس الكندي لعب دوراً سلبياً في غاية الخطورة أثناء المعركة. وكان بحكم وضعه القبلي في موقع يؤهله للضغط على الإمام علي من أجل وقف فوري للقتال والاستجابة إلى نداء أهل الشام. فليس بوسع أي قائد مسؤول أن يغامر بانشطار جيشه إلى قسمين، أحدهما يستمر بالقتال والآخر يضع السلاح! بدا للإمام علي

(1) وليس غريباً ان تكون رواية الزهري على هذا النحو. فهو من كبار «أهل الحديث» ورواة صحيح البخاري، وهو بالتالي من رموز مله «أهل السنة والجماعة»، وكان مقرباً من خلفاء بني أمية. أي أن فكرة وغية الصلح والسلام بين الأشقاء وعدم جلية الخلاف بين علي ومعاوية تناسب توجهه المذهبي تماماً.

(2) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لتصر بن مزاحم (ص 485 وص 489)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 7 ص 96)، الإمامة والسياسة لابن فضالة (ج 1 ص 137 وص 144 وص 148)، كتاب الثقات لابن حبان (ج 2 ص 292)، الأخبار الطوال للدينوري (ص 191 وص 197)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الأريلي (ج 1 ص 256)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج 2 ص 173) وتاريخ الطبري (ج 4 ص 39 وص 34).

أن ذلك هو ما سيحصل إذا واصل إصدار أوامره للأشتر النخعي باستمرار التقدم. كان الأشعث بن قيس يستغل الإنهاك العام الذي لا بد وأصاب كل أفراد الجيش بسبب شدة القتال وضخامة الخسائر في الجانبين. كانت فرصة ذهبية استغلها الأشعث في أخرج اللحظات من أجل التعبير عما يختلج بصدرة منذ قدّم عليّ إلى الكوفة من غضبٍ شديد ناتج عن ما يعتبره «سوء معاملة» من قبل عليّ له.

فبواحد الخيانة كانت موجودة عند الأشعث منذ بدء ولاية عليّ. ولولا أن قومه قد عابوا عليه أن يصبح ذنباً لأهل الشام لكان ربما لحق بمعاوية. وهنا يظهر نوع من إقليمية الولاء لدى القبائل العربية التي استوطنت البلاد المفتوحة. كان هناك شعور من التنافس بين الإقليمين: الشامي والعراقي. وكان الإقليميان حتى ذلك الوقت لا يجدان حرجاً في الولاء والطاعة لمركز الخلافة في مدينة الرسول - على الرغم من أن كل الظروف العادية، من مالٍ وثرواتٍ وسلاحٍ ورجال، قد أصبحت في غير صالح المدينة المنورة، ويفارق شاسع، إذا ما قيس بالمصريين الشامي والعراقي. وكلما مرت السنوات وازداد البعد الزمني عن فترة النبوة كانت المشاعر الذاتية بالانتماء للإقليم تكبر. والأشعث بن قيس ببساطة خجل من أن يترك انتماءه العراقي ويعير تابعاً للشام!

وسوف أورد مثالا آخر على التنافس بين الإقليمين الشامي والعراقي، هذه المرة فيما يتعلق بزعيم قبلي آخر غير الأشعث: الأحنف بن قيس، سيد قبيلة تميم. فقد روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن أبي المخيش فقال: كنت قاعداً عند الأحنف بن قيس إذ جاء كتاب من عند الملك يدعوه إلى نفسه فقال: يدعوني ابن الزرقاء إلى ولاية أهل الشام! والله لوددتُ أن بيني وبينهم جبلا من نار، ثم أتانا منهم احترق فيه، وتمن أتاهم منا احترق فيه!

والمقصود من ابن الزرقاء في كلامه هو عبد الملك بن مروان، (ومن عند الملك) خطأ مطبعي وصحيحه (من عبد الملك).⁽¹⁾

(1) وهذه الرواية يمكن قبولها، ويدعمها ما رواه ابن سعد نفسه أن الأحنف كان صديقاً لمصعب بن الزبير وتوفي أثناء ولايته على الكوفة من قبل أخيه. ومصعب شقيق عبد الله بن الزبير، عدو عبد الملك اللدود.

وينقل لنا نصر بن مزاحم تفاصيل عن الأجواء المشتعلة في المعسكر العراقي بعد رفع المصاحف:

«إن الناس ماجوا، وقالوا: أكلتنا الحرب وقتلت الرجال.

وقال قوم: نقاتل القوم على ما قاتلناهم عليه أمس. ولم يقل هذا الا قليل من الناس، ثم رجعوا عن قولهم مع الجماعة، وثارت الجماعة بالموادعة».

ويفهم من هذا النص أن الداعين لاستمرار القتال كانوا اقلية في وسط الاكثرية الساحقة التي تريد السلام.

وكان الناس من ابناء القبيلة الواحدة يردون على بعضهم البعض ويتجادلون. مثل هذا الكلام الصادر عن اثنين من زعماء قبيلة بكر بن وائل:

فحين قال حريث بن جابر البكري في ختام خطبته «فما بيننا وبين من طغى علينا الا السيف» رد عليه قريه شقيق بن ثور البكري «قد أكلتنا هذه الحرب. ولا نرى البقاء الا في الموادعة»

وحتى قبيلة ربيعة، المعروفة بشدة تأييدها لعلي والولاء له، مالت الى السلام وطلب زعمائها من علي، وإن بأدب شديد، الاستجابة «قال خالد بن المعمر: يا امير المؤمنين، اننا لا نرى البقاء الا فيما دعاك اليه القوم، إن رأيت ذلك، فإن لم تره قرأيك أفضل»

فالمؤكد اذن أن الاشعث بن قيس لم يكن وحيدا بين زعماء القبائل الذين ارادوا وقف القتال. وقد حاول علي، بكل طاقته، مقاومة هذا التيار «السلامي» في صفوف جيشه، ولكن دون جدوى. تحدثنا المصادر ان علياً ألقى خطبة قوية في محاولة لشحن الهمم والاستمرار في القتال «عباد الله، اني احق من اجاب الى كتاب الله. ولكن معاوية وعمر بن العاص وابن ابي معيط وحبيب بن مسلمة وابن ابي سرح، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن. اني اعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال. انّها كلمة حق يُراد بها باطل. انهم والله ما رفعوها أنهم يعرفونها ويمعلون بها ولكنها الخديعة والوهن والمكيلة. أعيروني سواعدكم

وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا»^(١).

وقد استجابت النواة الصلبة لمؤيدي عليّ لخطبته هذه ورأيه^(٢)، ولكن المشكلة كانت في ضرورة وحدة الصف في تلك اللحظات الحرجة. فلا يستطيع عليّ أن يركن إلى الأشر وعدي بن حاتم بينما يتمسك الزعيم القبلي الكبير، الأشعث، برأيه بضرورة وقف القتال ومعه تيار واسع من قومه. فلم يكن هناك من خيار واقعي امام علي الا قبول عرض وقف القتال.

بل ان هناك من الروايات ما يفيد بأن الاستجابة لعرض وقف القتال قد تمت بالفعل من قبل الجانب العراقي حتى قبل الحصول على موافقة عليّ ! لتأمل النص التالي الذي يورده ابن حبان في كتاب الثقات: «ثم جعلوا ينادون: ندعوكم الى كتاب الله والحكم بما فيه. فشر الناس به وكرهوا القتال وأجابوا الى الصلح وأنابوا الى الحكومة وقالوا لعليّ: ان القوم يدعونك الى الحق والى كتاب الله فإن كرهنا ذلك فنحن اذن مثلهم».

فقال عليّ: ويحكم ما ذلك يريدون ولا يفعلون.

ثم مشى الناس بعضهم الى بعض، وأجابوا الصلح والحكومة وتفرقوا الى دفن قتلاهم.

ولم يجد عليّ بقاءً من ان يقبل الحكومة لما رأى من اصحابه»

وهذه الرواية لا تذكر أسماء أشخاص بعينهم بل تستعمل مصطلح «الناس» في الإشارة إلى من ضغطوا على عليّ. وهي تشير إلى رغبة عارمة في السلام إلى درجة دفعت قطاعات واسعة من الجانب العراقي إلى التوقف عن

(١) نص هذه المخطئة من وقعة صفين لتصرين مزاعم نقلها عن رواية عمر بن سعد الأسدي. وروى الطبري في تاريخه نفس هذه المخطئة تقريباً نقلاً عن رواية أبي مخنف.

(٢) تنبئ الإشارة هنا إلى موقف زعيم قبلي مهم آخر وهو عدي بن حاتم الطائي، الذي كان رأيه مع استمرار القتال وعبر عن ثقته بالنصر حين قال للإمام عليّ «يا أمير المؤمنين ! إن أهل الباطل لا تنزق أهل الحق. وقد جزع القوم حين تأمبت للقتال بنفسك. وليس بعد الجزع إلا ما تحب. فتأجز للقوم» كما ورد في رواية الامامة والسياسة.

القتال وقبول عرض الصلح الشامي دون حتى انتظار رأي القائد الأعلى عليّ، الذي لم يجد بُدّاً عندها من قبول ما هو حاصل بالفعل!

وهناك نصّ آخر يشير إلى أن موقف الأشعث بن قيس أثناء المعركة قد تمّ بتنسيق مسبق مع معاوية. وهذا أمرٌ ممكن، لأن معاوية ربما قرر أن يخاطب الزعيم القبلي اليمني قبل أن يدعو إلى مكيدته علناً. ومن المؤكد أن معاوية كان لديه علمٌ بالخلاف القديم بين عليّ والأشعث وبالتالي رأى أن هذه هي اللحظة المناسبة التي يمكن أن يفيد الأشعث فيها. وربما قدّر معاوية أن الأشعث قد أصبح الآن في موقف يتيح له أن يقول لقومه إن العتب قد رفع، وإننا قد أدبنا ما علينا وخضنا الحرب مع عليّ ولا بأس الآن من الصلح! ولن يستطيع قومه أن يمتروا بالجبن أو بالتبعية لأهل الشام بعد كل هذه المعركة الطاحنة. بل على العكس، سوف يستطيع الأشعث أن يبرر سلوكه أمام قومه بالحرص عليهم. وقد أورد صاحب الإمامة والسياسة النص:

«إن معاوية دعا عتبة بن أبي سفيان وقال له: **الين إلى الأشعث كلاماً، فإنه إن رضي بالصلح رضيت به العامة.**

فخرج عتبة حتى إذا وقف بين الصفيين نادى الأشعث فأتاه

فقال عتبة **إنك رأس أهل العراق، وسيد أهل اليمن، ومن قد سلف إليه من عثمان ما قد سلف من الصهر والعمل. ولست كأصحابك وأما أنت فعماميت عن أهل العراق تكراً، وحاربت أهل الشام حمية. وقد والله بلغنا منك ما أردنا، وبلغت منا ما أردت. وإننا لا ندهوك إلى ما لا يكون منك من تركك علينا، ولا نصرة معاوية. ولكننا ندهوك إلى البقية، التي فيها صلاحك وصلاحنا»**

ومن الجدير بالملاحظة مدى الحرص في اختيار العبارات من قبل عتبة بن أبي سفيان: فهو يقول للأشعث صراحة أنه لا يريد أن يترك علياً وينضم إلى معسكر معاوية في مثل هذه الظروف (فهو يدرك أن هكذا تصرف يستحيل أن يصدر عن الزعيم القبلي العربي، لأنه سيجرّ عليه عار الدهر)، وأنه ببساطة يدعوّه إلى ما فيه خير الطرفين، وهو البقاء.

ولا بد من الإشارة إلى أنه توجد طائفة من الروايات الأخرى التي تؤكد أن قيادات «القراء» في المعسكر العراقي هي التي قامت بالضغط على عليّ لحمله على قبول فكرة التحكيم التي طرحها معسكر معاوية حين رفعوا المصاحف.

فمثلاً روى الدينوري في الاخبار الطوال ان اشتباكا حصل بين (أصحاب الجباه السود) الذين يريدون الاستجابة الفورية لمصاحف اهل الشام المرفوعة وبين الاشر الذي يصّر على مواصلة القتال «وكان مسمر بن غنم وابن الكواء وطبقتهم من القراء الذين صاروا بعدُ خوارج كانوا من أشد الناس في الاجابة الى حكم المصنف»

ومن المصادر الشيعية ذكر ابن ابي الفتح الأريلي انه لما رفع الشاميون المصاحف «رجع القراء عن القتال. فقال لهم علي عليه السلام: انها فعلة عمرو بن العاص، وخديعة وفرار من الحرب. وليسوا من رجال القرآن فيدعوننا اليه. فلم يقبلوا وقالوا: لا بد أن تنفذ وترد الاشر عن موقفه وإلا حاربناك وقتلناك أو سلمناك اليهم»

فأنفذ في طلب الاشر، فأعاد اليه أنه ليس بوقت يجب ان تزيّلي فيه عن موقعي وقد أشرقتُ على الفتح. فعرّفه بالاختلاف الذي وقع. فعادَ ولام القراء وعنفهم، وسبهم وسبوه. وضرب وجه دوابهم وضربوا وجه دابته. وأبوا إلا الاستمرار على ظيهم وانهماكاً في بغيهم. ووضعت الحرب أوزارها»

ولكنني أرى ان هذه الروايات غير صحيحة. فهي تهدف ببساطة إلى إلقاء تبعة وقف القتال على القراء، الذين سيصبح جزء منهم خوارج فيما بعد، وذلك من أجل إظهار تهافت متطقيهم عندما دخلوا في حرب مع الإمام عليّ. فهكذا روايات تريد أن تقول أن نفس الأشخاص الذين أجبروا علياً على وقف القتال، جالوا بعد قليل ليقولوا له: لماذا أوقفت القتال؟!

فلا يمكن التسليم بأن قيادات القراء هي التي أجبرت علياً على وقف القتال، لأنها كانت أصلاً غير قادرة على ذلك حتى لو أرادت. فهي كانت أقلية صغيرة ضمن الجيش العراقي الكبير. كما أن سلوك ومواقف هؤلاء لاحقاً،

الذين أصبحوا خوارج فيما بعد، يؤكد أن مسألة وقف القتال بالذات، والقبول بالتحكيم، كانت هي أساس تحركهم وتمردهم ضد عليّ ومأخذهم الوحيد عليه.

والرواية التالية من الامامة والسياسة لابن قتيبة تؤيد هذا المنحى. فبعد أن استجاب عليّ وقرر وقف القتال «قام الى عليّ أناس، وهم القراء، منهم عبد الله بن وهب الراسبي، في أناس كثير قد اخطروا سيرهم، ووضعوها على عواتقهم. فقالوا لعليّ: اتقي الله! فإِنَّكَ قد أعطيت المهذ وأخفته منا: لنفسي أنفسنا أو لنفسي عدونا، أو يفيء الى أمر الله. وإنا نراك قد ركبنا الى أمر في الفرقة والمعصية لله، والذل في الدنيا. فانهض بنا الى عدونا، فلنحاكمه الى الله بسيفنا، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، وهو خير الحاكمين، لا حكومة الناس»

والخلاصة إذن أن وقف القتال قد تم بضغط من الزعماء القبليين، وخاصة الأشعث بن قيس، الذين يتمتعون بنفوذ كبير لدى المقاتلين من أبناء عشائهم، على الإمام عليّ. وقد كان موقف الزعماء القبليين انعكاسا لتيار واسع بين أفراد المعسكر العراقي يرى ضرورة الاستجابة لمصاحف أهل الشام ووقف المقتلة والقبول بالموادعة.

ومما يدعم هذا التحليل ما رواه الدينوري من قيام الأشعث بن قيس بحمل كتاب التحكيم بين الفريقين والدوران به على كل القبائل المشاركة في الجيش العراقي للتأكد من التزامها بوقف القتال. والأهم من ذلك هو ردة فعل النواة الاولى للخوارج (لم يكونوا قد أصبحوا «خوارج» بعد) الذين عارضوا وقف القتال مع أهل الشام. فبعض هؤلاء الأفراد المطالبين باستمرار القتال صَبَّوا جام غضبهم على الأشعث بالذات حتى وصل الأمر إلى حد محاولة الاعتداء عليه جسدياً!

« وإن الأشعث أخذ الكتاب فقرأه على الفريقين، يمر به على كل، راية راية، قبيلة قبيلة، فيقرؤ عليهم....»

فقال صروة بن أدية: أتحكمون في دين الله الرجال؟! فأين قتلتان يا أشعث؟

ثم حمل سيفه على الأشعث، فأخطأه، وأصاب السيف عجز دابته. فانصرف
الأشعث إلى قومه، فمضى إليه سادات تميم، فاعتزلوا إليه قبيل وصنع⁽¹⁾

وطبعاً فإن قيام بعض العناصر التي ستصبح «خوارج» فيما بعد بالتهجم
على الأشعث ومحاولة الاعتداء عليه يشير إلى عظم الدور الذي اضطلع به في
عملية وقف الحرب.

وسوف يتحول غضب الخوارج فيما بعد لينصب بالكامل على علي،
باعتباره القائد الأعلى المسؤول عن كل ما يجري، بما في ذلك خضوعه
لضغوط الأشعث وغيره من الزعماء القباليين.

وأخيراً هناك روايات تشير إلى أن علياً كان يأخذ بعين الاعتبار، عند
موافقته في النهاية على التحكيم، حجم الانهك العظيم الذي أصاب المسلمين
من جراء القتال. فقد قال علي في إحدى محاججاته مع الخوارج فيما بعد:

«... وأما قولكم: لَمْ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ
ذَلِكَ لِتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ وَيُثَبِّتَ الْعَالِمُ. وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَصْلَحَ فِي هَذِهِ الْهَدَنَةِ أَمْرَ هَذِهِ
الْأُمَّةِ، وَلَا تَتَوَخَّذَ بِأَكْثَامِهَا...»⁽²⁾

وقول علي «ولا تؤخذ بأكثامها» فيه دلالة على مدى المشقة التي كان
يعاني منها المسلمون آنذاك. وفي هذا النص ذاته يظهر أن علياً كان يعتبر
القبول بالتحكيم والرجوع إلى القرآن نوعاً من إقامة الحجة على صحّة موقفه،
لمن يشك الحق من المسلمين. فكأنه يقول للناس إنه لم يَدْعُ سبيلاً إلاّ سلكه
في سبيل وحدة الأمة، وحتى لا يتهم بأنه لا يعطي خصوصته فرصة الرجوع إلى
الحق، سلباً.

وقفة: بشأن الراوي الأبرز أبي مخنف

يعتبر لوط بن يحيى، المعروف بأبي مخنف، من أهم المصادر القديمة

(1) الأخبار الطوال للبخاري. ومثل ذلك روى الطبري في تاريخه.
(2) نهج البلاغة بشرح محمد عبده. والأكظام جمع كظم: مخرج النفس. والأخذ بالأكظام:
المضايقة والاستئثار

لأخبار الفتنة الكبرى، إن لم يكن أهمها. وهو من المصادر القديمة والقرينة
نسبياً من الأحداث. فهو قد توفي سنة 157 للهجرة وهذا يعني انه ربما كان
شاباً واعياً سنة 100 للهجرة وأنه ربما قابل بالفعل اشخاصاً عاصروا أحداث
الفتنة الكبرى، أو حتى شاركوا بها (حرب صفين وقعت سنة 38 للهجرة).

وابو مخنف من أبناء الكوفة، نشأ وعاش بها. وهو ينتمي الى قبيلة الأزد
اليمانية المعروفة. وكان راوية متخصصاً بالتاريخ، وألف كتاباً عديدة تناول
وقعة صفين والخوارج واغتيال علي، وقبل ذلك حرب الجمل والثورة على
عثمان. وللأسف لم تصلنا كتبه مباشرة وإنما وصلتنا مقاطع كبيرة منها من
خلال المحافظين الكبار للمادة التاريخية وأبرزهم طبعاً الطبري والبلاذري.

وهو من أكثر الذين أخذ المؤرخون الكبار عنهم بشأن أخبار الفتنة
الكبرى، بالإضافة الى المدائني والزهري والواقدي وابن اسحق والشعبي
وهشام الكلبي وعوانة بن الحكم، من الجيل المؤسس لعلم التاريخ في
الاسلام.

وكمثال على أهمية ابي مخنف يكفي ان نذكر ان الطبري في تاريخه أخذ
عنه 116 رواية بشأن أحداث الصراع بين عليّ ومعاوية، بينما البلاذري في
انساب الاشراف اخذ عنه 37 رواية حول نفس الموضوع⁽¹⁾.

وكثير من الباحثين والمهتمين بالتاريخ، قديماً وحديثاً، يأخذون على
ابي مخنف انحيازه لعلّي في الصراع⁽²⁾. وبالتالي يلقون ظلالاً من الشك حول
رواياته ومصداقيتها. ويزداد ذلك «الاتهام» لأبي مخنف حدة اذا عرفنا أن جدّه
المباشر، مخنف بن سليم الأزدي، كان أحد المقاتلين في جيش عليّ في حرب
الجمل وصفين، بل ويقال انه كان من حملة الرايات. وذلك يعني أن لديه انتماءً
أسرياً قديماً ومتوارثاً لعلّي ومعسكره وللجانب العراقي من الصراع ككل.

(1) المصدر: «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» لعبدان ملحم ص 29 وص 70
(2) ومنهم من وصفه بأنه «شيعي». ولكن حتى لو كانت لديه ميول نحو عليّ، الا انه لا
تظهر في رواياته تلك «المحاجبة» والايديولوجية الشيعية التي نراها عند الشيخ المفيد
وغيره من ذوي الملحية الشيعية الذين كتبوا في التاريخ. وروايات ابي مخنف تاريخية
بالدرجة الاولى وبعدة عن التشيع للملحي.

ولكنني ارى أن من الظلم لأبي مخنف أن يتهم بالتلفيق او الكذب او تزوير الاخبار لمجرد أن جده كان في عداد جيش عليّ. وقد يكون صحيحا ان عنده ميولاً تجاه عليّ، اما ذلك من حقه كإنسان وكمسلم أن يكون محباً لعن يراه معبراً عن الحق والعدل والخير. وليس ذلك ميرراً للفتح به.

ثم ان رواياته في مجملها تتفق مع روايات كثيرين آخرين، وبعضهم ليس لديهم أية ميول علوية. أي ان السياق العام لرواياته ليس شاذاً ولا يجهز ردّها كلها وتجاهلها باعتبار ابي مخنف «علوي الهوى». بل يجب التعامل معها رواية رواية وتحليلها وربطها بالوقائع والاحداث للنظر في معقوليتها وامكانيتها.

وجدير بالذكر ان المصدر المهم الآخر لأحداث حرب صفين بالتحديد، نصر بن مزاحم، لم يأخذ رواياته من طريق ابي مخنف، بل من طرق غيره وأبرزهم عمر بن سعد الأسدي، ومع ذلك كانت متشابهة الى حد كبير مع روايات ابي مخنف. ولعل هذا يضيء مصداقية نوعاً ما على روايات ابي مخنف.

وكون جده مشاركا وفاعلاً في الاحداث قد يكون عنصراً ايجابيا على نحو ما. فهذا يعني ان ابا مخنف كان قريبا من البيئة الحقيقية لمسرح الاحداث من خلال امرته ومن خلال بقية القبائل اليمانية التي كانت مستوطنة في الكوفة. أي انه ينقل لنا بتفصيل كبير البيئة العراقية لأحداث الفتنة الكبرى. وهذه قيمة تاريخية عالية بحد ذاتها.

الفصل الرابع: بعد المعركة: مؤتمر التحكيم

بعد توقف القتال انتقل الفريقان إلى محاولة التوصل لصيغة معينة «للتحكيم» بينهما. وتم الاتفاق مبدئياً على أن يرسل كل منهما وفداً إلى مكان محايد يرأسه «حكم». وسوف يتناول الحكماء في شأن النزاع ويُصدرا حكماً يتفق مع «كتاب الله».

وشكّل اختيار الحكم المتدب من الجانب العراقي مشكلة جديدة وخطيرة لعليّ!

تعيين أبي موسى الأشعري حكماً⁽¹⁾

نظراً لأهمية الموضوع، وغرابته، سوف أقوم باستعراض موسع للروايات بشأنه في مصادر عديدة.

خصص ابن عساکر في تاريخ دمشق كلاماً كثيراً وأخرج روايات عديدة حول هذا الموضوع: بعضها تلقي باللائمة عن اختيار أبي موسى على «أهل الكوفة»، وبعضها على «اليمانية»، وبعضها على الأشعث بن قيس بالتحديد.

فقد ذكر أن معاوية قال لابن العاص في معرض تكليفه بمهمة التحكيم نيابة عنه: «... إن أهل الكوفة أكرموا علياً على أبي موسى وهو لا يريد...»

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساکر (ج 46 ص 171) و(ج 32 ص 92)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج 2 ص 395)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 306)، كتاب اللغات لابن حبان (ج 2 ص 292)، تاريخ يعقوبي (ج 2 ص 189)، أسد الغابة لابن الأثير (ج 3 ص 246)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الأريطي (ج 1 ص 256)، انساب الأشراف للبلخاري (ج 3 ص 107)، تاريخ الطبري (ج 4 ص 36-39 وص 45-46).

واخرج ايضا عن عكرمة من طريق ابن سعد رواية تلقي بالمسؤولية عن اختيار ابي موسى على «اليمانية»:

«لما كان يوم الحكمين فحكم معاوية من قبله عمرو بن العاص، قال الاحنف بن قيس لعلي: يا امير المؤمنين حُكِّمَ ابنُ عباس فإنه نعوذ، وابنُ عباس رجل مجرب. قال علي: فأنا أفعل. فحُكِّمَ ابنُ عباس. فأنت اليمانية وقالوا: لا حتى يكون منا رجل، ودهوا الى ابي موسى الأشعري. فجاء ابن عباس الى علي فقال: علام تحكّم أبا موسى، فوالله لقد عرفت رأيه فينا. فوالله ما نصرنا وهو يجر ما نحن فيه، فتدخله الآن في معاند الأمر ١٩ مع ان أبا موسى ليس لك بصاحب ذاك. فإذا أبيت أن تجعلني مع عمرو فأجعل الاحنف بن قيس فإنه مجرب من العرب وهو قرن لعمرو. فقال علي: فأنا أجعل الاحنف! فأنت اليمانية أيضاً وقالوا: لا يكون فيها إلا يمان. فلما غلب علي جعل أبا موسى»

كما أخرج رواية أخرى عن عكرمة من طريق محمد بن عمر (الواقدي) فيها ذكر للأشعث بن قيس بالتحديد «سمعتُ ابنَ عباس يقول: قلتُ لعلي يوم الحكمين: لا تحكّم الأشعري فإن معه رجلاً حذراً مرساً قارحاً من الرجال. فلزني الى جنبه فإنه لا يحل عقلة إلا عقلتها ولا يعقد عقلة إلا حللتها! قال: يا ابنَ عباس فما أصنع؟ إنما أوتى من أصحابي، قد ضعفَت بيّتهم وكلّوا في الحرب. هلم الأشعث بن قيس يقول لا يكون فيها مضريان أبداً حتى يكون أحدهما يمان. قال ابن عباس: فعلمت أنه مضطهد وإن أصحابه لا نية لهم»^(١)

وتابع ابن عساكر مخرجا روايتين متناقضتين تماماً:

الاولى من طريق الاعمش وفيها ان عليا قال «يا أبا موسى: احكّم ولو على حز عقي!»

والثانية من طريق الاحوص «قال علي في الحكمين: احكّمكما على أن تحكما بكتاب الله، وكتاب الله كله لي، فإن لم تحكما بكتاب الله فلا حكومة لكما»^(٢)

(١) وقد اخرج اللحي في سير اعلام النبلاء نفس هذه الرواية ولكن من طريق ابن سعد

(٢) وهذه ذكرها ايضا ابن الاثير في اسد الغابة.

والروايان الأخيرتان غير صحيحتين فكيف يمكن ان يقول علي لأبي موسى، ويتلك الحميمة العجيبة «احكم ولو على حز عتي» بعد ما حصل بينهما في الكوفة؟ وكيف يمكن ان يجعل علي الحكم لصالحه شرطاً للتحكيم، مع ان ذلك يناقض فكرة التحكيم ذاتها؟ يمكن ان يتوقع الحكم لصالحه، ولكن لا يمكنه اشتراط ذلك.

وأما ابن كثير فقد خلط في روايته لقصة اختيار ابي موسى ما بين «القرء» والأشعث بين قيس، وجعل مسؤولية اختيار ابي موسى عليهم معا جاءت روايته على النحو التالي «واراد علي أن يوكل عبد الله بن عباس -وليه فعل- ولكنه منعه القرء»⁽¹⁾ ممن ذكرنا وقالوا: لا نرضى إلا بأبي موسى الأشعري. وذكر الهيثم بن عدي في كتاب الخوارج له ان اول من أشار بأبي موسى الأشعري الأشعث بن قيس، وتابعه أهل اليمن، ووصفوه بأنه كان ينهى الناس عن الفتنة والقتال.

وكان أبو موسى قد اعتزل في بعض أرض الحجاز.

قال علي: فلاني أجعل الأشعث حكماً. فقالوا: وهل ستر الحرب وسعر الأرض إلا الأشعث؟

قال: فاصنعوا ما شئتم!

.... فأبوا إلا أبا موسى الأشعري.

فبعثت الرسل الى أبي موسى الأشعري -وكان قد اعتزل- فلما قيل له ان الناس قد اصطلمحوا قال: الحمد لله. قيل له: وقد جُعِلَتْ حكماً فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم أخذوه حتى أحضروه الى علي رضي الله عنه وكتبوا بينهم كتاباً..»

وأما ابن الأثير فقد أخرج رواية يبدو فيها علي بمظهر عديم الشخصية تماماً ويكتفي بالموافقة على أي اقتراح يُعرض عليه!

(1) والقرء اللين يشير اليهم ابن كثير هنا هم سمر بن ذكوان التميمي وزيد بن حصين الطائي ومن مهمما.

«حكم معاوية عمرو بن العاص. فقال الاحتف بن قيس لعلي: يا أمير المؤمنين حكم ابن عباس فإنه نحوه.

قال: أفعل.

فقلت اليمانية: يكون احد الحكمين منا واختاروا أبا موسى.

فقال ابن عباس لعلي رضي الله عنهما: علام تحكم أبا موسى؟ فوالله لقد عرفت رأيه فينا. فوالله ما نصرنا وهو يرجونا فتدخله الآن في معاهد الأمر؟ مع أن أبا موسى ليس بصاحب ذلك. فاجعل الاحتف فإنه قرن لعمرو.

فقال: أفعل.

فقلت اليمانية أيضاً -منهم الاشعث بن قيس وغيره-: لا يكون فيها إلا يمان. ويكون أبا موسى.

فجعله علي رضي الله عنه

وأما يعقوبي فقد أوجز القصة، كماداته، بعباراته المختصرة والحادة، فقال:

«وقال علي: أرى أن أوجه بعبد الله بن عباس.

فقال الأشعث: إن معاوية يوجه بعمرو بن العاص، ولا يحكم فينا مضريان. ولكن توجه أبا موسى الأشعري فإنه لم يدخل في شيء من الحرب.

وقال علي: إن أبا موسى عدوا وقد دخل الناس عني بالكوفة، ونهاهم أن يخرجوا معي

قالوا: لا نرضى بغيره

فوجه علي أبا موسى على علمه بعداوته له ومداهنته فيما بينه وبينه.

وجه معاوية عمرو بن العاص»⁽¹⁾

وألقي ابن حبان في كتاب الثقات بالمسؤولية حصراً على عاتق الاشعث:

(1) وغريب من هذه الرواية وردت في تاريخ الطبري

«... وأراد علي أن يحكم ابن عباس. فقال الأشعث بن قيس - وهو يومئذ سيد الناس -: لا يحكم في هذا الأمر رجلان من قرش، ولا اترق الفريقان على هذا الجمع على حكومة، بعد أن كان من القتال بينهما ما كان، إلاّ وأحد الحكمين منا!»

وتبعه أهل اليمن على ذلك. ثم قال الأشعث: لا نرضى إلاّ بأبي موسى الأشعري!

ومن المصادر الشيعية، يلوم ابن أبي الفتح الأربلي في كشف الغمة القراء ويحملهم مسؤولية اختيار أبي موسى فوهين علي عليه السلام عبد الله بن عباس، فلم يوافقوا وقالوا: لا فرق بينك وبينه! فقال: فأبوا الأسود؟ فأبوا عليه. فاخاروا أبا موسى الأشعري. فقال عليه السلام: إن أبا موسى مستضعف وهواه مع خيرنا! فقالوا: لا بد منه. فقال: إذا أبيتم فاذكروا كلما قلت وقلت!

وانفرد البلاذري برواية (عن صالح بن كيسان، ذي النزعة الاموية) تتجاهل تماماً فكرة فرض أبي موسى عليّ من قبل أصحابه! بل تقول انه بعد وقف القتال اختار الناس (دون تحديد) من الجانبين الشامي والعراقي رجلين من الانصار ليكونا حكمين: عبادة بن الصامت وشداد بن اوس بن ثابت، ولكن تم رفض ذلك من قبل معاوية، ثم قال معاوية: عمرو، وقال علي: ابو موسى الأشعري. وتراضيا بذلك! أي ان عليا اختار أبا موسى بإرادته الحرة!

اذن تظهر اغلبية الروايات أن الأشعث بن قيس واصل دوره المشبوه تجاه عليّ، عن طريق الضغط عليه لاختيار أبي موسى الأشعري مندوباً عن الجانب العراقي في مؤتمر التحكيم المنوي عقده. وهي كذلك تظهر علياً بمظهر الزعيم المغلوب على أمره.

ومن الصعب التسليم بصحة هذه الصورة التي ترسمها الروايات تلك. فالواضح منها أنها تريد تحميل الأشعث وزر اختيار أبي موسى الأشعري، الذي سيظهر فشله الكبير لاحقاً، بالإضافة إلى مسؤولية إجبار عليّ على وقف القتال بالأصل.

فالأشعث بن قيس كان بمقدوره فعلاً أن يضغط على عليّ من أجل وقف سفك الدماء المتبادل، لأن ذلك ولا شك غداً مطلباً مُلحاً من قواعد المقاتلين، ولكن لا يمكن تصوّر أنه أيضاً كان قادراً على تسمية الحكم من الجانب العراقي وحتى لو كان الأشعث راضياً في تسمية أبي موسى، فإن علياً كان بإمكانه أن يرفض. تسمية الحكم ليست أمراً طارئاً يحتاج قراراً فورياً، مثل وقف القتال وسفك الدماء، بل هي حتماً تحتل التأجيل لعدة أيام للنظر والتفكير فيها، ما دامت المعركة قد توقفت بالفعل.

ويبقى سؤال مهم: كيف إذن قبل عليّ بتسمية أبي موسى الأشعري مندوباً عنه للتحكيم؟

من المؤكد أن علياً لم يكن يحترم أباً موسى ولا يتق به على الإطلاق. وما صدر منه بالكوفة قبيل وصول عليّ إليها، ودوره المثبط للناس عن عليّ، لم يكن قد مرّ عليه زمنٌ طويل. ومن المستحيل أن يكون عليّ اختار أباً موسى بإرادته ومشيئته.

وكما رأينا فإن بعض الروايات تذكر أن علياً أراد تسمية مالك الأشتر مندوباً عنه. وهذا هو الأقرب للحقيقة لأن ثقة عليّ بالأشتر كانت كبيرة، واستمرت إلى نهاية حياته.

ولذا لا مفر من الاعتقاد بأن «شيئاً قاهره» قد أجبر علياً على قبول تسمية أبي موسى! ولكن كيف؟ ومن الذي أجبره؟ الأمر يبعث على الحيرة.

يبدو أن ما حصل في المعسكر العراقي في تلك الظروف كان فوضى رهية وشتاق عظيم، أكبر مما يظهر في كل الروايات، إلى درجة أن علياً لم يكن أمامه من سبيل سوى الخروج من ذلك الموقف بأي وسيلة، ولو كانت تعين واحد من خصومه مندوباً عنه للتحكيم! وقد يكون عليّ فقد زمام السيطرة على الجيش وصارت القيادة بالفعل بأيدي الزعماء القبائليين في الجانب العراقي.

هناك تخبّط في الروايات التي تذكر اختيار أبي موسى حكماً. وقد مرت بنا الروايات التي تتحدث عن مسؤولية «الفراء» وتقول أن الاختيار تم من قبل شخصيات أصبحت خوارج فيما بعد، من أمثال مسعر بن غدك، وزيد بن

حصين! بل انه توجد روايات أخرى في الطبري والإمامة والسياسة تتحدث عن دور لـ«زعماء الأنصار» في ذلك الاختيار!

وفي كل الأحوال، كان اختيار أبي موسى الأشعري يمثل انتصاراً مؤقتاً للتيار الأكثر سلبية في صفوف جيش عليّ تجاه كل ما جرى من صراع. ذلك التيار الذي كان ينجح إلى اعتزال «الفتنة» ويرى في «سفك دماء المسلمين» شراً مستطيراً ويدعو المؤمنين إلى «الفرار بدينهم» من الفتنة!

وهنا تظهر هذه الأحداث ظاهرة مهمة في الجانب العراقي من الصراع. فعليّ كان يحكم بالاستناد إلى شرعيته الإسلامية أولاً وأخيراً، ولم يكن يحكم مستنداً إلى دعائم إدارية وتنظيمية راسخة البنيان. فطاعة جنوده وجيشه وأهل العراق جميعاً له كانت ناتجة عن اقتناع فردي من كل الناس بأهليته وصلاحيته وإخلاصه. ولكنّ هذه العلاقة لم يجر تأطيرها بالشكل الكافي لتصبح، فوق ذلك، علاقة حاكم بمحكوم، بالشكل التنظيمي المحدد، ذي البعد الإداري بتسلسلاته وهيكلته. وذلك أمر خطير، وسوف يعاني منه عليّ شرّ المعاناة، لأنه يعني أن فعليّ عشرات الألوف من الشركاء في الحكم! عشرات الألوف من الذين عليه أن يقنعهم بصحة كل قرار يتخذه وكل سياسة يتبناها! فهؤلاء يحبوه ويوالونه، ولكنهم ليسوا مرتبطين مصلحياً معه. ولا يلام عليّ على ذلك. فهو قد جاء العراق من مدة قصيرة جداً، ولم تنح له الفرصة لكي يرسى دعائم حكم وتنظيم فعال. وكانت جبهة عليّ وجيشه تضمّ صحابة أولين، والأنصار، إلى جانب أشرف القبائل وأهل القادسية والأيام، وجماعات الروادف ومجموعات القراء، وهي عناصر تختلف في درجة تقديرها لمصالحها، وفي نظرتها لقريش ولسلطان المدينة، وفي فهمها لأبعاد الصراع الذي تخوضه. فلم يكن هناك تجانس في الآراء في معسكر عليّ، ولم تكن قبائله منضبطة.

كل ذلك بعكس وضع معاوية في الشام، الذي كان يترعّ على هرم سلطة إدارية، فعالة ومنظمة، منذ حوالي العشرين عاماً. ولم يكن مضطراً إلى هند الكثير من الجهد لإقناع المراد جيشه وقياداته، الممتادين على تلقّي أوامره والمستفيدين من عطاياء، بصواب قراراته.

إذن دبّ الخلاف والشقاق في صفوف الجيش العراقي، فعاد إلى العراق وهو على أسوأ حال: «خرجوا مع عليّ إلى صفين وهم متوادون أحياء، فرجعوا متباغضين أهداء. ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم. ولقد أتبلوا يتدافعون الطريق كله ويشاتمون ويضطربون بالسياط. يقول الخوارج: يا أهداء الله أهدتم في أمر الله عز وجل وحكمتم. وقال الآخرون: فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا»⁽¹⁾

ولما وصل جيش عليّ إلى العراق افترق الذين مالوا إلى رأي المحتجين على عليّ «الخوارج» ثلاث فرق:

فرقة رجعت إلى أمصارها ومنازلها في العراق.

فرقة أقامت وقالت: «لا نمجل. ننظر إلى ما يصير بشأنه»

فرقة شهدت على عليّ بالكفر، وهو الذين تجمعوا في حروراء، ثم في النهروان.

مؤتمر التحكيم

قبل التطرق إلى تفاصيل مؤتمر التحكيم وما جرى فيه، لا بد من التوقف قليلاً عند مسار الأحداث التي أدت إلى ذلك المؤتمر، وما هو ممكن من انعقاده.

فمن المؤكد أن التوجه نحو نوع من التحكيم هو دليل أكيد على توازن ما في القوى العسكرية بين الفريقين. ولذلك، وكما سبق وذكرنا، لا ينبغي التسليم بالروايات التي تشير إلى أن جيش العراق كان متفوقاً بشدة عند وقف القتال وأن معاوية وابن العاص كانا على وشك الفرار. وكون المبادرة إلى رفع المصاحف والمطالبة بوقف القتال جاءت من الجانب الشامي لا تعني بالضرورة أنهم هزموا. فهنا لا بد من ربط هذا التصرف من جانب معاوية بالهدف الذي خاض من أجله كل من الطرفين المعركة.

(1) تاريخ الطبري

فالإمام عليّ، كخليفة شرعيّ للمسلمين، جاء إلى صفين وأمامه هدف وحيد لا يحتمل أنصاف الحلول: إلحاق الهزيمة الكاملة بمعوية وجيش الشام. فهؤلاء بنظرة يمثلون انشقاقاً في جسد الأمة، وليس أمامهم من سبيل سوى الدخول في الطاعة، إن لم يكن سلباً، فحرباً. فأي اتجاه آخر، أو حل وسط، ليس مقبولاً ولا ممكناً بالنسبة لعليّ، لأنه يعني استمرار انقسام أمة العرب التي وحدها محمد(ص)، والتي يرى عليّ نفسه المؤتمن عليها. لذلك كان عدم الحسم، أو الهدنة، أو التأجيل، يساوي الهزيمة ذاتها.

وعلى التقيض من ذلك كان وضع معاوية. فالنجاح الأعظم بالنسبة له كان بالفعل قد تحقق، وهو حشد جيوش الشام من خلفه. وفي اليوم الذي سارت فيه جيوش الشام وقبائلها معه كان النصر قد كتب له. فلم يكن ممكناً، بكل المقاييس، إلحاق هزيمة تامة بالجيش الشامي المكون من 90 ألف رجل ما دام متماسكاً. فكانت مهمة معاوية الأساسية خلال تلك المواجهة هي المحافظة على صمود قواته وترابطها، وليس هزيمة جيش العراق.

ولذلك كان معاوية شديد الاهتمام بتماسك صفوفه ومنع قواته من التأثير بدعاية أهل العراق، أو بشخصية علي بن أبي طالب. وقبيل بدء المعركة في صفين، عندما انشق على معاوية مجموعة من المتدينين والقراء الشاميين بقيادة شمر بن ابرهة بن الصباح الحميري، وانضموا إلى صفوف عليّ، عقد معاوية وابن العاص اجتماعاً طارئاً على الفور وتناوبا على الخطابة أمام جنود الشام مؤكدين على شرعية موقفهم، ومظلومية عثمان، طالبين من الناس الصبر معهم «...أيها الناس أعيرونا أنفسكم وجماعكم، لا تفشلوا ولا تخاذلوا...»⁽¹⁾

فهذه معاوية إذن في معركة صفين كان يتلخص بالصمود. فمخوض المواجهة ضد عليّ والصمود فيها كان غاية ما يطمح إليه معاوية في حينه. فالصمود في الحرب يعني فعلياً أن معاوية نجح في فرض أمر واقع على عليّ، وتثبيت فكرة التقاسم بينهما: هذه الأرض لي، وتلك لك!

(1) وقعة صفين لتصر بن مزاحم (ص 223)

وهكذا يمكن القول أن معاوية خرج إلى صفين للقتال بهدف الوصول إلى هدنة. وذلك ما نجح في تحقيقه.

فما الذي يمكن لمؤتمر التحكيم أن يحققه؟ هل كان ممكناً لذلك المؤتمر أن يعيد توحيد الأمة؟ هل كان بإمكان ذلك المؤتمر أن يحكم، كما يوحي بذلك اسمه، بين الفريقين؟ هل كان ممكناً للمؤتمر أن يقرر في مسائل الخلاف والشقاق وأن يبت فيها؟

كل تلك الأسئلة مشروعة تماماً في مواجهة تركيز الكثير من الرواة على فكرة «الخديعة» أو «الغدر» الذي حصل في ذلك المؤتمر من طرف عمرو بن العاص تجاه أبي موسى. فهناك ميل واضح لتضخيم دور عمرو بن العاص «الداهية» على حساب أبي موسى «الساذج». ورغم أنه لا شك أبداً في خصال الغدر والدعاء لدى ابن العاص، وقدراته الشخصية والبلاغية الكبيرة والتي تجعله قادراً، دون أدنى ريب، على مراوغة شخص سطحي كأي موسى والتفوق عليه، إلا أن تصوير النتائج الهزيلة التي أسفر عنها مؤتمر التحكيم وفشله، وكأنه ناتج عن سوء أخلاق عمرو بن العاص ونواياه، فيه تعسف كبير، ولا ينبغي أخذه بجديّة.

لم تكن هناك أي نتيجة عملية يمكن أن تنتج عن مؤتمر التحكيم سوى تثبيت الأمر الواقع. ويغض النظر عن اسم الشخصين الذي أرسلوا لتمثيل الطرفين في ذلك المؤتمر، سواء كانا أبا موسى وعمرو، أو ابن عباس وعمرو، أو غيرهم، فالنتيجة واحدة. فبعد تلك المعركة الطاحنة، ودماء عشرات الألوف التي سالت، لا يمكن تخيل أن أي طرف يحتمل أن يقبل بحل لا يوافق مصلحته وسياسته بسبب فصاحة فلان أو بلاغة علان. فلن يقبل معاوية الدخول في طاعة عليّ مهما كانت حجة مندوب العراق قوية ومؤثرة. ولن يقبل عليّ الاعتراف باستقلالية معاوية وإقليمه الشامي مهما ساق مندوبه من براهين على صوابية موقفه.

ومن هنا يمكن النظر إلى مؤتمر التحكيم على أنه استراحة لالفاظ الأنفاس قبل معاودة واستئناف الصراع المسلح بين الطرفين، والذي لا بد أن ينتهي بالحسم لمصلحة أحدهما.

وكل ما يروى من تفاصيل حول ما جرى داخل أروقة ذلك المؤتمر من جدالات، واقتراحات، ومناورات، صحيحة على الأغلب، يجب النظر إليها من قبيل التفاصيل ليس إلا، لا من قبيل الأحداث الرئيسية.

ويمكن أيضاً استعراض نص تفصيلي لكتاب التحكيم بين الطرفين لتوضيح مدى عمومية عباراته وفقراته:

نص كتاب التحكيم⁽¹⁾

أفضل نص يلخص الاتفاق الذي تم هو ما رواه الدينوري في الأخبار الطوال:

«هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما⁽²⁾، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وستة نية (ص). قضية عليّ على أهل العراق شاهدهم وغالبهم، وقضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغالبهم.

إننا تراضينا أن نقف عند حكم القرآن⁽³⁾ فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته، نحبي ما أحيا ونميت ما أمات. على ذلك تقاضيا وبه تراضيا.

وإن عليا وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس ناظراً وحكماً، ورضي معاوية وشيعته بعمر بن العاص ناظراً وحكماً.

على أن علياً ومعاوية أخذوا على عبد الله بن قيس وعمر بن العاص عهد الله وميثاقه، وذمة رسوله أن يتخذوا القرآن إماماً ولا يعدو به إلى غيره في

(1) مصادر هذا البحث: الأخبار الطوال للدينوري (ص 194)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 307 وص 313)، تاريخ الطوطي (ج 2 ص 189)، انساب الاشراف للبلاذري (ج 3 ص 108).

(2) هذا أول استخدام لمصطلح «شيعته» في تاريخ الاسلام. وكما هو ظاهر استخدم للإشارة إلى الطرفين: شعبة عليّ وشعبة معاوية. وفي مرحلة لاحقة اقتصر استخدامه على عليّ وذلك بعدما سيطر معاوية على مقاليد الحكم وصار «خليفة المسلمين» وبالتالي صار شيعته يصغون من ضمن «أهل السنة والجماعة».

(3) حسب تمييز رواية ابن كثير «نزل عند حكم الله وكتابه، ونحبي ما أحيا الله، ونميت ما أمات الله».

الحكم بما وجدناه فيه مسطوراً، وما لم يجدناه في الكتاب رقاؤه إلى سنة رسوله الجامعة، لا يتعمدان لها خلافاً ولا يغيان فيها بشبهة»⁽¹⁾

وواضح أن الكلام عن حكم القرآن وإحياء ما أحياء واتخاذها إماماً....
النخ، لا يحمل أي معنى محدد ولا يزيد عن كونه عبارات عامة مُتفق عليها
أصلاً ولا خلاف بشأنها. فهذا الكتاب لا يتطرق إلى أسباب الأزمة ولا إلى
الحلول الممكنة. والاكتفاء بأخذ العهد والذمة للمحكمين ليس له أي أهمية
حقيقية لأن كليهما قادرٌ على تأويل أي رأي يراه أو قرارٍ يتخذه.

وجديرٌ بالذكر أنه حصل بين الجانبين خلافٌ بشأن الشكليات والدياجة:

روى ابن كثير في البداية والنهاية «... هذا ما قاضى عليه علي بن أبي
طالب أمير المؤمنين.

فقال عمرو بن العاص ⁽²⁾: اكتب اسمه واسم أبيه. هو أميركم وليس
بأميرنا.

فقال الأحقف: لا تكتب إلا أمير المؤمنين!

فقال علي: ائتح أمير المؤمنين واكتب: هذا ما قاضى عليه علي بن أبي
طالب. ثم استشهد علي بقصة الحديبية حين امتنع أهل مكة هذا ما قاضى عليه
محمد رسول الله فامتنع المشركون من ذلك وقالوا: اكتب هذا ما قاضى عليه
محمد بن عبد الله»

وحتى هذا التنازل من طرف علي لم يكن كافياً لحل الإشكال. أضاف
ابن كثير:

«إن أهل الشام أبوا أن يبدأ باسم علي قبل معاوية وباسم أهل العراق
قبلهم، حتى كتب كتابان: كتابٌ لهؤلاء فيه تقديم معاوية على علي، وكتابٌ
آخرٌ لأهل العراق بتقديم اسم علي وأهل العراق على معاوية وأهل الشام»

(1) ويراجع أيضاً: رواية المدائني في انساب الاشراف للبلاذري وفيها عبارة لفنت نظري
«السنّة المعادلة الحسن الجامعة غير المقرقة» لا تبدو هذه العبارة منسجمة مع لغة ذلك
الزمان، بل هي أقرب إلى لغة النفعاء في مرحلة زمنية لاحقة.

(2) وأما في رواية الطبرقي، فإن الذي طالب بمحو صفة «أمير المؤمنين» من اسم علي كان
الاشعث بن قيس، وأدى ذلك إلى رد شديد القسوة عليه من جانب الاشر النخعي.

وأضاف اليعقوبي في روايته فقرة ذات مغزى في ختام كتاب التحكيم:
 «، واشترط على الحكّمين في الكتّابين أن يحكما بما في كتاب الله من
 فاتحته إلى خاتمته لا يتجاوزان ذلك ولا يحيدان عنه إلى هوى، ولا إدهان.
 وأخذ عليهما أخلف المهود والموائيق فإن هما جاوزا بالحكم كتاب الله
 من فاتحته إلى خاتمته فلا حكم لهما»⁽¹⁾

وتقول المصادر أن الطرفين اتفقا على يكون اجتماع التحكيم (بتمبيرهم:
 القضاء) في شهر رمضان المقبل، أو ما بعده إذا تراضيا على ذلك. وأن يأتي
 مع كل حكم 400 رجل من كل طرف. وتم التوقيع على الكتاب بشهادة
 الشهود يوم 13 صفر سنة 37. ولكن هناك اختلاف بين المصادر بشأن مكان
 الاجتماع: حيث مرة يذكر «دومة الجندل»⁽²⁾ ومرة ذكر «أنرح»⁽³⁾. وكلاهما
 من المناطق الصحراوية الحدودية بين الشام والعراق والحجاز. وقد حل ابن
 كثير الإشكالية على النحو التالي:

«على أن يوافي علي ومعاوية موضع الحكّمين بدومة الجندل في
 رمضان... فإن لم يجتمعا لذلك اجتماعا من العام المقبل بأنرح». وأما الطبري
 فقد حل في رواية لأبي مخنف إشكالية مكان المؤتمر (أنرح - دومة الجندل)
 كما يلي: أن وفدي العراق والشام «توافوا بدومة الجندل بأنرح»⁽⁴⁾

واعطى ابن كثير توضيحاً جغرافياً بشأن أنرح «وهي نصف المسافة بين
 الكوفة والشام، بينها وبين كل من البلدين تسع مراحل»

ما الذي حصل عند انعقاد مؤتمر التحكيم(4)؟

- (1) لا شك عندي أن هذه الفقرة «فإن هما جاوزا بالحكم كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته
 فلا حكم لهما» مقحمة على النص ومضافة لاحقاً، وتهدف إلى إعطاء تبرير لقرار الإمام
 علي برفض نتائج مؤتمر التحكيم التي جاءت في غير صالحه.
- (2) تقع ضمن حدود محافظة الجوف في شمال دولة السعودية الحالية، قرب مرعر.
- (3) تقع ضمن حدود محافظة معان في جنوب دولة الأردن الحالية.
- (4) تاريخ اليعقوبي (ج 2 ص 189)، تاريخ الطبري (ج 4 ص 51-52)، البداية والنهاية
 لابن كثير (ج 7 ص 314)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 4 ص 112 وج 3 ص 32)،
 تاريخ دمشق لابن عسّكر (ج 32 ص 95-96)

لخص العقوبي في تاريخه ما جرى على النحو التالي:

«وجه علي بن عبد الله بن عباس في أربعمئة من أصحابه ونفذ معاوية أربعمئة من أصحابه واجتمعوا بدومة الجندل في شهر ربيع الأول⁽¹⁾ سنة 38.

فخدع عمرو بن العاص أبا موسى ا

وذكر له معاوية فقال: هو ولي ثار عثمان وله شرقة في قريش. فلم يجد عنده ما يحب.

قال: فابني عبد الله ؟

قال: ليس بموضع لذلك.

قال: فعبد الله بن عمر ؟

قال: إذا يحيى سنة عمر. الآن حيث به.

فقال: فاخلع علياً، وأخلع أنا معاوية. ويختار المسلمون.

وقدّم عمرو أبا موسى إلى المنبر، فلما رآه عبد الله بن عباس قام إلى عبد الله بن قيس فدنا منه فقال: إن كان عمرو فارقتك على شيء فقدمه قبلك، فإنه خير.

فقال: لا. قد اتفقنا على أمر.

فصعد المنبر فخلع علياً.

ثم صعد عمرو بن العاص فقال: قد ثبتّ معاوية كما ثبتّ خاتمي هذا في يدي ا

فصاح به أبو موسى: خذرت يا منافق! إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.

قال عمرو: إنما مثلك مثل الحمار يحمل أسفارا ا

(1) وكما هو الحال بشأن مكان انعقاد مؤتمر التحكيم فإن هناك اختلافًا بين المؤرخين حول زمانه ا فالروايات تقول أنه انعقد في شعبان، أو رمضان، أو ربيع الأول سنة 38 ا

وتنادى الناس: حكم والله الحكماء بغير ما في الكتاب، والشرط عليهما غير هذا. وتضارب القوم بالسياط. وأخذ قوم بشعور بعض. واخرق الناس.

ونادت الخوارج: كفر الحكماء. لا حكم إلا لله.^(١)

وذكر الطبري في تاريخه تفاصيل ما جرى في التحكيم اعتماداً على روايات أبي مخنف. وهي تشابه في إطارها العام مع رواية يعقوبي أعلاه، مع اختلاف في التفاصيل. فأبو مخنف يقول إن طرح اسم عبد الله بن عمر بن الخطاب كان من جانب أبي موسى (وليس عمرو كما لدى يعقوبي)

ويمكن تصديق أن أبا موسى يختار عبد الله بن عمر كحل لمشاكل الأمة. فهو مثله من التيار السليبي الداعي إلى «اعتزال الفتنة». وربما كان أبو موسى يحنّ إلى العصر الذهبي لعمر بن الخطاب، عصر الفتوحات والانتصارات. بل إن رواية لأبي مخنف تظهر أنه ذهب للمؤتمر أصلاً وهو يضمّر اسم ابن عمر كحل لمشاكل الأمة «قال أبو موسى: أما والله لئن استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه». ولكن لما رفض عمرو بن العاص اقتراح أبي موسى، كان الحل الذي اتفقا عليه:

«فقال له عمرو: خبرني ما رأيك؟»

قال: رأيي أن نخلع هلمين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين. فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا.

فقال له عمرو: فإن الرأي ما رأيك؟

ولكن هل من الممكن أن يكون الحكماء اتفقا على «حل» كهذا؟ أن يخلع كل منهما صاحبه؟ أن يختار المسلمون من أحبوا؟ لم توضح الرواية كيف يمكن للمسلمين أن يختاروا من يحبوا. وإلى أن يختار المسلمون من أحبوا، من سيتولى أمر القيادة بعد خلع علي ومعاوية؟ وماذا لو كان المسلمون يحبون عدة رجال؟ هل الحكماء بهذه السذاجة؟

(١) وكذلك ورد في تاريخ الطبري وفيه أن عمرو بن العاص قال «إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه. وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية»

وفي إحدى روايات أبي مخنف يظهر أبو موسى وبكل بساطة وهو يوافق عمراً على أن عثمان قتل مظلوماً وأن معاوية هو وليّه! وتقول إن عمراً عرض عليه الرشوة «إن ولي أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة» ولكنه رفض الموافقة على تولية معاوية الخلافة لأنه «لم يكن ليولي معاوية ويدع المهاجرين الأولين».

وتركز روايات أبي مخنف كثيراً على أسلوب عمرو والخداع عن طريق تبجيله الظاهري لأبي موسى وتقديمه على المنبر. كما تشير بكثير من الوضوح إلى «نباهة» ابن عباس وتحذيره لأبي موسى من غدر عمرو وتنبئه له ألا يتكلم قبل عمرو، فلم يستمع له، فوقع المحذور: إن عمرو بن العاص قال «إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه. وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية»

ولكن هل يجوز تصديق أن أبا موسى كان بالفعل مغفلاً إلى هذا الحد؟ الجواب هو بالنفي. فأبو موسى كان يمتلك خبرة إدارية وقيادة ممتازة منذ عهد عمر بن الخطاب. وأمضى سنوات عديدة حاكماً لولاية مهمة وهي البصرة. وكانت له مساهمات بارزة في قيادة الجيوش والفنوحات في بلاد فارس. ومن المعلوم أن عمر بن الخطاب كان حريصاً جداً على اختيار القادة والولاة من أهل الكفاءة والقوة والذكاء. ولو كان أبو موسى مغفلاً أو أحمقاً لما استطاع أن يشغل ذلك المنصب الصعب لسنوات طويلة.

وأما ابن كثير، صاحب النزعة الأموية، فقدم في البداية والنهاية اعتذاراً ودفاعاً حاراً عن عمرو بن العاص وموقفه. فبعد أن ذكر عدة روايات عن الواقدي وأبي مخنف والامام أحمد وابن جرير حول تفاصيل الاجتماع قال «فلما اجتمع الحكماء تراءوا على المصلحة للمسلمين، ونظروا في تقدير أمور، ثم اتفقا على أن يعزلا علياً ومعاوية، ثم يجعل الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما.....»

ثم جاء إلى المجمع الذي فيه الناس - وكان عمرو لا يتقدم بين يدي أبي موسى، بل يقدمه في كل الأمور أدباً وإجلالاً - فقال له: يا أبا موسى: قم فأعلم الناس بما اتفقنا عليه.

فخطب ابو موسى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على رسول الله (ص) ثم قال: أيها الناس ! أنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أمراً أصْلَحَ لها ولا أَلَمَ لشمعها من رأي اتفقنا أنا وعمر بن الخطاب، وهو أنا نخلع علياً ومعاوية ونترك الأمر شورى، وتستقبل الأمة هذا الأمر فيولوا عليهم من أحبوه. وإني قد خلعتُ علياً ومعاوية.

ثم تنحى وجاء عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا قد قال ما سمعتم، وإنه قد خلع صاحبه، وإني قد خلعت كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه وهو أحق الناس بمقامه!

وكان عمرو بن العاص رأى أن ترك الناس بلا إمام والحالة هذه يؤدي إلى مفلسة طويلة عريضة، أرى مما الناس فيه من الاختلاف. فأقر معاوية لما رأى ذلك من المصلحة، والاجتهاد يخطئ ويصيب.

وهكذا فإن ابن كثير يعتبر تصرف عمرو بن العاص وخيائته لأبي موسى هو مجرد اجتهد منه لمصلحة الأمة ! فينتظره ان الصحابي الجليل رأى أن ترك الأمة بلا إمام لا يجوز، فالحل إذن هو خلع علي بن أبي طالب وتثبيت معاوية في منصب الخلافة! ولم يوضح ابن كثير وجه الاجتهاد في ذلك ؟ ولو كان ابن كثير قد أنكر حصول الحدث من الأصل - خلع عمرو لأبي موسى وكذبه على المنبر - لأمكن ربما التماس عذر له في رأيه الودّي بعمر بن العاص. لكنه لم يفعل، بل أثبت الواقعة، ثم خرج بذلك الرأي المجيب! فلا يبقى إذن سوى ان ابن كثير دفعه تمصّبه المذهبي وعداؤه للشيعه إلى إعلان رأيه ذلك. فهو يريد أن يجعل عمرو بن العاص رغم أنف الجميع!

والملاحظ على روايات ابن كثير خضوعها للتشذيب! فهو يحذف منها ما يراه من عبارات مسيئة للشخصيات التي يجعلها! فمثلاً هو يقول انه بعد إعلان عمروة ويُقال ان أبا موسى تكلم معه بكلام فيه غلظة وردّ عليه عمرو بن العاص مثله». وهكذا تجنب ابن كثير ذكر الكلام المتبادل الذي رواه غيره من المؤرخين الذين ينقل عنهم وخاصة الاستشهاد بآيات الكلب الذي يلهث والحمار الذي يحمل أسفاراً.

وهناك رواية لدى ابن سعد في الطبقات الكبرى تفيد بأن معاوية كان قد حاول رشوة أبي موسى قبيل انعقاد المؤتمر. فعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري «قال أبو موسى: كتب إلي معاوية سلاماً عليك أما بعد: فإن عمرو بن العاص قد بايعني على الذي قد بايعني عليه. وأقسم بالله لئن بايعتني على ما بايعني عليه لأبعثن ابنك أحدهما على البصرة والآخر على الكوفة، ولا يغلقت دونك باب ولا تقضى دونك حاجة. وإنني كتبْتُ إليك بخط يدي فأكتب إلي بخط يدك.

فقال: يا بني إنما تعلمتُ المعجم بعد وفاة رسول الله (ص). قال: وكتب إليه مثل المقاب: «

أما بعد فإنك كتبت إلي في جسيم أمر أمة محمد (ص): لا حاجة لي فيما عرضت عليّ! «

قال: فلما ولي أتيته فلم يغلقت دوني باب ولم تكن لي حاجة إلا قضيت»⁽¹⁾ وليس يبعد أن يكون معاوية قد كاتب أبا موسى لما علم بتعيينه مندوباً عن أهل العراق محاولاً استمالته أو على الأقل جس نبضه، خاصة وأنه يعلم بمشاكله مع علي في الكوفة.⁽²⁾

وعلى كل حال، فإن أبا موسى شعر بهول المفاجعة التي تسبب بها لعلي، والطعنة التي وجهها لشرعيته وعدالة قضيته. ولم يستطع أبو موسى العودة إلى العراق لأنه لا يستطيع أن يقابل علياً بعد الذي صنعه، فقرر الانسحاب من المسرح وقر إلى مكة وبقي فيها.

(1) وهذه الرواية أخرجه أيضاً ابن عساكر بسنده عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري في تاريخ دمشق

(2) وقد استمر معاوية في مكاتبة أبي موسى، حتى بعد انتهاء المؤتمر وهو عائد بمكة. فلا شك أن تصرف أبي موسى كان محل تقدير شديد من معاوية. فعلى الرغم من أنه لم يدع ليعة معاوية صراحة، إلا أنه وجه كل ذلك المؤتمر لصالحه بالفعل حين وافق على خلق علي وهو مندوبه! فقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق أن معاوية كتب لأبي موسى عارضاً عليه أن ينضم إليه في الشام حيث سيكون على الرحب والسعة (الكامل إلى الشام لئلا يوسع لك)!

موقف الطرفين من نتائج المؤتمر⁽¹⁾

اعتبر معاوية النتائج التي أسفر عنها مؤتمر التحكيم نصراً مؤزراً له. وأعلن معاوية لكل أتباعه وأنصاره، وأرسل إلى الأمصار المختلفة كتباً يشرح فيها كيف أن المؤتمر الذي رضىته الأمة لحل خلافها قد أصدر حكماً لصالحه. وقال معاوية إن إجماع المسلمين، المبني على حكم كتاب الله، قد انمقد على خلق عليّ من منصب الخلافة، وأن ذلك تم بموافقة مندوب أهل العراق.

وبناءً على نتائج هذا المؤتمر، أعلن معاوية نفسه خليفة للمسلمين⁽²⁾، وقام أتباعه في الشام بمبايعته بإمرة المؤمنين. ومن تلك اللحظة أصبح لأمة العرب التي وحدها رسول الله (ص) خليفتان. وتكرّس الانقسام من خلاف فعليّ إلى انشقاقٍ رسمي وشرعي.

وأما عليّ فلما بلغته أخبار مؤتمر التحكيم وما جرى به، أعلن رفضه لكل ما حصل واعتبر أن الحكمين انحرفا عن كتاب الله وحكما الأهواء في شؤون المسلمين. وأعلن تصميجه على مواصلة حربه ضد معاوية وحزبه:

«قام عليّ بالكوفة على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه

ثم قال: أما بعد. فإن معصية العالم الناصح توارث الحسرة وتعقب الندامة. وقد كنتُ أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة بأمرين، فأبيتُم إلا ما أردتم!

فأحيا ما أمات القرآن، وأمات ما أحيا القرآن! واتبع كل منهما هواه، يحكم بغير حجة ولا سنة ظاهرة. واختلفا في أمرهما وحكمهما. فكلاهما لم يرشد الله، فبرئ الله منهما ورسوله وصالحو المؤمنين.

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4 ص 52)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 163)،

(2) تاريخ الطبري

فاستمتعوا للجهاد، وتأهبوا للمسير، ثم أصبحوا في معسكركم يوم الاثنين
بالنخيلة.

وإنما حكمنا من حكمنا ليحكمنا بالكتاب. وقد علمتم أنهما حكما بفير
الكتاب وبفير السنة.

ووالله لأغزونهم ولو لم يبق أحد غيري لجهادهم!

وأعطى الناس المطاء وهم بالجهاد^(١)

(١) الإمامة والسياسة لابن خزيمة

الجزء الثاني:

الخوارج

على الرغم من روايات تناقض ذلك، إلا أن المنطق يقول أن القراء، الذين أصبحوا خوارج فيما بعد، كانوا ولا شك ضمن الأقلية التي عارضت وقف القتال والقبول بالتحكيم منذ البداية. وإن نجاح دعوة الخوارج في استقطاب وجذب أعداد كبيرة نسبياً من العراقيين، دليل على أنها كانت دعوة تتمتع بمنطق مقنع قادر على جذب الأنصار. ولا يمكن تصوّر دعوة تجتذب عشرات الألوف من الناس على أساس قولها: إنا كفرنا لما قبلنا التحكيم، والآن نحن نتوب إلى الله ونعود إلى الإيمان! بل الأرجح أن تكون الدعوة قامت على أساس: ألم نقل لكم أن التحكيم غير جائز أصلاً؟ وقد عارضناه في حين قبله عليّ. وأثبتت الأيام صحة موقفنا.

تعود بداية نشوء حركة الخوارج إلى مسألة التحكيم ووقف القتال في صفين. وأورد الدينوري⁽¹⁾ أسماء أفراد من مختلف القبائل عارضوا «تحكيم الرجال في أمر الله» عند وقف القتال في صفين. فمثلاً قام الأخوان جعد ومعدان، من قبيلة عنزة، برفض وقف القتال وأصرّا على الاستمرار في الهجوم إلى أن قتلوا. وكذلك عارض القراء أشخاص من قبائل مراد وتميم وبنو راسب. وقام بعضهم، وللمرة الأولى، باتهام عليّ «بالكفر بعد الإيمان». روى البلاذري⁽²⁾ «فأتى رجل من بني يشكر علياً فقال: يا علي ارتدّدت بعد إيمان وشككت بعد يقين / اللهم اني أبرأ اليك من صحيفتهم وما فيها». وتدرجياً تطوّر خطاب الخوارج إلى أن وصل إلى شعار «لا حكم إلا لله» الذي أصبح العلامة المميزة لهم، يرفعونه في حروبهم، ويكتبونه في خطاباتهم، ويمتحنون الناس عليه!

(1) الأعيان الطوال (ص 197).

(2) اسباب الاشراف (ج 3 ص 111).

كانت طروحات الخوارج الأولين بسيطة ومباشرة:

إِنَّ القرآنَ قد أدان معاويةَ ومَن معه وأصدرَ حكمه عليهم. فليس هناك مجالٌ لحُلٍّ وسطٍ معهم. فهم ليس فقط باغين ومفيعدين بل أصبحوا كفاراً بسبب إصرارهم على الغيِّ، وحكمُ الله قاطعٌ فيهم. فهم قالوا لابن عباس فوَقَدْ أَمضى الله عز وجل حكمه في معاوية وحزبه أَنْ يُقتلوا أو يرجعوا^(١)

إِنَّ قبولَ عليٍّ للتحكيم هو شكٌّ في عدالة القضية التي قاتل الناس من أجلها معه. وهذا القبول هو ارتدادٌ بعد إيمان، وشكٌّ بعد يقين. وهو خروجٌ على مبادئ الحق والعدل التي استشهد من أجلها قتلاهم في الجمل وصفين. لا يجوز تحكيم الرجال في أمر الله.

وإلى ما قبل مؤتمر التحكيم، كانت معارضة الخوارج لعليٍّ لم تتخذ الشكل المسلَّح. فقد كانت هناك حالة انتظار لذلك المؤتمر المرتقب وما سيُفر عنه. ورفض عليٍّ مطالب الخوارج الأولين بنقض كتاب الصلح مع أهل الشام والعودة القورية لحرب معاوية من دون انتظار التحكيم، وأصرَّ على الالتزام بالمهد وإعطاء الجهود السلمية فرصة. وهو قال لهم أنه بعد إبرام العهد فلا بد من الوفاء به، وأنه ما دام التحكيم شراً فكان ينبغي رفضه من البداية، وليس نقضه بعد الاتفاق عليه:

« قالوا: نريد أن نخرج نحن وأنت ومَن كان معنا بصفتين ثلاث ليالٍ، ونُتوب إلى الله من أمر الحكمين، ثم نسير إلى معاوية فنقاتله حتى يحكم الله بيننا وبينه.

فقال عليٌّ: فهَلَّا قُلتُم هذا حين بعثنا الحكمين وأدخلنا منهم العهد، وأعطيناهموه؟^{١٩} ألا قُلتُم هذا حينئذٍ؟^{٢٠}

قالوا: كنا قد طالت الحرب علينا، واشتدَّ البأس، وكثر الجراح، وغلا الكراع والسلاح.

فقال لهم: أنحنِ اشتدَّ البأس عليكم عاهدتم، فلما جدتكم الجماد قُلتُم بنقض العهد^{١٩} إِنَّ رسولَ الله كان يفي للمُشركين أن تأمروني بنقضه^{٢١}»

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج ٢ ص ٣١٠). ولا يمكن تصديق النصف الثاني من الرواية والذي يقر فيه الخوارج بأنهم طالبوا بالسلام مع أهل الشام.

وكانت مهزلة التحكيم وما جرى فيها من استهتار بمصلحة الأمة، بالإضافة إلى حالة اللاحم التي آلت إليها الأمور، والانقسام الأفقي الكبير في أمة الإسلام وتصدع مؤسسة الخلافة بما يهدد مستقبل الأمة، ونجاح معاوية وابن العاص في المحافظة على مواقعهم وخروجهم سالمين من مواجهة صفين، هي العوامل الرئيسية التي جعلت الكثيرين في الجانب العراقي يتقبلون دعوة الخوارج. وكانت الخسائر البشرية الضخمة يوم صفين، وشعور الكثيرين أن هذه الدماء كلها سالت بلا نتيجة، وأن التضحيات العظيمة ضاعت هباءً، تقدم ذخيرة مهمة لدعوة الخوارج الذين كانوا يحملون عبءاً مسؤولية ما جرى.

بدء الانشقاق الفعلي: تب إلى الله يا علي⁽¹⁾

عند العودة إلى العراق، انشق على عليّ اثنا عشر ألف مقاتل⁽²⁾ من جيشه، ونزلوا حروراء (قرب الكوفة). وكان من أبرز وجوههم عبد الله بن الكواء الشكري، وشبث بن ربعي التميمي وحر قوص بن زهير السعدي⁽³⁾ وزيد بن الحصين الطائي وعبد الله بن وهب الراسبي. ويسبب الموقع الذي اختاروه صاروا يعرفون بالـ«حرورية».

ولمّا علم عليّ بذلك التجمع المتمرد، قرر بذل كل جهده ممكن لإرجاعهم إلى طاعته، بالحسن. فحتى تلك اللحظة كانت الأمور لا تتعدى خلافاً سياسياً / دينياً في الاجتهاد، ولم تصل الأمور إلى رفع السلاح. وهم

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4 ص 54)، انساب الاشراف للبلاذري (ج 3 ص 129)، تاريخ اليعقوبي (ج 2 ص 192)، مسند احمد بن حنبل (ج 1 ص 86)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج 2 ص 173)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 310)، المستدرک علی الصحیحین للحاکم النیسابوری (ج 2 ص 151)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 3 ص 32)، كشف الغمّة لابن أبي الفتح الأريلي (ج 1 ص 268)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الفريد (ج 2 ص 279).

(2) هذا الرقم الذي تذكره أغلب روايات البلاذري واليعقوبي والطبري. ولكن رواية الامام احمد بن حنبل في مسنده تجعل الرقم أقل، حيث قال فتخرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس.

(3) وهو ذاته كان من قادة الثورة على عثمان ومن المتهمين بالمشاركة في قتله. وقد نجا بمعجزة من القتل في البصرة عندما وصلتها عائلته والوزير وطلحة، لأن قبيلته الكبيرة (تميم) حمت.

كانوا من جماعته، من عسكره، من جيشه، وليس له أي مصلحة في تصعيد الأمور معهم. وكان عليّ واثقاً بقدرته على اقناعهم بصوابية مواقفه وبامتصاص غضبهم وامتعاضهم مما جرى.

وبدأت المحاججة بين عليّ وبين «الحروية». وكانت على مرحلتين: في الاول أرسل اليهم عبد الله بن عباس ليحاوهم، ومن ثم انتقل هو بنفسه ليتكلم معهم.

ومن أكثر الامور التي ترد في المصادر بشأن ما طرحوه على عليّ وجهة نظرهم الرافضة لتحكيم الرجال في دين الله⁽¹⁾. ورداً على ذلك حاول عليّ في نقاشاته معهم أن يشرح لهم أن القرآن يحّد ذاته لا ينطق:

«.... وهذا القرآن إنما هو خطّ مستور بين اللغتين، لا ينطق بلسان، ولا يدّ له من ترجمان. وإنما ينطق عنه الرجال...»⁽²⁾. وروى الامام احمد بن حنبل أنه عندما قال الحروية «ثم انطلقت فحكمت في دين الله. فلا حكم الا لله تعالى» رد عليّ، في معرض إثباته أن كتاب الله لا يتكلم بنفسه، بأن جمع الناس وقراءة القرآن وأخذ يخاطب المصحف أمامهم طالباً منه أن يتكلم، ثم قال للناس في معرض تفنيده لمقولتهم ان الله قد أمر في كتابه بالتحكيم بين الرجل والمرأة إن خيف الشقاق بينهما «فأمة محمد (ص) أعظم دماً وحرمة من امرأة ورجل»

وفي المصدر الشيعي، كشف الغمة، يقول ابن ابي الفتح الاريلي ان علياً أجابهم بشأن التحكيم انه كان قصده أن يشيخ الحكماء في الخلافة، ولم يكن قبوله شكاً منه في موقفه. وأنه في التحكيم أيضاً يقتدي برسول الله (ص) الذي حكم سعد بن معاذ في يهود بني قريظة.

وتقول المصادر ان «الحروية» أدخلوا عليّ عليّ موافقته على محو لقب «أمير المؤمنين» في كتاب القضية، واعتبروا ذلك تنازلاً منه عن الخلافة «انسلخت من قميصي التّسكك الله واسم ستاك به الله»⁽³⁾.

(1) حسب رواية الحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحين انهم قالوا هلّقه حگم الرجال في أمر الله. وقال الله تعالى: ان الحكم الا لله. وما للرجال وما للحكماء

(2) نهج البلاغة بشرح محمد عبده.

(3) البداية والنهاية لابن كثير، وكذلك: مستد احمد بن حنبل

وهذه النقطة بالذات كان لعلني رد مُفحِّمٌ عليها. فقد أجاب مستشهداً بحادثة يوم الحديبية المشهورة وموقف النبي (ص) من سهيل بن عمرو يومها. قال الحاكم النيسابوري في المستدرک علی الصحیحین انه عندما قال الحرورية «انه محاً نفسه من أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين» رد عليهم ابن عباس «وأما قولكم: محاً اسمه من أمير المؤمنين، فأنا أتیکم بمن ترضون وأریکم: قد سمعتم ان النبي (ص) يوم الحديبية كاتب سهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب فقال رسول الله (ص) لأمر المؤمنين: اكتب يا علي، هذا ما اصطلىح عليه محمد رسول الله. فقال المشركون: لا والله ما تعلم انك رسول الله. لو تعلم انك رسول الله ما قاتلناك. فقال رسول الله: اللهم انك تعلم اني رسول الله. اكتب يا علي: هذا ما اصطلىح عليه محمد بن عبد الله. فوالله لرسول الله خير من علي، وما أخرجه من النبوة حين محاً نفسه»

ولأنه بعضهم على أنه «قاتلٌ ولم يسب ولم يقتل». فلئن كان الذي قاتل كفاراً، لقد حلَّ سيهم وغنيهم. ولئن كانوا مؤمنين ما حلَّ قتالهم»⁽¹⁾ وقد رد ابن عباس عليهم، حسب رواية الحاكم في المستدرک، بطريقة تخرجهم: لقد قاتلنا أم المؤمنين عائشة، فما رأيكم اذن «وأما قولكم: قاتل ولم يسب ولم يقتل، أتنبون أمكم عائشة؟ ثم يستحلون منها ما يستحلون من غيرها. فلئن فعلتم فقد كفرتم وهي أمكم، ولئن قتلتم: ليست أمنا لقد كفرتم. فإن الله يقول: النبي أولي بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم. فأنتم تدورون بين ضلالتين أيهما صرتم اليها صرتم الى ضلالة.»⁽²⁾

ويمكن القول ان جهود عليّ الحوارية مع الحرورية قد نجحت، وإن بشكل جزئي ومؤقت. وبعض المصادر تقول ان كلهم اقتنعوا بوجهة نظره وعادوا معه الى الكوفة، ولكن البعض يقول ان قسماً منهم، النواة الصلبة، بقوا على رأيهم ورفضوا العودة معه⁽³⁾.

(1) النص هنا من رواية الحاكم النيسابوري في المستدرک علي الصحیحین. وواضح من هذا «الماخذ» كيفية نشوء الفكر التكفيري لدى الشوارج. فهم يعتبرون الناس نوعين: إما مؤمنين وإما كفاراً لا حل وسط، ولا يعترفون بأن الطرفين ممكن ان يكونا مسلمين. وفي المصدر الشيعي الصحيح، كشف الغمة، يقول ابن أبي الفتح الأريلي ان علياً رد عليهم بشأن حرب الجمل فقال بأن هؤلاء مسلمون وفرايضهم لا تكتب لهم، وان القتال كان موجهاً لمن حملوا السلاح من أهل البصرة.

(2) في رواية الحاكم النيسابوري هرجع من القوم ألفان» وفي مسند احمد بن حنبل هرجع منهم أربعة آلاف كلهم تابعه فيهم ابن الكواء». وفي رواية ابن سعد في الطبقات الكبرى هرجع منهم قوم كثير وثبت حرمت علي رايهم»

وأما رواية اليعقوبي في تاريخه فتبدو متأثرة تماماً بالأيديولوجية المذهبية الشيعية، ولا يمكن أخذها بجديّة من ناحية تاريخية. حيث يقول ان الخوارج عدّوا اسباباً ثلاثة لتقمّتهم على عليّ:

«محا اسمه من إمرة أمير المؤمنين يوم كتب الى معاوية.

ورجعنا عنه يوم صفين فلم يضرنا بسيفه حتى نفىء الى أمر الله⁽¹⁾.
وحكّم الحكمين

وزعم انه وصي، ففسح الوصية»

ويبدو ذلك جلياً في البند الثالث والكلام عن الوصي. ويقول اليعقوبي ان علياً (من خلال ابن عباس) رد عليهم مذكراً اياهم بما فعله الرسول (ص) يوم صلح الحديبية، بشأن النقطة الاولى، وأنه قال بخصوص النقطة الثانية «واما قولكم اني لم أضركم بسيفي يوم صفين حتى نفيتوا الى أمر الله، فإن الله عز وجل يقول: ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة، وكتمت عدداً جماً، وأنا واهل بيتي في علة يسيرة.

وأما قولكم اني حكمت الحكمين، فإن الله عز وجل حكّم في أرنب يباع بربع درهم فقال: يحكم به ذوا عدل منكم. ولو حكّم الحكمان بما في كتاب الله لما وسعني الخروج من حكمهما»

ثم أضاف رداً على النقطة الثالثة كلاماً لا يمكن أن يصدر الا عن جماعة المذهبية الشيعية في فترة لاحقة «واما قولكم اني كنت وصياً فضيئت الوصية، فإن الله عز وجل يقول: ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين. أفرايتم هذا البيت، لو لم يحجّج اليه أحد كان البيت يكفر؟ ان هذا البيت لو تركه من استطاع اليه سبيلاً كفر، وأنتم كفرتم بترككم ارباي لا أنا كفرت بترككم ارباكم»

(1) وهنا نحاول الرواية أن ترسخ فكرة أن الخوارج مظلون في مواقفهم ومتناقصون الى حد اعتبارهم بأنهم كانوا يستحقون أن يضرّوا بالسيف يوم صفين ا، ويلومون علياً أنه أطاعهم ا وهنا كلام لا يمكن قبوله.

وتبدو لي رواية الزهري لدى البلاذري في أنساب الأشراف من أفضل الروايات التي تتحدث عن موضوع الحرية وكيف تعامل معهم علي. فهي أكثر موضوعية في ذكر أخبار المحاججات بين علي والخوارج. ويمكن الاستنباط منها أن الرد على الحرية لم يكن على ذلك النحو المبسط والناجح، وأن الخوارج كانوا أكثر تماسكاً في مواقفهم، وأكثر ترابطاً في منطقتهم، وأنهم أخرجوا علياً (أو ابن عباس) واضطروه إلى موقف دفاعي في جداله معهم. يقول الزهري: إنه قبيل توجيه أبي موسى إلى مؤتمر التحكيم جاء رؤوس الخوارج، حرقوس بن زهير التميمي وزيد بن حصين الطائي وزرعة بن البرج الطائي، إلى علي وقالوا له:

«اتق الله وبيروا إلى عدوك وعدونا، وتب إلى الله من الخطيئة، وارجع عن القضية».

فقال علي: أما عدوكم فإني أردتكم على قتالهم وأنتم في دارهم، فتراكلتم ووهتم وأصابكم ألم الجراح فجزعتم وعصيتوني. وأما القضية فليست بذنوب، ولكنها تقصير وعجز أنيتموه وأنا له كاره، وأنا أستغفر الله من كل ذنب».

وأخرج البلاذري رواية أخرى عن الشعبي، وفيها أنه لما رجع الحرية مع علي ودخلوا الكوفة «جعل الناس يقولون: تاب أمير المؤمنين وزعم أن الحكومة كفر وضلال. وإنما نتظر أن يسمن الكراع ثم نخضع إلى الشام. فبلغ ذلك علياً فقال: كذب من قال أنني رجعت عن القضية وقلت إن الحكومة ضلال».

وكانت الحرية قد سكنت، فمادت بعد إلى التحكيم»

فالظاهر أن علياً أراد أن يساير هؤلاء المعارضين ويستميلهم إلى صفه، خاصة وهو يعلم أنهم الأكثر تصميماً على القتال من بين أتباعه وبالتالي ليس من الحكمة أن يفقدهم. فلا يبعد أن يكون استخدم معهم عبارة عامة مثل «أستغفر الله من كل ذنب» ففهموا هم أنه قد وافقهم

على رأيهم. ولكن الفراق حصل حين بدأ علي يسمع ما يشيعوه من توبته
وندمه، وبالتالي عزمه على تقض اتفاق التحكيم مع أهل الشام، فقرر أن
يضع النقاط على الحروف ويوضح لهم أنه لا يمكن له أن يقدّر أو ينقض
المهود والموائيق.

وقد أشار ابن أبي الحديد إلى قريب من هذا الرأي، مع تخصيص
الأشعث بن قيس باللوم لأنه هو بالذات الذي أصرّ على استيضاح رأي
علي علناً مما أفسد عليه الخوارج الذين كانوا اكتفوا منه بمقوله التي
فهموها على رأيهم. وقد بالغ في كلامه عن الأشعث إلى حد القول أنه
لولا لما وقعت حرب النهروان. قال ابن أبي الحديد «كل فساد كان
في خلافة علي، وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث. ولولا محاقته
أمير المؤمنين في معنى الحكومة في هذه المرة لم تكن حرب النهروان،
ولكان أمير المؤمنين ينهض بهم إلى معاوية ويملك الشام. فإنه عليه
السلام حاول أن يسلك معهم مسلك التعريض والموارية. وفي المثل
النبي صلوات الله على قائله: الحرب خدعة. وذلك أنهم قالوا له: تب
إلى الله مما فعلت كما تبنا، نهض معك إلى حرب أهل الشام. فقال لهم
كلمة مجملّة مرسلّة قولها الانبياء والمعصومون وهي قوله: أستغفر الله
من كل ذنب. فرضوا بها وعدوها إجابة لهم إلى سؤلهم وصفت له نياتهم.
واستخلص بها ضمائرهم، من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافاً بكفر أو
ذنب. فلم يتركه الأشعث وجاء إليه مستغراً وكاشفاً عن الحالف، وهاتكأ
ستر التورية والكنائية، ومخرجاً لها من مظلمة الاجمال وسر الحيلة إلى
تفسيرها بما يفسد التدبير ويوغر الصدور ويعد الفتنة. ولم يستغفر عنها
إلا بحضور من لا يمكنه عليه السلام أن يجعلها معه هدنة على دخن،
ولا توقفاً عن صبر. والجاه بتضييق الخناق عليه إلى أن يكشف ما في
نفسه، ولا يترك الكلمة على احتمالها، ولا يطويها على غرها. فخطب بما
صدح به عن صورة ما عنده مجاهرة فانتفض ما دبره، وعادت الخوارج إلى
شبهتها الأولى...»

وأخرج الطبري في تاريخه روايات عن أبي مخنف تقارب ما رواه

البلاذري أعلاه. فرواية تقول أنه لما اجتمع الخوارج في حروراء أرسل إليهم علي ابن عباس «فرجع ولم يصنع شيئاً».

فخرج إليهم علي فكلّمهم حتى وضع الرضا بينه وبينهم. فدخلوا الكوفة.

فأتاه رجل^(١) فقال: إن الناس قد تحدّثوا أنك رجعت لهم عن كفرنا! فخطب الناس في صلاة الظهر؛ فذكر أمرهم فعابته. فوثبوا من نواحي المسجد يقولون لا حكم إلا لله...»

ورواية أخرى لأبي مخنف تقول «إن علياً لما أراد أن يبعث أبا موسى للحكومة أتاه رجلان من الخوارج زرعة بن البرج الطائي وحر قوص بن زهير السعدي فدخلا عليه فقالا له لا حكم إلا لله.

فقال علي: لا حكم إلا لله.

فقال له حر قوص: تبّ من خطيتك وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى تلقى ربنا.

فقال لهم علي: قد أردتكم على ذلك فعصيتُموني، وقد كتبنا بيتنا وبينهم كتاباً وشرطنا شروطاً وأعطينا عليها عهدنا وموائقنا وقد قال الله عز وجل (واوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون)

فقال له حر قوص: ذلك ذنبٌ ينهي أن تنوب منه

فقال علي: ما هو ذنبٌ، ولكنه عجز من الرأي وضعف من الفعل. وقد تقدّمتُ اليكم فيما كان منه ونهيتكم عنه...»

ويلاحظ في الروايات تكرار الخوارج قولهم لعلي أنهم يرفضون إعطاء الدنيا في ديننا، فإن إعطاء الدنيا في الدين إيمان في أمر الله عز وجل، وذل راجع بأمله إلى سخط الله»

(١) وبالنظر إلى كلام ابن أبي الحديد أعلاه يكون هذا الرجل هو الأشعث بن قيس.

في الطريق الى النهروان: اشهد على نفسك بالكفر يا علي⁽¹⁾

رغم ان علياً نجح مؤقتاً في احتواء أزمة «الحروية» واقتنعهم، أو أغلبهم، بالعودة معه الى الكوفة، إلا أن التطورات المتلاحقة سرعان ما نقضت كل عمله وأضاعت كل جهوده. فقد ظهرت نتائج مؤتمر التحكيم الكارثية بالنسبة الى علي. وكانت هذه الفاصلة بينه وبين الخوارج. فمن جهة رفض علي النتائج وأعلن أن كل ما صدر عن الحكمين باطل، وبدأ الاستعداد لجولة جديدة من العمل العسكري ضد معاوية وأهل الشام. ومن جهة أخرى رأى الخوارج، أو الحروية، أو المحكّمة، أو كل الذين كانوا قد عارضوا وقف القتال واللجوء للتحكيم، في مهزلة التحكيم ما يدعم حججهم ويقوّي موقفهم. ولسان حالهم يقول: رأيتهم، هذا ما حلزنا منه وعارضناه، بينما قبله علي.

عندها حاول علي أن يتواصل معهم ليقول: هلموا بنا من جديد الى حرب اهل الشام. هذا ما أردتم وهذا ما أريده الآن، فيها بنا يدأ واحدة من جديد الى قتال البغاة: معاوية وأهل الشام. ولكن هيهات. لم يكن الأمر سهلاً كما ظنه علي. فهؤلاء قد أسقطوه من اعتبارهم كزعيم وخليفة، ولم يعد يصلح للقيادة وليس لديهم استعداد أن يسيروا تحت رايته من جديد. ولذلك قابله بشرط تعجيزي: اشهد على نفسك بالكفر أولاً! وبدأ الخوارج في الكتابة إلى من هو على رأيهم من أهل البصرة، فانتظم إليهم 500 رجل بقيادة مسعر بن فذك التميمي والأشروس بن عوف الشيباني.

روى الدينوري في الاخبار الطوال ان علياً أرسل كتاباً موجهاً الى قيادات الحروية، عبد الله بن وهب الراسبي ويزيد بن الحصين «ومن قبلهما»، وكانوا قد تجمعوا من جديد واتجهوا الى النهروان، وهو مكان قرب بغداد الحالية، يقول فيه «إن الرجلين الذين ارتضيناها للحكومة خالفا كتاب الله واتهما هواهما بغير هدى من الله. فلما لم يعملوا بالسنة ولم يحكما بالقرآن تبرأنا من حكمهما ونحن على امرنا الاول. فأتبوا إلي رحمتكم الله، فإن سائرون

(1) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلخاري (ج 3 ص 128)، الاخبار الطوال للدينوري (ص 207-209)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 168)، مستد احمد بن حنبل (ج 1 ص 87)

الى عدونا وعدوكم لنمود لمحاربتهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين»

فكان الجواب في كتابهم «أما بعد: فلأنك لم تغضب لربك، ولكن غضبت لنفسك! فإن شهدت على نفسك أنك كفرت فيما كان من تحكيمك الحكمين، واستأنفت التوبة والایمان، نظرنا فيما سألتنا من الرجوع اليك. وإن تكن الأخرى فلأننا نناهلك على سواء. ان الله لا يهدي كيد الخائنين»

وروى البلاذري أن زعماء الخوارج أجابوا علياً «فقالوا: دعتنا الى كتاب الله والعمل به فأجبتك وبابناك وقد قتلت في طاعتك قتلانا يوم الجمل وصفين، ثم شككت في أمر الله وحكمت عدوك! ونحن على أمرك الذي تركت وأنت اليوم على غيره. فلما نناهلك على سواء»

وروى ابن قتيبة في الامامة والسياسة «كتب علي الى الخوارج حينما تجمعوا في النهروان بينما هو قد شرع في المسير الى أهل الشام بجيشه:

«.... ألم تعلموا اني نهيتكم عن الحكومة، وأخبرتكم أن طلب القوم لها مكيدة؟

وأنبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأني أعرف بهم منكم: قد عرفتهم أطفالاً وعرفتهم رجالاً فهم شر رجال، وشر أطفال! وهم أهل المكر والغدر.

وإنكم إن فارقتوني ورأيي، جانبتم الخير والحزم. فصهيتوني وأكرهتموني حتى حكمت. فلما أن فعلت، شرطت واستوثقت. وأخذت على الحكمين أن يُحييا ما أحيا القرآن، وأن يُميتا ما أمات القرآن. فاختلفا، وخالفا حكم الكتاب والسنة وعيلا بالهوى

فنبأنا أمرهم. ونحن على أمرنا الأول. فما نبؤكم ومن أين أتيتهم؟

قالوا له: إنا حيث حكمتنا الرجلين أخطأنا بذلك، وكنا كافرين، وقد تبنا من ذلك. فلان شهدت على نفسك بالكفر، وثبت كما تبنا وأشهدنا، فنحن معك ومنك! وإلا فاعتزلنا. وإن أبيت فنحن منابذك على سواء.

فقال عليّ: أبعّد إيماني بالله، وهجرني وجهادي مع رسول الله، أبوء وأشهد على نفسي بالكفر؟ لقد ضللتُ إذن وما أنا من المهتمين. ويحكم
 ١ بما استحلّتم قتالنا والخروج من جماعتنا؟ أئن اختار الناس رجلين فقالوا
 لهما: انظرا بالحق فيما يصلح العامة، ليُيزل رجلٌ، ويوضع آخر مكانه، أحل
 لكم أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم، فتضربون بها هامات الناس وتسفكون
 دماءهم؟ إن هذا لهر الخسران المين.

فتنادوا: لا تخاطبهم ولا تكلموهم. تهيّؤوا للقاء الحرب. الرواح
 الرواح إلى الجنة!١

وفي هذا النص يذكّر عليّ الخارجين عليه بأنه لم يُرد وقف القتال في
 صيف، وأنه إنما فعل ذلك تحت الضغط. وهو أيضا يحاول أن يسطّ لهم
 مسألة التحكيم التي جرت، على أساس أنها كانت في الأساس من أجل
 عزل معاوية وإعلان حق عليّ، لا أكثر. وأنه لما لم يحصل ذلك فالواجب هو
 مواصلة الجهاد ضد أهل المكيّة!

وطبعاً كان جواب الخوارج مُحبطاً جداً لعليّ، فيس منهم وقرر أن
 يتركهم وشأنهم، وأن يسير هو وقواته إلى الشام بدونهم. روى الامام أحمد بن
 حنبل في مسنده عن عبد الله بن شداد في معرض وصفه لمعاينة أم المؤمنين
 لما جرى، أن أهل حروراء الذين بقوا على رأيهم كانوا أربعة آلاف، فأرسل
 لهم عليّ يقول أنه ستركهم على حالهم ولن يتعرض لهم عليّ، أن لا تسفكوا
 دماً حراماً، أو سيلاً أو تظلموا ذاة، فإنكم إن فعلتم فقد نبأنا إليكم الحرب
 على سواء، إن الله لا يحب الخائنين.٢

وقفة: روايات تسفيهية للخوارج

إن مُحاججة عليّ للخوارج قبيل معركة النهروان مناسبة لكي تكون مثلاً
 على الروايات الكثيرة المصممة لذمتهم والقذح فيهم وإظهارهم بلا حجة
 ولا منطق. ورغم أن المصادر الشيعة التي تتحدث عن مُحاججة الخوارج
 قبيل معركة النهروان لا تختلف في إطارها العام عما ورد في غيرها، ألاّ أتى

سوف أخذ أحدها كمثال على الفكرة. فابن أبي الفتح الأربلي في كتابه كشف الغمة⁽¹⁾ أورد روايتين حول الجدالات مع الخوارج. وفي كليهما أن الذي حاجج الخوارج هو علي نفسه بعد أن لم ينجح ابن عباس في اقناعهم أو لم يرغبوا في سماعه.

وفي الرواية الأولى يظهر ابن الكواء زعيم الخوارج، في غابة الضعف أثناء الجدل، ويكتفي بالموافقة على كل ما يقوله علي ببساطة وفي النهاية يرجع عن رأيه ويعود مع علي بعد وعده بالعودة إلى قتال أهل الشام حين تنتهي المدة المعقودة. وليس في الرواية أي دفع من جانب ابن الكواء لحجج علي، ولا دفاع عن رأي الخوارج. تقول الرواية أن علياً قال له بشأن رفع المصاحف على الرماح وأمر الحكمين:

«ألم أقل لكم أن أهل الشام يمدعونكم بها، فإن الحرب قد عصتهم ففروني أنا جزهم فأيتهم؟ ألم أريد أن أنصب ابن عمي حكماً، وقلت أنه لا يخذل فأيتهم إلا أبا موسى الأشعري؟ وقلتم رضينا به حكماً فأجبتكم كارهاً، ولو وجدت في ذلك الوقت أعواناً غيركم لما أجبتكم. وشرطت على الحكمين بحضوركم أن يحكما بما أنزل الله من فاتحته إلى خاتمته والسنة الجامعة، وأنهما إن لم يفعلا فلا طاعة لهما علي».

كان ذلك أم لم يكن؟

قال ابن الكواء: صلت. قد كان هذا كله! فلم لا ترجع الآن إلى محاربة القوم؟

فقال: حتى تنقضي المدة التي بيننا وبينهم.

قال ابن الكواء: وأنت مجمع على ذلك؟

قال: نعم ولا يعني غيره.

فعاد ابن الكواء والعشرة الذين معه إلى أصحاب علي عليه السلام راجعين من دين الخوارج وتفرق الباقيون وهم يقولون: لا حكم إلا لله»

(1) ج 1 ص 268

والرواية الثانية تحدثت عن جولة أخرى للجدال خاضها علي مع بقية الخوارج. وهو يجيبهم على اعتراضهم بأنه لم يُبح سبي النساء يوم الجمل بأن هؤلاء مسلمون وذوارهم لا ذنب لهم، وإن القتال كان مرجحاً لمن حملوا السلاح من أهل البصرة. ويجيبهم بأنه محا إمرة المؤمنين من اسمه اقتداء برسول الله (ص) يوم الحديبية. وشأن التحكيم يقول لهم أنه كان قصده أن يشيخ الحكمان في الخلافة، ولم يكن قبله شكاً منه في موقفه. وأنه ليس مسؤولاً عن خداع ابن العاص لأبي موسى. وأنه في التحكيم أيضاً يقتدي برسول الله (ص) الذي حكم سعد بن معاذ في يهود بني قريظة. وقال لهم علي بعد ذلك:

«فهل بقي عندكم شيء؟ فسكتوا. وصاح جماعة منهم من كل ناحية: التوبة التوبة يا أمير المؤمنين! واستأمن إليه ثمانية آلاف، وبقي على حربه أربعة آلاف»

ممارسات الخوارج الفظيعة⁽¹⁾

وترجم الخوارج تشنجهم الفكري إلى جرائم وحشية ارتكبتها عناصرهم ضد مسلمين كثيرين ممن هم في طاعة عليّ. وكان أبرز تلك الحوادث ما صنعه بعد الله بن خباب بن الارت، الذي هو ابن واحد من الصحابة الأولين، والذي كان مع عليّ في الجمل وصفين. ألقى عناصر من الخوارج القبض عليه واستجوبوه. ولما عبّر عن رأي إيجابيّ بعليّ قتلوه بلا رحمة. وهناك اجماع في الروايات على ذلك.

وفيما يلي رواية أبي مخنف في تاريخ الطبري حول مقتل عبد الله بن خباب على يد الخوارج.

«إن الخارجة التي أقبلت من البصرة جاءت حتى دنت من اخوانها بالنهر. فخرجت عصاة منهم فلذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار. فعبروا

(1) تاريخ الطبري (ج 4 ص 60-61)، تاريخ خليفة بن خياط (ص 149)، الاخبار الطوال للدينوري (ص 206-207)، مسند احمد بن حنبل (ج 1 ص 87)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 2 ص 280-282).

اليه فدمروه، فتهددوه وأفزعوه وقالوا له: من انت؟ قال: انا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله (ص).

ثم أهوى الى ثوبه يتناوله من الارض وكان سقط عنه لما أفزعه. فقالوا له: أفزعتك؟ قال: نعم.

قالوا له: لا روج عليك. فحدثنا عن أبيك بهديث سمعه من النبي (ص) لعل الله يثغنا به.

قال: حدثني ابي عن رسول الله (ص) ان فتنة تكون يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه يمسي فيها مؤمناً ويصبح فيها كافراً ويصبح فيها كافراً ويمسي فيها مؤمناً.

فقالوا: لهذا الحديث سألتك. فما تقول في ابي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيراً.

قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه كان محققاً في أولها وفي آخرها.

قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده؟

قال: انه أعلم بالله منكم وأشدّ توقياً على دينه وأنفذ بصيرة.

فقالوا: انك تتبع للهوى وتوالي الرجال على اسمائها لا على أفعالها. والله لنقتلكن قلّة ما قتلناها أحداً!

فأخذوه فكضوه ثم أقبلوا به بأمراته وهي حبلى متم، حتى نزلوا تحت نخل موافر فسقطت منه رطبة فأخذها أحدكم فقلّظ بها في فمه. فقال أحدهم: بغير حلها وبغير ثمن؟ فلغظها من فمه. ثم أخذ سيفه فأخذ يمينه فمّر به خنزير لأهل اللمة فصر به بسيفه فقالوا: هذا فساد في الارض. فأتى صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره.

فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى فما علي منكم بأس. اتي لمسلم ما أحدثت في الاسلام حدثاً، ولقد آتتموني.

قال: لا روع عليك.

فجاؤوا به فأحجموه فذهبوه. وسال دمه في الماء. وأقبلوا الى المرأة فقالت: اني انما انا امرأة، ألا تتقون الله؟ فبقروا بطنها وقتلوا ثلاث نسوة من طيها وقتلوا ام سنان الصيدلوية.

فبلغ ذلك عليا ومن معه من المسلمين من قتلهم عبد الله بن خباب واعتراضهم الناس. فبعث اليهم الحارث بن مرة العبدي ليأتيهم فينظر فيما بلغه عنهم ويكتب به اليه على وجهه ولا يكتمه. فخرج حتى انتهى الى النهر ليسألهم فخرج القوم اليه فقتلوه...⁽¹⁾

ويدو لي أن هناك من الرواة من أراد تضخيم ممارسات الخوارج وما ارتكبه من مخالفات أو جرائم. وذلك ظاهر من التصوص التي تحدثت عن قتلهم لابن خباب. فالروايات لا تشير الى سبب مقنع دفعهم الى ارتكاب تلك الجريمة. وهناك تناقض في الروايات نفسها التي تحدثت عن اعتذارهم عن قتل خنزير لأهل الذمة بغير إذن وبين إقدامهم على قتل ابن صحابي مسلم بلا سبب. ومن بلغ به الورع الى حد استنكاره تناول ثمرة عن الأرض لا يمكن أن يقدم على القتل بكل بساطة. فلا شك أن هذه الروايات تم تشويهها لكي تسيء الى سمعة الخوارج ولتبرر للإمام علي قتلهم فيما بعد. ومن ثانيا رواية ابي مخنف يمكن الحصول على بعض الضوء عما قد حصل بالفعل. فما يمكن ملاحظته أن الذين قتلوا ابن خباب هم الخوارج القادمون من البصرة (ومعروف ان هؤلاء كان يقدوهم مسمر بن فذكي التميمي) وليس نواة الخوارج المجتمعين في النهروان. وبالتالي فالجريمة ارتكبتها الفرع وليس الأصل. كما يظهر أن الجريمة قد حصلت بعد أخذ ورد فيما بينهم وبينه (فدعوه فتهددوه) ربما يكون قد استفزهم خلاله برفضه لأرائهم.

(1) ونفس حله الرواية أعرجها ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلاً عن أبي العباس. وكما أنه في الاختصار أخرج وأما خليفة بن خياط فكما أنه في الاختصار أخرج الخبر في معرض حديثه عن سنة 38 كما يلي: فربما قتل الخوارج عبد الله بن خباب بن الارت، وعليهم مسمر بن فذكي، ولم يذكر من ممارساتهم الفظيمة أو العجيبة شيئاً آخر.

وأما بقرهم لبطن الحبلى فلا يمكن تصديق ذلك، مهما بلغ بنا سوء الظن بالخوارج.

ونحن لا نحاول تبرة الخوارج من دم ابن خيـاب، ولكن نحاول وضع ما حصل في سياقه الصحيح.

وقال الدينوري في الاخبار الطوال أن الخوارج الذين قدموا من البصرة كانوا 500 رجل وأنهم «كانوا في جميع سيرهم لا يلقون أحداً إلا قالوا له: ما تقول في الحكمين؟ فإن تبرأ منهما تركوه، وإن أبى قتلوه»

وأضاف ان علياً لما نوى التوجه الى الشام مرة أخرى «فلما نهياً للمسير أتاه عن الخوارج أخبار فظيعة، من قتلهم عبد الله بن خيـاب وامراته. وذلك أنهم لقوهما فقالوا لهما: أرضيتما بالحكمين؟ قالا: نعم. فقتلوهما، وقتلوا ام سنان الصيداوية، واعتراضهم الناس يقتلونهم. فلما بلغه ذلك بعث اليهم الحارث بن مرة الفقعسي ليأتيه بخيرهم فأخذوه فقتلوه»

وروى أحمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن شداد في معرض وصفه لعائشة أم المؤمنين لما جرى، في العراق ...

«فقال له عائشة رضي الله عنها: يا ابن شداد، فقد قتلهم؟»

فقال: والله ما بعث اليهم حتى قطعوا السيل وسفكوا الدم واستحلوا أهل الذمة»

وتابع هؤلاء غلّوهم. وشاعت أخبار معارساتهم بين العامة، حتى لجأ البعض إلى التعامل معهم بالطريقة التي يفهمونها. روى ابن أبي الحديد:

«قال أبو العباس: ثم مضى القوم الى النهروان، وقد كانوا ارادوا المضى الى المدائن. فمن طريف أخبارهم انهم أصابوا في طريقهم مسلماً نصرانياً، فقتلوا المسلم لأنه عندهم كافر، إذ كان على خلاف معتقدهم، واستوصوا بالنصراني، وقالوا: احفظوا ذمة نبيكم!»

قال أبو العباس: ونحو ذلك إن واصل بن عطاء رحمه الله تعالى أقبل في رفقة فاحتوا بالخوارج. فقال واصل لأهل الرقعة: إن هذا ليس من شأنكم،

فاعتزلوا ودعوني وإياهم، وقد كانوا أشرفوا على العطب. فقالوا: شأنك. فخرج إليهم.

فقالوا: ما أنت وأصحابك؟

قال: قومٌ مشركون مستجيرون بكم، ليسمعوا كلام الله، ويفهموا حدوده.

قالوا: قد أجرناكم.

قال: فعلمونا.

فجعلوا يعلمونهم أحكامهم ويقول واصل: قد قبلت أنا ومن معي.

قالوا: فامضوا مصاحين فقد صرتم إخواننا.

فقال: بل تبلغوننا مأمنا، لأن الله تعالى يقول: وإن أخذ من المشركين استجاركم فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه.

قال: فينظر بعضهم إلى بعض. ثم قالوا: ذاك لكم. فساروا معهم بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن⁽¹⁾

النهر وان: مذبحة الخوارج⁽¹⁾

ولم يعد عليّ قادراً على تجاهل الخوارج أكثر من ذلك، بعد تلك الروح العدائية الخطيرة التي أظهروها. فمتابعة المسير إلى الشام وترك هؤلاء في الكوفة يحمل في طياته خطراً شديداً على عاصمة عليّ ومعه. لا يجوز لعليّ أن يسير بكل قواته بعيداً، ويترك عاصمته بلا دفاع تحت رحمة أولئك المهووسين. وقد كان احتمال قيامهم بالاستيلاء الفعلي على الكوفة وغيرها من البلاد العراقية كبيراً جداً. فكيف سيكون شعور جيشه وهم يجاهدون أهل

(1) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج 3 ص 136 وص 146)، الاخبار الطوال للدينوري (ص 207-210)، تاريخ الطبري (ج 4 ص 62-65)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 169)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 2 ص 282 وص 289 وج 5 ص 116)، تاريخ خليفة بن خياط (ص 149)، تاريخ الخلفاء (ج 2 ص 193)، وقعة صفين لتصر بن مزاحم (ص 559)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 342).

الشام فتصلهم أنباء لا تسرّ، عن وقوع أهلهم وذوارهم وأموالهم بأيدي هؤلاء
الخوارج؟

كانت الأمور تسير باتجاه المواجهة العسكرية. وتوجه عليّ في شعبان⁽¹⁾
من عام 38 بجيشه إلى النهروان حيث مكان تجمعهم. ولكن قبل الاشتباك
بذل عليّ محاولة أخيرة لاقتناعهم بالتراجع عن تمردهم بالحسن، فدخل في
جدال عبثي من جديد، نفس الحجج ونفس المجادلة التي كانت بحروراء
تكرر الآن!

روى الدينوري في الاخبار الطوال انه قبيل معركة النهروان، طلب
علي من الخوارج أن يخرجوا له رجلاً مفوضاً منهم ليكلّمه قبل بدء القتال،
فأخرجوا له عبد الله بن الكواء:

«فقال علي رضي الله عنه: يا ابن الكواء، ما الذي تقمّم علي بعد رضاكم
برؤاي وجهادكم معي وطاعتكم لي؟ فهلا يرثم مني يوم الجمل؟

قال ابن الكواء: لم يكن هناك تحكيم.

فقال علي: يا ابن الكواء، أنا أهدى أم رسول الله (ص)؟

قال ابن الكواء: بل رسول الله (ص).

قال: فما سمعت قول الله عز وجل (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم
ونسائنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم). أكان الله يشك انهم هم الكاذبون؟

قال: ان ذلك احتجاج عليهم. وأنت شككت في نفسك حين رضى
بالحكمين. فنحن أخرى أن نشك فيك.

قال: وان الله تعالى يقول فأتوا بكتاب من عند الله، هو أهدى منهما،
اتبعه.

قال ابن الكواء: ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم.

(1) تاريخ خليفة بن خياط. والبلاذري يقول ان المعركة وقعت يوم 9 صفر سنة 38. واما
اليقطيني فيقول ان حرب النهروان وقعت سنة 39 !

فلم يزل علي عليه السلام يحاج ابن الكواء بهذا وشبهه.

فقال ابن الكواء: أنت صادق في جميع ما تقول. غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين.

فقال علي: ويحك يا ابن الكواء! اني إنما حكمت أبا موسى وحده، وحكم معاوية صمراً.

قال ابن الكواء: فإن أبا موسى كان كافراً

فقال علي: ويحك! متى كفر؟ أحين بعثته أم حين حكم؟

قال: لا. بل حين حكم.

قال: أفلا ترى أنني إنما بعثته مسلماً، فكفر في قولك بعد أن بعثته؟ أرايت لو أن رسول الله (ص) بعث رجلاً من المسلمين إلى أناس من الكافرين، ليدعوهم إلى الله، فدعاهم إلى غيره، هل كان على رسول الله (ص) من ذلك شيء؟
قال: لا.

قال: ويحك! فما كان علي أن ضل أبو موسى؟ أفيجل لكم بضلالة أبي موسى أن تضعوا سيركم على عواقبكم فتعرضوا بها للناس؟

فلما سمع عظماء الخوارج ذلك قالوا لابن الكواء: انصرف ودع عنك مخاطبة الرجل. فانصرف إلى أصحابه. وأبى القوم إلا التماذي في الغي.

ويكل تأكيد، لم يكن علي يريد إعادة هؤلاء أو قتلهم، وكان مصراً على إعطائهم فرصة التراجع والاستسلام حتى آخر لحظة. فبسط لهم راية أمان مع أبي أيوب الأنصاري، الصحابي القديم، لكي يلجأ إليها من أراد الخروج من جيشهم وأثره أن يصبح بهم:

«من جاء منكم إلى هذه الراية فهو آمن، ومن دخل المحضر فهو آمن، ومن انصرف إلى العراق وترك هذه الجماعة فهو آمن، فإنه لا حاجة لنا في سفك دماosكم»⁽¹⁾

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة. وغريب من ذلك ورد في تاريخ الطبري.

وأدت مجهودات عليّ إلى تراجع قسم من الخوارج عن موقفهم. يبدو أن العناصر التي لم تكن مؤدجلة كثيراً استشرحت بالجدية وبالخطر فقررت التراجع. قال الطبري (عن أبي مخنف) إنه بعد أن حاججهم عليّ انسحب فروة بن نوفل الأشجعي، وكان من رؤسائهم، ومعه 500 فارس حتى نزلوا البندنجين والدسكرة، واعتزلوا القتال، بعد أن شك في شرعية قتال عليّ. وخرجت طائفة أخرى منهم متفرقين فتركوا النهروان وعادوا إلى الكوفة، وانضم منهم إلى عليّ نحو مائة. وأضاف الدينوري أن ألفاً آخرين قد لجأوا إلى راية الأمان التي نصبها عليّ.

ولكن القاعدة الصلبة من الخوارج بقيت على حالها، مصممة على رأيها. روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن أبي عبيدة معمر بن المثنى:

«استنطقهم عليّ عليه السلام بقتل عبد الله بن خباب، فأقروا به.

فقال: انفردوا كتاب لأسمع قولكم كنية كنية.

فكتبوا كتاب وأقرت كل كنية بمثل ما أقرت به الأخرى، بقتل ابن خباب.

وقالوا: ولتقتلك كما قتلناه!

وروى الطبري في تاريخه أن علياً بحث إليهم «فدفعوا اليها قتلة اخواننا منكم، تقتلهم بهم، ثم أنا تارككم وكافّ منكم، حتى ألقى أهل الشام. فلملّ الله بقلب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم.

فبشروا إليه فقالوا: كلنا قتلتهما وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم»

لقد فشلت كل محاولات عليّ في إقناع القاعدة الصلبة من الخوارج بالعودة إلى صفوفه، فاضطرّ أخيراً إلى الدخول في المجابهة المسلحة. روى الدينوري في الأخبار الطوال فقال عليّ لأصحابه: لا تهلّوهم بالقتال حتى يبدأوكم. فتنادت الخوارج: لا حكم إلّا لله وإن كره المشركون.

ثم شدوا على أصحاب عليّ شدة رجل واحد، فلم تثبت خيل عليّ لشدتهم. وانفترقت الخوارج فرقتين، فرقة أخلت نحو الميمنة وفرقة أخرى نحو الميسرة.

وعطف عليهم أصحاب علي، وحمل قيس بن معاوية البرجمي، من أصحاب علي، على شريح بن أبي أوفى فضربه بالسيف على ساقه، فأبانتها. فجعل يقاتل برجل واحدة وهو يقول: الفحل يحمي شوله محمولاً. فحمل عليه قيس بن سعد فقتله. وقتلت الخوارج كلها ربيعة واحدة⁽¹⁾

ويعد أن أمر عليّ قواته بالهجوم، تحول الأمر إلى ما يشبه المذبحة لهؤلاء الخوارج. فأعداد أولئك الذين أصروا على موقفهم وقرروا القتال تراوحت ما بين 2800 - 4000⁽²⁾ رجل حسب معظم الروايات. وتحدث خليفة بن غياط في تاريخه عن القيادة العسكرية الميدانية لقوات الخوارج، وذكر أسماء قياداتهم الذين خاضوا المعركة وهم: عبد الله بن وهب الراسبي (رئيسهم كلهم)، وخرقوص بن زهير السعدي (على الميمنة)، وشيب بن بجرة الأشجعي (على الميسرة)، وشريح بن أوفى العبسي (صاحب رابتهم).⁽³⁾

واجههم عليّ بجيش من 14000 رجل. فلم يكن هناك تكافؤ عسكري بين الطرفين.

ورغم ذلك أثبت هؤلاء الخوارج صلابتهم الشديدة وتصميمهم الفريد⁽⁴⁾. قاتلوا بأسلوب عقائدي واضح. وتشير الروايات إلى أن جميع

- (1) ربيعة واحدة: أي قتلوا كلهم في ربيعة واحدة.
- (2) الحقوقي يقول أنهم 4000، والطبري قال: 2800 رجل. والدينوري قال فلم يبق مع عبد الله بن وهب إلا أقل من أربعة آلاف رجل. ونصر بن مزاحم رفع العدد إلى 5000. وأما البلاذري فقد حبط بالرقم إلى 1800 رجل «ويقال أنهم 1500»
- (3) ورواية الدينوري فيها نفس هذه الأسماء ولكن مع ذكر يزيد بن الحصين بدلا من شيب بن بجرة.
- (4) وسوف يفي الاستيصال في القتال، ابتغاء مرضاة الله، صفة ملازمة للخوارج، جيلا بعد آخر. والوصف التالي الذي ورد على لسان أحد قادتهم أثناء إحدى ثوراتهم العديدة ضد الأمويين، أيام مروان بن محمد بن عبد الملك، يوضح ذلك (من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد): «... نعم والله إن أصحابي لشباب مكتهلون في شبابهم، خفيفة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقسامهم. قد باعوا أنفسهم بثمن لا ينفك عنهم أبدا. قد خلطوا كلهم بكلامهم، وقيام ليهم بعيام نهارهم. محبة أصلاهم على أجزاء القرآن. كلما مروا بأية خرف شهبوا خروفا من النار. وكلما مروا بأية رجاء شهبوا شوقا إلى الجنة. ولما نظروا إلى السيوف وقد انتفضت، وإلى الرماح وقد أشرفت، وإلى السهام وقد

جيشهم قد قتل في المعركة، باستثناء الذين جرحوا وأصيبوا، وهم حوالي الـ 400 رجل، قرر عليّ ردهم إلى قبائلهم.

والمصادر تتحدث بشكل غريب عن خسائر المعركة، حيث يبدو وكأن الأمر مقتلة من جانب واحد! فبعض الروايات تقول أن من قتل من طرف جيش عليّ كانوا عشرة فقط! أو حسب تعبير رواية اليعقوبي «وانتحمت الحرب بينهم مع زوال الشمس، فأقامت مقدار ساعتين من النهار، فقتلوا من عند آخرهم، وقتل ذو النديّة، ولم يفلت من القوم إلا أقل من عشرة، ولم يقتل من أصحاب عليّ إلا أقل من عشرة»

وقال خليفة بن خياط في تاريخه: انه نجا منهم أبو بلال مرداس بن أدية، وشبيب بن بجرة، والمستورد بن علفة، والبرك صاحب معاوية، ووردان بن مجمع العكلي. وقتل من أصحاب عليّ يزيد بن نيرة الانصاري وابو نعيم عقبة بن عامر الجهني. وأضاف:

« قتل عبد الله بن وهب وأصحابه، إلا قليلاً منهم..... تقيهم عليّ فقتلوا، وقتل من أصحاب عليّ اثنا عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً ».

ولكن طبعاً لا يمكن تصديق هكذا روايات. فلا يعقل أن يُباد جيش الخوارج برمته، وهم حوالي 4000 رجل من المتحمسين شديدي البأس، دون أن يقتلوا من جيش عليّ سوى عشرة! فالأصح هو ما أورده نصر بن مزاحم من أرقام بشأن خسائر جيش عليّ في معركة النهروان، حيث ارتفع بالرقم إلى 1300 رجل. هذا رقم يمكن تصديقه إذا سلّمنا بأن جيش الخوارج الذي قد يصل إلى 4000 رجل قد أيد كله، أو غالبية الساحقة.

وقد صف الطبري القتال فقال ان الخوارج «تنادوا: الرواح الرواح الى الجنة! فشقوا على الناس، والخيل أمام الرجال، فلم تلبث خيل المسلمين

فوقت، وأرعدت الكتيبة بصراخ الموت، استخفوا وحيداً عند وحيد الله وانفصوا فيها. فطوى لهم وحسن مأب. فكم من عين في منظار طائر طالما بكى بها صاحبها من خشية الله! وكم من يد قد أبيت من ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها وراكبها وساجداً في طاعة الله»

لشدتهم. واقتربت الخيل فرقتين: فرقة نحو الميمنة واخرى نحو الميسرة.
وأقبلوا نحو الرجال فأستقبلت المرامية وجوههم بالنبل، وعطفت عليهم
الخيل من الميمنة والميسرة، ونهض اليهم الرجال بالرماح والسيوف. فوالله
ما لبثوهم أن اناموهم.

ثم ان حمزة بن سنان صاحب خيلهم لما رأى الهلاك نادى أصحابه أن
انزلوا فلهبوا لينزلوا فلم يتقاروا حتى حمل عليهم الاسود بن قيس المرادي
وجاءتهم الخيل من نحو علي فأهملوا في الساعة

وأضاف ابو مخنف رواية أخرى عن حكيم بن سعد قال «ما هو إلا
أن لقينا أهل البصرة فما لبثناهم. فكانما قيل لهم موتوا فماتوا قبل أن تشتد
شوكتهم وتعظم نكايتهم»

ثم أخرج الطبري رواية أخرى عن ابي مخنف يظهر فيها مدى الاستبسال
في القتال الذي أظهرته العناصر المتحمسة من الخوارج:

«وقع شريح بن أوفى الى جانب جندار فقاتل على ثلعة فيه طويلاً من
نهار. وكان قتل ثلاثة من همدان. فكان يرتجز ويقول:

قد علمت جارية عبية ناعمة في أهلها مكفية

أنى سأحمي ثلثي العشية

فشذ عليه قيس بن معاوية الدهني فقطع رجله. فجعل يقاتلهم ويقول:

القرم يحمي شوله معقولا

ثم شذ عليه قيس بن معاوية فقتله. فقال الناس:

اقتلت همدان يوماً ورجلٌ اقتلوا من غدة حتى الاصل

ففتح الله لهمدان الرجل

وقال شريح:

أضربهم ولو أرى أبا حسن ضربه بالسيف حتى يطمئن

وقال:

أضر بهم ولو أرى علياً ألبسته أبيض مشرقياً

وهكذا فإن الناس قد عابوا على قبيلة همدان الضخمة عجزها عن قتل رجل من الخوارج، حتى استهزؤوا بهم ووصفوا قتلها له أخيراً بالفتح! وذلك يدل على مدى الشجاعة التي تميز بها شريح. ولا شك أن الكثيرين غيره كانوا لا يقلون عنه حماساً وهم يصرخون: الرواح الى الجنة!

فهل يعقل ان هؤلاء لم يقتلوا من جيش علي سوى عشرة!؟



وكان الذي حصل في معركة النهروان، مأساة حقيقية، تضاف إلى سلسلة الكوارث التي ألمّت بعليّ، وبالجانب العراقي ككل. فهذا الاقتال الداخلي الطاحن، والذي خلّف آلاف القتلى، هو آخر ما يحتاجه العراقيون بعد الجمل وصفين.

مرة أخرى، وجدت القبائل العربية في العراق، التي هي بمجملها موالية للخليفة عليّ، مجبرة على قتل عدد كبير من أبنائها هي بالذات.

وانصرف العراقيون بعد تلك المعركة الطاحنة إلى لملمة جراحهم، وعذّ خسائرهم، وتقييم ما جرى.

والمفارقة ان كل هذه الحرب والقتال كانت بين فريقين يتفقان على ضرورة وجوب العودة إلى قتال معاوية وجيشه! فعليّ يريد ذلك ويسعى له بكل قوته. والخوارج كذلك، بل هم يتطرفون تجاه أهل الشام أكثر من عليّ، فاعتبروهم كفاراً وقتالهم جزءاً من صحة العقيدة بينما اعتبرهم عليّ قاسطين وفاسقين وضالين ولكن ليس كفاراً.

والنتيجة كانت أن علياً، بقتله معظم قوات الخوارج، سوف يفقد العناصر الأشدّ حماسة واستعداداً من بين أهل المراق لاستئناف الحرب ضد معاوية. وسوف يعاني عليّ الأمرين وهو يحاول حشد بقية جيوشه وأهل المراق للعودة إلى الحرب. ولن يتجمع.

كان ذلك تطوراً عجيباً للأحداث، وذا أثر مدمر على مستقبل عليّ في العراق.

وكان الأثر الاجتماعي لما حصل عظيماً، حتى أن امرأة أنت علياً وهو جالسٌ في المسجد وقالت له:

«يا من قَتَلَ الرجال، وسَفَكَ الدماء، وأَيْتَمَ الصبيان، وأَرْمَلَ النساء»^(١)



وهناك شواهد على أن الخوارج كانوا يزدادون اقتناعاً بصحة مواقفهم التي اتخذوها كلما مر الوقت وتطورت أحداث الصراع الدامي بين علي ومعاوية. ويبدو أنهم كانوا يعتبرون كل ما يقوم به علي تخبطاً وفشلاً يصل إلى حد الضلال! ومن ذلك ما رواه ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن الهيثم بن عدي «أنه خرج عليّ بعد النهروان الحارث بن راشد الناجي، قدم مع أهل البصرة.

فقال لعلي: انك قد قاتلت أهل النهروان في كونهم أنكروا عليك قصة التحكيم، وتزعم انك قد أعطيت أهل الشام عهدك موائيك، وانك لست بناقضها. وهذان الحكمان قد اتفقا على خلعك، ثم اختلفا في ولاية معاوية: فولاء عمرو وامتنع ابو موسى من ذلك، فأنت مخلوع باتفاقهما. وانا قد خلعتك وخلعت معاوية معك.

وتبع الحارث هذا بشر كثير من قومه»

فهنا يتابع الخوارج لومهم لعلي: فأنت يا علي واقفت على وقف القتال، وأعطيت أهل الشام عهداً، وأصررت على الوفاء وإمضاء التحكيم رغم معارضتنا لكل ذلك. وما هي النتيجة: خلعك من الخلافة على يد الحكيمين! فهذا من سوء عملك وتديريك، ولا يحق لك الآن أن تطالب الناس بالنهوض معك. فنحن يا علي نلزمك بما ألزمت به نفسك: نتيجة التحكيم!

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

أحاديث نبوية في ذم الخوارج: ذو الثدية، شيطان الردعة وشر الخلق والخليقة⁽¹⁾

قام العلامة ابن كثير، وهو المفسر العلم والمؤرخ الكبير، ابن القرن الثامن الميلادي، باستعراض تفصيلي للروايات المتعددة المنسوبة للنبي (ص) بشأن الخوارج، من مصادرها المختلفة في كتب الحديث (السنية)، وبأسانيدھا ومتونها.

ورغم أنه لا مجال هنا لذكر كل الأحاديث النبوية الواردة في هذا الشأن، إلا أنه لا بأس من إيراد تلخيص إجمالي لها. فأشهر تلك الأحاديث يذكر أن النبي (ص) قال انه سيخرج من أمته قوم يكثرون من الصلاة والصيام والعبادة، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. وتقول الروايات أن علامة أولئك القوم هو رجل أسود له يد مشوهة لها حلقة كتدي المرأة، وعليها شعرات بيض! وهذا الرجل، ذو الثدية، ورد ذكره في بعض الروايات على انه «شيطان الردعة» أو «المخدج». وتقول الروايات ان النبي (ص) لعنهم ودها المسلمين الى قتلهم لأنهم «شر الخلق والخليقة». وتمضي الروايات لتضيف انه في أعقاب معركة النهروان التي هزم فيها عليّ الخوارج، أمر عليّ بالبحث عن ذلك الشخص ذي الثدية في صفوف قتلاهم، مصداقاً للحديث النبوي، فلما أخبره أصحابه أنهم لم يجدوه، أصرّ على الاستمرار بالبحث عنه حتى وجدوه بالفعل بينهم فكبر عليّ وغرّ ساجداً لله لأنه تأكد أن هؤلاء هم بالفعل بالذين أخبره عنهم النبي (ص) وبالتالي فهو على الحق.

ففي البداية والنهاية قال ابن كثير ان الأحاديث النبوية التي تذكر الخوارج قد وردت عن عدد كبير من الصحابة، وهم: علي بن ابي طالب (اثنتا عشرة طريقاً - رواها مسلم وابو داود واحمد والبخاري وعبد الله بن احمد والخطيب البغدادي والبيهقي والبزار)، وأنس بن مالك (طريقان

(1) مصادر هذا البحث: البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 319-337)، سنن ابن ماجه (ج 1 ص 61)، مسند احمد بن حنبل (ج 4 ص 355)، أنساب الأشراف للبلاذري (ص 237)، ولبن سعد في الطبقات الكبرى (ج 3 ص 32).

- رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وجابر بن عبد الله (طريق واحدة - رواه أحمد)، ورافع بن عمرو الغفاري (طريق واحدة - رواه مسلم)، وسعد بن أبي وقاص (طريق واحدة - رواه أحمد)، وأبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الأنصاري (ثمان طرق - رواها أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والبخاري وأبو يعلى وابن ماجه)، وسهل بن حنيف (طريق واحدة - رواه أحمد والبخاري ومسلم)، وعبد الله بن عباس (طريق واحدة - رواه ابن ماجه)، وعبد الله بن عمر (طريق واحدة - رواه أحمد)، وعبد الله بن عمرو (طريق واحدة - رواه أحمد)، وعبد الله بن مسعود (طريق واحدة - رواه أحمد والترمذي وابن ماجه)، وأبو ذر (طريق واحدة - رواه مسلم) وعائشة (طريقان - رواه البيهقي والبخاري).

وعلق ابن كثير «والمقصود أن هذه طرق متواترة عن علي: إذ قد روي من طرق متعددة عن جماعة متباينة لا يمكن توأطوهم على الكذب. فأصل القصة محفوظ وإن كان بعض الألفاظ وقع فيها اختلاف بين الرواة، ولكن معناها وأصلها الذي توأطأت الروايات عليه صحيح لا يشك فيه عن علي أنه رواه عن رسول الله (ص) أنه أخبر عن صفة الخوارج وذي الشبهة الذي هو علامة عليهم. وقد روي ذلك من طريق جماعة من الصحابة غير علي كما تراها بأسانيدها وألفاظها»

ومن الروايات اللاحقة تلك التي تتحدث عن رجل حسن الهيئة كان يصلي بكل خشوع في بطن أحد الأودية، فرآه أبو بكر فأخبر النبي (ص) عنه، فما كان منه إلا أن قال له: اذهب واقتله! فلما ذهب لينفذ وجده لا يزال يصلي فكره أن يقتله فعاد للنبي، الذي عندها امر عمر بن الخطاب أن يذهب ليقتله، فتكرر معه نفس موقف أبي بكر فعاد للنبي. وعند ذلك امر النبي (ص) علي بن أبي طالب أن يذهب ليقتله، فلما ذهب لم يجده فعاد للنبي (ص). وتقول الرواية أن ذلك الرجل الخاشع المتعب الذي أمر النبي بقتله هو أس الخوارج المستقبليين وأساسهم وهم الذين سيمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية!

وبالإضافة الى الروايات التي ذكرها ابن كثير هناك غيرها ممن تحوي ذكراً صريحاً لكلمة «الخوارج» على لسان النبي (ص) مع شتم مباشر لهم «الخوارج هم كلاب النار» كما روى ابن ماجة في سننه والامام احمد في مسنده عن الصحابي عبد الله بن ابي اوفى⁽¹⁾.

وقد روى العديد من المؤرخين قصة ذلك المخدج في معرض تناولهم لوقعة النهروان. ومنهم البلاذري في أنساب الأشراف الذي قال ان علياً لم يستقر في أعقاب المعركة وأمر أصحابه بالبحث عن ذي الشدية⁽²⁾ الذي على حلمة يده خمس أو سبع شعرات رؤوسها معقفة، حتى وجدوه بين القتلى، فخرّ علياً وأصحابه سجوداً!

وعادة المؤرخين المسلمين أنهم إذا ما اعتقدوا بصحة حديث منسوب للنبي (ص) كانوا ميالين، هم أو روايتهم، الى تحويله الى حقيقة تاريخية.

ولذلك تبدو هذه الاحاديث النبوية التي تتحدث عن الخوارج مفصلة تفصيلاً ومفيدة من طرف اعدائهم بقصد ذمهم والتشجيع عليهم.

وبالنسبة لي فاني أصدق رواية الهيثم بن عدي التي ذكرها ابن كثير مثل علي عن أهل النهروان، أمشركون هم؟ فقال: من الشرك فمروا. قيل: أنعمافقون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. فقيل: فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: إخواننا بفروا علينا فقاتلناهم بغيرهم علينا»

وكذلك القول المشهور للامام علي عنهم في معرض المقارنة بينهم وبين أعدائه من جماعة معاوية: طلبوا الحق فأخطأوه.

وكلام عليّ هذا يتناقض مع الأحاديث التي تذكرهم بتلك الصفات الشنيعة

(1) ينبغي ملاحظة أنه ورد في الرواية نفسها ان ابن ابي اوفى كان له غلام قد لحق بالخوارج، وعندما ذكر الحديث.

(2) وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى في سياق كلامه عن الخوارج ومعركة النهروان ان علياً «قتل منهم ذا الشدية»

تولدت المزيد من الاضطرابات داخل جبهة علي⁽¹⁾

رغم أن القتال في النهروان قد انتهى بالفعل بانتصار صريح لعليّ وقواته والقضاء على النواة الصلبة للخوارج، إلا أن الأمر لم ينته عند ذلك، بل كانت له سلسلة طويلة من ردات الفعل والتبعات والعواقب المؤلمة.

فقد ولدت معركة النهروان شعوراً عميقاً من الاحباط لدى عموم الناس في الجانِب العراقي من الصراع. وقد تجلّى ذلك عندما بدأ عليّ محاولاته لحشد الناس والنهوض لحرب اهل الشام من جديد. روى الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ان عليا بعد فراغه من النهروان حاول حشد الناس للتوجه الى الشام من جديد ولكنه ووجه بمعارضة:

وأمر علي بالرحيل -يعني بعد فراغه من قتاله الحرورية- وقال لأصحابه: قد أحزكم الله وأذهب ما كنتم تخافون فامضوا من وجهكم هذا الى الشام.

فقال الاشعث: يا امير المؤمنين تغلّت نبالنا، وكَلّت سيوفنا، ونصّلت أسنة رماحنا، فلو أتينا مصرنا حتى نستعديم نسير الى عدونا.
فرحّن الناس الى ذلك»

وليس ذلك فحسب بل حصل ما هو أسوأ! ففي أعقاب معركة النهروان، وخلال سنة 38 للهجرة، حصلت ست حركات تمرد مسلحة⁽²⁾ ضد الخليفة عليّ. ووجد عليّ نفسه مضطراً إلى إرسال الحملة تلو الأخرى للقضاء على تلك التمردات المحلية التي يقودها الخوارج وأنصارهم في أنحاء متفرقة من العراق ضد حكم عليّ.

وابتدأت تلك الحركات بتمرد قائده شخص اسمه الخريت بن راشد⁽³⁾ والذي كان قد واجه الخليفة مباشرة بقوله له:

-
- (1) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج 3 ص 177 وص 239-248)، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ج 1 ص 210)، تاريخ الطبري (ج 4 ص 84-86).
(2) أشهر حركات التمرد الست هذه مأخوذة من انساب الاشراف للبلاذري
(3) وأشهر تمرد الخريت اخرجها ايضا الطبري في تاريخه بتفاصيل كثيرة نقلا عن ابي مخنف.

هو الله لا أطعُ أمرك ولا صليْتُ خلفك !

فقال له علي: تكلمتُ أمك ! إذا تعصي ربك وتنتكث عهذك ولا تضر إلا نفسك.. ولم تفعل ذلك ؟

قال: لأنك حكمتَ في الكتاب وضعفتَ عن الحق حين جد الجد، وركنتَ إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم. فأنا عليك زارٍ وعليهم ناقدٌ! وخرج الخريت من الكوفة ومعه 300 رجل من بني ناجية وقد أعلنوا تمردهم، وساروا في مناطق ريفية وقتلوا بضعة أشخاص ممن لقوهم على طاعة علي. فأرسل عليّ خلفهم حملة عسكرية بقيادة زياد بن خصيفة الذي لاحقهم في الأرياف حتى وصلوا البصرة، فدار نقاشٌ بين زعيم المتمردين، وبين قائد حملة عليّ، قال خلاله الخريت لما سأله زياد عن أسباب تمرده:

«لم أرفض صاحبكم ولا سيرته، فرأيتُ أن اعتزل وأكون مع من دعا إلى الشورى»

وبعد قتالٍ ضارٍ هُزم المتمرّدون وقتل معظم من كانوا مع الخريت الذي قرّ إلى الأهواز ومن ثم إلى داخل إيران، بعد أن نجح في استقطاب أعدادٍ من الفرس والأكراد ممن كانوا نصارى أصلاً.

وأرسل عليّ له حملة أخرى بقيادة معقل بن قيس الرياحي في ألفي مقاتلٍ من أهل البصرة. وخاضوا معه معركة شرسة أسفرت عن مقتل المئات من العرب والعجم الذين انضموا إلى الخريت، رغم أن قوات عليّ قد نصبت راية أمانٍ لمن شاء أن يتراجع.

ومن الملاحظ أن الخريت هذا قد لجأ إلى استعمال كل الطرق الدعائية الممكنة في محاولاته استقطاب العامة لدعاه. فهو قد وصل إلى حد «الطلب بدم عثمان» حين وجد أن ذلك يفيدُه في إحدى المراحل! ولم يعبأ الخريت بالتناقض الصارخ بين «الطلب بدم عثمان» وبين انتقاد عليّ «لأنه حكّم في كتاب الله!» فالهمم هو نجاح تمرّده ضد عليّ، وحسب تعبير البلاذري «وكان الخريت يومه للخوارج أنه على رأيهم، ويومهم للعشمانية أنه يطلب بدم عثمان»

ونجحت قوات عليّ أخيراً بقتل الخريت وأسر معظم من كان معه،
ففرقت بقية قواته وحشوده.

وما أن انتهى أمر الخريت، حتى بلغ علياً تمرّد بقيادة الأشرس بن هوف
الشياني في منطقة الأنبار، فأرسل إليه قوة بقيادة الأبرش بن حسان، إلى أن
قتل الأشرس في شهر ربيع أول.

وتبع ذلك تمرّد بقيادة هلال بن علقمة في منطقة ماسبذان. ونجحت
قوات الخليفة بقيادة معقل بن قيس في القضاء على التمرد بعد معركة قتلت
فيها 200 شخص في شهر جمادي الأولى.

وفي الشهر التالي حصل تمرّد بقيادة الأشهب بن بشير القرني. وأسفر
ذلك عن معركة في منطقة جوحا، انتصرت فيها قوات الخليفة بقيادة جارية بن
قدامة التميمي وقتل المتمرّدون.

وفي شهر رجب وقع تمرّد بقيادة سعيد بن قفل في منطقة المدائن، فقام
والي علي، سعد بن مسعود الثقفي، بالقضاء عليه وقتل 200 من أصحابه.

وفي شهر رمضان، نجح شخص يدعى أبو مريم السعدي، في تأليب
واستقطاب عناصر الخوارج الذين كانوا قد فارقوا أصحابهم وعادوا إلى صفوف
عليّ قبيل معركة النهروان. فذكّرهم بـ « شهناتهم » واستفهم للثأر لهم
فاستجاب له المئات منهم وانضم إليه أعداد من الموالي وخاضوا حرباً شرسة، في
منطقة شهرزور، ضد قوات عليّ التي قادها بنفسه قبل أن يوكل مهمة متابعة الحرب
إلى جارية بن قدامة. ولم ينتج من المتمردين سوى 50 رجلاً استأمنوا غانمهم عليّ ا

وتعطل مشروع عليّ في إعادة الهجوم على الشام⁽¹⁾

لما فرغ عليّ من حرب الخوارج في النهروان أراد التوجه مباشرة بجيشه
إلى الشام:

«قام خطيباً فحمد الله ثم قال: فإن الله قد أحسن بلاءكم وأعرض نصركم.
فتوجهوا من فوركم هذا إلى معاوية وأشياعه القاسطين الذين نبذوا كتاب الله

(1) مصادر هذا البحث: الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 170)، تاريخ الطبري
(ج 4 ص 67)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 2 ص 114)، أنساب الأشراف
للبلذري (ج 3 ص 153 و 156)

وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلًا . فبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون .
فقالوا: يا أمير المؤمنين ! نقلت نبأنا، وكَلَّتْ أقدُرنا، وتقطعت سيوفنا،
وتصلت أسنة رماحنا . فارجع بنا نحسن عدتنا . ولعل أمير المؤمنين يزيد في
عدتنا عدة . فإن ذلك أقوى لنا على عدونا .

فأقبل عليّ بالناس حتى نزل بالنخيلة فعسكر بها، وأمر الناس أن يلزموا
معه عسكرهم، ويوطنوا أنفسهم على الجهاد، وأن يلقوا من زيارة أبنائهم
ونسائهم، حتى يسيروا إلى عدوهم من أهل الشام .

فأقاموا معه أياماً ثم رجعوا يسلمون ويدخلون الكوفة، ويتلذذون بنسائهم
وأبنائهم ولذائهم، حتى تركوا علياً وما معه إلا نفرٌ من وجوه الناس يسير، وترك
المسكر خالياً^(١)

وقال البلاذري « وسار عليّ حتى أتى المدائن ثم مضى حتى نزل النخيلة،
وجعل أصحابه يدخلون الكوفة حتى بقي في أقل من ثلاثمائة . فلما رأى ذلك
دخل الكوفة وقد بطل عليه ما دبر من إتيان الشام قاصداً إليها من النهر وان .

فخطب الناس فقال: أيها الناس استمدوا للمسير إلى عدوكم، فقي جهاد
القرية إلى الله ودرك الوسيلة عنده، فلم يصنعوا شيئاً .

فتركهم أياماً حتى إذا شس منهم خطيبهم فحمد الله وأثنى عليه وصلى
على نبيه ثم قال: يا عباد الله مالكم إذا أمرتكم أن تنفروا في سبيل الله أتأقلمت
إلى الأرض ! أَرْضَيْتُمُ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ بَدَلًا، وبِالذَّلِّ وَالْهَوَانِ مِنَ الْعِزِّ
وَالْكَرَامَةِ خُلَفَاءُ، »

ومن جانبه كان معاوية يرصد تطورات الأحداث في العراق بدقة . وبعد
انتهاء مؤتمر التحكيم، وصلته الأخبار أن علياً قد تجهز في أهل العراق للمسير
إليه مرة أخرى وأنه قد خرج بجيوشه بالفعل

« .. فهاله ذلك . فخرج من دمشق معسكراً ويعث إلى كور الشام فصاح
بها: إن علياً قد سار إليكم . وكتب إليهم نسخة واحدة:

أما بعد، فلإننا كنا كتبنا كتاباً بيننا وبين عليّ، وشرطنا فيه شروطاً،

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة . ونفس الرواية أوردتها الطبري عن أبي مخنف، وفيها زيادة
أن الذي تولى مخاطبة عليّ بذلك الكلام هو الأشعث بن قيس .

وحكمنا رجلين يحكمان علينا وعليه بحكم الكتاب لا يعدوانه، وجعلنا عهد الله وميثاقه على من نكت العهد ولم يُعصِ الحكم. وإن حكمت الذي كنتُ حكمته أثبتني، وإن حكته خلعت. وقد أقبل إليكم ظالماً. فمن نكت فلأنما ينكت على نفسه.

تجهزوا للحرب بأحسن الجهاز، وأعدوا آلة القتال، وأقبلوا خفافاً وثقالاً، يسرنا الله وإياكم لصالح الأعمال

فاجتمع إليه الناس من كل كورة وأردوا المسير إلى صفين.....

فمكثوا يجيلون الرأي يومين أو ثلاثة، حتى قدمت عليهم عيونهم: إن علياً اختلف عليه أصحابه، ففارقته منهم فرقة أنكرت أمر المحكومة، وأنه قد رجع عنكم إليهم.

فكبر الناس سروراً لانصرافه عنهم، وما ألقى الله عز وجل من الخلاف

بينهم.

فلم يزل معاوية مُعسكراً في مكانه، منتظراً لما يكون من علي وأصحابه، وهل يُقبل بالناس أم لا؟⁽¹⁾

فلما برح جاء الخبر أن علياً قد قتل أولئك الخوارج، وأنه أراد بعد قتلهم أن يقبل بالناس، وأنهم استنظروه ونافعوه. فسر بذلك هو ومن قبله من الناس⁽²⁾

ومسار الأحداث التطورات شجع معاوية كثيراً إلى درجة جعلته يطمع في التأثير المباشر في أهل العراق، متجاوزاً علي، ومحاولاً استمالتهم لصفه أو على أقل تقدير تحييدهم.

مكاتبات معاوية لوجوه أهل العراق: روى البلاذري في أنساب الأشراف «ان معاوية لما يبيع، ويلفه قتال علي أهل النهروان، كاتب وجوه من معه مثل الأشعث بن قيس وغيره، ووعدهم ومناهم ويملأ لهم حتى مالوا إليه وثناقلوا عن المسير مع علي عليه السلام. فكان يقول فلا يُلصقُ إلى قوله ويدعو فلا يُسمع لدعوته. فكان معاوية يقول: لقد حارب علياً بعد صفين بغير جيش ولا عناء أو قال: ولا عتاد»

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي العنيد. وفرب من ذلك ورد في ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري

الجزء الثالث:

الصراع على الأقاليم

الفصل الاول: سقوط مصر

هناك اربع شخصيات من جانب فريق علي لعبت دورا في الاحداث التي أدت الى سقوط مصر بيد معاوية، ولا بد من التحدث عنها بالتفصيل نظرا لتكرار ورودها في المصادر والتداخل في أخبارها: محمد بن ابي حذيفة، قيس بن سعد بن عبادة الانتصاري، محمد بن ابي بكر الصديق ومالك الاشر النخعي.

اولا: محمد بن ابي حذيفة⁽¹⁾ (القرشي، من بني عبد شمس، ابن خال «وابن عمومة» معاوية):

سبق وتحدثنا بالتفصيل عن دوره هو ومحمد بن ابي بكر في التحريض على عثمان ومشاكلهما مع واليه على مصر ابن ابي السرح .

ومعظم المصادر تشير الى نجاحه (ولو بشكل مؤقت) في السيطرة على مقاليد الامور في مصر بعد هرب الوالي ابن ابي السرح⁽²⁾ وبيعة علي في المدينة.

وقلة من المصادر تذكر ان الامام عليا قد ولاء إمارة مصر. وبالتحديد

(1) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص161)، تاريخ الطبري (ج3 ص549)، تاريخ المقوم، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج52 ص269-273)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص349)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص644)، الاصابة لابن حجر (ج6 ص9-11)، أسد الغابة لابن الاثير (ج4 ص316).

(2) وفي رواية ابي مخنف لدى الطبري ان ابن ابي حذيفة «وثب» على ابن ابي السرح وهو بمصر «فطرد منها».

ابن حساكر في روايتين عن خليفة وعن ابي جعفر الهمداني وابن عبد البر في ترجمته في الاستيعاب، وكذلك ابن الاثير في أسد الغابة في رواية عن خليفة.

ولكن من المستبعد جداً ان يكون ذلك قد حصل. فالبلادري لم يشر الى تولية علي لابن ابي حذيفة مصرأ بل تحدث عن تعيينه قيس بن سعد مما اثار شماتة والي عثمان الهارب ابن ابي السرح به، فقال وهو يشير الى دور ابن ابي حذيفة في التمرد على عثمان «أبعد الله ابن ابي حذيفة، بنى على ابن عمه وسر اهل بيته وسمى عليه، حتى ولي بعده من لم يمتعه بسلطان بلده حولاً ولا شهراً ولم يره للملك اهلاً».

والطبري في تاريخه أخرج نفس كلام ابن ابي السرح في رواية البلادري، وعلّق قائلاً «فخبر هشام هذا يدل على ان قيس بن سعد ولي مصر ومحمد بن ابي حذيفة حي»^١

واليعقوبي في تاريخه لم يذكر تولية علي لابن ابي حذيفة.

أي أن مصادر التاريخ الرئيسية، الطبري والبلادري واليعقوبي، لم تذكر أن علياً قام بتعيين ابن ابي حذيفة والياً على مصر. فقط هو تولى شؤونها بمبادرة منه، وجماعته، بعد فرار ابن ابي السرح من مصر خوفاً من علي.

وكان من الطبيعي جداً، والمتوقع، أن معاوية قرر ان يتعامل مع التطورات التي تحصل في مصر نظراً لأهميتها وتأثيرها المحتمل عليه. روى ابن حجر العسقلاني «وذكر ابو احمد الحاكم ان محمداً بن ابي حذيفة لما ضبط مصر وأراد معاوية الخروج الى صفين بدأ بمصر أولاً. فقاتله محمد بن ابي حذيفة بالعريش الى أن تصالحا. وطلب منه معاوية ناساً يكونون تحت يده رهناً ليأمن جانبهم إذا خرج الى صفين. فأخرج محمد رهناً عدتهم ثلاثون نفساً فأحبط بهم وهو فيهم فسجنوا»^(١)

(١) وفي رواية اخرى لابن حجر عن يزيد بن ابي حبيب أن معاوية قد سار بنفسه في جيش كثيف الى مصر قبيل معركة صفين
«ثم كان من سير معاوية بن ابي سفيان الى مصر، لما أراد السير الى صفين فرأى ألا يترك اهل مصر مع ابن ابي حذيفة خلفه، فسار اليهم في عسكر كثيف فخرج اليهم ابن ابي حذيفة في اهل مصر فتمتعوه من دنور القسطنطية. فأرسل اليهم: إذا لا تريد قتال أحد وإنما نطلب قتل عثمان. فدار الكلام بينهم في المواقعة».

ولكن يجب الشك في صحة هذه الرواية: لأنه من المستبعد جداً أن يفكر معاوية بالهجوم على مصر أثناء استمداده لقتال أهل العراق. لقد كان معاوية منهمكاً بأقصى طاقته لتجنيد أهل الشام وحشدهم خلفه للمعركة التي يعلم جيداً أنها قادمة حتماً وأنها ستكون حاسمة بالنسبة له. في تلك اللحظات الحرجة قبل صفين، كان معاوية يضع مصيره الشخصي، والحزب الأموي بأكمله، على شفير الهاوية. كانت الهزيمة والفشل أمام زحف عليّ والعراقيين احتمالاً مطروحاً أمام عيني معاوية، خاصة وقد رأى عليا يحارب زوجة الرسول واثنتين من كبار الصحابة، بلا هوادة وبلا تردد. وكان يدرك مدى القدرات الاستقطابية التي يتمتع بها عليّ ومدى الشرعية والأخلاقية التي تميز تحركه. ولذلك لم يكن معاوية في وارد الدخول في مغامرات مصرية آنذاك. كما أن معاوية كان يحكم خبرته يدرك أيضاً أن محمد بن أبي حذيفة، مع صغر سنه وقلة تمرسه في العمل السياسي والإداري، ومع حداثة وثوبه على السلطة في مصر، لم يكن في وضع يسمح له بتشكيل تهديد جدي له في الشام. إن معاوية لم يستشعر التهديد الحقيقي له من الحدود المصرية إلا مع تولي قيس بن سعد للولاية هناك.

ولكن هذا لا يمنع أن يكون معاوية بذل محاولات من أجل الحصول على دعم ابن خاله، محمد بن أبي حذيفة، أو على الأقل تحييده. والكثير من الروايات تفيد بأن معاوية نجح في إلقاء القبض على ابن أبي حذيفة، بالخدعة على الأغلب. فربما يكون معاوية قد استدرجه إلى كمين أو دعاه إلى مفاوضات وغدر به أو غيرها من الوسائل.

ويشأن مصير ابن أبي حذيفة، بعض الروايات تفيد بأنه قتل في معركة، وبعضها تفيد أنه حُبس ومن ثم هرب من سجنه وقتل بعد ذلك، وبعضها تفيد أنه قتل في سجنه:

هناك رواية واضحة لدى ابن عساكر حول كيفية تخلص معاوية منه. فعن أبي جعفر الهمداني «... فمُخدع حتى خرج إلى العريش، وخلف الحكم بن المطلب بن مخزومة على مصر. فتعصب المنجنيق عليه حتى نزل على صلح في ثلاثين من أصحابه، فحبسوا ثم قتلوا»

وأضاف ابن عساكر نقلاً عن يزيد بن أبي حبيب «... ففرقهم نصفين: فسجن محمد بن أبي حذيفة ومن معهم في سجن دمشق، وسجن ابن عديس والنصف الباقي في سجن بعلبك»

وأكد ابن حجر المسقلاني في الإصابة رواية ابن عساكر عن تفاصيل صراع ابن أبي حذيفة مع معاوية. فروى عن يزيد بن أبي حبيب «واستخلف ابن أبي حذيفة على مصر الحكم بن الصلت بن مخزومة بن المطلب بن عبد مناف، وخرج مع جماعة منهم عبد الرحمن بن عديس وكتانة بن بشر وأبو شمر بن أبرهة بن الصباح، فلما بلغوا به غدر بهم عسكر معاوية وسجنوهم إلى أن قتلوا بعد ذلك⁽¹⁾».

وأضاف ابن حجر «وقال أبو أحمد الحاكم: خدع معاوية محمد بن أبي حذيفة حتى خرج إلى المريش في ثلاثين نفساً فحاصره ونصب عليه المنجنيق حتى نزل على صلح. فحبس ثم قتل».

وأما ابن كثير في البداية والنهاية فقد ذكر رواية شاذة حول مصير محمد بن أبي حذيفة جعلت مقتله يتأخر لأكثر من ستين عاماً هو معروف. ولكن سياق رواية ابن كثير يظهر تشككه بها فقال «وقد زعم هشام بن محمد الكلبي أن محمد بن أبي حذيفة بن عتبة سبيك بعد مقتل محمد بن أبي بكر - وكان من جملة المحرّضين على قتل عثمان - فبعثه عمرو بن العاص إلى معاوية ولم يبادر إلى قتله لأنه ابن خال معاوية. فحبسه معاوية بفلسطين فهرب من السجن، فلحقه رجل يقال له عبد الله بن عمر بن غلام بأرض البلقاء. فاخطفى محمد بفارة فجاءت حمير وحش لتأوي إليه فلما رأته فيه نفرت، فتعجب من نفرها جماعة من الحصادين هنالك فلذهبوا إلى الغار فوجدوه فيه. فجاء أولئك إليه فخشى عبد الله بن عمرو بن غلام أن يرده إلى معاوية فيعفو عنه، فضرب عنقه.

(1) من الواضح أن هناك ضعفاً في الشكل في هذه الرواية: فهي تذكر اسم كتانة بن بشر ضمن من أسرههم وقتلهم معاوية، بينما من المؤكد أن كتانة بن بشر كان حياً يرزق إلى ما بعد معركة صفين بفترة طويلة. فهو كان مع محمد بن أبي بكر وتولى الدور الأبرز في القتال الذي دار مع قوات عمرو بن العاص التي أرسلها معاوية للسيطرة على مصر بعد حرب صفين، وقتل في تلك المعركة.

هكذا ذكر ذلك ابن الكلبي. وقد ذكر الواقدي وغيره ان محمد بن ابي حذيفة قتل في سنة 36 كما قدمنا. والله أعلم!

واما ابن الاثير في اسد الغابة فقد ذكر رواية تقول ان نهاية ابن ابي حذيفة كانت على يد رشتين، مولى معاوية، الذي قتله بعد أن كان هرب من سجنه⁽¹⁾.

ثانياً: عليّ يعين قيس بن سعد والياً⁽²⁾

يمكن اعتبار تعيين قيس بن سعد في منصب والي مصر وإفريقية خلفاً لرجل عثمان، ابن أبي السرح، جزءاً من سياسة عليّ القائمة على إعادة الاعتبار للأتصار بشكل عام، بعد الفترة الطويلة التي تم تهميشهم فيها على يد الخلفاء الثلاثة. فقد عين عليّ شخصيات أنصارية بارزة في مناصب قيادية في دولة الإسلام. فهو كان يعتبر الأنصار المجموعة الرئيسية التي ساهمت في إنتاج دعوة محمد(ص) ودفعوا ضريبة الدم في سبيل ذلك، وبالتالي من حقهم إstand دور محوري لهم في المنظومة الإسلامية. فأخلصهم للرسول(ص) وللإسلام لا يرقى إليه الشك، وتضحياتهم يجب أن تكافى. ولذا قام عليّ بتعيين رجال الأنصار في مناصب الولاة في البصرة وفي المدينة المنورة بالإضافة إلى مصر.

وقيس بن سعد، كشخص، كان يمتلك خصالاً تؤهله لهكذا منصب. وعدا عن كونه ابناً لواحد من زعماء الأنصار السابقين (كان سعد بن عباد أحد النقباء الاثني عشر في بيعة العقبة الأخيرة)، فإنه هو ذاته كان محل ثقة رسول الله(ص) وتقديره. ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه ان قيس بن سعد كان هو صاحب لواء رسول الله(ص) في الحج.

(1) وأخطأ ابن عبد البر في ترجمته لمحمد بن ابي حذيفة حين قال: قتلما قتل عثمان هرب إلى الشام، فوجده رشتين مولى معاوية فقتله. لأن محمد لا يمكن ان يهرب للشام بعد قتل عثمان.

(2) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاندي (ج3 ص162-163)، صحيح البخاري باب ما قيل في لواء النبي (ج4 ص64)، تاريخ الطبري (ج3 ص551-555)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص109)، البيان والتبيين للجاحظ (ج2 ص56).

دخل قيس إلى مصر ومعه كتاب التعمين من الخليفة الجديد، وسرعان ما نجح في بسط سيطرته ونشر سلطان الإمام عليّ في مصر. وهذا أمرٌ يحسب له. فعلى الرغم من أن مصر كانت منذ أكثر من عشرين عاماً تحت حكم عمرو بن العاص ومن ثم ابن أبي السرح، إلا أن قيساً نجح في أخذ البيعة من أهلها لعليّ دون مشاكل كبيرة.

ولكن كان لا بد لعشرين عاماً من حكم عدويّ الإمام عليّ في مصر أن يترك بعض الأشياء والأتباع، وخاصة من الموظفين الإداريين والتنفيذيين والوجهاء الذين كانوا مستفيدين من حكم عثمان، وأصبحوا فجأة يرون كل امتيازاتهم ونفوذهم يتبخر أمام أعينهم مع قدوم والي الخليفة الجديد.

يروى البلاذري «فقام الناس فبايعوا علياً واستقاموا لقيس، إلا رجلاً يقال له يزيد بن الحرث. وكان معتزلاً في قرية هناك فبعث إلى قيس: إنا لا نبايعك ولا ننزّي عليك في سلطانك، فابعث عاملك، فإن الأرض أرضك. ولكننا نتوقف حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس.

ورثب مسلمة بن مخلد الساعدي من الأنصار، فنما عثمان ودعا إلى الطلب بدعه.

فأرسل إليه قيس: ويحك أعلّيّ تب؟ فوالله ما أحب أن أقتلك ولي ملك مصر والشام.

فكفّ فتاركه. وجبا قيس الخراج وليس أحدٌ ينازعه»

وقد أورد الطبري تفاصيل أكثر عن أنصار النظام القديم «فقام الناس فبايعوا. واستقامت له مصر وبعث عليها عماله. إلا أن قرية منها، يقال لها خربت، فيها أناس قد أعظموا قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبها رجل من كنانة، ثم من بني مدلج يقال له يزيد بن الحارث. فبعث هؤلاء إلى قيس بن سعد إنا لا نقاتلك، فابعث عمالك فالأرض أرضك، ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس»

من هذا النص يتضح أن موقف الفئة المرتبطة بالنظام السابق في مصر،

والتي سوف تعرف لاحقاً بـ «العثمانية»، كان مهادناً لوالي الخليفة الجديد. لم يكن هؤلاء «العثمانية» في وضع يسمح لهم بالقيام بتحدّي جدّي لسلطة الإمام عليّ. والمؤكّد أنهم كانوا أقلية في مصر وأنهم كانوا مصدومين بمقتل خليفتهم وعزل واليهم وتوالي الأحداث بسرعة شديدة عليهم جعلتهم غير قادرين على التمييز بوضوح. ولذلك كان قرارهم التريث في الأمور، وكان كل ما يريدونه أن يتركوا وشأنهم دون اعتداء من الوالي الجديد. ولم يكن حتى ذلك الوقت قد برز تحدّي صريح لسلطة عليّ بن أبي طالب وخلافته.

وعاملهم قيس بن سعد باللين والهدوء، ورضي منهم بالاعتزال والموادعة. فظالما لم يكن ليصدر منهم ما من شأنه أن يفسد عليه ولايته وحكمه، فلا داعي له أن يبدأ عهده في مصر بالقتال وسفك الدماء. كان قيس بحاجة إلى وقت من أجل تثبيت ركائز إدارته الجديدة، ولكي يتعرف على البلاد وأهلها ويضمن تأييد الجنود وأبناء القبائل العربية في مصر لخلافة عليّ. وقد بدا أن قيساً نجح في ذلك (وفي ذلك الزمان كانت جباية الخراج بسلاسة ودون مشاكل هي المقياس لنجاح الحاكم في ولايته، وهي التعبير عن الطاعة من الرعية للحاكم).

ولما كان قيس بن سعد والياً مقتلراً وقائداً ناجحاً، فقد أثار خوفاً شديداً لدى معاوية بسبب وجوده على الحدود الجنوبية لمعاوية، وخاصة مع ما يعلمه معاوية من استقامة قيس وولائه للإمام عليّ. وقد كان قيس بن سعد موجوداً في مصر، ومسيطرأ على الأوضاع فيها خلال فترة حرجة من خلافة عليّ وهي تلك التي تشمل حرب الجمل وتمتد إلى ما بعد استقرار عليّ في الكوفة. وحرّم قيس معاوية من الميزة الاستراتيجية التي كانت متاحة له عن طريق استغلال الحرب التي يخوضها عليّ في البصرة وانتشاله هناك للسيطرة على مصر، التي لا شك لم تغب يوماً عن ذهن رجل كمعاوية. وقد عبّر الطبري عن هواجس معاوية بسبب وجود قيس في مصر فكان أن خلق الله على معاوية بن أبي سفيان، لقربه من الشام، مخافة أن يقلب إليه عليّ في أهل العراق، ويقلب إليه قيس بن سعد في أهل مصر فيقع معاوية بينهما»

ويتحدث الطبري عن سلسلة من المراسلات^(١) حصلت بين معاوية وقيس بن سعد. بدأها معاوية باستعمال أسلوبه المفضل: الرشوة أولاً أرسل معاوية إلى قيس بن سعد عارضاً عليه الانضمام إليه والتخلي عن علي:

«فإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل».

تابعتا على أمرنا ولك سلطان المراقين إذا ظهرت ما بقيت، ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان.

وسلني غير هذا مما تحب، فإنك لا تسألني شيئاً إلا أوتيته. واكتب إلي برأيك فيما كتبت به إليك. والسلام»

وهنا يذكر الطبري رسالة جوابية من قيس تحمل عرضاً بالمواصلة والمهادنة:

«فلما جاءه كتاب معاوية أحب أن يدافعه ولا يبدي له أمره ولا يتعجل له حربه فكتب إليه: أما بعد فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه، وأما ما سألتني من متابعتك وعرضت علي من الجزاء به فقد فهمته وهذا أمر لي فيه نظر وفكرة، وليس هذا مما يسرع إليه. وأنا كآف عنك ولن يأتيك من قبلي شيء تكرهه^(٢) حتى ترى ونرى»

وهذا الجزء من المراسلات يثير الحيرة لدى الباحث. لأن مواقف سعد بن عباد كانت على الدوام شديدة العداء لمعاوية، وقيت كذلك إلى ما بعد اغتيال علي وبيعة ابنه الحسن. ولذلك فإن رسالته لمعاوية والتي تجعله قريباً من الحياء بينه وبين علي من الصعب قبولها. ولكن في ذات الوقت سنرى أن علياً يقوم بعزل قيس من منصبه بسبب شكه في موقفه من معاوية ولبته تجاهه، مما يعطي قوة لرواية عرضه للمهادنة. فالأمر ملتبس. هل حقاً جرب قيس نوعاً من سياسة المداورة تجاه معاوية؟ على كل حال حتى لو فعل ذلك لم تنجح حركته تلك، بل إن معاوية ربما استفاد منها في دق إسفين بينه وبين علي كما سيأتي.

(١) نصوص المراسلات هذه من رواية هشام الكلبي عن أبي مخنف.

(٢) والبلاذري في انساب الاشراف يروي قريباً من هذا الكلام، عن أبي مخنف أيضاً.

وعلى أي حال فالطبري يقول ان معاوية لم يقتنع بجواب قيس الموارب،
فطلب منه موقفاً صريحاً:

«فلما قرأ معاوية كتابه لم يره إلا مقارياً مباعداً. ولم يأمن أن يكون له في ذلك
مباعداً مكابداً. فكتب اليه معاوية ايضاً: أما بعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تنعز
فأعذك مسلماً ولم أرك تباعد فأعذك حرياً! أنت فيما عهدنا كحنك الجزور، وليس
مثلي يصانع المخادع ولا ينتزع للمكابد ومعه عدد الرجال ويبيد أمة الخيل»

ويضيف الطبري انه عندها طفع الكيل بقيس، أو حسب تعبيره: «أظهر له
ذات نفسه، فأرسل جواباً مزلزلاً لمعاوية:

«..أما بعد، فإن العجب من اغترارك بي وطعمك في واستسقاظك رأيي!
أتسومني الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة وأقولهم للحق وأهداهم
سيلاً وأقربهم من رسول الله وسيلة؟! وتأمرنني بالدخول في طاعتك؟ طاعة
أبعد الناس من هذا الأمر وأقولهم للزور وأضلهم سيلاً وأبعدهم من الله عز
وجل ورسوله وسيلة!؟ ولد ضالين مُضلّين، طاغوت من طواغيت إبليس.

وأما قولك إني مالى عليك مصرّ خيلاً ورجلاً، فوالله إن لم أشغلك
بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك للوجد والسلام....»

فلما بلغ معاوية كتاب قيس أبيس منه وثقل عليه مكانه»

وفي رواية البلاذري أن قيساً كتب الى معاوية ردّاً غاضباً «يا ثؤن ابن
الثؤن، دخلتم في الإسلام كارهين ونخرجتم منه طائعين»^(١)

هزل قيس بن سعد

تحدثنا الروايات أن معاوية طَبّق خطة في غاية الذكاء من أجل هز
حكم قيس بن سعد في مصر. وكانت الخطة تعتمد في الأساس على زعزعة

(١) وروى الجاحظ في البيان والنبين ان معاوية كتب لقيس «أما بعد: فإنيك يهودي وأبني
يهودي! إن ظنرت أحب الفريقين إليك هزلك واستهلك بك، وإن ظنرت أبغضهما إليك
تهلك وتهلك بك» وأن قيساً أجابه بأنه «ومني وأبني ومن»

علاقة الثقة المتبادلة بين الإمام عليّ وتابعه المخلص قيس بن سعد. وهذا هدفٌ صعب المنال بلا شك، نظراً إلى طول عهد الإمام عليّ بـقيس بن سعد، والأنصار عموماً، في المدينة المنورة وإلى مواقفهم المشهودة في دعم وتأييد عليّ ضد توجهات الهيمنة القرشية.

لجأ معاوية إلى الإشاعة بين الناس في الشام أن قيس بن سعد قد انقلب في موقفه وأصبح مع معاوية من الطالبيين بدم عثمان! وكان معاوية يدرك أن الأخبار ستصل حتماً إلى العراق بهذا الأمر مما سيلقي الشك في قلب عليّ تجاه واليه. يقول الطبري:

فواختلق معاوية كتاباً من قيس بن سعد، فقرأه على أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم. للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد. سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإني لما نظرتُ رأيتُ أنه لا يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرماً برأ تقياً، فستغفر الله عز وجل لنفوسنا ونسأله العصمة لدينا. ألا وإني قد ألقيتُ إليك بالسلم. وإني قد أجبتك إلى قتال قتلة عثمان رضي الله عنه، إمام الهدى المظلوم. فعول عليّ فيما أحيت من الأموال والرجال أعجل عليك والسلام.....

فشاع في أهل الشام أن قيس بن سعد قد بايع معاوية بن أبي سفيان، فسرحت عيون علي بن أبي طالب إليه بذلك.

فلما أتاه ذلك أعظمه وأكبره وتعجب له. ودعا بنيّه ودعا عبد الله بن جعفر فأعلمهم ذلك.

فقال: ما رأيكم؟

فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين دَع ما يريك إلى ما لا يريك.

أهزل قيساً عن مصر.

قال لهم علي: إني والله ما أصدّق بهذا على قيس!

فقال عبد الله يا أمير المؤمنين أهزله فوالله لئن كان هذا حقاً لا يعتزل لك

إن هزله⁽¹⁾

(1) وكذلك روى الحمي في سير أعلام النبلاء قصة مكيدة معاوية التي أدت إلى عزل قيس.

إذن نجحت خطة معاوية، ووصلت الأخبار إلى عليّ أن قيساً قد انشقّ عليه وظاهر من كلام الإمام علي مع آله أنه كان غير مصدّق لذلك، ولكن ماذا تراه يفعل وقد ملأت الإشاعات الأفاق تحمّل تلك الأخبار؟ كان لا بد للخليفة لكي يتأكد أن يعهد إلى واليه المشكوك فيه بمهمة صعبة تظهر إخلاصه.

وفي تلك الظروف بالتحديد جاء كتاب من قيس بن سعد لعليّ يذكر له فيه خبر «العثمانية» في مصر والذين كان قد قرر موادعتهم ما داموا مسالمين. يروي الطبري «وإنهم كذلك إذ جاء كتاب من قيس بن سعد فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد. فلاني أخير أمير المؤمنين أكرمه الله أن يهلي رجلاً معتزلين قد سألوني أن أكف عنهم وأن أدهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فتري ويروا رأيهم. فقد رأيت أن أكف عنهم ولا أتعجل حرّيتهم وأن أتألفهم فيما بين ذلك، لعل الله عز وجل أن يُقبل بقلوبهم وأن يفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله.

فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين ما أخوفني أن يكون هذا معاملة لهم منه. فقرأه يا أمير المؤمنين بقتالهم.

فكتب إليه عليّ: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد. فسير إلى القوم الذين ذكرت فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون، وإلا فتأجزم إن شاء الله.

فلما أتى قيس بن سعد الكتاب فقرأه لم يتمالك أن كتب إلى أمير المؤمنين: أما بعد يا أمير المؤمنين فقد عجبّت لأمرك! أتأمرني بقتال قوم كافين منك، مفرّغين لقتال عدوك. وإنك متى حاربتهم ساعدوا عليك عدوك. فأطعني يا أمير المؤمنين واكفف عنهم فإن الرأي تركهم والسلام⁽¹⁾

فلما أتاه هذا الكتاب قال له عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، ابعت محمد بن أبي بكر على مصر يكتفك أمرها واعزل قيساً. والله لقد بلغني أن قيساً يقول: والله إن سلطاناً لا يتم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء. والله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر وإنّي قتلت ابن مخلد.

(1) وفي رواية البلاذري أن قيساً كتب لعليّ هني قد صجبت من سرحتك إلى محاربة من أمرتي بمحاربه من عدوك. ومتى فعلت ذلك لم آمن أن يساعد أعدائك ويتراموا ويجمعوا من كل مكان ليغلظ الأمر وتشتد الشوكة.

فبعث عليّ محمد بن أبي بكر على مصر وعزل عنها قيساً⁽¹⁾

لقد توافقت إشاعات معاوية حول قيس بن سعد، مع كتابه الذي أرسله إلى عليّ يخبره فيه بقراره «العثمانية» في مصر، لتخلق لدى الإمام عليّ شكاً في واليه دفعه إلى عزله من قبيل الاحتياط. في تلك الظروف لم يكن أمام عليّ من سبيل آخر سوى عزل قيس بن سعد من منصبه، لأن تلك كانت الطريقة الوحيدة للتأكد من إخلاصه. فإذا نفذ قيس قرار العزل وأطاع علياً فمتدها فقط تكون الأخبار عنه كاذبة، وأما إذا أعلن رفضه لقرار الخليفة وتمسك بمنصبه فتكون الإشاعات صحيحة ويكون عليّ أن يتصرف بناء على ذلك. ولم يكن ممكناً أن يُقي عليّ قيساً في منصبه المهم جداً مع شكه فيه، ذلك الشك الذي تعزز مع إصرار قيس على رفض مناجزة العثمانية وتصميمه على قرار المواجهة⁽²⁾.

ثالثاً: محمد بن أبي بكر⁽³⁾ يفشل في مهمته

لم ينجح محمد بن أبي بكر في السيطرة على الأوضاع في مصر. ولم يكن يمتلك الخبرة الكافية لإدارة شؤونها على النحو الأمثل. ويدو أنه كان في طبعه وأسلوبه حدة في التعامل مع بقايا عهد عثمان، لم يمكث محمد بن أبي بكر إلا يسيراً حتى بعث إلى أولئك القوم المعتزلين الذين كان قيس وأدقهم فقال لهم: إما أن تبايعوا وادخلوا في طاعتنا، وإما أن ترحلوا عنا⁽⁴⁾

دفع ذلك «العثمانية» في مصر إلى تنظيم أنفسهم على شكل معارضة فعالة، وكانوا بشكل خاص من القبائل اليمانية. ولا بد من ملاحظة أن التحدي

(1) وكان عبد الله بن جعفر أعمام محمد بن أبي بكر لأمه. وربما ذلك هو السبب في حمايته له ومحاولة دفع عنه عليّ لتعيينه.

(2) ومما يجب أن يستدل بقيس بن سعد وفلاؤه المستمر والمتواصل لإمامه عليّ على الرغم من قرار العزل. فهو عاد إليه وانضم إلى صفوفه وكان له دور بارز في صفين وما بعدها.

(3) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري (ج 3 ص 167)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 6 ص 82)، تاريخ الخلفاء (ج 2 ص 194)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 350).

(4) أنساب الأشراف للبلاذري.

الحقيقي ويدء المواجهة الفعلية من قبل «العثمانية» في مصر لسلطة محمد تجلّت بعد انتهاء معركة صفين، وما تبعها من مهزلة التحكيم. يضيف البلاذري «فامتصوا وأخذوا حذرهم وكانوا له هائيين. حتى أتى غير الحكمين فاجتروا عليه ونابلهوه». فقد علموا أن أعداء عليّ قد صمدوا في المواجهة وأعطاهم ذلك دفعاّ معنويا كبيرا ولا شك:

«فبعث ابن جهمان البلوي إلى يزيد بن الحرث الكتاني ومن قبله من أهل القرية التي كان بها، فقاتلوه فقتلوه. فبعث إليهم ابن أبي بكر رجلاً من كلب فقتلوه أيضاً»

ويدأ «العثمانية» في التعامل الإيجابي مع حليفهم الموضوعي في الشام، معاوية. نتابع رواية البلاذري:

«وخرج معاوية بن حديج الكندي ثم السكوني فدعا إلى الطلب بدم عثمان، وذلك أن معاوية دس إليه في ذلك وكتبه فيما يقال وأرغبه. فأجاب ابن حديج بشر كثير. وفسدت مصر على ابن أبي بكر».

إذن اضطربت الأحوال بابن أبي بكر وشعر أن الأمور تسير في غير صالحه مما دفعه إلى مرأسلة الخليفة في العراق يطلب منه العون:

«وبلغ علياً ضعف محمد بن أبي بكر ومالأة البياتية معاوية وعمر بن العاص، فقال: ما أوتي محمد من حرص. ووجه مالك بن الحارث الأشتر إلى مصر..... فلما بلغ معاوية أن علياً قد وجه الأشتر عظم عليه، وعلم أن أهل اليمن أسرع إلى الأشتر منهم إلى كل أحد»⁽¹⁾

إن قيام الإمام عليّ بتعيين مالك الأشتر⁽²⁾ بديلاً لابن أبي بكر يشير بوضوح إلى مدى الاهتمام من طرفه بالمحافظة على مصر وحرصه على عدم سقوطها

(1) تاريخ الخلفاء

(2) ويشتهر في المصادر ما يُعرف بمحمد الإمام عليّ لمالك الأشتر حين ولأه مصر، وهو رسالة طويلة عظيمة وشهرة في روحها وكمالها. وقد رأيت أن أثبت هذا الخطاب، أو كتاب التكليف، كما ورد في نهج البلاغة، لما به من فائدة ولقرائنه وتميزه، وجعلته كملحق في نهاية هذا الكتاب.

بيد أعدائه. فعليّ كان يعتبر مالك الأشتر من أخلص الرجال له الذين يعتمد عليهم في إدارته وحكمه، وكان يفضل دائماً وجوده إلى جانبه. وحسب تعبير عليّ في كتابه لأهل مصر بهذا الشأن فهو «أكثرهم به على نفسه»، وحسب رواية اليعقوبي أن علياً كتب لأهل مصر «إني بشت اليكم سيفاً من سيف الله، لا نأبى الفسرية ولا كليل الحد، فإن استقركم فأنفروا وإن أمركم بالمقام فأقيموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمرى»

قال البلاذري أنه في ذلك الوقت كان الأشتر يشغل منصب والي الجزيرة لعليّ، ومقرّه نصيبين، فكذب اليه عليّ «فكذبك ممن استظهر به على إقامة الدين، وأقمع بياسه ونجسته نخوة الأئيم، وأسدّ به ويحزم رأيه الثغر المخوف».

وأخبره بأمر ابن أبي بكر، وشرحه له، وأمره أن يستخلف على عمله بعض ثقاته ويقدم عليه. فعلى، فوّاه مصر.

ولكن هل كان عليّ أن يفعل أكثر من ذلك؟ ألم يكن واجباً عليه إرسال جيشي لإنقاذ مصر من السقوط؟

يبدو أنه فكر بذلك ولكنه اصطدم بعقبات لها علاقة بالمشاكل الداخلية لديه في العراق، بالإضافة إلى أمور موضوعية تتعلق بصعوبة إرسال جيش كبير يخترق بلاد الشام ليصل إلى مصر. وعلى كل حال فالمصادر تخبرنا أن علياً أرسل بالفعل جيشاً إلى مصر، ولكن بعد فوات الاوان، بعد أن مات الأشتر وقتل محمد بن أبي بكر. روى ابن كثير في البداية والنهاية أن علياً قد أرسل بالفعل نجدة إلى محمد ولكنه أرجعهم بعد أن بلغته الأخبار «... فقام اليه مالك بن كعب الأوسي، فغضب الناس إلى امتثال أمر علي والسمع والطاعة. فانتدب ألفاً، فأمر عليهم مالك بن كعب هذا، فسار بهم خمساً. ثم قدم على علي جماعة ممن كان مع محمد بن أبي بكر بمصر، فأخبروه كيف وقع الأمر وكيف قتل محمد بن أبي بكر، وكيف استقر أمر عمرو بها. فبعث إلى مالك بن كعب فرقه من الطريق - وذلك أنه خشي عليهم من أهل الشام قبل وصولهم إلى مصر»



والرسائل المتبادلة بين معاوية في الشام وبين أعداء محمد بن أبي بكر في مصر، تظهر بوضوح أن العثمانية كانوا حتى ذلك الوقت لا يدينون بالولاء لمعاوية، بل كانوا يرون أنفسهم أولياء للذكرى الخليفة «المظلوم» وراثته. وقد أحسن معاوية التعامل معهم، وقبلوا هم عرضه لمساعدتهم ضد محمد، لحاجتهم لذلك:

كتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج «فإن الله عز وجل قد ابتعثكما لأمر عظيم. أعظم به أجركما ورفع درجتكما ومرتبتكما في المسلمين.

طلبنا بدم الخليفة المظلوم. وغضبنا لله إذ ترك حكم الكتاب. وجاهدنا أهل الظلم والعدوان. فأبشروا برضوان الله وعاجل نصرة أولياءه الله والمواساة لكما في دار الدنيا، وسلطاننا، حتى ينتهي ذلك إلى ما يرضيكما ويؤدي به حقكما.

فالزما أمركما وجاهدنا عدوكما وادعوا الملبين منكما على هداكما. فكان الجيش قد أغل علىكما، فاندفع كل ما تكرهان ودام كل ما تهويان. والسلام عليكم ورحمة الله» وكان الجواب:

«أما بعد. فإن هذا الأمر الذي قد تدبنا له أنفسنا، وابتغينا الله به على عدونا، أمر نرجو به ثواب ربنا والنصر على من خالفنا، وتعجيل النعمة على من سعى على إيماننا، وطأطأ الركض في مهادنا.

ونحن بهذه الأرض قد نصينا من كان بها من أهل البغي، وأنهضنا من كان بها من أهل القسط والعدل.

وقد ذكرت موازرتك في سلطانك وفات يدك. وبالله إنه لا من أجل مال نهضنا ولا إياه أردنا....

عجل علينا ببخيلك ورجلك، فإن عدونا قد كان علينا جريئاً وكنا فيهم قليلاً. وقد أصبحوا لنا هائين وأصبحنا لهم متابدين.

فإن يأتنا مدد من قبلك يفتح الله عليك»⁽¹⁾

فهؤلاء إذن يرحبون بالعون والمدد من معاوية ولكنهم يفعلون ذلك لحاجتهم للإستواء به على ابن أبي بكر وليس حباً بمعاوية. فالعثمانية موجودون في مصر لأسباب لا علاقة لها بمعاوية، ولم يكونوا تاجاً لمخططاته. وإنما هو يستفيد منهم بذلكاء، ويجرهم إلى مصكره.

معاوية يتخلص من الأشتر⁽²⁾

كان لمعاوية جهاز مخابرات فعال، يشبه انظمة المخابرات الحديثة من حيث التنظيم والتخصص في اعمال التجسس والمراقبة. وطبعا كان جهازه ينقل له أخبار العراق ومصكر عليّ أولاً بأول. فلما قرر الإمام عليّ إرسال مالك الأشتر إلى مصر، أبلغه جواسيسه بالخبر فوراً، وعلى حد تعبير الطبري «وأتت معاوية عيونه فأخبروه بولاية عليّ الأشتر».

وكان هذا خبراً سيئاً لمعاوية، لأنه يعرف مدى شدة مالك الأشتر ومدى خبرته التنظيمية والقتالية والميدانية أيضاً. ولا يُقارن مالك الأشتر بمحمد بن أبي بكر، الشاب اليافع، وقليل الخبرة، والمتحمس. ولذلك قرر معاوية أن يحاول التخلص من الأشتر بأي وسيلة قبل وصوله إلى مصر ودخولها، الذي كان من شأنه ربما أن يقلب خطط معاوية وابن العاص رأساً على عقب. فلجأ هنا إلى أيضا إلى أسلوب الرشوة والتآمر وشراء الذمم. رسم خطة محكمة تعتمد على الغدر بالأشتر من حيث لا يتوقع!

فحتى تلك اللحظة لم يكن أهل البلاد الأصليين يتدخلون فيما يحدث من خلافات بين السادة العرب الفاتحين. كان أقباط مصر بكنلتهم معزولين عن التجمعات العربية، ذات الطابع العسكري في الغالب، والأخذة بالازدياد

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4 ص 71-72)، كتاب القات لابن حبان (ج 2 ص 298)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج 3 ص 168)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 6 ص 74-76)، تاريخ الطبري (ج 2 ص 194)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 347)، تاريخ ابن خلدون (ج 2 ق 2 ص 181).

في مصر، وكان دورهم مقتصرأ على أداء الجزية والخراج للحكام العرب. وهنا قام معاوية بخطوة غير تقليدية حين أرسل إلى أحد الوجهاء المحليين في مصر، والمسمى الجايستار، عارضأ عليه أن يضطلع بالدور الرئيسي في مؤامرة اغتيال الأشر، مقابل أن يعفيه من الضرائب والخراج في المستقبل «بعث معاوية إلى الجايستار، رجل من أهل الخراج، فقال له: إن الأشر قد ولي مصر، فإن أنت كفتيه لم آخذ منك غراجأ ما بقيت. فاحتل له بما قدرت عليه»⁽¹⁾.

ولم يقاوم الجايستار هذا الإغراء الكبير وقبل القيام بالدور. والخطة تتلخص في أن يذهب الجايستار هذا إلى منطقة في بداية الحدود المصرية تدعى «القلزم»⁽²⁾ من أجل استقبال والي الخليفة الجديد أول دخوله البلاد. وفعلأ قام الجايستار هذا بالترحيب الشديد بالأشر حين وصوله. ولم تثر شكوك الأشر لأن هذا سلوك معتاد من قبل أهل البلاد الأصليين المياليين إلى الموادعة، فقبل أن يستضيفه الجايستار وأكل من طعامه، ولم يكد يدخله أن السُم قد مزج في العسل الذي قدمه الدهقان له!

قال البلاذري: «استقبله الرجل فأنزله وأكرمه وأتاه بطعام. فلما أكل قال له: أي الشراب أحب إليك ايها الأمير؟ قال: العسل. فأتاه بشرية منه قد جعل فيها سمأ. فلما شربها قتله من يومه أو من غده»

ويكاد يكون هناك اجماع في المصادر على قصة تسميم الأشر. وقد ذكرها بالاضافة الى الطبري والبلاذري كل من ابن حبان في كتاب الثقات واليعقوبي في تاريخه، وغيرهما.

ولكن هناك من بين المصادر الاسلامية اثنان وجدتهما لا يصدقان بقصة التسميم. الاول هو ابن خلدون، حيث قال في تاريخه «وجاء الأشر فنزل على صاحب الخراج بالقلزم فعات هنالك. وقيل إن معاوية بعث الى

(1) تاريخ الطبري. وقرئ من ذلك رواه ابن حبان في كتاب «الثقات»
(2) مكان قريب من مدينة السويس الحالية في مصر. وقال اليعقوبي أن فبر مالك الأشر موجود بها.

صاحب القلزم فسّمه على أن يُسقط عنه الخراج، وهذا بعيد. ورغم أن ابن خلدون لم يشرح سبب عدم تصديقه لرواية التسميم، إلا أن له عندي مكانة عالية، ورأيه مُعتبر، فهو المؤرخ العقلاني العملاق، وربما يعود رأيه هذا إلى نزعة العقلانية التي لا تتقبل كثيراً فكرة المؤامرات الخفية. والثاني هو ابن كثير، الأموي الهوي، الذي أعلن شكّه في الرواية، وعبر عن ذلك بقوله «وفي هذا نظراً». قال في البداية والنهاية أن علياً لما أرسل الأشتر إلى مصر «فلما سار الأشتر إليها وانتهى إلى القلزم، استقبله الخانसार وهو مقدم على الخراج، فقدم إليه طعاماً وسقاه شراباً من عسل فمات منه.

فلما بلغ ذلك معاوية وعمرأ وأهل الشام قالوا: إن لله جنوداً من عسل. وقد ذكر ابن جرير في تاريخه أن معاوية كان قد تقدم إلى هذا الرجل في أن يحتال على الأشتر ليقتله، ووعدّه على ذلك بأمر، ففعل ذلك. وفي هذا نظراً. ويتقدّر صحته فمعاوية يستجيز قتل الأشتر لأنه من قتل عثمان رضي الله عنه»

ومن الواضح هنا أن تشكك ابن كثير في رواية تسميم الأشتر مرّة حسن الظن بمعاوية، لا غير.

والعلامة ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ذكر بشأن وفاة الأشتر عدة روايات:

واحدة عن المدائني، وفيها أن معاوية طلب من أحد أهل الخراج الذين يتقرب بهم في منطقة القلزم أن يحتال لقتل الأشتر مقابل وعد بإعفائه من الخراج «ما بقيت» و«بقيت»، وأنه نفذ ذلك عن طريق دعوة الأشتر للإقامة والاستراحة عنده ودس السم له في العسل.

وأخرى عن الشعبي تقول أن معاوية «بعث رسولا يتجسس على الأشتر إلى مصر وأمره باغتاله. فحمل معه مزودين فيهما شراب، وصحب الأشتر. فاستسقى الأشتر يوماً فسقاه من أحدهما. ثم استسقى يوماً آخر منه فسقاه من الآخر، وفيه سم فشره»

وثالثة عن مغيرة الضبي «ان معاوية دس للأشتر مولى لآل عمر - فلم يزل المولى يذكر للأشتر فضل علي وبني هاشم، حتى اطمأن إليه واستأنس به. فقدم الأشتر يوماً ثقله أو تقدم ثقله فاستسقى ماء فقال له مولى عمر: وهل لك في شرية سويق؟ فسقاه شرية سويق فيها سم فمات.»

واضاف ابن ابي الحديد «قال ابراهيم (بن سعد الثقفي): وقد روي من بعض الرجوة ان الأشتر قتل بمصر بعد قتال شديد.

والصحيح انه سقى سمًا فمات قبل ان يبلغ مصر»

إذن «ان لله جنوداً من صلل» كانت ردة فعل معاوية على اخبار وفاة الأشتر. وقد عبر عن سروره الشديد للخلاص من الأشتر بقوله «لأنه كانت لعلي بن ابي طالب يمان يمينان، قطعت احدهما يوم صفين، يعني صمار بن ياسر، وقطعت الاخرى اليوم، يعني الأشتر»⁽¹⁾

وأما ردة فعل علي، فكانت الحزن على فقدان الأشتر الى حد الفجعة «قال علي: على مثلك فلتبكي البواكي يا مالك، وآتى مثل مالك»⁽²⁾

استطرد بشأن مبالغات بعض الرواة بشأن القتل بالتسميم

ويبدو ان لجوء عميل معاوية المصري الى التخلص من الأشتر عن طريق السم قد فتح شهية العديد من الرواة وشجعهم على تطوير نظريات بشأن وفاة العديد من الشخصيات بواسطة سم معاوية. وهناك مبالغات ظاهرة في الروايات الى حد أن الذين ذُكِرَ ان معاوية سممهم كان من بينهم رجال من أعمدة نظام معاوية وأقربائه ودعائم حكمه، وليس فقط أعداؤه وأنصار علي وأهل بيته.

والمشكلة في موضوع الاغتتيال بالسم هذا أنه لا يمكن إثباته أبداً ا فنياب التشخيص الطبي العلمي الحديث، يكفي أن يموت شخص فجأة أو بسرعة حتى يقال انه قد تعرّض للتسميم، خاصة إذا كان له شأن ما مع معاوية.

(1) تاريخ الطبري .

(2) تاريخ يعقوبي.

والسامع قد يميل إلى قبول تلك الرواية خاصة مع ما هو معروف عن معاوية من دهاء ومكر.

والحقيقة أن الموت «فجأة» أو خلال أيام معدودات في ذلك الزمان لا ينفي إمكانية أن الميت كان مصاباً بمرض داخلي خبيث أو عضال لم يشخصه أحد أو يعلم عنه، أو أزمة قلبية أو سكتة دماغية أو نوبة ضغط، إلى غير ذلك من الأمراض الكثيرة التي نعلم عنها اليوم ما يكن معروفاً آنذاك.

وكمثال على تلك المبالغات يمكن الرجوع إلى كتاب جواهر التاريخ (ج 2 ص 320-329) للشيخ اللبناني علي الكوراني العاملي. فهو يقول:

نقلًا عن مقاتل الطالبين «وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد، فلم يكن شئ»
«انقل من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص، فدس إليهما سماً فماتا منه»

وينقل عن البلاذري والعسكري وابن عساكر وابن حبيب أن معاوية قتل
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بالسّم بواسطة طيِّبه الرومي ابن أثال، وذلك
بسبب أن أهل الشام قالوا له أنهم يرونه أهلاً لخلافته!

وهو يتحدث عن معارضة عبد الرحمن بن أبي بكر لتعيين يزيد ولياً
للعهد، ويشير إلى وفاته الفجائية، ثم يستتج أن معاوية سمّه!

وهو يضع عنواناً «هل قتل معاوية عائشة بنت أبي بكر؟» يتكلم فيه
على مدى خمس صفحات عن خلافات عائشة مع معاوية في أواخر عهده،
ليخلص إلى أن معاوية قد تخلص منها عن طريق «مجموعته المتخصصة في
السّم، بإدارة طيِّب يهودي».

ويضع عنواناً آخر «هلك زياد بن أبيه بدعاء الامام الحسين وسمّ معاوية»
ويشرح فيه أن زياداً عارض تعيين يزيد ولياً للعهد لما استشاره معاوية الذي
عندها «أصدر أمره إلى مجموعة الاغتيال بالتخلص منه».

ولم يكتفِ الشيخ الكوراني بكل هؤلاء الذين اجتهد في البحث عن
بعض النصوص التي تدعم نظرية تسميمهم، فاضاف «ومن نظن أنه قتلهم»:

عبد الله بن عامر بن كريز، الذي مات «قبيل مبايعة يزيد بولاية العهد»
ويقول عنه «عله كان يطمع بالخلافة»

سعيد بن العاص الاموي «تقد كان طامعاً بالخلافة ويرى نفسه أحق من معاوية لمكان جده في بني امية»

محمد بن مسلمة الانصاري «الذي اعترض على معاوية في مجلسه لأنه سكت على اتهام الحاخام يامين للنبي (ص) بأنه غدر بصاحبه كعب بن الاشرف»

ولا داعي للاستيراد في نقض نظريات التسميم هذه، والتي في أحسن الاحوال لا تعدو كونها ناتجة عن «الظن» ليس إلا. فالموت سباً أمراً لا يمكن اثباته ولا نفيه. وحتى وجود روايات تتحدث عن دس سم لفلان من الناس لا يمكن أخذه دليلاً على حصول ذلك.

عمرو بن العاص يعود الى مصر من جديد⁽¹⁾

أصبحت الأجواء الآن مهينة أمام معاوية لتحقيق هدفه الاستراتيجي بالسيطرة على مصر. فعقد اجتماعاً مع قادته المقربين⁽²⁾ واتفقوا على إرسال حملة عسكرية الى مصر بعد ترتيب الامور والتنسيق مع العشمانية فيها. وطبعاً لم يجد معاوية أفضل من عمرو بن العاص لكي يمهّد إليه بقيادة الحملة المصرية، فهو صاحب الخبرة الطويلة جداً في الشؤون المصرية، وقد سبق له أن انتصحها وحكمها لعدة سنوات أيام عمر. وغدت الفرصة سانحة أمام ابن العاص لكي يحقق حلمه الذي لم يفارقه: العودة إلى حكم مصر.

تقدم عمرو بن العاص إلى مصر في جيش لجب من ستة آلاف. ولما اقترب منها كتب إلى محمد بن أبي بكر يأمره بالتخلي والتخلي عن ولاية مصر.

(1) مصادر هذا البحث: البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 348)، انساب الاشراف للبلاذري (ج 3 ص 170)، تاريخ الخطوب (ج 2 ص 194)، لكامل في التاريخ لابن الاثير (ص 450).

(2) ذكر ابن الاثير في الكامل اسماءهم: عمرو بن العاص / حبيب بن مسلمة / بسر بن أرطاة / الضحاك بن قيس / عبد الرحمن بن خالد بن الوليد / أبو الاحود السلمي / شرحبيل بن السمط الكتندي.

قال ابن كثير في البداية والنهاية «وكتب عمرو بن العاص الى محمد بن ابي بكر: أما بعد، فتتخأ فإني لا أحب أن يصيبك مني غفر، فإن الناس قد اجتمعوا بهذه البلاد على خلافك ورفض أمرك، ونعموا على اتباعك. فهم مسلموك لو قد التقت حلفتا البطان. فأخرج منها فإني لك لمن الناصحين. والسلام».

ويبعث اليه عمرو ايضا بكتاب معاوية اليه: أما بعد، فإن غيب البني والظلم عظيم الويال. وإن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقرة في الدنيا والتبعة الموقعة في الآخرة. ولنا لا نعلم أحداً كان أشد خلافاً على عثمان منك حين تطعن بمشاقصك بين خشاشه وأوداجه. ثم أنك تظن أنني منك نائم، أو ناسي ذلك لك، حتى تأتي فتأمر على بلاد أنت بها جاري وجل أهلها أنصاري. وقد بعثت إليك بجيوش يقربون الى الله بجهدك، ولن يسلمك الله من القصاص اينما كنت. والسلام»⁽¹⁾

رفض ابن ابي بكر التهديد وأمر الاستسلام الصادر من ابن العاص، وصمم على القتال بمن معه من المقاتلين الموالين له. وقبل ذلك كان قد كتب الى علي بالكوفة يخبره بالتطورات ويقدم جيش عمرو بن العاص ويطلب منه العون ويشكو ضعف قواته وجماعته فإن كانت لك بمصر حاجة فأمدني بالأموال والرجال. فرد عليه علي «بأمره بالتحرز والاحتراس، وإذكاء العيون، وجمع شيعته اليه، وأن يتلب كنانة بن بشر - وهو الذي ضرب عثمان بن عفان بعمود على رأسه - الى عدوه، ويعلمه أنه باعث اليه بالرجال على كل صعب وذلول»⁽²⁾

ويعد أن فقد ابن ابي بكر التأييد العام من مقاتلة مصر بسبب الحرب النفسية الهائلة التي شنها معاوية وحملة التهريب التي نقلها ابن العاص،

(1) وسبب حرصه على عدم السماح برواية ما يسيء الى معاوية، تجنب ابن كثير، الأموي الهوي، ذكر جواب محمد بن ابي بكر لكتابي عمرو ومعاوية فقال «وكتب محمد بن ابي بكر الى معاوية في جواب ما قال، وفيه غلظة. وكذلك كتب الى عمرو بن العاص، ولله كلام غليل»

(2) انساب الأشراف للبلخاري. ويضيف البلخاري ان علياً أرسل جيشاً صغيراً بقيادة كعب بن مالك الهمداني الى مصر ولكنه رجع من الطريق بعد أن بلسته اشبار مقتل ابن ابي بكر.

أصبح جلّ اعتماده على قاعدته الصلبة من المؤيدين الذين كان لهم باعٌ طويل في معاداة عثمان بن عفان، وشاركوا في التمرد عليه وسامعوا في قتله، وعلى رأسهم كنانة بن بشر السكوني.

ومن الجهة المقابلة، انضم «العثمانية» القدماء في مصر إلى ابن العاص في حملته، وكانوا بقيادة فعالة من معاوية بن حديج، السكوني أيضاً، والذي هو من نفس قبيلة كنانة بن بشر.

وحصلت معركة طاحنة بين الفريقين. فكان جماعة محمد ابن أبي بكر وكنانة بن بشر، يدركون أن الجيش الشامي لن يرحمهم بعد كل الذي جرى من أحداث، خاصة وأن ابن أبي بكر وكنانة، كانا من الأشخاص المتهمين مباشرة بقتل عثمان. وكان القتال شديداً بين جيش من حوالي أربعة آلاف وآخر من ستة آلاف. وحسب تعبير اليعقوبي «فلقيهم محمد بن أبي بكر في موضع يقال له: المسناة، فحاربهم محاربة شديدة. وكان عمرو يقول: ما رأيتُ مثل يوم المسناة. وقد كان محمد استلتم إلى اليمانية، فماتَ عمرو بن العاص اليمانية»

النهاية الشنيعة لابن أبي بكر⁽¹⁾

وأورد الطبري مزيداً من التفاصيل حول القتال:

«واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدمة محمد.

فأقبل عمرو نحو كنانة، فلما دنا من كنانة سَرَّحَ الكتائبَ كتيبة بعد كتيبة. فجعل كنانة لا تأتيه كتيبة من كتائب أهل الشام إلا شَدَّ عليها بمن معه فيضربها حتى يقرىها بعمرو بن العاص. ففعل ذلك مراراً.

فلما رأى ذلك عمرو بعث إلى معاوية بن حديج السكوني، فأتاه في مثل الدهم فأحاط بكنانة وأصحابه. واجتمع أهل الشام عليهم من كل جانب.

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4 ص 79 وص 82). التاريخ الصغير للامام البخاري (ج 1 ص 104). كتاب الثقات لابن حبان (ج 2 ص 297)، تاريخ الاسلام للذهبي (ج 3 ص 601)، تاريخ ابن خلدون (ج 2 ق 2 ص 182)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 349) الاستيعاب لابن عبد البر (ص 647)، نهج البلاغة، بشرح محمد عبده (ج 3 ص 350 وج 1 ص 89)، تاريخ اليعقوبي (ج 2 ص 94).

فلما رأى ذلك كنانة بن بشره نزل عن فرسه ونزل أصحابه وكنانة يقول
(وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً. ومن يرد ثواب الدنيا نؤته
منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين). فصارهم يسفه
حتى أشهد رحمه الله.

وأقبل عمرو بن العاص نحو محمد بن أبي بكر وقد تفرق عنه أصحابه
لما بلغهم قتل كنانة حتى بقي وما معه أحد من أصحابه.

فلما رأى ذلك محمد خرج يمشي في الطريق حتى انتهى إلى خربة في
ناحية الطريق فأوى إليها.

وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط وخرج معاوية بن حديج
في طلب محمد حتى انتهى إلى علوج في قارة الطريق. فسألهم: هل مر بكم
أحد تنكرونه؟

فقال أحدهم: لا والله. إلا أنني دخلت تلك الخربة فإذا أنا برجل فيها
جالس.

فقال ابن حديج: هو ورب الكعبة!

فانطلقوا يركضون حتى دخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً.
فأقبلوا به نحو فسطاط مصر.

ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص، وكان في
جندته، فقال: أقتل أخي صبراً؟ ابعث إلى معاوية (ابن حديج) فأنقه.

فبعث إليه عمرو بن العاص يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر.

فقال معاوية: أكنفك قتلتم كنانة بن بشره، وأخلي أنا عن محمد بن أبي
بكر؟ هيهات. أكنفركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزير؟

.....قال له معاوية: أتتري ما أصنع بك؟ أدخلك في جوف حمار ثم
أحرقه عليك بالنار.

فقال له محمد: إن فعلتم بي ذلك فطالما فعل ذلك في أولياء الله.

وإني لأرجو هذه النار التي تحرقني بها أن يجعلها الله عليّ برداً وسلاماً كما جعلها على خليله إبراهيم وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وأوليائه. إن الله يحرقك وتمن ذكرته قبل (يعني عثمان)، وإمامك (يعني معاوية)، وهذا (وأشار إلى عمرو بن العاص) بنار تلظى عليكم كلما خبت زادها الله سعيراً.

قال له معاوية: إني إنما أقتلك بعثمان .

فقال محمد: وما أنت وعثمان؟ إن عثمان عمل بالجور ونيل حكم القرآن. وقد قال الله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) فنقمنا ذلك عليه فقتلناه، وحسنت أنت له ذلك ونظرنا لك. فقد برأنا الله إن شاء الله تعالى من ذنبه، وأنت شريكه في إثمه وعظم ذنبه، وجاعلك على مثاله.

فغضب معاوية فقدمه فقتله ثم ألقاه في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار^(١).

وقد اشتهرت هذه الحادثة، التمثيل بجثة محمد بن أبي بكر وحرقة داخل حمار ميت، لفردتها وبشاعتها^(٢). فذكرتها معظم المصادر، إن لم يكن كلها. قال الذهبي في تاريخ الإسلام أن معاوية بن حديج لما ألقى القبض على محمد «فقتله ثم جعله في بطن حمار وأحرقه». وفي تاريخ ابن خلدون «وطلب محمد الماء فمتحه ابن حديج جزاء بما فعل بعثمان ثم أحرقه في جوف حمار بعد أن لعنه ودعا عليه وعلى معاوية وعمرو». وذكر الإمام البخاري في التاريخ الصغير عن الحسن قال «لم يدع الله الفسقة، قتلة عثمان، حتى قتلهم بكل أرض»^(٣). فأما ابن أبي بكر فصرحت عتقه ثم جعل بدنه في مسك حمار ثم أحرق بالنار^(٤) وروى ابن عبد البر في الاستيعاب أنه لما سار عمرو بن العاص إلى مصر «فانهزم محمد بن أبي بكر، فدخل في خربة فيها حمار ميت، فدخل

(١) رغم أن هناك رواية ثانية تقول أنه تم أسر محمد بن أبي بكر وإرساله إلى عمرو بن العاص الذي أمر بإعدامه (قتله صبراً). مثلاً وروى ابن عبد البر في الاستيعاب فيقال: أنه أتى به عمرو بن العاص، فقتله صبراً. روى شعبة وابن عينة عن عمرو بن دينار قال: أتى عمرو بن العاص بمحمد بن أبي بكر أسيراً فقال: هل معك عهد؟ هل معك عهد من أحد؟ قال: لا. فأمر به فقتل.

(٢) وينبغي ملاحظة نبرة التشفي في كلام البخاري.

في جوفه، فأحرق في جوف الحمار. وقيل: بل قتله معاوية بن خديج في المعركة، ثم أحرق في جوف الحمار بعد.

وأما ابن كثير في البداية والنهاية فقد أخرج نفس هذه الرواية في أجمالها، ولكنه شذّبها بما ينسجم مع نزعة الأموية وبالتحديد قام ابن كثير بحلف تفاصيل كلام محمد بشأن عثمان ومعاوية وعمرو بن العاص وقدمه بهم. فقال عن ذلك هو قد ذكر ابن جرير وغيره أن محمد بن أبي بكر نال من معاوية بن خديج هذا ومن عمرو بن العاص ومن معاوية ومن عثمان بن عفان أيضاً، فعند ذلك غضب معاوية بن خديج فقدمه فقتله، ثم جعله في جيفة حمار فأحرقه بالنار.

ويلاحظ أن ابن كثير قد اعترف بحادثة حرق جسد محمد في جيفة حمار، رغم بشاعتها. ومن ملاحظة منهاجه واسلوبه، لو كان في تلك الحادثة أدنى شك لنفاها أو لشكك بها، أن وجد لذلك سبيلاً.



وقد كان خبر مقتل محمد بن أبي بكر مؤلماً جداً للإمام علي، فقال: «.. فإن مصر قد انتحيت ومحمد بن أبي بكر رحمه الله قد استشهد. فعند الله نحسبه ولداً ناصحاً وعاملاً كادحاً وسيفاً قاطعاً وركناً دافعاً..»⁽¹⁾

وقال في منامة أخرى عنه: «.. ولقد كان إليّ حياً وكان لي ريباً»⁽²⁾ وروى الطبري «وحزن عليّ على محمد بن أبي بكر حتى روي ذلك في وجهه وتبين فيه.

وقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله (ص) وقال: ألا إن مصر قد انتحيت الفجرة أولوا الجور والظلم الذين صدوا عن سبيل الله وبقوا الإسلام هرجاً.

ألا وإن محمد بن أبي بكر قد استشهد رحمه الله، فعند الله نحسبه. أما والله إن كان ما علمتُ لمن ينظر القضاء ويعملُ للجزاء ويُغض شكل الفاجر ويحب هدى المؤمن.

وقال الجعفي: «تفجع عليه وقال: انه كان لي ولداً، ولولدي وولد أخي أخاً»

(1) نهج البلاقة، بشرح محمد عبده.

(2) نهج البلاقة، بشرح محمد عبده.

الفصل الثاني: الصراع على اليمن

وقويت شوكة أنصار عثمان و معاوية في كل مكان: **حَالُ الْيَمَنِ**⁽¹⁾

قال البلاذري «كان عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب -عامل عليّ على اليمن- اشتدّ على أهل صنعاء فيما يجب عليهم، وطرده قوماً من شيعة عثمان عنها. وكان سعيد بن نمران الهمداني على الجند فصنع مثل ذلك. فتجمعت العثمانية وأدعت أن الأمر قد أفضى إلى معاوية واجتمع الناس عليه» وروى ابن أبي الحديد «إن قوماً بصنعاء كانوا من شيعة عثمان، يعظمون قتله، لم يكن لهم نظام ولا رأس، فبايعوا عليّ عليه السلام على ما في أنفسهم، وعامل عليّ عليه السلام على صنعاء يومئذ عبيد الله بن عباس وعامله على الجند سعيد بن نمران. فلما اختلف الناس على عليّ عليه السلام بالعراق، وقتل محمد بن أبي بكر بمصر، وكثرت غارات أهل الشام، تكلموا ودعوا إلى الطلب بدم عثمان.

فبلغ ذلك عبيد الله بن عباس فأرسل إلى ناس من وجوههم فقال: ما هذا الذي بلغني عنكم؟

قالوا: إنا لم نزل ننكر قتل عثمان، ونرى مجاهدة من سعى عليه.

فحبسهم.

(1) مصادر هذا البحث: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 2 ص 5 وص 8-16)، انساب الاشراف للبلاذري (ج 3 ص 211)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 10 ص 153)، الكامل في التاريخ لابن الاثير (ص 459).

فكتبوا إلى من بالجند من أصحابهم، فثاروا بسعيد بن نمران، فأخرجوه من الجند، وأظهروا أمرهم. وخرج إليهم من كان بصنعاء وانضم إليهم كل من كان على رأيهم. ولحق بهم قوم لم يكونوا على رأيهم، أرادوا أن يمنعوا الصدقة

وبسبب تلك التطورات كتب عبيد الله بن عباس إلى علي:

«أما بعد: فلما نخب أمير المؤمنين عليه السلام أن شيعة عثمان وثبوا بنا، وأظهروا أن معاوية قد شيد أمره، واتسق له أكثر الناس.

وإن سرنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين ومن كان على طاعته. وإن ذلك أحشمهم وألبهم، فمبشونا، وداعوا علينا من كل أوب. ونصرهم علينا من لم يكن له رأي فيهم إرادة أن يمنع حق الله المفروض عليه.

وليس يمنعنا من مناجرتهم إلا انتظار أمر أمير المؤمنين»

فأرسل علي كتابين من العراق: الأول إلى عبيد الله وسعيد⁽¹⁾، يقرعهما فيه على تخاذلهما وسوء تدبيرهما، والآخر إلى المتمردين من أهل اليمن يطلب منهم الاستمرار بالطاعة والوفاء بالبيعة، ويحثهم بالعفو إن تراجعوا، وينفس الوقت يهددهم بإرسال جيش بقيادة يزيد بن قيس الأرحبي ليطحنهم إن هم أصروا على العصيان.

فكان رد فعل المتمردين أن أرسلوا إلى معاوية يسألونه المدد وقالوا له:

«معاويي إلا تسرع السير نحونا نبايع علياً أو يزيدَ اليماني»

وأضاف البلاذري أن معاوية استجاب لهم، فأرسل سقاحه المشهور

(1) ولاحقاً اعتزل سعيد بن نمران، الذي كان قائد الجند حينذاك، من الإمام علي عليه السلام ولائم عبيد الله بن عباس فيما حصل. فقد روى ابن أبي الحديد نص حوار بين الإمام علي وسعيد بن نمران اعتزل فيه الأخير عندما وبخه علي قائلاً: «قد والله قتلت، ولكن ابن عباس غلطني وأبى أن يقتل ولقد غلظت به حين دنا منا بسر فقلت إن ابن عمك لا يرضى مني ومنك بدون الجند في قتالهم. قال: لا والله ما لنا بهم طاعة ولا يدان. فظمت بالناس فحمدت الله ثم قلت: يا أهل اليمن من كان في طاعتنا وعليه يمة أمير المؤمنين عليه السلام فإلى إتي. فأجابني منهم جماعة فاستخدمت بهم فقاتلت قتالاً صليفاً وشرقت الناس عني واتصرفت».

بسر بن أرطاة في حملة عسكرية من 2600 جندي الى المدينة ومكة وقال له
«ثم امضي الى صنعاء فإن بها شيعة فانصرهم واستعن بهم على عمال علي
وأصحابه، فقد أثناني كتابهم. واقتل كل من كان في طاعة علي اذا امتنع من
بيعتنا، وخذ ما وجدت لهم من مال»

قال ابن عساكر بشأن هجوم بسر بن أرطاة على اليمن «ثم مشى إلى
اليمن وعليها يومئذ عبيد الله بن العباس عاملاً لعلي بن أبي طالب. فلما بلغ
عبيد الله أن بسرأ قد توجه إليه، حرب إلى علي واستخلف عبد الله بن عبد
المدان المرادي. وكانت عائشة بنت عبد الله المرادي قد ولدت من عبيد الله
غلامين من أحسن صبيان الناس وأرضاء وأنظفه. فلبسهما ذبحاً

فخرجت نسوة من بني كنانة فقالت منهن قائلة: «مُهم يا هذا! هذا الرجال
تلتُ فعلام تقتل الولدان ١٩ والله ما كانوا يقتلون في جاهلية ولا إسلام. والله
إن سلطاناً لا يقوم إلا يقتل الضرع الصغير والمدره الكبير ويرفع الرحمة،
وعقور الأرحام لسلطان سوء.

فقال لها بسر: والله لهما أن أضع فيكن السيف!

فقالت له: تالله إنها لأخت التي صنعت، وما أنا لها منك بأمة.

وكانت أمهما قد هامت بهما، وكادت تخالط في عقلها وكانت تشبهما
في الموسم في كل عام تقول:

ها من أحس بابني الذين هما كالذرتين تجلاً عنهما الصدفُ

ها من أحس بابني الذين هما سمعي وقلبي فقلبي اليوم مختطفُ

ها من أحس بابني الذين هما مُنح العظام فمخي اليوم مزدحفُ

حدثتُ بسرأ وما صدقتُ ما زعموا من قولهم ومن الإفك الذي وصفوا

أنحى على روعي ابني مُرهقة مشحونة وكذلك الإثم يُقترِفُ

من ذا لوالهة حترى مُفجعة على صبين غابا إذ مضى السلفُ^(١)

(١) أبيات الشعر هذه في رثاء الولدين مشهورة للغاية ومذكورة في كثير من المصادر،

وقد تدارك عليّ الموقف المتدهور في اليمن. فقام بإرسال جيش من أنفي فارس بقيادة جارية بن قدامة، فوصل اليمن وقام بمواساة الناس - الذين أثقل عليهم بسر فوثبوا به- وملاحقة ابن أوطاة الذي فر إلى الشام. وهرب شيعة عثمان إلى الجبال⁽¹⁾. وهكذا نجح في منع السقوط الكامل لليمن - ولو مؤقتاً - بيد معاوية.

استطرد بشأن جريمة بسر بن أوطاة في اليمن: قتل ولديّ عبيد الله بن عباس⁽²⁾

تحدثت معظم الروايات في مختلف المصادر عن الولدين الذين قتلتهما قائد قوات معاوية، بسر بن أوطاة، أثناء هجومه على اليمن، ذبحاً ويكل وحشية. والشعر الذائع الذي قالته أم الغلامين عاطفيّ ومؤثر ومن المستبعد أن يكون ملفقاً، ولذلك فالتشكيك في حصول واقعة ذبح الغلامين ليس في محله، خاصة مع ما هو معلوم بالضرورة من طابع ابن أوطاة. ولكنّ هناك ظلالاً من الشك حول هوية هذين الولدين، وهل هما حقاً ابنا عبيد الله بن العباس⁽³⁾ ١٩

فالمصادر ذاتها تحدثنا أيضاً أن عبيد الله بن عباس كان من قادة جيش الحسن بن عليّ في الكوفة سنة 41 عندما بويح بعد مقتل أبيه. وتقول المصادر أن عبيد الله بن عباس ارتكب فعل الخيانة في ذلك الوقت العصيب وانضم إلى معاوية⁽⁴⁾ فكيف يمكن صدور فعل الخيانة هذا من جانب عبيد الله بن العباس

باختلافات طفيفة. ومنها الكامل لابن الأثير الذي عَقِبَ « فلما سمع أمير المؤمنين يقتلها جزع جزعاً شديداً ودعا على بسر ».

(1) من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.
(2) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج 3 ص 213 و ص 216)، كتاب الفقات لابن حبان (ج 2 ص 300)، تاريخ الطبري (ج 2 ص 199)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 2 ص 5 و ص 8-16)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 37 ص 479 و ج 10 ص 153)، التاريخ الصغير للبخاري (ج 1 ص 11)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 356)، اسد الغابة لابن الأثير (ج 3 ص 340).

(3) من المصادر التي ذكرت أن الغلامين المقتولين هما ابنا عبيد الله بن العباس: الطبري وابن عساكر وابن حبان والبلاذري والبخاري وابن الأثير وغيرهم الكثير. والروايات تقول أن اسم الغلامين: عبد الرحمن وقثم.

(4) سأتني لاحقاً إلى تفاصيل ذلك عند الحديث عن صلح الحسن ومعاوية.

بالذات علماً بأن حادثة مقتل ولديه الجميلين على يد قوات معاوية حصلت قبل شهور قليلة فقط!!⁽¹⁾ فالمتوقع والطبيعي أن يكون عبيد الله بن العباس موتوراً وحاقداً على معاوية بشكل يفوق الآخرين. فكيف إذن يستجيب عبيد الله لدعوات واغراءات معاوية ؟ وكيف يأمل معاوية أصلاً في استمالة عبيد الله ؟ الأصل أن يكون يائساً منه وإن يدعه ويحاول مع غيره.

اذن هناك احتمالان لتفسير موقف الخيانة الذي صدر من عبيد الله بن عباس: فإما أن يكون قد وصل درجة من الانهيار النفسي والمعنوي والانهزام الداخلي تجاه معاوية تدفعه إلى الاستسلام اللامشروط للرجل المسؤول عن قتل ولديه.

وإما أن يكون الغلامان المقتولان على يد بسر بن أرطاة ليسا ابنيه. وهو ما نرجحه.

فربما يكون الغلامان ابنيين لمساعد عبيد الله الذي استخلفه ليدبر الشؤون ريثما يصل هو إلى الخليفة علي في الكوفة.

وهناك بالفعل روايات تتحدث عن قتل ابن أو أبناء لمساعد عبيد الله على يد بسر، رغم أنه في الأغلب يُذكر قتل هؤلاء إلى جانب قتل ابني عبيد الله - كجرمة اضافية. وهناك اسمان يترددان. الأول هو عمرو بن أراكة الثقفي. فمثلاً روى ابن أبي الحديد أن بسرأ لما وصل صنعاء، تصدى له عمرو بن أراكة الثقفي - الذي استخلفه عبيد الله بن عباس - إلى أن قتل. ثم أورد ابن أبي الحديد شعراً قاله عبد الله بن أراكة الثقفي في رثاء ابنه عمرو.

ولكن الاسم الأكثر تردداً هو عبد الله بن عبد المذان المرادي.

فمثلاً ذكر اليعقوبي في تاريخه أن الذي استخلفه عبيد الله كان عبد الله بن عبد المذان الحارثي⁽²⁾، وأن بسرأ قتله وقتل ابنه مالك.

(1) ابن كثير يذكر الاسم على النحو التالي فعبد الله بن عبد الله بن المفلح الحارثي، وأشار ابن كثير إلى تشككه في خبر قتل الغلامين المشهور هي صحته عندي نظر والله تعالى أعلم، ولكنه لم يوضح سبب شكه. والسبب واضح عندي وهو أن ابن كثير يميل دائماً إلى التهمين من جرائم الأمويين ويهتف بصفحة معاوية قدر الامكان.

وقد روى البلاذري في أنساب الأشراف روايتين بهذا الشأن: الأولى عن الجماعة «قالوا» وفيها أن الذي استخلفه عبيد الله - بعد أن هرب هو وسعيد - كان عبد الله بن عبد المدان الحارثي، وأن بسراً قتله وقتل ابنه مالك. والثانية عن الهيثم بن عدي وفيها أن الذي استخلفه عبيد الله على صنعاء كان عمرو بن أراكة الثقفي، وأن بسراً قتله، فرثاه أبوه بشعر عاطفي مؤثر.

كما أن هناك اختلافاً في الروايات حول اسم أم الغلامين: فهي تارة جويرة بنت قرظ الكنتاني⁽¹⁾ وتارة عائشة بنت عبد الله المرادي⁽²⁾.

وبعض الروايات تقول أن عبيد الله بن العباس عندما قرّ ترك ولديه عند أخوالهما من بني كنانة فقام بسراً بن أوطاة يقتلها هناك⁽³⁾.

وإن وجود البعض ممن قرر أن يقاوم غزوة قوات معاوية في اليمن يجعل من إمكانية لجوء بسراً بن أوطاة للنجح ابتائهم -انتقاماً- أمراً ممكناً ومرجحاً أكثر من قيامه بقتل ابني الولي المنهزم القار عبيد الله بن العباس. ولذلك كله فانا أرجح أن يكون قد حصل خلط لدى الرواة بشأن الغلامين المنبوحين فنسبوا لعبيد الله بن العباس شهرته.

وجديرٌ بالذكر أن الرواة قد وصفوا موقفاً حصل فيما بعد في بلاط معاوية ويحضرته، يجتمع فيه عبيد الله مع بسراً بن أوطاة، فينكر معاوية مسؤوليته عن قتل ابني عبيد الله ويقول له أنه لم يأمر بذلك ولم يعلم به. فيقول عبيد الله أنه لن يقتل بسراً بدم ابنه لأنه «أحقر وألأم من ذلك» وأنه لن يدرك ثأره إلا إذا أصاب ابني معاوية نفسه: يزيد وعبد الله! وتضيف الرواية أن معاوية ابتسم واحتمل ذلك من عبيد الله «شرفه وسودده». ولا يخفى ما في هذه الرواية من ضعف: فكيف ينقلب عبيد الله، الذي جبن وفر من واجب الدفاع عن ولايته في اليمن،

(1) ذكر ذلك كل من البعقوبي في تاريخه والبلاذري في أنساب الأشراف، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة.

(2) ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن حبان في كتاب الثقات.

(3) وقال البعقوبي أن بسراً قتل معهما وجلاً كنايةً أصر على الدفاع عنهما. وقال البلاذري أن بسراً كان حبسهما أياماً عند قوم أمهما من أجل أن يأتيه أبوهما قبل أن يلبسهما. وفي رواية لابن أبي الحديد أن ذلك حصل عند مرور بسراً على بني كنانة قرب الطائف، قبل وصوله إلى صنعاء.

ومن ثم خان إمامته وقائده الحسن، إلى مغوار يواجه معاوية بهمة عالية ويقرعه بعظيم الكلام؟ هذا الكلام لا يمكن ان يصدر عن أحد الرشوة من معاوية وقيل الدنية لنفسه. بل ان رواية البلاذري في أنساب الأشراف تلعب إلى أن بسراً ألقى سيفه على الأرض غضباً من كلام عبيد الله ووجه كلامه لمعاوية قائلاً له انه كان ينفذ أوامره، فأجابه معاوية محذراً «خذ سيفك فإنك ضعيف الرأي حين تلقي سيفاً بين يدي رجل من بني هاشم وقد قتلت ابنه»

وهناك رواية في تاريخ دمشق لابن عساكر تحدث عن دخول عبيد الله على معاوية وكلامه معه بشأن بسر. وتظهر في هذه الرواية بكل جلاء بصمات الرواة الوضّاعين: فالرواية كلها أشبه بأدب المساجلات والمفاخرات فهي لا تعبر عن حرقه أب لفقد ولديه على يد قتل مجرمين، بقدر ما تعبر عن حرص عبيد الله على إظهار مقدار فصاحته. فهو يقول لمعاوية انه يطالبه ان يقبضه من بسر الذي قتل ولديه ظلماً، ويسرد له مزاياه فتردد علمت قريش اني غير مش المشاة ولا مرئ المأكلة وان أولنا ساد أولكم وان آخرنا هدى آخركم ... وأيم الله لو اني لا تترك في الاسلام لما سألتك استفادة بسر ثم يبدأ بذكر أشعار لظهور فضل بني هاشم في قريش ... الخ فيرد عليه معاوية بالشعر أيضاً وعلى نفس الوزن معترفاً بفضله وفضل بني عبد المطلب. وأتخطف منها البيتين التاليين الذين يظهران معاوية مقرأً بفضل بني عبد المطلب!

أنت علمت قريشاً جودها أدب منك وللجود أدب

ليس تمر بك قريش كلها ان خير القوم عبد المطلب

والطريف ان الرواية ذاتها تقول ان معاوية وافق على طلب القود وقال لعبيد الله «ان بسراً قتل ابنك ظالماً لهما فاقتل ابنه بابنك، فدونك الرجل» ولكن الرواية لا تذكر ماذا فعل عبيد الله بسر بعد هذا التصريح من معاوية! وخلاصة البحث عندي أن الولدين الذين قتلتهما بسر بن أرطاة في صنعاء ليسا ابني عبيد الله بن العباس بل ابنا لثانيه عبد الله بن عبد المطلب المرادي⁽¹⁾ الذي استخلفه عندما هرب لدى سماحه بقرب وصول قوات معاوية.

(1) وأستبعد الاسم الثاني، عمرو بن لؤكة الغنوي، لأن قبيلة تغيف متحالفة تاريخياً مع قريش، ومع الأمويين بالتحديد. ومن النادر وجود تغيين موالين لملي بن أبي طالب ومتحسين لأجل قضيته كما هو في الرواية.

الفصل الثالث:

معاوية يطمح إلى اقتحام العالم العراقي

محاولة السيطرة على البصرة بعد سقوط مصر (1)

قرر معاوية أن الوقت قد حان ليسعى لاستغلال الوضع القبلي المضطرب في البصرة ومحاولة الحصول على ولائها، بعد إخراجها من طاعة عليّ.

كانت تلك خطوة كبيرة من جانب معاوية، وتعكس بلا ريب نمواً متزايداً في ثقته بجهته ومعسكره، وفي ذات الوقت إدراكه لعمق المشاكل والصعوبات التي تواجه علياً في العراق.

فالبصرة ليست رهاناً سهلاً. فهي الحاضرة الرئيسية الثانية في العراق، بعد الكوفة. والنجاح في الاستيلاء عليها سيشكل ضربة شبه قاصمة لعليّ وسلطته. وسيضيق فضاء عليّ، عندها، لينحصر فعلياً في الكوفة وما شرقها من بلاد فارس، وسيجد عليّ نفسه وقد فقد بالفعل السيطرة على جلّ المناطق العربية وسكانها. فالشام ومصر صارت خالصة لمعاوية، والحجاز واليمن أضحت مناطق «متنازع عليها» بينهما، وسقوط البصرة أيضاً سيؤدي فعلياً إلى سقوط البحرين واستيلاء الأمر لمعاوية في الجنوب العربي بأسره.

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4 ص 85)، انساب الاشراف للبلاذري (ج 3 ص 188 و ص 195)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 4 ص 42)، تاريخ خليفة بن خياط (ص 148)، سيرة رسول الله للمباركفوري (ص 237)، وكتاب المغازي للواقدي (ج 1 ص 65).

ومغامرة معاوية باتجاه البصرة كانت في الحقيقة رهانا منه على قدرته على إحياء كل مآسي يوم الجمل بين أهلها. هو كان يراهن على الدعاء التي سالت في البصرة، والتي لم يطل عليها العهد. وحسب خطة معاوية، فإن البصريين، أو جزءا مهما منهم، سيكونون مهشين لقبول حكم معاوية، نكاية بعليّ الذي وترّهم يوم الجمل.

وسير الأحداث يُظهر أن كل رهان معاوية كان منصبا على هذا الوتر. فهو لم يُرسل جيشاً لفتح البصرة، ولا مقاتلين لهزيمة رجال عليّ، بل أرسل رجلاً خبيراً في الشؤون البصرية، وهو عبد الله بن عامر بن الحضرمي⁽¹⁾، الذي كان نائبا لعبد الله بن عامر بن كريز، والي البصرة أيام عثمان. وابن الحضرمي كان بلا شك يعرف أوضاع البصرة الداخلية تماما، ويملك الصلات والعلاقات القديمة مع كثيرين من رجالاتها والمفاتيح فيها، بما يؤهله للنجاح في مهمته الصعبة تلك.

وكان والي عليّ في البصرة، عبد الله بن عباس، حينذاك موجوداً في الكوفة عند عليّ⁽²⁾، وقد استخلف على البصرة وبيت مالها زياد بن أبيه.

ونزل ابن الحضرمي جارا على قبيلة تميم في البصرة، التي تعهدت بحمايته، وبدأ من هناك عمله الدؤوب في محاولة السيطرة على البصرة وإخراجها من طاعة عليّ عن طريق بذل الوعود لوجهائها بالنيابة عن سيده معاوية. وياشر بالاتصال مع الذين كانوا على علاقة ببني أمية وولاتهم والمستفيدين من أيام عثمان.

ولكن زياد بن أبيه، الذي كان يعتبر والي عليّ في غياب ابن عباس،

(1) وأبوه كان حليفاً لجند معاوية حنة بن ربيعة. وقد لعب أبوه عامر بن الحضرمي دوراً مهماً في تحريض قريش على قتال المسلمين يوم بدر حين قام في جيشها بصرخ مطالباً بالثأر لدم أخيه عمرو الذي قتله المسلمون قبيل معركة بدر، وبلغ حماسة إلى درجة أنه «... كُتِفَ من استناده وشرّخه وأصمراه وأصمراه / نعمني القوم...» كما روى المبارك كوفي في «الرحيق المختوم»، وأيضاً كتاب المغازي للواقدي. وهو أيضاً كان ابن خالة عثمان بن عفان كما ذكر البلاذري.

(2) ولكن البلاذري في انساب الاشراف يقول أن ابن عباس حينها كان موجوداً في مكة بعد أن انتشق من عليّ، أو حسب تنويره حين شخص إلى مكة منافياً لعليّ.

أثبت أنه ذو قدرات عالية المستوى في مواجهة المخاطر والصعوبات. لجأ
زياد إلى التعامل مع الأزمة بالأسلوب الوحيد الذي يمكن أن ينجح في تلك
البيئة: اللعب على حبال القبائل المتنافسة! كان هذا الأسلوب يبرع فيه معاوية،
ولسوء حظه أنه واجهه، على غير توقع، خصماً يجيد هذا الأسلوب أيضاً!

لجأ زياد إلى القبيلة الرئيسية في البصرة التي تنافس تميم، وهي الأزد،
وطلب منهم الحماية. وفعلوا استجاب أشرف الأزد انصياعاً للتقاليد العربية
بإغاثة الملهوف، ونكاية بتميم. وهكذا أصبح زياد في سَعَةِ بعد أن استار حماية
زعماء الأزد. ونزل زياد دار صبرة بن شيمان ومعه بيت المال.

ودسّ زياد مَنْ يوصل لزعماء الأزد أن تميماً تزدرهم وتستعين بشرفهم
وتريد أن تعتدي على الذي أجاروه. وأدى ذلك بالفعل إلى أن الأزد زاد
تصميمهم على التمسك بزياد وحمايته، كي لا يفرطوا بشرف القبيلة!

وأرسل زياد إلى الإمام عليّ يخبره بتطورات الأوضاع في البصرة. فقام
عليّ باختيار شخص من قبيلة تميم وأرسله من الكوفة ليقنع قومه في البصرة
بالتخلي عن ابن الحضرمي. وفعلوا ذهب أمين بن ضبيعة إلى البصرة، ولكنه
دخل في سلسلة مشاكل هناك، داخل أجنحة قبيلة تميم، أسفرت عن مقتله⁽¹⁾.

وأصبحت هناك حالة من التوازن في البصرة، أقرب إلى الهدنة، بين
القبيلتين. فالأزد تحمي وتمنع زياداً، بينما تميم تدفع عن ابن الحضرمي. وبقي
الخصمان مترصين ببعضهما بانتظار عامل حسم لا بد أن يأتي من الخارج.

فأرسل الإمام عليّ رجلاً آخر من تميم، وهو جارية بن قدامة، في كنية
صفيرة إلى البصرة. ونجح جارية هذه المرة في إقناع معظم قومه بالتخلي
عن مندوب معاوية، بعد أن قرأ عليهم كتاب عليّ. وقام جارية بمطاردة ابن
الحضرمي وحصره وقتله مع السبعين رجلاً الذين كانوا معه، وأحرق عليهم
دارهم.

(1) البلاغري في انساب الاشراف يذكر احتمالين لقتل أمين بن ضبيعة: أن ابن الحضرمي
دسّ له من قتله وهو نالقه، أو أن جماعة من الخوارج الحارورية قتلوه.

وهكذا فشلت مؤامرة معاوية في البصرة ورجع زياد إلى دار الإمارة.

كان هذا ملخصاً للروايات الموجودة في تاريخ الطبري⁽¹⁾.

وقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة تفاصيل وافية جداً عن هذا الموضوع، نقلاً عن كتاب الغارات لأبراهيم بن هلال الثقفي. وفيها تظهر قبيلة الأزد وهي تعكس موقفها الذي اتخذته يوم الجمل - حين ناصرت عائشة وجمعها - وتقرر تأييد أمير المؤمنين عليّ وعدم تكرار الخطأ السابق. وفيها يظهر أن معاوية - وهو الاستاذ الماهر في التلاعب بالقبائل والعصيات - اضطر مرغماً إلى دفع ثمن نزاعات القبائل في البصرة. فقد أُرغم رجل معاوية إلى الاختيار: إما الأزد وإما تميم! وفشل في إرضاء الطرفين معاً. وهكذا فإن معاوية الذي خاض هذه المعامرة على أساس استئصال الولادات القبلية، وبالأخص مشاعر المرارة لدى الذين خسروا أبنائهم في حرب علي يوم الجمل - وجلبهم من الأزد - وجد ما راهن عليه يرتدّ ضده: فالأزدهنا يتشدّدون في حمايتهم لوالي علي، وهو زياد، ويظهرون استعدادهم لحمل السلاح وخوض القتال ضد تميم، لأن مندوب معاوية اختارهم عليهم ونزل لديهم، فعمدوا ذلك إهانة لهم وقرروا إظهار أنهم ليسوا بأقل شأنًا من خصومهم. وفي القصة الطويلة أن معاوية كان قد تلقى دعوة من رجل من عبد القيس⁽²⁾ لارسال من يأخذ البصرة له وأنه استشار عمرو بن العاص الذي كان بمصر بعد قتل ابن أبي بكر فشجعه بقوة. وفيها أيضاً أن زيادا هو الذي طرح اسم جارية بن قدامة على عليّ لارساله إلى البصرة بعد مقتل أعين بن ضبيعة. كما يظهر أن مندوب معاوية نجح إلى حد كبير جداً في السيطرة على البصرة ولقي قبولاً عاماً هناك، لولا موقف زعيم الأزد صبرة بن شيمان، وإلى درجة دفعت علياً إلى تهديد مخالفه بالبصرة بالشخص إليهم بنفسه إن لم ينهضوا مع جارية. كما يظهر مدى المعجز القيادي لابن عباس الذي ترك مصره قبيلاً تلك الأحداث

(1) وذكر خليفة بن خياط في تاريخه هذه القصة باختصار، ضمن أحداث سنة 38، ولكن الأرجح أن تكون الأحداث جرت بعد سنة 38.

(2) وفي رواية للبلاذري أن «جماعة من العشائنية بهتته بنض مصر وقتل محمد بن أبي بكر، وسألكونه أن يوجه إلى البصرة رجلاً يطلب بدم عثمان ليسمروا له ويطيروا»

الخطيرة ولم يبد أي اهتمام بالعودة إليها لمعالجة تنحور الاحوال مع قدوم ابن الحضرمي، وترك كل شيء لزيادة لتدبير الأمور وحده. ويكرر الأحف بن قيس هنا موقفه القديم: فيعتزل الفريقين.

استطرد بشأن «خيانة» عبد الله بن عباس⁽¹⁾

في الواقع تحدثنا المصادر عن خيانتين لابن عباس الأولى خيانة عبد الله بن عباس لعلبي بن ابي طالب حين كان والياً له على البصرة سنة 40، والثانية خيانة أخيه عبيد الله بن عباس للحسن بن علي بن ابي طالب حين كان من قادة جيشه في الكوفة لما قدم إليها معاوية سنة 41. وسوف نأتي للثانية لاحقاً عند الوصول الى موضوع صلح الحسن ومعاوية.

هناك اشكالية حقيقية في الروايات التي تتحدث عن قصة خيانة عبد الله بن عباس لأمير المؤمنين عليّ وقيامه بسرقة بيت المال في البصرة وحمله معه الى مكة بعد أن فارق علياً اثر خلاف شديد بينهما. والاشكالية تنبع من كون ابن عباس معروفاً بنشاطه الشديد في تأييد ابن عمه عليّ وانخراطه في صفوفه طوال احداث الفتنة الكبرى، من الجمل الى صفين الى النهروان، بل وقيام عليّ باعتماده كمستشار مخلص له ومن ثم تعيينه والياً على البصرة. كما أن ابن عباس استمر في ولائه لعلبي والدفاع عنه وعن سمعته في العهد الاموي - أيام معاوية. وهناك روايات كثيرة توضح ذلك. ولا ننسى أن ابن عباس ذاته هو راوي الحديث النبوي المشهور في صحيح مسلم والذي به ذم لمعاوية (لَا أَشْفَعُ اللَّهُ بِطَنَةٍ)، مما ينفي عنه، من حيث المبدأ، تهمة موالات معاوية او الترويع له.

(1) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري بتحقيق سهيل زكار ورياض زركلي (ج 4 ص 55-56) و(ج 3 ص 188)، أنساب الأشراف للبلاذري بتحقيق محمد باقر المحمودي (ص 169-175 من ترجمة علي بن ابي طالب)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 20 ص 130)، العقد الفريد لابن عبد ربه (ج 3 ص 98-102)، تاريخ الطبري (ج 4 ص 108-109)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الارمني (ج 2 ص 161)، كتاب الفتح لابن ادم الكوفي (ج 4 ص 241-242)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 7 ص 99)، تاريخ ابن خلدون (ج 2 ق 2 ص 184).

ولكن المصادر غير متفقة بشأن «خيانة» عبد الله بن عباس: فبعضها يذكر القصة بتفاصيلها وبشكل مُسيء جداً لابن عباس، وبعضها لا يذكر القصة على الإطلاق، وبعضها يذكرها مخففة أو ملطقة أو بشكل عرضي مُبهم.

بل أتني اكتشفتُ أمراً مثيراً أثناء بحثي في الموضوع: اختلاف نفس المصدر بهذا الشأن، وبالتحديد كتاب أنساب الأشراف للبلاذري. ففي النسخة التي حققها محمد باقر المحمودي من الكتاب وطبعها مؤسسة الأعلمي في لبنان توجد كل الرواية وتفاصيل الرسائل المسيئة كاملة، بينما لا توجد هذه الرسائل والتفاصيل في النسخة التي حققها سهيل زكار ورياض زركلي وطبعها دار الفكر في لبنان أيضاً!

وهذه رواية البلاذري في نسخة أنساب الأشراف بتحقيق المحمودي:

(قالوا) ان علياً استعمل ابن عباس واليا على البصرة وأباً الأسود الدؤلي على بيت مالها. فكتب أبو الأسود رسالة إلى الخليفة علي في الكوفة يتهم فيها ابن عباس «... وإن عاملك وابن عمك قد أكل ما تحت يده بغير علمك، ولا يسعني كتمانك ذلك... فأرسل عليّ كتاباً إلى ابن عباس - دون أن يطلع عليه ما وصله من أبي الأسود - أما بعد، فقد بلغني عنك أمر إن كنتَ فعلته فقد أسخطتَ ربك وأخربتَ أمانتك وعصيتَ إمامك وخنتَ المسلمين. بلغني أنك جردتَ الأرض وأكلتَ ما تحت يديك. فارفع إليّ حسابك واحلم أن حساب الله أشد من حساب الناس. والسلام»

فأجابه ابن عباس «أما بعد. فإن الذي بلغك عني باطل. وأنا لما تحت يدي أضبط وأحفظ. فلا تصلق عليّ الأظناء رحمك الله. والسلام»

فلم يقتنع عليّ بجوابه وكتب له «أما بعد فإنه لا يسعني تركك حتى تعلمني ما أخلفت من الجزية؟ ومن أين أخلفت؟ وفيما وضعت ما أنفقت منه؟ فأتق الله فيما ائتمتكَ عليه واسترحتك حفظه. فإن المتاع بما أنت رازي منه قليل وتباعة ذلك شديدة. والسلام»

وعند ذلك انفجر ابن عباس في وجه عليّ فكتب له كتاباً قبيحاً «أما بعد فقد فهمتُ تعظيمك عليّ مرزأة ما بلغك أنني رزاته من أهل هذه البلاد.

ورالله لأن ألقى الله بما في بطن هذه الأرض من عقباتها ولجبتها، ويطلع ما على ظهرها، أحب إلي من أن ألقاه وقد سفكت دماء الأمة لأنال بملك الثلث والإمارة. فابعت إلى عمك من أحييت.

وأجمع ابن عباس على الخروج

قالوا: فلما قرأ علي الكتاب قال: أو ابن عباس لم يشركنا في هذه

الدماء ١٩

ثم تابع الرواية فتقول ان ابن عباس لجأ إلى أخواله من قبيلة بني هلال لكي يحموا أثناء خروجه من البصرة، بعد أن حمل معه المال وهو ستة آلاف ألف. فلاحقه القبائل الأخرى، الأزدي ويكر بن وائل وتميم، وهو غير بعيد عن البصرة يريدون أخذ المال. ولكن بني هلال، وعموم القيسية، أصروا على حماية ابن عباس فتطورت الاشتكاليات بين القبائل وحصلت مناقشات محدودة بين بعض الأفراد إلى أن نجح ابن عباس وحماته في الوصول سالماً إلى مكة. وفي مكة بدأ ابن عباس في الاستمتاع بالأموال فاشترى ثلاث جوار مولدات.

فكتب إليه علي رسالة قاسية جداً «أما بعد فإني كنت أشركك في أمانتي ولم يكن في أهل بيتي رجل أوثق منك في نفسي لمواساتي وموازرتي وأداء الأمانة إلي. فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب، والعلو عليه قد حرب، وأمانة الناس قد غريت وهذه الأمة قد قتنت، قلبت له ظهر المجن ففارقه مع القوم المفارقين، وغفلته أسوأ غفلة الخافلين وغتته مع الخائنين. فلا ابن عمك آسيت ولا الأمانة أديت، كأنك لم تكن الله تريد بهجادهك؟ وكأنك لم تكن على بينة من ربك! وكأنك إنما كنت تكيد أمة محمد عن دنياهم وتطلب غرتهم عن فيثهم! فلما أمكنتك الشدة أسرعت العدو وأغلظت الوثبة وانتهزت الفرصة واختطف ما قدرت عليه من أموالهم اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الهذيلة، وظالعتها الكسير، فحملت أموالهم إلى الحجاز رحيب الصدر، تحملها غير متأن من أخلها كأنك - لا أيا لغيرك - إنما حزت لأهلك ثرائك عن أهلك وأملك؟ سبحان الله أفما تؤمن بالمعاد؟ ولا تخاف سوء الحساب! أما تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراماً؟ أو ما يعظم عليك وعندك

أنك تشتمن الإمام وتكبح النساء بأموال اليتامى والأرامل والمجاهدين الذين
أنفاه الله عليهم البلاد!! فاتقي الله وأدّ أموال القوم، فإنك والله إن لا تفعل
ذلك ثم أمكنني الله منك أعذر إليه فيك حتى آخذ الحق وأرده، وأقم الظالم
وأنصف المظلوم. والسلام

فكتب إليه عبد الله: أما بعد فقد بلغني كتابك تعظم عليّ إصابة المال
الذي أصبته من مال البصرة. ولعمري إن حظي في بيت المال لأعظم مما
أخذت منه. والسلام.

وتابع الرواية بأن علياً بعث له برسالة تقرعية أخرى شديدة اللهجة.

وأضاف البلاذري: وقد زعم بعض الناس أن عبد الله لم يبرح البصرة
حتى صالح الحسن معاوية. وليس ذلك بثبت، والثبت أنه لما قتل أمير
المؤمنين علي عليه السلام كتب إلى الحسن كتابه -الذي تذكره إن شاء الله
في خبر صلح الحسن ومعاوية- من الحجاز.

ولكن في طبعة أنساب الأشراف بتحقيق الدكتور سهيل زكار وزميله
وجدتُ فقط اتهاماً من ابن الزبير لابن عباس بالسرقة (في الجزء الرابع -
ترجمة عبد الله بن عباس)، ولم أشر على تلك الرسائل الشديدة اللهجة
والاتهامات الموجهة من علي لابن عباس⁽¹⁾.

هذا ما وجدته في نسخة أنساب الأشراف بتحقيق سهيل زكار ورياض
زركلي:

إن عبد الله بن الزبير قال وهو على المنبر بمكة كلاماً سيئاً جداً بحق ابن
عباس، من ضمنه: «وقد حمل ما في بيت مال البصرة وترك أهلها يرضخون
النوى»! وفي الرواية إن ابن عباس قد رد عليه كما يلي: «...وأما حملُ مال
البصرة فإنه كان مالاً جيتناه ثم أعطينا كل ذي حق حقه، وبقيت منه بقية هي
دون حقنا في كتاب الله وسهامه فأخذناه بحقنا»⁽²⁾.

(1) رغم أنه في الجزء الثالث يذكر - مرهناً - إن ابن عباس كان قد ذهب إلى مكة مصفاً
لعملي، وأن أبا الأسود الدؤلي «كان كتب فيه إلى علي».

(2) وروى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلاً عن المثلثي نفس هذه الرواية
بالحرف تقريباً.

ولستُ أدري سبب هذا الاختلاف. هل يُعقل أن يكون موضوع شيعية
المحمودي وسية زكار سبباً لحذف عبارات أو إضافة فقرات في كتاب
البلاذري؟ هل يفعل الباحثون المحترفون ذلك؟ أم أن النسخة المخطوطة
التي حققها كل منهما كانت في الاصل مختلفة هكذا؟ لستُ متأكداً.

وقد روى ابن عبد ربه في العقد الفريد رواية الخيانة برمتها، عن أبي
مخنف، ويتفصيل أكثر قليلاً من نسخة المحمودي من انساب الاشراف.
وفيها إضافة أن اختتام المراسلات بين علي وابن عباس كان برسالة من عبد
الله بن عباس قال له فيها عن المال فوالله لئن لم تلحقني من أساطيرك لأحملته
إلى معاوية يقاتلك به. فكفَّ عنه علي.

كما قدم ابن عبد ربه رواية أكثر اختصاراً عن أبي بكر بن أبي شيبة فيها
تفسير لاختلاس ابن عباس أموال البصرة، وهو أنه تأول أن ذلك حق له فكان
عبد الله بن عباس من أحب الناس إلى عمر بن الخطاب، وكان يقدمه على
الأكابر من أصحاب محمد (ص)، ولم يستعمله قط. فقال له يوماً: كدتُ
استعملك، ولكن أخشى أن تستحل الفقه على التأويل!

فلما صار الأمر إلى علي استعمله على البصرة، فاستحل الفقه على
تأويل قول الله تعالى (واهللوا إنما خنتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول
ولذي القربى) واستحل من قرابته من رسول الله (ص).

وروى الطبري في تاريخه عن أبي مخنف رواية مفارقة ابن عباس لعلي
في أحداث سنة 40 للهجرة. وروايته تشابه في عمومها مع نسخة المحمودي
من انساب الاشراف، ولكنها مخففة قليلاً وخالية من العبارات الجارحة. فهو
يذكر كتاب أبي الأسود لعلي بشأن خيانة ابن عباس، وجواب علي له، وكتابه
إلى ابن عباس وجواب الأخير عليه منكر الخيانة، وتشديد علي في طلب
المحاسبة مما دفع ابن عباس إلى إبلاغ علي باعتزله العمل له، ولكن الرواية
تخلو من الجزء المثير للإشكال من رد ابن عباس وهو (ووالله لأن ألقى الله
بما في بطن هذه الأرض من عقابها ولجبنها، ويطلع ما على ظهرها، أحب
إلي من أن ألقاه وقد سفكت دماء الأمة لأنال بملك الملوك والإمارة).

ثم تابع الرواية فقول ان ابن عباس لجأ إلى أخواله من قبيلة بني هلال لكي يحموه أثناء خروجه من البصرة، بعد أن حمل معه المال، ولكن دون ذكر رقم معين (الذي هو ستة آلاف ألف عند البلاذري)، ووصفت الرواية المال بأنه «كانت أرزاقاً قد اجتمعت فحمل معه مقدار ما اجتمع له»

ثم يذكر أبو مخنف عند الطبري مشاكل القبائل على نحو قريب مما رواه البلاذري في انساب الاشراف، وينتهي روايته بوصول ابن عباس إلى مكة سالماً، ولكن دون ذكر شرائه للجواري المولودات ولا ذكر رسالة علي له التي فيها (أفما تؤمن بالمعاد؟) ولا تخاف سوء الحساب! أما تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراماً؟).

وبعد أن أنهى الطبري رواية أبي مخنف قال «وحدثني أبو زيد قال: زعم أبو عبيدة ولم أسمع منه، أن ابن عباس لم يبرح من البصرة حتى قتل علي عليه السلام، فشخص إلى الحسن فشهد الصلح بينه وبين معاوية ثم رجع إلى البصرة ونقله بها، فعمله ومالا من بيت المال قليلاً وقال: هي أرزاقتي».

قال أبو زيد: ذكرت ذلك لأبي الحسن فأنكره وزعم أن علياً قتل وابن عباس بمكة وأن الذي شهد الصلح بين الحسن ومعاوية عبيد الله بن عباس»

وقد أخرج ابن أهدم الكوفي في كتاب الفتوح رواية الخيانة ولكن مع اختلاف في خاتمتها! وهو قال ان كتاب أبي الأسود الدؤلي إلى علي يخبر سرقة ابن عباس للأموال كان نوعاً من الوشاية سببها الخلاف الحاد الذي وقع بين أبي الأسود وزيد بن أبيه في البصرة وانحياز ابن عباس إلى زياد وتقريره لأبي الأسود «مالك وللأحرار! تهجوهم وتقول فيهم القبيح وتذكر أعراسهم بما لا يجب. أخرج عني، فعل الله بك وفعل». وتذكر رواية ابن أهدم صيغة معتدلة للرسالة التي بعثها علي لابن عباس «بلغني عنك أمور الله أعلم بها. فإن تكن حقاً فليست أرضاها لك وإن تكن باطلاً فليأثمها علي من اقترفها. فإذا ورد عليك كتابي هذا فأعلمني في جوابه ما أدخلت من مال البصرة، من أين أدخلته، وفيهم وضعته». وهذه الرسالة ليست شديدة ولا قاسية بل هي أقرب إلى الاستفسار منها إلى الاتهام، وهي بالتأكيد لا تستحق ذلك الجواب الغريب

الذي ارسله ابن عباس «ان الذي بلغك عني باطل، واني لما تحت يدي لضابط وحافظ، فلا تصدق اقوال الوشاة. وأما تعظيمك مرزاة ما رزأته من هذه البلدة فوالله لئن ألقى الله عز وجل بما في الارض من لجينها وعقايها وعلى ظهرها من طلائعها أحب إلي من أن ألقاه وقد أرقّت دماء الأمة! فابحث لعملك من أحببت فلاني معتزك عنه والسلام». وهنا الخاتمة الغريبة لهذه الرواية «فكتب اليه علي بن ابي طالب رضي الله عنه بكتاب يعمله فيه على غضبه ويكذب من سمى به اليه، وأعادته الى عمله»^١.

فواضح تماما عدم الانسجام بين أجزاء رواية ابن اعثم.

وابن خلدون في تاريخه أخرج الرواية بشكل مختصر، واستعمل كلمة «فراق ابن عباس لعلي» في وصف ما جرى. وفيها ان ابن عباس برر موقفه كما يلي «ولم يبعث الاموال وقال: هذه أرزاقنا» ثم توجه الى مكة.

وذكر ابن ابي الفتح الاريلي في كشف الغمة، وهو من المصادر الشيعية^(١)، أن عبد الله بن العباس كان موجودا مع الامام الحسن حين بويع عقب مقتل أبيه في الكوفة «فقام عبد الله بن العباس رحمة الله عليهما ما بين يديه فقال: معاشر الناس هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم فبايعوه. فاستجاب له الناس....»

وهذا يعني أن ابن عباس كان موجودا في الكوفة عند مقتل علي، لأنه لا يمكن تصور أن يقدم من مكة الى الكوفة بهذه السرعة الخارقة وهذا يشكل على قصة خيائه.

كما يشكل على قصة الخيانة ما رواه ابن سعد في ترجمة ابي الاسود الدؤلي في طبقاته من أن ابن عباس ذاته قد استخلفه حين خرج من البصرة، وأن علياً أقره.

(١) والمصادر الشيعية كما هو معروف حساسة جدا تجاه كل من خالف أو اختلف مع علي بن ابي طالب، وشديدة القسوة عليه. وكلامها الايجابي عن ابن عباس مؤثر على نزكيته وتبرته.

الخلاصة: الحكم على قصة خيانة عبد الله بن العباس

لا يمكن تصديق ان ابن عباس قد نهب بيت مال البصرة وقربه الى الحجاز. فالسرقة بذلك الشكل الصارخ والمفوض لا يمكن ان تصدر عن شخص بمكانة ابن عباس، الذي كان في منتصف الاربعينات من عمره، صاحب علم وقرابة من رسول الله (ص). وهو قد عُرف لاحقاً بفقهه واختصاصه بشؤون الدين وتفسير القرآن.

أما الذي يمكن ان يكون حصل فهو ان ابن عباس لم يحتمل تطورات الاحداث وشذنتها وخطورتها، من الجمل لصفين للنهروان لغارات معاوية لصراع القبائل، الى آخر تلك السلسلة الجهنمية من الاحداث المشاعة التي لا ترحم والتي صارت أخيراً تتجه لصالح معاوية وجماعته على حساب عليّ وخلافته. فربما جعل ذلك كله ابن عباس يقرر مراجعة موقفه والاتسحاب من «الفتنة» فراراً الى بيت الله في مكة⁽¹⁾. نوعٌ من الضعف. فلعلة ذهب في موسم الحج سنة 39 الى الحجاز وبقي هناك ولم يعد الى البصرة، وقد يكون أخذ معه من بيت المال ما يراه حقاً له، من عطاء مستحق ولكونه من اقرباء رسول الله (ص)، أي ذوي القربى. وابن عباس لم يكن شخصية قيادية او إدارية ناجحة، ولم يكن من ذوي الخبرة والكفاءة في تولي مسؤوليات الحكم وإدارة ولاية مهمة بحجم البصرة. وقد لاحظنا كيف أن زياد بن ابيه كان أقدر منه وأقوى على تحمل مسؤوليات القيادة ومجابهة الصعوبات والظروف العرجة. فكانت مكانة زياد ترتفع وأهميته تبرز حتى وهو يعمل تحت ظل ابن عباس في البصرة.

وأخيراً، ربما يكون عليّ قد ارسل لابن عباس، عندما علم بتركه البصرة، يسترضيه ويستدعيه من الحجاز، فعاد الى الكوفة.

محاولة أقلّ طموحاً: معاوية يستهدف السماوة⁽²⁾

لم يأس معاوية من مشروعه العراقي. ولكنه أصبح أكثر واقعية هذه المرة

(1) يبدو لي ابن عباس اقرب الى نوعية وشخصية عبد الله بن عمر.

(2) أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص223)

حين أرسل، بعد فترة قِيم خلالها ما حصل في البصرة، رجلاً من قبيلة كلب يدعى زهير بن مكحول إلى السماوة، وهي تقع على الفرات ما بين البصرة والكوفة، من أجل إخراجها من طاعة عليّ. وبالفعل فإن زهير بن مكحول بدأ في قبض الصدقات لحساب معاوية. ولا شك أن مندوب معاوية قد استفاد من انشغال عليّ وقواته في الصراع الداخلي ضد الخوارج بالإضافة إلى السمعة الرهيبة التي اكتسبتها قوات معاوية التي كانت بدأت بشنّ موجة الغارات الوحشية على المناطق التي هي بطاعة عليّ.

ولمواجهة ذلك أرسل عليّ ثلاثة رجال: جعفر بن عبد الله الأشجعي، وعروة بن العشة (من قبيلة كلب) والجلال بن عمير. وخاض هؤلاء معركة ضد جماعة معاوية في السماوة ف خسروها، وقتل منهم جعفر بينما فرّ الجلاس وابن العشة. ولما رجع ابن العشة خائباً إلى عليّ في الكوفة، غضب عليه واتهمه بالجنون وعاقبه لذلك، مما أدى إلى فرار ابن العشة من العراق ولحقه بمعاوية في الشام.

الفصل الرابع:

غاراتُ معاوية وسياسة البطش والترهيب⁽¹⁾

قرر معاوية أن يستغل ظروف الاضطراب في العراق وأن يتحول إلى استراتيجية هجومية!

بدأ معاوية في شن حملة واسعة من الغارات على المناطق الخاضعة لحكم عليّ. وكانت المعالم الرئيسية لتلك الغارات على النحو التالي:

إرسال قوات عسكرية صغيرة الحجم نسبياً

استهداف منطقة محددة بعينها، وتكون في الغالب بعيدة نسبياً عن مركز خلافة علي في الكوفة.

الهجوم المفاجئ، المركز، وغير المسبوق بأي مقدمات.

الحرص على ارتكاب جرائم صارخة، ذات صدى إعلامي واسع، وممارسات ترويعية بحق الناس الذين هم في طاعة عليّ

عدم «احتلال» المنطقة المستهدفة، والانسحاب منها عقب تنفيذ المهمة.

والنص التالي لابن أبي الحديد يوضح تماماً فلسفة معاوية من شن الغارات:

«... تحدث الناس بالشام أن علياً عليه السلام يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه، وتذكروا أن قد اختلفت أهواؤهم، ووقعت الفرقة بينهم...»

(1) مصادر هذا البحث: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 2 ص 7 وص 82)، تاريخ اليعقوبي (ج 2 ص 195-197 وص 200)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج 3 ص 227)، تاريخ الطبري (ج 4 ص 104)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 354).

ولذلك اقترح نفرٌ من الذين أرادوا اغتنامَ الفرصة على الوليد بن عقبة بن أبي معيط أن يذهب لمعاوية ويكلمه، ففعل:

«... فُقره أن فليسير بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم، أو يصلح لأصاحبهم ما قد فسد عليه من أمره...»

فشتّر للحرب، وناهض الأعداء، واحتبل الفرصة، واغتم القرّة، فإنك لا تدري متى تقدّر على عدوك على مثل حالهم التي هم عليها. وأن تسير إلى عدوك أمز لك من أن يسيروا إليك. واعلم والله أنه لو لا تفرق الناس على صاحبك، لقد نهض إليك»
فأجاب معاوية:

«إن هؤلاء الذين تذكرون تفرقهم على صاحبهم، واختلاف أهوالهم، لم يبلغ ذلك عندي بهم أن أكون أطمع في استئصالهم واجتياحهم، وأن أسير إليهم مخاطرًا بجنتي، لا أدري عليّ تكون الفلانة أم لي! فليأكم واستبطاني، فإني آخذ بهم في وجهه هو أرفق بكم، وأبلغ في هلكتهم.»

قد شئتُ عليهم الفارات من كل جانب: فتحّلي مرةً بالجزيرة، ومرةً بالمحجاز. قد فتح الله فيما بين ذلك مصر، فأعز بفتحها ولّينا، وأذل به عدونا.

فأشرف أهل العراق لما يرون من حُسن صنيع الله لنا، يأتوننا على فلاتهم في كل أيام. وهذا مما يزيدكم الله به ويقصهم، ويقويكم ويضعفهم، ويعزكم ويذلهم.

فاصبروا ولا تمجلوا، فإني لو رأيتُ فرصتي لا هتبتُها»

إذن هي نوعٌ من «حرب الاستنزاف» يشنها معاوية يهدف من خلالها إلى إظهار ضعف عليّ وتراجع نفوذه وهزلة موقفه العسكري. أراد معاوية أن يبدو أمام عامة المسلمين بمظهر الأقوى والمُبَادِر. وهدفه تشجيع كافة العناصر التابعة لعلّي، وخاصة في المناطق البعيدة عن معقل عليّ في الكوفة، على تركه والانضمام إلى معاوية باعتباره الرجل الكاسب في الصراع. لم يَزِ معاوية أن الوقت قد حان لشنّ حرب كبرى كاسحة على عليّ في الكوفة لأن ذلك من

شأنه توحيد اهل العراق من جديد خلف عليّ. فلذلك كانت سياسة القضم التدريجي لمناطق الأطراف هي الحل المناسب لهذه المرحلة. وكان لا بد، بنظر معاوية، من إظهار قدر كبير من القوة والبطش تجاه أنصار عليّ في كل مكان، ممن يقررون مقاومة قواته وعدم الاستسلام أو الفرار. إنها سياسة كشر المعنويات لإيصال رسالة واضحة للجميع: عليّ هو الخاسر، ومن سيقى معه سيخسر معه!

وبدأت موجة الغارات!

يحدثنا اليعقوبي عن النعمان بن بشير⁽¹⁾ وكيف كان جزءاً من ماكينة معاوية الدموية:

ووجه معاوية النعمان بن بشير، فأغارَ على مالك بن كعب الأرحبي، وكان عاملَ عليّ على مسلحة عين التمر⁽²⁾، فأرسل عليّ في أثره عدي بن حاتم الطائي على شاطئ الفرات.

وأضاف أن الضحاك بن قيس أغار على القططانة⁽³⁾ وقتل ابن عميش. فشنّ عليه حجر بن عدي غارة معاكسة حتى تدمر.

وأن سفيان بن عوف الغامدي أغارَ على الأنبار وقتل أشرس بن حسان البكري. فأتبعه عليّ بسعيد بن قيس إلى عثات. فاتصرف سفيان مولياً ولم يلحقه.

وأضاف اليعقوبي أن معاوية أرسل عبد الله بن مسعدة الفزاري في 1700 رجل باتجاه المدينة ومكة. فبلغ الخبر علياً فوجه إليه ابن قبيته، المسيب بن

(1) سبق الحديث عنه، وكيف أنه، وأبوه من قبله، كان من الأنصار الذين والوا معاوية وقرشاً.

(2) تبعد مسافة 40 كم إلى الغرب من كربلاء في العراق.

(3) منطقة في غرب العراق، قرية من حدود السعودية الحالية. وقد روى الطبري مزعماً من النضائيل عما جرى فوجه معاوية الضحاك بن قيس وأمره أن يمر بأسفل واقصة وأن يخبر عليّ كل من مر به ممن هو في طاعة عليّ من الأعراب ووجه معه ثلاثة آلاف رجل. فسار فأخذ أموال الناس وقتل من لقي من الأعراب ومزّ بالكلمية فأغار على صالح عليّ وأخذ أمتعتهم ومضى حتى انتهى إلى القططانة.

نجبة الفزاري في ألفي رجل. وحصل القتال بينهم في تيماء، ومُزم جماعة معاوية فلجأوا إلى حصن. فأحاط بهم المسيب ومن معه 3 أيام. فتناشد ابن مسعدة المسيب ورجاء الرحمة قائلاً له: نحن قومك أفعال المسيب إلى رابطة الدم وسمح لابن مسعدة ومن معه بالمفادرة سالمين إلى الشام. فوصلت القصة إلى عليّ فعاتب المسيب على سلوكه وعاقبه بالحبس لبضعة أيام ثم عفا عنه.

ويحدثنا البلاذري عن الغارة التي شنّها معاوية على منطقة الجزيرة⁽¹⁾ فيقول أنه وجه إليها حملة بقيادة الحارث بن نمر التنوخي وأسفرت عن القائه القبض على والي عليّ على نصيين ومعه مجموعة من شعبة عليّ، ومن ثم حصلت صفقة تبادل أسرى بين الطرفين عاد بموجبها والي الأسير شبيب بن عامر الأزدي ومجموعته إلى عليّ مقابل إطلاق سراح مجموعة من أنصار معاوية كانوا مأسورين لدى جيش العراق. ويضيف البلاذري أن علياً بعدها أرسل من عنده رجلاً من قبيلة خثعم إلى الموصل والجزيرة لتسكين الناس، وأنه دخل في صراعات أسفرت عن مقتله. وكانت النتيجة النهائية تحوّل منطقة الجزيرة إلى نوع من الحياد بين طرفي الصراع عليّ ومعاوية.

وزدادت وتيرة الغارات والهجمات التي يشنها معاوية على بلاد عليّ حتى وصلت به الجراءة أن سار بنفسه على رأس قواته وتوغل في العراق حتى اقترب من نهر دجلة ثم رجع⁽²⁾.

وصايا معاوية لقوّاده، ووصايا عليّ

إن وصيّة لسفيان بن عوف الغامدي هي نموذج مثالي على توجيهات معاوية وأهدافه:

«إني بأعذك في جيش كثيف، ذي أداة وجلادة. فالزم إلى جانب الفرات، حتى تمرّ بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغبر عليهم، وإلا فامض حتى

(1) الجزيرة هي المنطقة الواسعة ما بين العراق والشام، وتشمل مدن الرقة ودير الزور والحسكة في شرق سورية الحالية وحتى الموصل في شمال العراق.

(2) تاريخ الطبري، نقلًا عن ابن سعد والواقدي.

تغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جنداً فامض حتى توغل في المدائن. ثم
أقبل إليّ. واتقِ أن تقرب الكوفة. واعلم أنك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل
المدائن فكأنك أغرت على الكوفة.

إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم، وتفرح كل من
له فيها هوى منهم، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر.

فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك.

وأخرب كل ما مررت به من القرى.

وأحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيهة بالقتل، وهو أوجع للقلب»^(١)

وفي المقابل كانت وصايا عليّ لفادته الذين يرسلهم لصدّ غارات قوات
معاوية مختلفة تماماً. وهذا عهد لجارية بن قدامة «أوصيك يا جارية بتقوى
الله، فإنها جموع الخير.

وبزّ على عون الله قالقّ عدوك الذي وجهتك إليه ولا تقاتل إلاّ من
قاتلك.

ولا تجهزن على جريح.

ولا تُسخرن دابة وإن مشيت ومشى أصحابك.

ولا تنأثر على أهل العماء بعيابهم، ولا تشرين إلاّ فضلهم عن طيب
نفوسهم.

ولا تشتمن مسلماً ولا مسلمة، فتوجب على نفسك ما لعلك تؤدب غيرك
عليه.

ولا تغلظن معاهداً ولا معاهدة.

واذكر الله ولا تغتر ليلاً ولا نهاراً.

واحملوا رجالكم وتواسوا في ذات أيديكم.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

واجُدَّ السَّيْرَ وَآجِلَ الْعَدُوِّ مِنْ حَيْثُ كَانَ، وَاقْتُلْهُ مُقْبِلًا وَارْكُذْهُ بِخِظْلِهِ
صَاحِرًا.

وَاسْفِكِ الدَّمَ فِي الْحَقِّ، وَاحْقِظِي فِي الْحَقِّ.

وَمَنْ تَابَ فَاقْبَلِ تَوْبَتَهُ^(١)

ابن كثير يبرر سياسة الغارات الدموية

كعادته في الدفاع عن معاوية، لجأ العلامة ابن كثير الى محاولة تبرير سياسة الغارات الدموية فقال في البداية والنهاية عن أحداث سنة 39 للهجرة «فيها جهز معاوية بن ابي سفيان جيوشاً كثيرة ففرقها في أطراف معاملات علي بن ابي طالب. وذلك ان معاوية رأى بعد أن ولاء عمرو بن العاص بعد انفاقه مع ابي موسى على عزل علي، أن ولايته وقعت الموضع، فهو الذي يجب طاعته فيما يقتضيه. ولأن جيوش علي من اهل العراق لا تطيعه في كثير من الأمور ولا يأترون بأمره، فلا يحصل بمباشرة المقصود من الامارة والحالة هذه. فهو يزعم انه أولى منه إذ كان الأمر كذلك»

وظاهر من النص مدى الجهد الذي بذله ابن كثير في ابتداع تأويلات لسلوك معاوية الوحشي، وهو العالم بمدى فظاعته وقسوته.

آلام علي

وكانت هذه الغارات التي يأمر بشنها معاوية على نواحي متفرقة من البلاد التي هي في طاعة علي، وما كان يحصل بها من قتل للأبرياء وتكثير بالناس وانتهاك للحرمات وسفك للدماء، تسبب ألماً فظيعاً في نفس علي بن ابي طالب، ممزوجاً بالحزن والغضب. وأبرز مثال على مشاعر علي وهو يسمع أخبار الغارات هي الخطبة البليغة التي ألقاها الإمام علي بعد غارة سفيان بن عوف على الأنبار:

«أما بعد، فإن الجهاد بابٌ من أبواب الجنة، فتحة الله لخاصة أوليائه.

(١) تاريخ يعقوبي

وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة. فمن تركه رغبة عنه
ألبيه الله ثوب النذل وشمله البلاء، وتبث بالصفار والقماء، وحُرب على
قلبه بالأسداد، وأدبل الحق منه بتضييع الجهاد. وسيم الخسف ومُنج النصف.

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً
وقلتُ لكم: اغزوه من قبل أن يغزوكم. فوالله ما عُزي قوم قط في عُقر
دارهم إلا قتلوا!

فتواكلتم وتعاذلتُم حتى شئت عليكم الفارات ومُليكت عليكم الأوطان.
وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان
البكري، وأزال خيلكم من مسالحها. ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل
على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فيتزع حجلها وقلبها وقلابها
ورعائها، ما تمتع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام! ثم انصرفوا وافرغوا ما نال
رجلاً منهم كلم ولا أريق لهم دم.

قلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به
عندي جديراً.

فيا عجباً! عجباً والله يميث القلب ويجلب الهَم من اجتماع هؤلاء القوم
على باطلهم، وتفرقتكم عن حقكم!

فقبحاً لكم وترحاً، حين صرتم قرضاً يُرمى، يُفار عليكم ولا تغيرون،
وتغزون ولا تغزون، ويُعصى الله وترضون.

فلذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام العَر قلتُم هذه حمارة القيط، أمهلنا
يسخ منا الحرا! وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتُم هذه صبارة القتر،
أمهلنا ينسلف منا البرد! كل هذا فراراً من الحر والقتر. فلذا كنتم من الحر والقتر
تفرون، فلذا أنتم والله من السيف أقر!

يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربات الحبال.
لوددتُ أني لم أركم ولم أصركم، معلقة والله جرت ندماً، وأعقت
سداً!

قاتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قبيحا، وشحتم صدري غيظاً، وجرحتموني
نصب التهام أنفاساً، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والمخلدان، حتى لقد قالت
فريش: إن ابن أبي طالب رجلٌ شجاع، ولكن لا علم له بالحرب.

لله أبوهما! وهل أحدٌ منهم أشدُّ لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني؟ لقد
نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين، وما أناذا قد قُرِفْتُ على الستين. ولكن لا
رأي لمن لا يُطاع⁽¹⁾

وعندما حاول انتداب الناس للخروج إلى مصر وانقاذها من السقوط
بأيدي معاوية، فخرج وانتظرهم ولم يأتوه فرجع. فلما كان من العشيّ بعث
إلى اشراف الناس فدخلوا عليه القصر وهو حزينٌ كئيب. فقال:

الحمد لله على ما قضى من أمري وقدر من فعلي وإيتالي بكم أيتها
الفرقة ممن لا يطيع إذا أمرتُ ولا يجيب إذا دعوت. لا أبا لغيركم! ما تنتظرون
بصبركم والجهد على حقكم؟ الموت والذل لكم في هذه الدنيا على غير
الحق. فوالله لئن جاء الموت، وليأتين، ليفرقن بيني وبينكم وأنا لصحبتيكم قالو
ويكم غير ضنين. لله أنتم! لا دين يجمعكم ولا حمية تحميكم إذا أنتم سمعتم
بملوككم يرد بلادكم ويشنّ الغارة عليكم! أوليس عجباً معاوية يدعو الجفافة
الطفام فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ويجيونه في السنة المرتين والثلاث
إلى أي وجه شاء، وأنا أدهوكم وأنتم أولو النهي وبقية الناس على المعونة
وطائفة منكم على العطاء فتقومون عني وتمصونني وتختلفون عليّ⁽²⁾

وهذا نموذج آخر من كلام عليّ، المؤثر البليغ، قاله عندما بلغه خبر سقوط
مصر فقام خطيباً وقال: «، إني والله ما ألوم نفسي على التقصير وإني لمقاساة
الحرب لجدّ خير وإني لأقدم على الأمر وأحرف وجه الحزم وأقوم فيكم بالرأي
المصيب فأستصرخكم معلناً وأناذيكُم نداء المستغيث معرباً فلا تسمعون لي
فولاً ولا تطيعون لي أمراً حتى تصير بي الأمور إلى عواقب المسامة. فأنتم القوم
لا يُدرِكُ بكم الثأر ولا ينقُضُ بكم الأوتار. دعوكم إلى غيات انخرواكم منذ بضع

(1) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده (ج 1 ص 58)

(2) تاريخ الطبري (ج 4 ص 81)

وعُلمين ليلة فتجر جرتهم جرجرة الجمل الأشلق وثاقلتم إلى الأرض ثاقل من ليس له نية في جهاد العدو ولا اكتساب الأجر. ثم خرج التي منكم جُنَيْدٌ مُتَنَانِبٌ كثيرة يُساقون إلى الموت وهم ينظرون. فَأُفٍّ لَكُمْ»⁽¹⁾

وروى الطبري أيضاً أن علياً خطب قائلاً «يا أهل الكوفة، كلما سمعتم بمنسري من مناسر أهل الشام أظَلَّكُمْ أنجح كل امرئٍ منكم في بيته وأغلق بابَه أنجحناز الضبِّ في جُمُهره والضبُع في وجارها. المغرورُ من غررتموه، ولمن فاز بكم فاز بالسهم الأخيْب! لا أحرار عند التناء ولا إخوان تقفُ عند النجاء. إنا لله وإنا إليه راجعون. ماذا منيْتُ به منكم! عُمي لا تبصرون وبكم لا تنطقون وصم لا تسمعون»⁽²⁾

وهذا نموذج آخر من كلام عليٍّ يعبر به عن غضبه البالغ، ليس على معاوية ومن معه فقط، بل على أصحابه أيضاً، الذين اعتبرهم متعاصين متخاذلين حتى تمنى لو أن له جنوداً مطيعين مثل معاوية! فقال:

«أيها الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المُبتلى بهم أمراؤهم!

صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحبُ أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه!

لوددتُ والله أن معاوية صارَ فني بكم صرفَ الدينار بالدرهم، فأخذ مني عشرةً منكم وأعطاني رجلاً منهم!

يا أهل الكوفة: مُنِيتُ بكم بثلاثٍ واثنتين: صم ذوو أسماع، وبكم ذوو كلام، وعُمي ذوو أبصار. لا أحرار صدقي عند اللقاء، ولا إخوان تقفُ عند البلاء. تربت أيديكم.

يا أشباه الإبل، غابَ عنها رُعائِها، كلما جُمِعت من جانبٍ تفرقت من آخر»⁽³⁾

(1) تاريخ الطبري (ج 4 ص 82-83)

(2) تاريخ الطبري (ج 4 ص 103)

(3) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده (ج 1 ص 137).

وفي رواية ابن قتيبة ان عليا خاطب اهل الكوفة قائلا «يا ايها الناس
 المجتمعة ابتلتهم المختلفة اهلواهم، ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح
 قلب من قاساكم، كلامكم يوهي الصم، وفعلكم يطعم فيكم عدوكم. اذا
 امرتكم بالمسير قلتم كيت وكيت، اعاليل بأضاليل، هيهات ا لا يُدرك الحق
 ألا بالجد والصبر. أي دار بعد داركم تمنعون، ومع أي امام بعدي تقاضون ؟
 المفرور والله من شررتموه ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب. أصبحت لا
 اطعم في نصرتكم ولا اصدق قولكم ا قرق الله بيني وبينكم وأعقبني بكم من
 هو خير لي وأعقبكم بعدي من هو شر لكم مني»⁽¹⁾

استباحة المدينة المنورة⁽²⁾

وأرسل معاوية رجله المتوحش بسر بن أرطاة، وهو قرشي من بني عامر
 بن لؤي، لإرهاب وترويع كل من هو في طاعة علي في كل مكان. فكان جلاًداً
 متجولاً يهدف إلى إخضاع الناس لسلطة معاوية عن طريق القتل والدم والقوة
 الغاشمة. قال ابن عساکر:

«بعث معاوية بسر بن أرطاة إلى مكة والمدينة واليمن، يستعرض الناس،
 فيقتل من كان في طاعة علي بن أبي طالب. فأقام في المدينة شهراً فما قيل له
 في احد ان هذا ممن اعان على عثمان إلا قتله. وقتل قوماً من بني كعب على
 مالهم فيما بين مكة والمدينة وألقاهم في البحر».

وواصل ابن عساکر حديثه عن فظاعات بسر بن أرطاة في المدينة المنورة
 التي احتلها شهراً وأرتكب فيها جرائم بحق الأنصار وأبنائهم:

«...هرب منه أبو أيوب الأنصاري صاحب النبي (ص) إلى علي
 بالكوفة. فصعد بسر منبر المدينة ولم يقاومه بها احد فجعل ينادي: يا دينار

(1) الامامة والسياسة (ج 1 ص 171)

(2) مصادر هذا البحث: تلويح دمشق لابن عساکر (ج 10 ص 152)، التاريخ الصغير
 للبغاري (ج 1 ص 141)، كتاب الثقات لابن حبان (ج 2 ص 300)، تاريخ الجعفي
 (ج 2 ص 197)، الكامل في التاريخ لابن الاثير (ص 458)، شرح نهج البلاغة لابن أبي
 الحديد (ج 2 ص 8-16).

يا زريق يا نجار^(١) شيخ سمع عهده ها هنا بالامس، يعني عثمان رضي الله عنه. وجعل يقول يا اهل المدينة والله لولا ما عهد الي امير المؤمنين ما تركت بها محتلما الا قتلتها! وباع اهل المدينة لمعاوية.

وأرسل إلى بني سلمة، فقال: والله ما لكم عندي من امان ولا مباحة حتى تأتونني بجابر بن عبد الله صاحب النبي.

فخرج جابر بن عبد الله حتى دخل على أم سلمة خفيًا فقال لها: يا أمة إنني خشيتُ على ديني وهذه بيعة ضلالة^(٢). فقالت له: أرى أن تباع. فقد أمرتُ ابني عمر بن أبي سلمة أن يبيع.

فخرج جابر بن عبد الله فباع بسر بن أرطاة لمعاوية .

وهم بسر بيوتاً كثيرة بالمدينة.....»

وكان بسر بن أرطاة لما دخل المدينة المنورة استهل خطبته للانصار بوابل من الشتائم والتهديدات. روى يعقوبي انه صعد المنبر وقال:

«يا اهل المدينة: مثل السوء لكم قرية كانت آمنة مطمئة يأتيها رزقها وغداؤها من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. ألا وإن الله قد أوقع بكم هذا المثل وجعلكم أهله! شاعت الوجوه. فما زال يشتمهم حتى نزل»

إذن ظهر في هذه الغارة إلى العلن ما يكنه القرشيون وزعيمهم معاوية، ممثلين بشخص بسر بن أرطاة، من حقد شديد على المدينة المنورة واهلها من الانصار. وعلى غير عادته لم يكن معاوية هنا حليماً ولا حكيماً، بل تصرف ببساطة كسفاح مجرم! كان معاوية يعرف تماماً ماذا يفعل قائد جيشه. فلا شك أنها كانت سياسة مدروسة من القائد الأموي. وهو يتحتم وزرها كاملاً.

(١) وقد وضح ابن الاثير معنى ذلك، هنا (يا دينار يا زريق يا نجار) فقال ان هذه بطون من الانصار. اضاف ابن الاثير ان بسرأ قال ايضاً شيخي شيخي، عهده ههنا بالامس فأين هو؟ يعني عثمان؟

(٢) وقد روى الإمام البخاري في التاريخ الصغير موقف جابر هذا وقول أم سلمة له: أنا أعلم أنها بيعة ضلالة. وأيضاً رواه ابن حبان في كتاب «الثقات»

ولا يمكن تبرير تلك الجرائم بضرورات السياسة⁽¹⁾، فهي أقرب إلى منهج الانتقام من الرسول(ص) وأنصاره.⁽²⁾

وأُسفرت جهود عليّ المرتكزة عن نجاحه في إرسال جيشٍ من الكوفة، انطلق ليطارِد بسر بن أرطاة في أنحاء الحجاز واليمن، ويتبع أثره. ولكنَّ سرّاً، الذي حقق هدفه المحدد له من قبل معاوية، قرَّ من وجهه وتغاداه وعاد سالماً إلى الشام.

وقد روى ابن أبي الحديد بالتفصيل الفطاعات التي ارتكبتها بسر في المدينة نقلًا عن كتاب «الغارات» لابراهيم بن هلال الثقفي، وأضاف أنه بعدها توجه إلى مكة فهرب منها عامل عليّ، قثم بن العباس، وقام بسر بتوليته شعبة بن عثمان عليها بعد أن أخذ بيعة أهلها لمعاوية. ومن ثم توجه إلى الطائف، فتلّقاء هناك المغيرة بن شعبة بالقول الحسن. وذكر أيضا أنه مر بنجران وقام بشتم أهلها - الذين وصفهم بالنصارى واخوة القروء - وتهديدهم.

هل استخلف بسرُّ بن أرطاة أبا هريرة على المدينة⁽³⁾؟

قال ابن ائتم أنه بعد أن انتهى بسر بن أرطاة من جرائمه، وأجبر كلَّ مَنْ بقي في المدينة على البيعة لمعاوية، ودَّع أهلها بخطبة أخرى، عيَّن فيها والياً جديداً لمعاوية:

«يا أهل المدينة: إني قد صفحتُ عنكم، وما أنتم لذلك أهل، لأنه ما من قوم قتل إمامهم بين أظهرهم ولم يدفعوا عنه، بأهل أن يُعفى عنهم. وإن

(1) الروايات تقول أن الأمر وصل إلى حد هدم بيوت كثيرة في المدينة وحرقتها
(2) وسوف يكرر يزيد بن معاوية، بعد هذه الحادثة بعشرين عاماً، ارتكاب نفس الجرائم بحق مدينة رسول الله(ص) وأنصاره، وعلى نحو أشدَّ فظاعة في وقعة الحَرَّة، ليثبت أن الحقد الأموي تتوارثه الأجيال.

(3) مصادر هذا البحث: كتاب الفتح لابن ائتم الكوفي (ج 4 ص 232)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 357)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 2 ص 11)، انساب الاشراف للبلخاري (ج 3 ص 212)، تاريخ دمشق لابن حسَّان (ج 39 ص 169 وص 105)، صحيح البخاري باب ما ذكر النبي(ص) وحسن على اتفاق أهل العلم (ج 9 ص 128) وباب علامات النبوة (ج 4 ص 241 وص 243).

نالتكم العقوبة في الدنيا، فإني أرجو أن لا تنالكم رحمة الله عز وجل في
الأخرة.

ألا وإني استخلفتُ عليكم أبا هريرة فاسمعوا له وأطيعوا، وإياكم
والخلاف، فوالله لئن عدتم لمعصية لأعودنَّ عليكم بالهلاك وقطع النسل^(١)
وقال البلاذري انه بعد أن قرَّ عامل عليّ على المدينة، أبو ايوب الانصاري
أمر بسرَّ أبا هريرة أن يصلي بالناس

وفي البداية والنهاية لم يذكر ابن كثير صراحة تعيين أبي هريرة من قبل
سر، ولكنه روى ما يؤكد ذلك. فقد ذكر ان جارية بن قدامة الذي ارسله عليّ
لمواجهة هجوم سر سار حتى أتى المدينة، وأبو هريرة يصلي بهم. فهرب
منه. فقال جارية: والله لو أغلقت أبا سنور لضربت عنقه

هذه الروايات التي تخبرنا ان أبا هريرة تم تعيينه من قبل رجل معاوية
كوالٍ على المدينة، رغم الطابع المؤقت والمرحلي للتعيين، يمكن قبولها.
فهي مدعومة بما استفاض من أخبار عن الفترة اللاحقة من حياة أبي هريرة -
ايام خلافة معاوية. ويمكن القول ان أبا هريرة لعب دورا ايجابيا لصالح معاوية
ومشروعه. ففي الوقت الذي كان فيه علي بن أبي طالب في أمس الحاجة إلى
دعم كل المسلمين له في صراعه ضد تحالف طلقاء قريش، جاء أبو هريرة
بروايات واحاديث تشييط عموم الناس عن نصرة الجانب الذي على الحق،
وهو عليّ كما لا يخفى. فقد صوّر أبو هريرة للناس أن الجانبين متساويان في
سميها للحق وأن اتتالهما قنرٌ إلهي. روى البخاري في صحيحه:

عن أبي هريرة قال رسول الله(ص): ستكون فتنٌ القاعد فيها خيرٌ من
القائم، والقائم فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، ومن
يشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليمد به

وايضا عن أبي هريرة لا تقوم الساعة حتى يقتل فتيان، فيكون بينهما
مقتلة عظيمة، دهماهما واحدة.....

(١) وروى مثل ذلك ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة .

ورغم أن أبا هريرة لم يشارك مباشرة في القتال إلى جانب معاوية، إلا أنه مارس دورَ المحدث الرسمي لدولة معاوية، وساهمَ بقدر طاقته في إضفاء الشرعية على فلسفة معاوية وسياسته. فكان أبو هريرة على انسجام تام مع معاوية في حملته الدعائية الهائلة. ومن ذلك ما رواه في رفع ذكر عثمان ومحاولة الحط من قدر علي:

قال أبو هريرة: «كنا معاشر أصحاب رسول الله (ص)، ونحن متوافرون، نقول: أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، ثم نسكت»⁽¹⁾

وعن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال «لكل نبي رفيق في الجنة، ورفيقي فيها عثمان بن عفان»⁽²⁾

وقد جنى أبو هريرة ثمار مواقف تلك عندما انفرد معاوية بالحكم. فلم يكتب معاوية بتعيينه محدثاً رسمياً للدولة، واعتماده مفتياً، وجمع الناس عليه بعد رفع ذكره الذي كان خاملاً، بل أدخله في السلطة التنفيذية عن طريق تعيينه والياً على المدينة المنورة⁽³⁾

ولا عجب بعد هذا التحالف المبني على المصلحة والمنفعة بين معاوية وأبي هريرة، أن تنهال العطايا والنعم من الحاكم على الراوية:

فقد جاء في صحيح البخاري بشأن أبي هريرة «كنا عند أبي هريرة وحليه نويان مشقان من كتان. قممط. فقال: بخ بخ! أبو هريرة يتممط في الكتان!»

المزيد من الضربات لعلي⁽⁴⁾

نصب معاوية نفسه علماً مرفوعاً وعنواناً معروفاً لكل إنسان لديه مشكلة

(1) تاريخ دمشق لابن عساکر

(2) تاريخ دمشق لابن عساکر

(3) وهناك المزيد من التفاصيل حول العلاقة التي ربطت أبا هريرة بالأمويين، وقد استفاض في ذكرها واستفاضها الشيخ المصري أبو رية في كتابه «اضواء على السنة المحمدية».

(4) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4 ص 100 وص 107) تاريخ الجعفي (ج 2 ص 201)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج 3 ص 219)، كتاب «الفتا» لابن حبان (ج 2 ص 299-301)، تاريخ خليفة بن غياث (ص 150)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج 3 ص 324).

مع شخص عليّ أو سياسة عليّ أو حكم عليّ! بل واتبّع معاوية سياسة مواجهة إلى عتال عليّ في كل مكان محاولاً استمالتهم إلى جانبه عن طريق بذل الوعود لهم بالمال الوفير والمناصب العالية لديه! ولم يكن معاوية لينسى أن يُذكر هؤلاء الولاة وزعماء القبائل بأنهم لن يتمكنوا من جني الفوائد وكثر الغنائم في ظل عليّ الذي لن يسمح لهم بذلك وسيحاسبهم بكل شدة على أي تجاوزٍ على الرعية أو انحراف في الحكم.

فانهماك معاوية في حملة مراسلاتٍ مع القيادات المنضوية تحت حكم عليّ. وكان عليّ يعلم بذلك عن طريق بعض ولاته المخلصين الذين كانوا يطلعون على ما يكتبه لهم معاوية.

ونجح معاوية في إغراء بعض القيادات القبلية والإدارية التي كانت فاسدة أصلاً أو ارتكبت تجاوزاتٍ وأعمال فسادٍ وخشيت من ردّ فعل عليّ.

فمثلاً، كان مصقلة بن هبيرة الشيباني عاملاً لعليّ على أردشير خرة في إيران. وقد اتفق مع معقل بن قيس على أن يشتري منه السبي الذي معه من الموالي والنصارى وبنى ناجية، وهم خمسمائة، بعد أن انتصر على الخريت وتمردّه. وقام مصقلة بدفع جزء من الثمن المتفق عليه لبيت المال، على أن يستكمل دفع الباقي فيما بعد. وأبلغ معقل أمير المؤمنين عليّ بذلك.

ورغم انهماك الشديد في حرب معاوية والخوارج، إلا أن علياً لم ينسَ مصقلة وأمواله المستحقة لبيت المال. فلما لاحظ تأخر مصقلة بالسداد كتب له:

«أما بعد: فإن من أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأعظم الغش على أهل المصر غش الإمام. وعنهك من حق المسلمين خمسمائة ألف، فابحث بها إليّ ساعة بآتيك رسولي، وإلا فأقبل حين تنظر في كتابي. فإني قد تقدمت إلى رسولي إليك لا يدعك أن تقيم ساعة واحدة بعد قدومه عليك إلا أن تبعث بالمال. والسلام عليك»

وأمام طلب الخليفة الفاطمي، لم يجد مصقلة بداً من الترخّم على أيام عثمان بن عفان الذي لو كان حياً لما طالبه بدفع ما يستحق عليه لبيت المال! فقال لمتدوب عليّ:

« أما والله لو أن ابن هنتر هو طالبني بها أو ابن عفان لتركها لي! ألم تر إلى ابن عفان حين أطعم الأشت من خراج آذوبيجان مائة ألف في كل سنة! » وكانت النتيجة أن هرب مصقلة إلى عدو عليّ في الشام: معاوية. ولم يكتب بذلك بل أخذ يكتب لأخيه الرسائل يدعو فيه إلى ترك عليّ والانضمام إلى معاوية الذي أجزل لهما الوعدا
وكان رد فعل عليّ:

« ما له ترخه الله؟ فعمل فعل السيد وقر فرار العبد، وغان خيانة القاجر؟! أما والله لو أنه أقام فمجز ما زدنا على حبه، فإن وجدنا له شيئاً أخفناه، وإن لم نقدر على ما تركناه»⁽¹⁾

وبلغ علياً أن واليه عليّ البحرين، النعمان بن العجلان، قد اغتصب من أموال الخراج، فكتب إليه يحلوه من الخيانة، فما كان من الوالي إلا أن حمل الأموال ولحق بمعاوية⁽²⁾

وتعرض عليّ إلى خيانة أخرى من واليه عليّ الري، يزيد بن حجية، الذي نهب بيت المال وفر إلى معاوية⁽³⁾

رد فعل عليّ

ورغم أن علياً كان يعرف أن معاوية متهمك في محاولاته لرشوة ولاية عليّ وقادة جيوشه وزعماء القبائل ووجهاء الأمصار واستطابهم لصفه، إلا أنه لم يغير سياسته ورفض أن يسلك نفس المتهج تجاه قيادات معاوية ورجاله. وقد كان عليّ أيضاً يرسل رجال معاوية، ولكن ليس ليرشيم أو يطعمهم ويفريهم، بل ليكشف لهم حقيقتهم أمام ضمايرهم وأمام الناس! فليس لدى عليّ ما يطعم به هؤلاء. فمثلاً هو كتب إلى عمرو بن العاص: « قائلك جعلت دينك تبعاً للناس! ظاهر غيبه مهتوك ستره، يشين الكريمة بمجلسه، ويسفه

(1) خبر مصقلة وكلام عليّ من تاريخ الطبري

(2) تاريخ الخلفاء

(3) الري هي منطقة طهران الحالية في إيران. وهذا الخبر من أنساب الأشراف للبلاذري .

الحليم بخلطته، فأتبعت أثره وطلبت فضله، أتباع الكلب للضرغام، يلوذ الى مخالفه، ويتنظر ما يلقي إليه من فضل فريسته، فأذهبت دنياك وآخرتك، ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت. فإن يمكّنني الله منك ومن ابن أبي سفيان أجزكما بما قدّمتما، وإن تعجزا وتبقيا، فما أمامكما شر لكما»⁽¹⁾

ولم يغير عليّ سياسته تجاه عماله قيد انملة، رغم حاجته الموضوعية إلى استرضائهم لضمان استمرار ولائهم. كان عليّ شديد المراقبة لولاته، يشدد عليهم في الحساب، وفي استيفاء ما عليهم من حقوق الناس، ويشدد عليهم في سيرتهم العامة والخاصة فيعطي كل واحد منهم عهداً يقرؤه على الناس حين يتولى أمرهم ليكون عهداً بين الناس وبين حاكمهم، لا يجوز لهم ولا له أن ينحرفوا عنه وإلاّ وجبت عليهم العقوبة وأنفذ الحاكم في المخالفين هذه العقوبة. وإن انحرف الحاكم وجبت عليه العقوبة وأنفذها فيه الإمام نفسه.

ثم كان عليّ يرسل الأرصاد والرقباء ليطلعوه على سيرة العمال. وكان كل رجل من أهل الأقاليم رسداً ورقياً على حاكمه، يستطيع أن يشكوه إلى الإمام كلما انحرف عن العهد الذي أخذ عليه.

فكذلك كانت سيرة عليّ في عماله، سيرة حزم وعدل. يشجع المحسن منهم ويشدد على المسيء، لا يحابي في شيء من ذلك، ولا يعرف مداورة ولا مجازاة، وإنما هو التصح للمسلمين والعدل في الرعية وإقامة الحق في أولئك وهؤلاء.

وطبعاً كانت هذه السيرة المثالية فرصة سانحة استغلها معاوية إلى أقصى حد في استقطاب كل من لا تطيب نفسه بها من الولاة والرؤساء.



وأخيراً قرر معاوية أن يعلن تحديّه لآخر رمزٍ لشرعية عليّ كخليفة للمسلمين، وهو إقامة شعائر الحج للناس⁽²⁾ ففي أواخر عام 39 للهجرة،

(1) نهج البلاغة

(2) وهذا الخبر عن ابن شجرة من أنساب الأشراف للبلاذري، وليس من كتاب «الفتا» لابن حبان ولكن رواية ابن حبان تذكر أن الذي كان على الحج من طرف عليّ هو عبد الله بن العباس وليس كتم. وهذا خطأ. وقد ذكر خليفة بن خياط في تاريخه خبر ابن شجرة مختصراً وضمن أحداث سنة 39.

أرسل معاوية مندوباً له يدعى يزيد بن شجرة الرهاوي، على رأس قوة عسكرية، إلى المدينة ومكة، وأمره بتحدي والي عليّ في مكة ومندوبه على الحج، قثم بن العباس.

وفعلاً وصل ابن شجرة وقواته إلى الأماكن المقدسة في موسم الحج، معلناً أنه جاء لإقامة الصلاة بالناس كمنسوب عن معاوية. وبعد أخذ ورد، ووساطات من قبل الكثير من المسلمين الذين كرهوا حصول قتالٍ وسفك دماء في بيت الله ومسجد رسوله، انتهت الأمور إلى حلٍّ وسطيٍّ وهو قيام طرف ثالثٍ بمهمة الصلاة بالناس! وفعلًا تولى شيعة بن عثمان بن ابي طلحة تلك المسؤولية بعد أن تراضى الناس عليه، نظراً لأن عائلته، عبد الدار، هي التي تملك مفاتيح الكعبة منذ زمن الجاهلية، وأقرهم الرسول (ص) على ذلك.

وأن هذا الترتيب لم يرضي عليّاً على الإطلاق، فأرسل جيشاً من 1900 رجل بقيادة معقل بن قيس الذي وصل متأخراً، فلم يستطع اللحاق سوى بنفر قليل ممن تخلف من قوات ابن شجرة، الذي تابع مسيره حتى وصل إلى معاوية في الشام ويشره بنجاحه في تحدي سلطان عليّ في أهم رمز لوحدة أمة الإسلام: الحج.

عرض معاوية الجديد

وبعد تلك السلسلة من الغارات الوحشية التي شنتها معاوية، وبعد أن بدأ يزاحم عليّاً في سمائر الحج في الحجاز، قرر معاوية أن يحاول جني الثمار، سياسياً، من ذلك كله. فكتب إلى عليّ عام 40 للهجرة:

«أنا إذا شئت، فلنك العراق وليّ الشام.

ونكفّ السيف عن هذه الأمة، ولا تهريق دماء المسلمين»⁽¹⁾

(1) تاريخ الطبري (ج 4 ص 107). والطبري يكمل هذه الرواية ويقول فيها أن علياً وافق على عرض معاوية فتراضيا على ذلك. ولكن من المؤكد أن هذا الجزء من الرواية غير صحيح، لأن علياً استمر حتى آخر يوم في حياته وهو يمدّ لفرو الشام، ولم يوافق أبداً على فكرة التنازع.

وهكذا فإن معاوية يهدف إلى رفع سقف مطالباته. فهو الآن يرى نفسه أصبح في وضع يتيح له أن يسامي علياً، بشكل علني، ليغيّر وضعه من مجرد «والي متمردة» ضد «خليفة المسلمين»، ويصبح هو وعليّ على قدم المساواة في ادعائهما للخلافة.

وكان معاوية جذاباً في عرضه. ولو أبدى عليّ قبولاً لكان يمكن لمعاوية أن يلتزم تماماً باتفاق لتقاسم العالم الإسلامي، بحيث تكون من نصيبه الشام ومصر، على الأقل.

وكان جواب عليّ: الرفض المطلق

«فأنا طلبك إليّ الشام، فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس. وأما قولك إن الحرب قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفُس بقيت، ألا ومن أكله الحق فإلى الجنة ومن أكله الباطل فإلى النار. وأما استواؤنا في الحرب والرجال، فليست بأمضى على الشك منّي على اليقين...»⁽¹⁾

رغم كل الأحوال: حزم عليّ لا يلين

قال طه حسين:

«وقد انتهت كل هذه الأمور بعليّ إلى عزيمة أتمها الله له، فيها كثير من اليأس وفيها كثير من المغامرة. ولكنها كادت أن تبلغه مأربه لولا أن الناس يدبرون وأمر الله غالب، والكلمة الأخيرة للقضاء المحتوم لا لما يدبرون.

فقد خطب عليّ أصحابه داعياً لهم أن يتجهزوا لقتال أهل الشام محرّضاً لهم على ذلك أشد التحريض، كما تعود أن يفعل. فسمعوا منه وانصرفوا عنه ولم يصنعوا شيئاً، كما تعودوا أن يفعلوا.

فلما استيأس منهم دعا إليه رؤسائهم وقادتهم وأولي الرأي فيهم. وتحدث إليهم حديثاً صريحاً لا لبس فيه. وجعل يبعثهم أمامهم يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم، إن أمكن أن ترى التبعات بالعيون وتلمس

(1) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده

بالأيدي. يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوهُ عَلَى الْخِلَافَةِ دُونَ أَنْ يَطْلُبَهَا إِلَيْهِمْ، وَعَرَضُوا عَلَيْهِ يَبْعَتُهُمْ دُونَ أَنْ يَعْضِ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ هُمْ الْآنَ يَظْهَرُونَ طَاعَةً وَيَضْمُرُونَ نَكْأً. وَقَدْ طَاوَلَهُمْ حَتَّى سَمِعَ الْمَطَاوِلَةَ، وَانْتَظَرَ نَشَاطَهُمْ لِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ حَتَّى مَلَّ الْإِنْتِظَارَ. وَعَظَّمَهُمْ فِي غَيْرِ طَائِلٍ، وَحَرَّضَهُمْ فِي غَيْرِ غَنَاءٍ، وَقَدْ أَرْمَعَ أَنْ يَمْضِيَ لِحَرْبٍ خَصَمَهُ فِي الشَّامِ مَعَ مَنْ تَبِعَهُ مِنْ أَهْلِهِ وَمَنْ قَوْمِهِ، فَإِنْ لَمْ يَتَّبِعْهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ مَضَى وَحِيداً فَقَاتَلَ حَتَّى يُبْلَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيُلْقَى الْمَوْتُ فِي ذَاتِ الْحَقِّ.

وَلَسْتُ أَرَى بَدْأً مِنْ أَنْ أُثَبِّتَ هُنَا نَصَ حَدِيثِهِ إِلَيْهِمْ كَمَا رَوَاهُ الْبَلَاذُرِيُّ، فِيهِ الْحِجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسْفَدُوا عَلَيْهِ رَأْيَهُ بِالْمَصِيانِ حَتَّى ظَنَّتْ قَرِيشُ بِهِ الظُّنُونُ، وَقَالَتْ فِيهِ الْأَقَاوِيلُ، وَحَتَّى عُصِيَ اللَّهُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ لَا يَغْضِبُونَ لِحَقِّ وَلَا دِينٍ. قَالَ:

(أَمَّا بَعْدُ: أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَى هَذِهِ السَّيِّئَةِ فَلَمْ أَرْدَكُم عَنْهَا. ثُمَّ بَايَعْتُمُونِي عَلَى الْإِمَارَةِ وَلَمْ أَسْأَلْكُمْ إِيَّاهَا. فَتَوَثَّبَ عَلَيَّ مَتَوَثِّبُونَ كَفَى اللَّهُ مَوْثِقَهُمْ وَصَرَّعَهُمْ لَخُدُودِهِمْ وَأَتَمَّسَ جُدُودَهُمْ وَجَعَلَ دَائِرَةَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ. وَبَقِيَتْ طَائِفَةٌ تَحَدَّثُ فِي الْإِسْلَامِ أَحْدَانًا. تَعْمَلُ بِالْهَوَى وَتَحْكُمُ بِغَيْرِ الْحَقِّ، لَيْسَتْ بِأَهْلٍ لِمَا ادَّعَتْ. وَهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَدَّمُوا قُدَّعُوا تَقَدَّمُوا. وَإِذَا أُقْبِلُوا لَا يَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِهِمُ الْبَاطِلَ، وَلَا يَظْلُمُونَ الْبَاطِلَ كُذِّبَ لَهُمُ الْحَقُّ. أَمَّا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ مِنْ عِتَابِكُمْ وَخِطَابِكُمْ فَيُنَوِّلُونِي مَا أَنْتُمْ فَاعِلُونَ. فَإِنْ كُنتُمْ شَاخِصِينَ مَعِيَ إِلَى عَدُوِّي فَهِيَ مَا أُطْلَبُ وَمَا أَحْبَبُ، وَإِنْ كُنتُمْ غَيْرَ فَاعِلِينَ فَالْكَشْفُ إِلَيَّ عَنْ أَمْرِكُمْ أَرَى رَأْيِي. فَوَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ تَخْرُجُوا مَعِيَ بِأَجْمَعِكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ تَفْقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، لَا دَعْوَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ ثُمَّ لَا سِيرَ إِلَى عَدُوِّكُمْ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ إِلَّا عَشْرَةٌ. أَجَلَاؤُ أَهْلِ الشَّامِ وَأَعْرَازُهَا أَصْبَرُوا عَلَى نَصْرَةِ الضَّلَالِ وَأَشَدَّ اجْتِمَاعاً عَلَى الْبَاطِلِ مِنْكُمْ عَلَى هَذَا كَيْفَ وَحَقِّكُمْ؟ مَا بَالُكُمْ وَمَا دَوَاؤُكُمْ؟ إِنْ الْقَوْمُ أَمْثَالُكُمْ لَا يُنْشِرُونَ إِنْ قُتِلُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

وَكَانَ الرُّؤَسَاءُ وَالْقَادَةُ قَدْ اسْتَحَوْا مِنْ عَلِيٍّ، وَاسْتَخَزَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ، وَأَشْفَقُوا أَنْ يَنْفَذَ مَا صَوَّبَ عَلَيْهِ فَيَمْضِي وَحْدَهُ أَوْ فِي قَلَّةٍ مِنَ النَّاسِ لِقِتَالِ أَهْلِ

الشام، فيلقطهم بذلك عازي عار، وتصيبهم المحنة في دينهم وفي نفوسهم وفي أمورهم كلها. فقام خطباؤهم إلى عليّ فأحسنوا إليه القول وأخلصوا له النصيح، ثم تفرقوا عنه فتلاوموا، ومضوا لإنجاز ما وعدوا به علياً.

فجمع كل رئيس قومه فوعظهم وحرّضهم، حتى اجتمع لعليّ جيش صالح قد تعاقد الجند فيه على الموت. ثم أرسل عليّ معقل بن قيس يمتي له أهل السواد ليضمهم إلى من اجتمع له في الكوفة. وأخذ يرسل إلى عماله فيما وراء العراق من شرق الدولة يدعوهم إلى النهوض إليه ليكونوا معه في حربه. وأرسل زياد بن خصفة في جماعة من أصحابه طليعة بين يديه، وأمره أن يغيّر على اطراف الشام ليرقّ أهلها.

وإن علياً لفي هذا الاستعداد وقد ترامت له غايته، إذا القضاء يقول كلمته، فينفّض عليه وعلى أهل العراق كل تدبير⁽¹⁾

وبالفعل فإن علياً تمكّن في الفترة الأخيرة التي سبقت مقتله من حشد جيش لا يستهان به من أهل العراق يتراوح ما بين 40 إلى 50 ألف مقاتل عربي⁽²⁾، ويتبعهم ربما 10 أو 15 ألفاً آخرين من مواليهم، وبدأ الاستعداد الجدي لغزو الشام من جديد. كان ذلك نوعاً من التهيئة العامة أطلقها عليّ في صفوف أهل العراق الذين ربما بدأوا يشعرون بضرورة الاستجابة لعليّ من أجل وقف تهديد معاوية لهم في معقلهم وبلدكم، خصوصاً بعدما ظهر منه ومن قواته من بطش وقسوة تجاههم.

وجديرٌ بالذكر أن علياً، بمجهوده الجبار واعتماداً على شخصيته الفذة، نجح في تكوين جيل جديد من القادة من ضمن أهل العراق، ليحلّ مكان الجيل الأول الذي مضى، جيل الأشتر وعمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر وعثمان بن حنيف، ومكان اقرباء عليّ من بني العباس. ويلاحظ في المصادر نشاطاً كبير لقادة عسكريين كثرين وشبان بدأوا في البروز وتولي القيادة العسكرية

(1) الفتنة الكبرى - علي وبنوه (ص 142-143). والنص الذي أورده طه حسين موجود في انساب الاشراف للبللاذري (ج 3 ص 235-236).

(2) يقول لنا ابن كثير (البلدية والنهاية ج 8 ص 16) انه قيل اغتيال عليّ كان تحت إمرة قيس بن سعد 40 ألف مقاتل «بابوا علياً على الموت»!

والادارية في معسكر عليّ. ومن أهم هؤلاء كان جارية بن قدامة السعدي (من قبيلة نعيم)، ومعلل بن قيس الرياحي (من نعيم ايضا)، وسعيد بن قيس (من قبيلة همدان)، والمسيب بن نجبة (من فزارة)، ومالك بن كعب (من همدان)، وحجر بن هدي (من كندة)، بالإضافة الى قيس بن سعد الانصاري وسعد بن مسعود (التقفي)، ومعهم زياد بن ابيه في البصرة وفارس.

وهؤلاء بدأوا باظهار كفائهم وقدراتهم الحربية، وخصوصا في التصدي لغارات معاوية ومطاردة قواته واستعادة السيطرة على المناطق التي تعرضت للهجوم. وتميز هذا الجيل الجديد من القادة بالولاء الشديد لعليّ، ونجح في إزاحة ظل الاشراف القبليين التقليديين جانبا (وخصوصا الاشعث بن قيس). وكانوا جديين تماما في مشروع اعادة غزو الشام، لولا ان الوقت لم يسمحهم.

الجزء الرابع:
معاوية خليفة

الفصل الأول: مقتل علي

الخلفيات: عقيدة الخوارج⁽¹⁾

سبق وتحدثنا عن ظروف نشأة الخوارج كفرقة سياسية مسلحة في أثناء معركة صفين وما بعدها. وقد تطورت معتقدات الخوارج بالتدريج، ومع تطوّر الظروف الهائلة في العراق. فشعارهم الأول « لا حكم إلا لله » أصبح يعني بالفعل رفضاً لشرعية خلافة علي بن أبي طالب، الذي ضلّ وكفر بنظرهم حين قبل التحكيم. ومع مرور الزمن أصبح للخوارج نظريتهم الخاصة حول نظام الحكم الإسلامي. فخلافاً للفكر الشيعي الذي يحصر حق الخلافة في آل بيت النبي (ص)، وخلافاً للفكر السني الرسمي، الذي روّجت له الدولة الأموية، الذي يحصر الخلافة في «قرش»، تبنت الخوارج النظرية القائلة بأن الخلافة في دولة الإسلام تجوز لكل المسلمين، الذين هم سواسية كأسنان المشط. وكانت بداية تمييز الخوارج الأولين عن هذه الأفكار باختيارهم رجلاً غير قرشي، وهو عبد الله بن وهب الراسبي، «أميراً» وقيامهم بمبايعته.

إذن قرر الخوارج رفض «الهيمنة» القرشية على إطلاقها. وهم بذلك يرفضون الفكرة القائلة إن قبيلة الرسول (ص) يمكن أن يكون لها أي فضل، لمجرد كونه منها. فالمؤمنون أخوة، ولا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى. وإذا أراد القرشيون التميّز، فالإيمان هو المعيار، لا النسب.

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4 ص 55 و ص 62)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 161 و ص 166)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص 446).

اعترف الخوارج بصحة خلافة أبي بكر وعمر واعتبروا سيرتهما سالحة
لأنهما كانا قد احترما كتاب الله. وقد روى ابن قتيبة حواراً بين علي بن أبي
طالب ورجل ممن أصبحوا خوارج، أصرّ فيه الرجل على إدخال « سنة أبي
بكر وعمر » كشرط للبيعة:

« فقال له الإمام علي: تباع على كتاب الله وسنة نبيه؟ »

قال: لا ! ولكن أباعك على كتاب الله وسنة نبيه وسنة أبي بكر وعمر.

فقال علي: وما يُدْخِلُ سنة أبي بكر وعمر مع كتاب الله وسنة نبيه؟ إنما
كانا عاملين بالحق حيث عملنا.

فأبى الخشمي إلا سنة أبي بكر وعمر. وأبى علي أن يباعه إلا على كتاب
الله وسنة نبيه (ص).

وروى الطبري أن قيس بن سعد بن عبادة، حين كان يدعو نواة الخوارج
الأولين إلى طاعة عليّ والخروج معه لحرب أهل الشام، واجهه رجلٌ منهم
طلب غريب: إمامٌ كعمر بن الخطاب !

« فقال عبد الله بن شجرة السلمي: إن الحق قد أضاء لنا فلنسا تبايعكم أو
تأتونا بمثل عمر ! »

فقال: ما نعلمه فينا غير صاحبنا ! فهل تعلمونه فيكم؟ »

وهناك روايات تفيد بأنهم اعترفوا بصحة خلافة عثمان خلال السنوات
الست الأولى من حكمه، أما بعد ذلك فلم يعترفوا بإمامته، وأنكروا أعماله
باعتباره انتهك الكتاب.

واعترفوا بخلافة علي، حتى التحكيم⁽¹⁾، ثم تبرأوا منه بعد ذلك، واتهموه
بالكفر وطالبوه بالتوبة، ولم يعترفوا بأحقية بالخلافة اعتماداً على قرابته
للنبي (ص).

(1) في رواية ابن الأثير في الكامل أن الخوارج كانوا « يستنصرون » ضحاياهم من عامة
المسلمين بأسئلة من ضمنها « ما تقول في عثمان في أول خلافته ؟ ما تقول في عليّ
قبل التحكيم ؟ ».

واعتقد الخوارج أنهم أهل الحق والعدل، وأن غيرهم أهل الباطل والظلم. وأنهم الأمرون بالمعروف والنهي عن المنكر. ولذلك فبقوا الدنيا ورفضوها وأنكروا البدع. ومن هذا المنطلق ظهرت بينهم فكرة الخروج من القرية الظالم أهلها، لإحقاق الحق ونشر العدل. ولعلهم أرادوا داراً للهجرة - حسب المفهوم الإسلامي الأول - مشبهين بهجرة النبي (ص) من مكة للمدينة. ويبدو أن الخوارج فكروا منذ البداية ببلدٍ خاصٍ بهم: قال عبد الله بن وهب الراسبي، أول زعيم للخوارج لأتباعه «... فآخروا بنا، إخواننا، من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدن منكرين لهذه البدع المضلة.... اشخصوا بنا إلى بلدٍ نجتمع فيها لإنفاذ حكم الله، فإنكم أهل الحق...»⁽¹⁾

وأجاز الخوارج قتل كل مسلم لا يرى رأيهم، وقتلوا بالفعل عدداً من المسلمين بحجة مخالفة آرائهم، بينما عفا عن أهل الذمة حفظاً للذمة رسول الله (ص)!

قال هشام جعيط إن «رفضهم للتحكيم قد صار بنظرهم بمثابة عقيدة تفصل المؤمنين الحقيقيين» عن كل المسلمين الآخرين، المطروحين الآن بوصفهم كفّاراً مارقين. إن مصير الأمة يجب أن يكون بين يدي الله وحده، أي النص (القرآن)، ولكنه نص قد انتحلوا لأنفسهم الحق بأن يكونوا مفسريه الوحيدين.

كانت الحركة (الخوارج) ترغب في مصادرة كل معنى الإسلام لصالحها، وفي أن تجعل من نفسها مفسرته، وأن تفرض ديكتاتورية تفسيرها على الجميع، ديكتاتورية أقلية مفسرة بحقها وحقيقتها.

وكانوا يعتبرون كل أولئك الذين لا يشاطرونهم الرأي كفّاراً، وبالتالي يعلنون أن مهمهم حلال: عليّ، مواطنوهم في الكوفة والبصرة وكل المسلمين الآخرين. لاحقاً، سيستولون أنفسهم بـ «المسلمين»، أي أنهم وحدهم المسلمون. وكانوا يتميزون، منذ تلك المرحلة الأولى، بأسلوب في العمل

(1) تاريخ الطبري. وأيضاً الإمامة والسياسة لابن قتيبة

والاعتقاد، قائم على التوبة، والتكفير (إذ كانوا يكفرون كل شخص سواهم)،
والسعي وراء الشهادة وواجب إراقة دم الآخرين، سواء في المعركة، أم
بالاختيال الفردي - الاستعراض⁽¹⁾.

وكانت أفكار الخوارج تعتبر خلواً وشططا في الدين. وكانت أيضا
تفسيرا سطحيا، أو قسريا لتصوص القرآن. وقد كان علي بن أبي طالب يميز
بين أعدائه الجدد من الخوارج، وأعدائه القدامى من جماعة معاوية. فقد قال
ببلاغته الفريدة: «ليس من طلب الحق فأخطأ، كمن طلب الباطل فأصابه»

كانت مشاعر الثأر والانتقام للقتلى، أو للشهداء كما اعتبروهم، تحرك
الكثيرين وتدفعهم للحاق يركب الخوارج. وهذه مشاعر ضاربة الجذور في
أعماق الشخصية العربية. فكان لكل قبيل من الخوارج من يرثيه ويرغب بالأخذ
بثأره ممن قتله. وينظرهم، كان المسؤول الأول عن كل قتلهم هو علي.

لقد قدر لعلي بن أبي طالب أن يواجه حقدا قرشياً لا يزول، ولا تمحوه
الأيام، لأنه ينظر قرش «القاتل السفك» الذي وترها وأباد شيوخها. ولم
يستطع رسول الله (ص)، برغم سياسته المتسامحة تجاه القرشيين يوم الفتح،
وبرغم عفوه عن صناديد الكفر الذين كانوا يؤذونه، وبرغم سياسة «المؤلفة
قلوبهم» التي اتبعها، أن يمحو ذلك الحقد القرشي الأسود نحوه، والذي أخذ
ترجمته العملية في معاداة علي بن أبي طالب.

وها هو علي بن أبي طالب يجد نفسه، في العراق هذه المرة، يواجه فئة
تأصل الحقد والكراهة في نفوس أبنائها تجاهه، تراه أيضا «القاتل السفك» الذي
أباد الآلاف منهم بلا رحمة! وبالتالي قدر على علي أن يواجه جيشاً آخر من
الموتورين المستعدين للسير في طريق العداء إلى نهايته.

سيناريوهات عملية الاختيال

وردت عدة روايات، فيها الكثير من الخيال، حول تفاصيل حادث اختيال
الإمام علي.

(1) من «الفئة» لهشام جعيط (ص 226-227).

رواية تقول إن الخوارج نسجوا خيوط مؤامرة ثلاثية محكمة، عندما اجتمعوا في مكة أثناء الحج عام 39. وتمضي الرواية فتقول إن الخوارج تدارسوا أوضاع الأمة وعابوا كلاً من عليّ ومعاوية «الذين أفسدا في الأرض، واستحلا حرمة هذا البيت»، وذكروا إخوانهم الذين قتلوا في النهروان وترحموا عليهم، وفي النهاية قرروا التخلص من كل المسؤولين، فاتفقوا على مؤامرة ثلاثية الأبعاد. بحيث يقوم أحدهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي، بقتل عليّ في الكوفة، ويقوم ثانٍ، وهو البرك بن عبد الله الصريمي، بقتل معاوية في الشام، ويقوم الثالث، وهو عمرو بن بكر التميمي⁽¹⁾، بقتل عمرو بن العاص في مصر. واتفقوا على أن يتغذوا عمليتهم في نفس اليوم وهو 17 رمضان عام 40.

وحسب هذه الرواية فإن ابن ملجم نجح في مهمته، بينما فشل زميله الآخران. فالثاني طعن معاوية ولكن الطعنة أنت في إليه⁽²⁾، بسبب الحراس الذين تدخلوا. وأما الثالث ففشل أيضاً لأن عمرو بن العاص كان معتلاً ذلك اليوم ولم يذهب للصلاة، فقام الخارجي بقتل المنتدوب الذي بعثه ابن العاص ليؤم الناس نيابة عنه⁽³⁾، عن طريق الخطأ!

وهناك رواية أخرى تتحدث عن حبكة يدخل فيها الثأر والحقد والعشق لتشكل عناصر الاغتيال وتتخلص هذه الرواية في أن عبد الرحمن بن ملجم، حين قدم الكوفة تمهيداً لاغتيال عليّ، تعرّف على امرأة فائقة الجمال، تدعى قطام بنت علقمة، كان أبوها وأخوها قد قتلوا في النهروان مع الخوارج، فأحبها

(1) وانفرد أبو حنيفة الفيتوري في الإخبار الطوال عن بقية المصادر بذكر اسمين مختلفين من بين هؤلاء الثلاثة: فمما عن ابن ملجم قال إن المتأمرين الآخرين هما «الزئال بن عامر وعبد الله بن مالك الصيداوي»

(2) ومن طرائف الروايات أن بعضها يربط بين قلة أبناء معاوية وانقطاع نسله وبين الضربة هذه التي تلقاها على يديه! قال ابن الأثير في الكامل إن الطيب عندما أتى معاوية قال له «إنك إما أن أحمي حنيفة فأضعها موضع السيف وإما أن أسقيك شربة قطع منك الولد وتبرأ منها، فإن شربتك مسمومة. فقال معاوية: أما النار فلا صبر لي عليها وأما الولد فإن في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني. فسقاء شربة فبرأ ولم يولد له بعدها»

(3) ومن طرائف الروايات أيضاً ما ذكره الطبري والبلخاري أن الشخص الذي انتدبه عمرو بن العاص للصلاة بدلا عنه كان صاحب شرطته واسمه خارجة بن حذافة، وأن القتاتل حين أحضر إلى عمرو بن العاص بعد تنفيذ جريمته قال له عمرو «أردت عمراً، وأرد الله خارجة» فحبس مثلاً!

وطلب منها الزواج. ولكنها، دون أن تعرف شيئاً عن نوايا ابن ملجم، طلبت منه مهراً غالياً: رأس علي! وعند ذلك صارحها ابن ملجم أنه قدم الكوفة لأجل ذلك الهدف بالتحديد! وكشال عليها نورد ما ذكره ابن حبان في كتاب الثقات عن مقتل علي «... وكان السبب في ذلك ان عبد الرحمن بن ملجم المرادي أبصر امرأة من بني تميم الرباب يقال لها طعام وكانت من أجمل أهل زمانها وكانت ترى رأي الخوارج. فولع بها. فقالت: لا تزوج بك إلا على ثلاثة آلاف وقتل علي بن أبي طالب. فقال لها: لك ذلك. فتزوجها وبني بها فقالت له: يا هذا قد عرفت الشرط. فخرج عبد الرحمن بن ملجم ومعه سيف مسلول....»⁽¹⁾

والرواية الثالثة تتحدث عن مؤامرة فيها الأشعث بن قيس الذي، حسب هذه الحبكة، قدّم لعبد الرحمن بن ملجم الدعم اللوجستي الذي احتاجه لتنفيذ عملية الاغتيال، فكان مقيماً عنده، ويات يناجيه ليلة أقدم على الجريمة. قال البلاذري في انساب الاشراف «لم يزل ابن ملجم تلك الليلة عند الأشعث بن قيس يناجيه حتى قال له الأشعث: قم فقد فضحك الصبح. وسمع ذلك من قوله حجر بن عدي الكندي فلما قتل علي قال له حجر: يا اعمورت قتلت»⁽²⁾

وهذه الروايات لا تخلو من عنصر إثارة وتشويق ظاهر لدى رواتها، ويمكن رفضها بكل تأكيد. وأحياناً تتداخل الروايات الثلاثة بعضها ببعض بحيث يصبح القتل نتيجة مؤامرة ثلاثية⁽³⁾ من الخوارج في مكة، تصادفت مع مؤامرة طعام في الكوفة وتصادفت مع تأمر الأشعث بن قيس وتحريضه!

(1) أليس من المستطفي التساؤل ان طعام هذه إذا كانت امرأة ذات هدف كبير كقتل علي، فلماذا تطلب منه مبلغ مالي (ثلاثة آلاف درهم) بالإضافة الى قتل علي؟ ألم يكن قتل علي كافياً بنظرها كمهر لها؟

(2) بل ان أبا الفرج الاصفهاني في مقاتل الطالبين يضيف إثارة للرواية فيقول ان حجر بن عدي عندما سمع وشوشة الأشعث مع ابن ملجم انطلق واكتفى لكتي بخبر علياً ولكن ابن ملجم سبقه فوصل حجر فوجد الناس يقولون: قتل امير المؤمنين!

(3) ومن غرائب الروايات تلك التي اوردتها الامام المهدي في سير اعلام النبلاء نفلا من الزهري وتحدث عن مؤامرة ثلاثية مختلفة: لاغتيال معاوية وعمر بن العاص وحبيب بن مسلمة النهري، وليس فيها علي بن أبي طالب! ويبدو أن هذه الرواية أريكت المهدي فلجأ الى الاجتهاد بشأنها «قلْتُ: هذه المرة غير المرة التي جرح فيها وقتل علي رضي الله عنه».

وأما الذي حصل فعلاً فهو أن الخوارج قرروا النار لقتلهم فأرسلوا أحد فدائيههم فكَمَنَ لعلّي وهو في طريقه إلى المسجد لصلاة الفجر، فضربه بالسيف المسموم على رأسه وهو يصرخ «الحكم لله لا لك يا علي».

وهناك احتمال أن تكون عملية الاغتيال عملاً فردياً من القاتل، عبد الرحمن بن ملجم، وليس بناءً على تخطيط من قيادة الخوارج.

يُدّ الشيطان تفتالُ إمام الزمان⁽¹⁾

وفي تفاصيل العملية: رغم أن المشهور والذائع أن القاتل هو عبد الرحمن بن ملجم، إلا أن كثيراً من المصادر تتحدث عن شريك له في التنفيذ: شبيب بن بجرة الأشجعي. فيقال أنه شاركه في الهجوم بالسيف على عليّ ولكن ضربته أخطأته في حين أصابه ابن ملجم. وتقول الروايات أن ابن بجرة هذا قتل مباشرة بعد العملية على يد بعض الناس، خلافاً لابن ملجم الذي أيسر وبقي حياً إلى حين إعدامه بعد وفاة عليّ. وقد وصف ابن ملجم ذاته قوة ضربته التي وجهها بالسيف إلى رأس عليّ فوالله لقد ضربته ضربة لو قسمت بين أهل الأرض لأملكتمهم⁽²⁾. وعندما أتاه الطبيب وعابن إصابته ورأى جرحه قال له «يا امير المؤمنين اعهدْ عهدك / فإن عدو الله قد وصلت ضربته إلى أم رأسك».

لم يمش عليّ كثيراً بعدها. لم يتم ثلاثة أيام وتوفي مساء يوم الأحد التاسع عشر من رمضان سنة 40 للهجرة. ولكنها كانت كافية لكي يعرف من

(1) أنا أعترف أن هذا العنوان «يد الشيطان تفتال امام الزمان» به قدر كبير من العاطفة تجاه عليّ. وقد فكرت في تغييره ولكنني في الآخر قررت إبقاءه كما هو، كما صدر من قلبي. رغم حرصي الأكيد على الموضوعية والعقلانية في الكتابة.

مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4 ص 110-113-115 و ص 116)، والإمامة والسياسة لابن تيمية (ج 1 ص 180-183)، أنساب الأشراف للبلخاري (ج 3 ص 252-254 و 256-257 و ص 263-264)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص 211-212)، كتاب النقات لابن حبان (ج 2 ص 302-303)، مقاتل الطالبين للأصفهاني (ص 18-22)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص 461)، مستد الامام الشافعي (ص 313)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج 4 ص 282)، الانبياء الطوال للدينوري (ص 213 و ص 216)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج 3 ص 143)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 18 ص 224).

(2) مقاتل الطالبين للأصفهاني.

طعنه وليرك وصيته بشأنه: فقد حرّص وهو يجرّد بأنفاسه الأخيرة على أن يوصي بنيه بحُسن معاملة قاتله حين قبضوا عليه!

«... أطيبوا طعامه وألبسوا فراشه. فإن أحس فأنا ولّي دمي فأما عفوتُ وإما اتقصصْتُ. وإن أنت فألحقوه بي، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»⁽¹⁾

«ولما شرب عليّ دعا أولاده وقال لهم: عليكم بتقوى الله وطاعته، وألّا نأسوا على ما حُرف عنكم منها. وانهضوا إلى عبادة ربكم، وشتموا عن ساق الجد، ولا تتأقلوا إلى الأرض، وتقروا بالخسف، وتبورؤوا بالذل.

اللهم! اجمعنا وإياهم على الهدى، وزمّلنا وإياهم في الدنيا، واجعل الآخرة خيراً لنا ولهم من الأولى. والسلام»⁽²⁾

وتولى غسله ابنه الحسن والحسين، ومعهما ابن عمهما عبد الله بن جعفر، وكفّوه بثلاثة أثواب، ودفنوه، وصلى عليه الحسن.

مكان دفنه المجهول

قال الدينوري في الاخبار الطوال «فلا يعلم أحد أين دفن»

وروى البلاذري «قالوا: ودفن علي بالكوفة عند مسجد الجماعة في الرحبة مما يلي ابواب كتلة، قبل انصراف الناس من صلاة القجر. ويقال: دفن في الغري، ويقال في الكتاسة، ويقال بالسدة. وغمي قبره مخافة ان ينشه الخوارج فلم يعرف»

خطبة ابنه الحسن⁽³⁾:

«أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن جهلني أنبأته باسمي على أن الناس بي عارفون.

(1) أنساب الأشراف للبلاذري. وقريب من ذلك ورد في مستد الإمام الشافعي. وكذلك في كتاب «اللفات» لابن حبان.

(2) الإمامة والسياسة لابن تقيّة

(3) هذا النص من كتاب التفرّج لابن احنم الكوفي.

أيها الناس، قد دفن في هذه الليلة رجل لم يدركه الأولون بعلم، ولا الآخرون بعلم.

ولقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قدمه للحرب فجيء له عن يمينه وميكايل عن يساره، فما يلبث أن يفتح الله على يديه.

أيها الناس، إنه ما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم قد كان أراد أن يتناح بها لأختي أم كلثوم خادماً، وقد أمرني أن أردّها إلى بيت المال.

إعدام ابن ملجم

لقد أورد البلاذري في انساب الاشراف تفاصيل بشعة عن طريقة إعدام ابن ملجم وقتله بشكل شنيع على يد آل عليّ وانصاره. والرواية تخبرنا ان عبد الله بن جعفر بن ابي طالب هو بطل تلك القمعة الشنيعة «... ثم بدر عبد الله بن جعفر فقطع يديه ورجليه، وهو ساكت لا يتكلم، ثم عمد الى سمارٍ محمّي فكحل به عينيه، فلم يجزع وجعل يقول: كحلّت عمك بملحول له مضى. ثم قرأ (اقرأ باسم ربك الذي خلق) حتى فرغ منها وعينه تيلان. ثم عولج عن لسانه ليقطع، فجزع وماتهم! فقيل له: أجزعت؟ قال: لا، ولكنني كرهت أن أبقي وقتاً لا أذكر الله فيه بلساني! فقطعوا لسانه. ثم انهم جعلوه في قوصرة كبيرة، ويقال في بواحي، وأحرق بالنار».

وهذه البشاعة من الصعب جداً تصديقها. فهي أقرب ما تكون إلى السادية والأمراض النفسية، وهي بعيدة تماماً عن اخلاق الامام علي وتربيته. ولا ننسى أن عدداً من الروايات تقول ان علياً قد شدد في وصيته قبل موته على ضرورة عدم التمثيل بقاتله. روى ابن الاثير في الكامل ان علياً قال «انظر يا حسن إن أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثلن بالرجل، فإني سمعت رسول الله (ص) يقول: إياكم والمثلة، ولو بالكلب المقور»

كما ان البلاذري ذاته وبعد ختم روايته تلك بشأن الطريقة الشنيعة لقتل ابن ملجم، أتبعها بالقول «ويقال ان الحسن ضرب عنقه وقال: لا أمثل به» وهذا أصح.

وقد أصبح القاتل «بطل» الخوارج الذي يمتدحونه بالأشعار، فقال
قاتلهم عمران بن حطان في شعر مشهور:

يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا



وهكذا انتهت حياة الإمام الذي وصفه ضرار بن ضمرة لعدوه معاوية بقوله:
«فأشهدُ لقد رأيتُه في بعض مواقفه، وقد أرخى الليلُ سدوله، وهو قائمٌ
في محرابه، قابضٌ على لحيته، يتململُ يتململُ السليم، ويكي بكاءَ الحزين،
وهو يقول:

يا دنيا يا دنيا، إليك عني. أُمي تعرّضتِ؟ أم إليّ تشوّفتِ؟ لا حانَ حينك.
هيهات أُرْزِي حَيْرِي، لا حاجة لي فيك! قد طلفتكِ ثلاثاً، لا رجعة فيها. فعيشك
قصير، وخطرُك يسير، وأهلكِ حقير.

أبو من قلة الزاد، وطول الطريق، وتُعد السفر، وعظيم الموردا»⁽¹⁾
وقال أبو الأسود الدؤلي يرثي علياً⁽²⁾:

ألا أبلغ معاوية بن صخر فلا قرّت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس قرّاً أجمعينا
تلتئم خير من ركب المطايا ورحلها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثاني والميّنَا
إذا استقبلت وجه أُمي حسين رأيت البدر راع الناظرينا
لقد علمت قبري حيث كانت بأنك خيرها حسباً ودينَا
وفي أنساب الأشراف أن أم العريان بنت الهيثم قالت:
وكنا قبل مقتلِهِ بخير نرى مولى رسول الله فينا
يقيم الحدّ لا يرتأب فيه بعلي في البعيد والاقربينا

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

(2) تاريخ الطبري

الفصل الثاني: انتهاء مادي ومعنوي. الحسن يقرر السلام

بيعة حفيد الرسول⁽¹⁾

هل أوصى الإمام علي لابنه الحسن بالخلافة؟ أم أن بيعة الحسن كانت من توافق من أصحاب علي عليه، دون نص صريح على ذلك؟

الجواب أن هناك بعداً جديلاً كلامياً لهذه المسألة، مما يجعلها تخرج عن نطاق التحقيق التاريخي الصرف والبحث في الروايات.

فالشيعة لديهم إجماع بلا خلاف أن علياً قد أوصى للحسن من بعده. وهذه قضية عقائدية لدى الشيعة. والمصادر الشيعية تذكر أن علياً في معرض وصيته قد حدد ترتيب الأئمة من أهل البيت. فمثلاً روى ابن أبي الفتح الأريلي في كشف الغمّة عن سليم بن قيس الهلالي: «شهدتُ أمير المؤمنين عليه السلام حين أوصى إلى ابنه الحسن وأشهد على وصيته الحسين ومحمداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ثم دفع إليّ الكتاب والسلاح وقال له: يا بني أمرني رسول الله (ص) أن أوصي إليك وأدفع إليك كتيبي وسلاحي، كما أوصى إليّ ودفع إليّ كتيبه وسلاحه. وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4 ص 110 وص 123)، الكامل لابن الأثير (ص 461)، تاريخ ابن خلدون (ج 2 ق 2 ص 174)، أنساب الأشراف للبلخاري (ج 3 ص 262 وص 278-279)، تاريخ البقوي (ج 2 ص 214)، كتاب الفتح لابن أحنم الكوفي (ج 4 ص 283)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 8 ص 15)، الأخبار الطوال للذهبي (ص 216) مقاتل الطالبين للأصفهاني (ص 33-34)، كشف الغمّة لابن أبي الفتح الأريلي (ج 2 ص 155).

أن تدفعها الى اخيك الحسين. ثم أقبل على الحسين عليه السلام فقال: وأمرك رسول الله (ص) أن تدفعها الى ابنك هذا، ثم أخذ بيد علي بن الحسين وقال: وأمرك رسول الله (ص) أن تدفعها الى ابنك محمد فاقراء من رسول الله (ص) ومني السلام»

وأما المصادر غير الشيعية، مصادر التاريخ عموماً، فلا ترد فيها الوصية المباشرة من علي باستخلاف ابنه الحسن، بل هي تتحدث ان الناس اجتمعوا وبايعوا الحسن دون الاشارة الى ان ذلك تم بناء على وصية: قال البيهقي «واجتمع الناس فبايعوا الحسن بن علي» وقال ابن اشم الكوفي «فلما مضى علي بن ابي طالب رضي الله عنه الى سبيل الله اجتمع الناس الى ابنه الحسن فبايعوه» وقال ابو حنيفة الدينوري «ولما توفي علي رضي الله عنه خرج الحسن الى المسجد الاعظم، فاجتمع الناس اليه فبايعوه»

بل ان اهم المصادر تذكر رواية تنفي فيها صراحة فكرة أن علياً اوصى لابنه: فقد قال الطبري وابن الاثير وابن خلدون ان شخصا اسمه جندب بن عبد الله دخل على علي حين طعن فقال «يا امير المؤمنين ان تقفناك، ولا نقفك، فنبايع الحسن؟ فقال: ما أمركم ولا أنهاكم. أنتم أبصر». والبلاذري روى نفس الخبر تقريبا ولكن اسم السائل فيه كان: عبد الرحمن بن جندب.

وابن كثير في البداية والنهاية أخرج رواية «مذهبية سنية» بامتياز يقول فيها «ان عليا رضي الله عنه لما ضربه ابن ملجم قالوا له: استخلف يا امير المؤمنين. فقال: لا، ولكن أدعكم كما ترككم رسول الله (ص)، يعني بدون استخلاف. فإن يرد الله بكم خيرا يجمعكم على خيركم كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله (ص)»

وأما ما حصل تاريخيا بالفعل فهو أن الحسن قد بويع. بايع أهل العراق الحسن بن علي بالخلافة، عقب وفاة والده مباشرة، ودون أي خلاف يُذكر. روى البلاذري نقلا عن صالح بن كيسان «قام قيس بن سعد بن عبادة الانصاري فخطب وحمد الله وأثنى عليه، ثم وصف فضل علي وسابقته وقرابته والذي كان عليه في هديه وعدله وزهده، وقرط الحسن ووصف حاله ومكانه من

رسول الله (ص) والذي هو أهله في هديه وحلمه واستحقاقه الأمر بعد أبيه،
ورقيهم في بيعته ودعاهم إلى طاعته. وكان قيس أول من بايعه ثم ابتدر الناس
بيعه⁽¹⁾.

كان الشعور الجماعي بحجم الخسارة التي نتجت عن فقدان علي،
وضرورة الاجتماع بسرعة، على قطبٍ موحدٍ جديد، لقيادتهم، يدفعهم
إلى سرعة مبايعة الحسن بالخلافة، وتجنب أي نزاع. كان الحسن هو
الخيار الطبيعي والمعقوف لأهل العراق، ليخلف والده. لم يكن الأمر يتعلق
بعملية ورائة عادية، ملكية، للحكم. كانت ردة فعل جماهيرية عامة على
حادث الاغتيال الأليم. كان إحساس أهل العراق بالخوف على مستقبلهم،
ومصيرهم، وقضيتهم، هو الذي يدفعهم إلى مبايعة الحسن بن علي بالخلافة
أولاً، ثم الخروج معه لمواجهة الغزو القادم من الشام، بعد فترة وجيزة،
ثانياً.

وعلى الرغم من أن بيعته كانت بإجماع كل أتباع أبيه، إلا أن الدلائل
كانت تشير إلى أن الأمور لا تسير كما يشتهي الخليفة الجديد.

فالصعوبات الهائلة التي واجهها والده في آخر مستين من حكمه، كانت
مرشحة للتعاظم والتضاعف. ولم يكن لينيب عن ذهن الحسن أن أباه، بكل ما
له من تاريخ وثقل لا نظير له في الإسلام، لم يستطع أن يضبط شؤون أهل
العراق، ويجمع شملهم على نحو يؤهله لتحقيق هدفه الجوهري في إلحاق
الهزيمة بمعاوية ومن معه من أهل الشام.

فالحرب الأهلية التي حصلت داخل البيت العراقي، قتال الخوارج،
أضعفت كثيراً معسكر علي بن أبي طالب. ورغم هزيمتها الكبيرة في النهروان،
إلا أن الحركة الخارجية غدت أخيراً في طريقها إلى التأطر والانتظام في سياق
تنظيمي وفكري محدد. ورغم أنهم استمروا في كونهم أقلية ضمن أهل

(1) وفي رواية أخرى للبلاذري أن عبيد الله بن العباس هو الذي خرج إلى الناس ودعاهم
إلى بيعه الحسن. وفي رواية الأصفهاني أن عبد الله بن العباس هو الذي دعا الناس
إلى بيعته. وربما يكون الذي حصل أن جميع هؤلاء المذكورين، قيس وأبني العباس،
قاموا بدعوة الناس إلى بيعه الحسن وحظهم على ذلك.

العراق، إلا أنه أصبح للخوارج، تدريجياً، قاعدة اجتماعية تدعم حركتهم وتمتدعهم بالرجال.

وهكذا وجد الحسن بن علي نفسه في وضع لا يُحسد عليه. فمن جهة، كانت جبهته الداخلية تعاني من الفرقة والتشتت، وقد نَفَرَ فيها الصراع الداخلي الذي تفجّر بين أبيه وبين الخوارج حتى أثر على عموم جيشه ومقاتليه، ومعنوياتهم وتصميمهم. وهذا العدو الداخلي لا يكَلْ ولا يمل، وقد نجح في اغتيال القائد الأعلى، علي، ولم تكن هناك إشارات على نيته التراجع عن أفكاره ونهجه.

ومن جهة أخرى، كان عدوه الرئيسي، معاوية وعَن معه، قد ازداد شراسة وجراً، بعد أن نجح في الصمود بصفين، وفي الهيمنة على مصر. وكانت سياسة الغارات التي شتتها معاوية في السنة الأخيرة قد أظهرت أنه لن يتورّع عن أي سلوك لنشر نفوذه وسلطانه، حتى لو كان الإجماع العاري عن أي غطاء.

وقد اتسكت هذه الأوضاع على الطريقة التي قبل بها الحسن البيعة. فيحدثنا المؤرخون أن التوايا السلمية للحسن ظهرت من اللحظة الأولى لتوليّه، أو حتى قبل توليه، في صيغة البيعة ذاتها، مما أحدث إشكالاً

قال البلاذري «كانت بيعة التي أخذ على الناس: أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم. فقال بعض من حضر: والله ما ذكر السلم إلا ومن رأيه أن يصالح معاوية»

وروى الطبري نقلاً عن الزهري «بايع أهل العراق الحسن بن علي بالخلافة، فطُفِقَ يشترط عليهم الحسن: أنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمته وتحاربون من حاربت. فارتأب أهل العراق في أمرهم حين اشترط عليهم هذا الشرط وقالوا: ما هذا لكم بصاحب، وما يريد هذا القتال». وقال الطبري أيضاً «وقيل: أن أول من بايعه قيس بن سعد، قال له: أبسط يدك أبايك على كتاب الله عز وجل وستة نبيّه وقاتل المُحَلِّين. فقال له الحسن رضي الله عنه: كتاب الله وستة نبيّه فلن فلك يأتي من وراء كل شرط. فبايعه وسكت. وبايعه الناس»

اذن رفض الحسن عبارة «وقتل المحلين» التي يقصد بها قيس الاستمرار في قتال اهل الشام، في صيغة البيعة، ووضح له ان كتاب الله وسنة نبيه تكفي.

ولكني اعتقد ان هناك مبالغة من قبل الرواة في ابراز التوجهات السلمية للحسن، وخصوصا في تلك الفترة المبكرة وبعد موت علي مباشرة. لقد توجه الحسن للسلم، صحيح، ولكن بسبب الظروف الموضوعية التي اضطرته لذلك وبعد ان رأى تدهور جبهته، كما سئرى. ومما يدعم فكرتي تلك الروايات التي تقول ان اول شيء قام به الحسن بعد توليه: أن زاد روايت المقاتلين مائة مائة⁽¹⁾، وهذا طبعاً يُشكل على فكرة المبالغة في النوايا السلمية لأنه يظهر اهتمام الحسن بالجيش والجنود وحرصه على رضاهم.

معاوية يبدأ التحرك⁽²⁾

وبدا معاوية العمل على القور لاستغلال الفرصة الذهبية التي نتجت عن صدمة غياب علي المفاجئ، فأعلن النفي العام في صفوف قواته:

«ثم كتب إلى عماله على النواحي بنسخة واحدة:

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان ومن قبله من المسلمين. سلامٌ عليكم. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فأحمدُ لله الذي كفاكم مؤنة عدوكم وقتل خليفتكم. إن الله بلطفه وحسن صنعه أتاح لعملي بن أبي طالب رجلاً من عباده، فاغتاله فقتله. فترك أصحابه متفرقين مختلفين. وقد جاءتنا كتب أشرفهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم. فأقبلوا إلّي حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن

(1) مقاتل الطالبين للأصفهاني.

(2) مصادر هذا البحث: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 16 ص 23 وص 36-37)، مقاتل الطالبين للأصفهاني (ص 37 وص 42)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج 3 ص 280 وص 293). تاريخ الطبري (ج 2 ص 214)، تاريخ دمشق لابن عسكو (ج 59 ص 149-150)، كتاب الفتح لابن اعلم (ج 4 ص 285)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 8 ص 21 وص 16).

عنكم. فقد أصبتم بحمد الله الثأر، ويلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البني
والعدوان. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»⁽¹⁾

ويعد أن خشد كل جيوش الشام، سار معاوية الى العراق، لظهار قوته
وتفوقه.

ورغم أن القوة هي الأساس في سياسته وتحركاته، إلا أن معاوية كان
أيضاً حريصاً على تقديم خطابٍ لَينٍ للخليفة الجديد في العراق من أجل
تشجيعه على التسليم بلا حربٍ جديدةٍ وقاتل. فإن أمكن تحقيق هدفه سلباً
والوصول الى غايته بدون خسائر جديدة في صفوف جيشه وقواته فذاك أفضل
بنظر معاوية، ولا بأس أن يذل من الوعود والمهود ما تقتضيه المصلحة، ولا
بأس أن يجمال الحسن بالكلام، فيسهل عليه القرار الصعب

وبعض المصادر⁽²⁾ تقول ان الحسن كان قد أرسل، لما تولى، كتاباً إلى
معاوية يدعو فيه إلى الطاعة⁽³⁾. فأجابته معاوية:

«... إن الأمة لما تنازعت الأمر بينها وأت قريشاً أخلقها به. قرأت قريش
والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولوا من قريش أعلمها بالله
وأعشاهما له وأقواها على الأمر، فاختاروا أبا بكر ولم يألوا. ولو علموا مكان
رجل غير أبي بكر يقوم مقامه وينب عن حرم الإسلام قبه ما عدلوا بالأمر إلى
أبي بكر.

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وفي رواية البلاذري ان معاوية قال في معرض
انتدابه للناس «ان الله اتاح له من قلة بقطيع وظلمه. وقد ولي الكوفة بمدة ابنه وهو
حدث قهر لا علم له بالحرب»

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وأيضاً مقاتل الطالبين للأصفهاني وأتساب
الأشراف للبلاذري وكتاب الفتح لابن اعثم.

(3) غالبية المصادر لا تذكر ذلك، بل تبدأ في الحديث عن تحركات الحسن السلمية منذ
لحظة مبايعته، او حتى قبلها! ولكنني اعتقد أن إرسال الحسن لمعاوية يطلب يده
صحيح تماماً وينسجم مع فكرة قبوله البيعة نفسها. فما دام تصدى لمنصب الخلافة
وأعلن نفسه أميراً للمؤمنين فلا بد أن يتصرف بمقتضى ذلك كجزء من واجبات منصبه،
بخس النظر عن نواياه السلمية. وحسب «مقاتل الطالبين» للأصفهاني فإن الحسن ذاته
قد وضع ذلك، فقد ورد في نص رسالته لمعاوية هزتما حملتي على الكتاب إليك
الإعلاء لهما بيني وبين الله سبحانه وتعالى في أمره

والحال بيني وبينك على ما كانوا عليه.

فلو علمتُ أنك أضبط لأمر الرعية، وأحوط على هذه الأمة وأحسن سياسة وأكيد للعدو وأقوى على جمع الغني، لسلمتُ لك الأمر....⁽¹⁾

وفي رواية أخرى لابن أبي الحديد أنه كتب للحسن:

«.... إنك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظنين، ولا المسير، ولا اللثيم....»

والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كتبت عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي (ص)...

إنني أطول منك ولاية، وأقدم منك بهذه الأمة تجربة، وأكبر منك سناً. فأنت أحق أن تجيئني إلى هذه المنزل التي سألتني....»

وهكذا فإن معاوية الآن يبرر للحسن أسباب رفضه لخلافته على أساس الخبرة والقدرة والمصلحة العامة. وهو يقول للحسن بكل وضوح إن عليه أن يُضحي بالخلافة من أجل صالح المسلمين كما ضحى أبوه (أو اضطر للتضحية) من قبل لصالح أبي بكر، الذي تولى الحكم استناداً لنفس الأسباب التي يشير إليها معاوية: أقوالهم على الأمر⁽²⁾.



وتجمع الروايات على أن الحسن بن علي لما علم بمسير معاوية وجيوشه، حثَّ الناس على الجهاد وبذل جهده لحشدتهم من أجل الخروج لمواجهة أهل الشام. ولكن التفاصيل تختلف. فاليعقوبي مثلاً يحدثنا أن الحسن سار من الكوفة على رأس جيش من 50 ألف مقاتل، حتى وصل

(1) النص هنا من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وأيضاً مقاتل الطالبيين للأصفهاني وبه المراسلات بالتفصيل. وورد قريب من ذلك، ببعض الاختصار، في أنساب الأشراف للبلخاري، وبه يذكر اسم حامل رسالة الحسن إلى معاوية: جندب بن عبد الله بن حبيب. وأيضاً: كتاب الفتح لابن اعثم الكوفي.

(2) ولكن معاوية يتجاهل حقيقة أنه إذا كان جازراً مقارنة الحسن بأبيه، إلا أنه ليس جازراً مقارنة هو بأبي بكر، الذي كانت له سابقة المعلومة وصحة الرسول (ص)!

ساباط المدائن. فأرسل منهم جيشاً من اثني عشر ألفاً لمواجهة جيش الشام⁽¹⁾، بقيادة ابن عمه عبيد الله بن العباس، وجعل معه قيس بن سعد بن عباد، وذلك من أجل منع تقدم معاوية داخل العراق. ويبدو رقم الـ 50 ألفاً، الذي أورده اليعقوبي، كمعدد للمقاتلين الذين حشدتهم الحسن وساروا معه إلى المدائن، مبالغاً فيه. ولكن لو سلمنا أن عدداً كبيراً من مقاتلي الكوفة قد خرجوا بالفعل معه، فإن السبب في هذا النجاح للحسن هو بالتأكيد الشعور الذي ساد بين أهل العراق بأنهم مُهددون، ويتمرضون للغزو من أهل الشام. فالحالة هنا مختلفة عما كانت عليه عندما كان عليّ يتدبهم لغزو الشام. هنا الأمر دفاعي. والهجوم الذي يتمرضون له كليّ، وليس غارة محدودة. فلا بد من الخروج. ولا ننسى أن علياً في أواخر أيامه كان قد نجح في حشد 40 ألف مقاتل تجهزوا وبايعوه على الموت⁽²⁾ واستعدوا للخروج معه لغزو الشام. فربما استجاب عدد كبير منهم للحسن.

ويبالغ مؤرخو الملهية السنية، ومنهم ابن كثير، في تقدير حجم وقوة جيوش الحسن بن علي، وذلك بهدف اظهار ان تسليمه الأمر لمعاوية كان طوعها واستجابة لحديث ونبوءة من الرسول (ص). يقول في البداية والنهاية «فاجتمعوا اجتماعاً عظيماً لم يسمع بمثله. فأثر الحسن قيس بن سعد بن عباد على المقدمة في اثني عشر ألفاً بين يديه، وسار هو بالجيوش في أثره قاصداً بلاد الشام ليقا تل معاوية»⁽³⁾

ولكن هناك روايات، وهي الأرجح عندي، تقول لنا ان العدد الذي نجح الحسن في حشده كان أقل بكثير، كان 12 ألفاً فقط. ومنها رواية عن

(1) يقول البلاغري في رواية عن الحسن البصري فراجع له غصصون ألفاً فخرج بهم حتى أتى المدائن، وسرح بين يديه قيس بن سعد بن عباد الاتصاري في عشرين ألفاً، نزل بمسكن»

(2) البداية والنهاية لابن كثير.

(3) ومن يقرأ هذه الرواية يكاد يشعر بالاشفاق على معاوية المسكين الذي ستهاجمه جحافل الحسن بن علي الجبارة الجبارة! لا شك انها رواية غيالية تماماً صممت لكي تتسجم مع الملهية السنية المتأففة ضد الملهية الشيعية، ودُعمت بحديث نبوي مصطنع أيضاً.

أبي الحسن المدائني ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة وتقول أن معاوية سار إلى العراق في جيش من ستين ألفاً بينما الحسن مقيم بالكوفة لم يشخص حتى عبر معاوية جسر منبج. فعقد الحسن لقيس بن سعد على اثني عشر ألفاً وودّعهم فساروا على الفرات وقرى الفلوجة ووصل قيس إلى مسكن ثم اتى الأخنونية (وهي من نواحي بغداد الحالية) فنزلها فجمعه معاوية هناك. وقدم معاوية قواته بقيادة بسر بن أرملة فحصلت مناوشات بينهم إلى أن انتهى الأمر كله.

ويلاحظ على هذه الرواية أنها لم تذكر تعيين عبيد الله بن عباس كقائد للجيش بل لقيس بن سعد، ولم تذكر أن جيش قيس المكون من اثني عشر ألفاً كان طليعة لقوات أكبر حرّكها الحسن، بل لم تذكر أن الحسن خرج من الكوفة أصلاً.

أذن توجه الجيش الذي أرسله الحسن، الصغير بالقياس إلى جيش الشام، للقاء معاوية. وهناك اضطراب في الروايات بشأن المكان الذي تواجه فيه الجيشان حيث تحدث بعضها عن الموصل⁽⁴⁾ وبعضها عن مناطق في الأنبار/ غرب العراق وبعضها عن منطقة المدائن⁽⁵⁾ (بغداد الحالية). وأنا استبعد أن تكون قوات الحسن قد توجهت إلى الموصل في أقصى شمال العراق، فالمعادة كانت أن الجيوش الشامية والعراقية تسير وتتحرك على مسار نهر الفرات، وليس دجلة الذي تقع عليه الموصل.

ولما تقابل الجيشان، سواء قرب المدائن أو في الأنبار، شنّ معاوية حملة نفسية مركّزة موجهة إلى عموم الجيش العراقي وقيادته. وعرض معاوية الرشوة بمبالغ كبيرة على كل من عبيد الله بن العباس، وقيس بن سعد من أجل الإنشقاق والانضمام إليه، وصلت إلى ألف ألف درهم وتدقّ سيلٌ كبيرٌ من الإشاعات إلى العسكر العراقي بأن الحسن بن عليّ قد صالح معاوية وبايعه!

(4) تاريخ الطبري، وايضا: مقاتل الطالبين للأصفهاني .

(5) بعض الروايات تذكر أن المكان الذي التقى فيه الجيشان اسمه «مسكن»، ومنها رواية ابن كثير في البداية والنهاية. ومسكن هي منطقة تبعد عن بغداد الحالية «عشرة فراسخ» حسب حاشية البداية والنهاية.

وبالتالي لا فائدة من المقاومة والعناد. وفي ذات الوقت كانت إشاعات معاوية تملا الكوفة أيضا وتصل الحسن بأن قيادة جيشه قد خائته وانضمت إلى معاوية!

إذن نجح معاوية في خلق حالة من الإرباك الشديد في العراق. ولم يعد أحد يدري ما الذي يجري؟ فلا الحسن يتق بجنوده، ولا قيادته تثق به، ولا العامة تدري إلى متى ستستمر حالة الحرب.

وأُسفرت تلك الأجواء عن نجاح كبير لمعاوية، تمثل بخيانة تعرض لها الحسن من حيث لا يتوقع: ابن عمه عبيد الله بن العباس! يبدو أن معاوية قد نجح في إقناع عبيد الله أنه يخوض حرياً خاسرة، وأن إمامه وقائده على وشك الاستسلام وبالتالي يكون من الأفضل لعبيد الله أن يستبق الأحداث ويسار إلى الاستفادة من عروض معاوية، قبل أن تصبح عديمة القيمة إذا ما حصل فعلاً وسلم الحسن. وربما أقتنع عبيد الله نفسه أنه لا يجوز له أن يبقى على هامش الأحداث منتظراً قدره بينما الحسن يفاوض معاوية على الصلح!

استطرد بشأن خيانة عبيد الله بن عباس⁽¹⁾:

الأخبار الواردة في المصادر بشأن خيانة عبيد الله بن العباس لابن عمه الخليفة الجديد الحسن بن علي وانضمامه إلى معاوية ليست حاسمة بما يكفي لتكوين رأي قطعي حول هذا الأمر بل هي تبعث لدى الباحث نوعاً من الحيرة والشك. ومن المؤكد أن الحسن بن علي تعرض لخianات في تلك الفترة العصية التي سبقت تسليمه لمعاوية من قبل قياداته السياسية والعسكرية.

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4 ص 121-125)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 16 ص 42)، انساب الأشراف للبلاندي (ج 3 ص 284)، تاريخ اليعقوبي (ج 2 ص 214)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 8 ص 12)، تاريخ ابن خلدون (ج 2 ق 2 ص 187)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الأريلي (ج 2 ص 163)، مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني (ص 42)، تاريخ دمشق لابن حسامر (ج 37 ص 470)، أسد الغابة لابن الأثير (ج 3 ص 340)، الإصابة لابن حجر (ج 4 ص 330)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج 3 ص 147)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 609)، تاريخ الإسلام للذهبي (ج 6 ص 6)، الأخبار الطوال للدينوري (ص 217)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج 4 ص 288)، المستدرک علی الصحیحین للحاکم (ج 3 ص 174).

ذلك لا شك فيه. ولكن السؤال المطروح هنا هو بشأن عيد الله بن عباس
بالتحديد، هل خان؟؟

فيما يلي عرض لأهم المصادر التي تثبت خيانة عيد الله وتروي
تفاصيلها:

قال ابن أبي الحديد فأرسل معاوية إلى عيد الله بن عباس أن الحسن قد
راسلني في الصلح، وهو مسلم الأمر إليّ. فلان دخلت في طاعتي الآن كنت
متبوعاً، ولأ دخلت وأنت تابع. ولك إن أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف
درهم أحبل لك في هذا الوقت نصفها وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر.
فانسأ عيد الله إليه ليلاً فدخل عسكر معاوية فوقى له بما وعده وأصبح الناس
يتظرون عيد الله أن يخرج فيصلي بهم فلم يخرج حتى أصبحوا يطلبوه فلم
يجدوه فصلى بهم قيس بن سعد بن عبادة

قال البلاذري في هم بعث معاوية بعد ذلك عبد الرحمن بن سمرة إلى
عيد الله فخلاً به وحلف له أن الحسن قد سأل معاوية الصلح، وجعل لعيد
الله ألف ألف درهم إن سار إليه. فلما علم عيد الله رأي الحسن وأنه إنما
يقصد قصد الصلح وحقق الدعاء، صار إلى معاوية فأكرمه وبّره وحفظ له
مسارعتة إليه. وقام بأمر الناس بعد عيد الله قيس بن سعد، وقال في عيد
الله قولاً قبيحاً وذكر أخاه وما كان بينه وبين علي ونسب عيد الله إلى الخيانة
والغدر والضعف والجبن

قال اليعقوبي في تاريخه «وأقام الحسن بن علي بعد أبيه شهرين، وقيل
أربعة أشهر، ووجه بعيد الله بن العباس في اثني عشر ألفاً لقتال معاوية، ومعه
قيس بن سعد بن عبادة الانصاري. وأمر عيد الله أن يحمل بأمر قيس بن سعد
ورأيه. فسار إلى ناحية الجزيرة، وأقبل معاوية لما انتهى إليه الخبر بقتل علي،
فسار إلى الموصل بعد قتل علي بثمانية عشر يوماً. والتقى العسكران، فوجه
معاوية إلى قيس بن سعد يذل له ألف ألف درهم على أن يصير معه أو ينصرف
عنه. فأرسل إليه بالمال وقال له: تخدعني عن ديني! فيقال أنه أرسل إلى عيد
الله بن عباس وجعل له ألف ألف درهم، فصار إليه في ثمانية آلاف من أصحابه.
وأقام قيس على محاربتة»

قال ابن خلدون في تاريخه «وكان معاوية قد بعث عبدالله بن عامر في جيش الى عبيد الله بن عباس لما كتب اليه في الامان بنفسه، فلقيه ليلاً وأمنه وسار معه الى معاوية. فقام بأمر العسكر بعده قيس بن سعد»

ومن جهة المصادر الشيعية، فإن ابن أبي الفتح الارمني في كشف الغمة يؤكد الرواية القائلة بأن عبيد الله بن العباس قد خان الامام الحسن وانسلّ ليلاً هو وخاصته الى معاوية مقابل وعده بإعطائه ألف ألف درهم، نصفها معجل ونصفها مؤجل، وأن قيس بن سعد استلم القيادة مكانه وكتب للحسن بذلك. وايضاً روى ابو الفرج الاصفهاني مثل ذلك في مقاتل الطالبين.

ولكن في المقابل هناك ما يشكل على قصة خيانة عبيد الله. ومن ذلك أن غالبية كتب التراجم وأخبار الصحابة المشهورة لم تذكر خبر الخيانة! فترجمة عبيد الله بن عباس في تاريخ دمشق لابن عساكر ليس فيها ذكر لخيانته وهو على جيش الحسن ولحقه بمعاوية. ولم يذكر هذه الخيانة ابن الأثير في أسد الغابة، ولا ابن حجر في الإصابة، ولا الذهبي في سير أعلام النبلاء، ولا ابن عبد البر في الاستيعاب.

كما ان عدداً من كتب التاريخ المهمة لم تشر الى خير الخيانة هذا في معرض كلامها عن صلح الحسن ومعاوية. فلم يذكر ذلك الدينوري في الاخبار الطوال ولا ابن كثير في البداية والنهاية ولا ابن اشم الكوفي في كتاب الفتوح، ولا الذهبي في كتابه تاريخ الاسلام.

وكذلك فإن ما رواه الطبري في تاريخه يمثل إشكالية اضافية للباحث! فالطبري لا يذكر عبيد الله بن عباس على الإطلاق، بل يتحدث عن عبد الله بن عباس! فقد روى عن الزهري أن الحسن كان قد نزع قيس بن سعد عن قيادة الجيش وعيّن عبد الله بن عباس مكانه بسبب نواياه السلمية التي لا يوافق عليها قيس. ولما نما الى علم عبد الله بن عباس نية الحسن مسالمة معاوية، كتب «الى معاوية يسأله الأمان، ويشترط لنفسه على الأموال التي أصابها. فشرط ذلك له معاوية».

وبعث اليه معاوية ابن عامر في خيل عظيمة، فخرج اليهم عبد الله ليلاً حتى لحق بهم. ونزل وترك جنته الذي هو عليه لا أمير لهم فيهم قيس بن سعد»

اذن الطبري يثبت حصول الخيانة، ولكنه ينسبها الى شقيق عبيدالله، عبد الله. فهل حصل خلط بين اسمي الأخوين ابني العباس؟ ذلك أمر غريب جداً من قبل شيخ المؤرخين وعملاتهم! فلا يعقل أن يكون الامام الطبري غير مدرك لمكانة عبد الله بن عباس الرفيعة في مجال رواية الحديث النبوي والفنوى الشرعية حتى أطلقوا عليه (حبر الأمة) حتى ينجر الى تلميح سمعته بهذه الطريقة عن طريق إظهار خيانه بذلك الشكل الرخيص. أم أن عبد الله بن عباس هو بالفعل من ارتكب الخيانة^(١)، وليس أخوه؟

وعلى كل حال، فقد روى الطبري رواية أخرى عن عوادة بشأن صلح الحسن، وفيها أن قيس بن سعد كان على الجيش لما صالح الحسن معاوية، فتلقى أمر الحسن بأن يكف فشاوَز الناس حول الدخول بطاعة أمير ضلالة أو أن يبقوا بلا إمام فاختروا الأمر الأول. وليس في هذه الرواية أي ذكر لا لعبد الله ولا لعبيد الله ابني العباس!

ومما يزيد المسألة تعقيداً ما رواه الحاكم النيسابوري (وهو من اهل الحديث) في المستدرک على الصحيحين من أن الخائن كان شخصاً ثالثاً، وهو عبد الله بن جعفر بن ابي طالب !! فقد ذكر عن ابي مخنف «لما وقعت البيعة للحسن بن علي جدّ في مكاشفة معاوية والتوجه نحوه. فجعل على مقدمته عبد الله ابن جعفر الطيار في عشرة آلاف، ثم أتبعه بقیس بن سعد في جيش عظيم. فرأسل معاوية عبيدالله بن جعفر، وضمن له ألف ألف درهم اذا صار الى الحجاز. فأجاب الى ذلك، وخطى مسيرة وتوجه الى معاوية فوفى له.

وتفرق المعسكر، وأقام قيس بن سعد على حدة، وانضم اليه كثير...

وخلاصة رأينا وما نعتقد بشأن قصة خيانة عبيد الله بن العباس: إنه قد خان بالفعل، وذهب مستسلماً الى معسكر معاوية في ذلك الوقت العصيب، طالباً الامان لنفسه. ولكن ذلك كان عملاً فردياً منه، فلم يأخذ معه ثمانية آلاف مقاتل كما تقول رواية اليعقوبي. فهو لم يكن شخصاً مؤثراً ولا قيادياً مرموقاً.

(١) وهكذا تظهر الرواية عبد الله بن عباس كمتخصص في الخيانات: اولاً لملي في البصرة ثم الان للحسن بن علي في الكوفة!!

هو فقط رأى الأمور تسير في غير صالح الحسن بن عليّ وأن معاوية سيكسب لا محالة فقرر أن يستبق الحدث لعل ذلك ينضمه لدى معاوية في قادم الأيام. وليس ذلك مستغرباً منه، فالأحداث أثبتت أن أبناء العباس الثلاثة: عبد الله، عبيد الله وقتم، كانوا فاشلين وحيدمي الكفاءة من ناحية القيادة والإدارة، ولم يكونوا بمستوى المناصب التي أستنها بهم ابن عمهم عليّ⁽¹⁾، ومن بعدهم الحسن.

الحسن يفقد السيطرة⁽²⁾

قال اليعقوبي «كان معاوية يلجأ إلى معسكر الحسن من يتحدث أن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه. ويوجه إلى معسكر قيس من يتحدث أن الحسن قد صالح معاوية وأجابه»

ومن ثم أرسل معاوية إلى الحسن وقدماً وفتح المستوى، من خلصاته وأقربائه. ووصل الوفد الشامي المؤلف من عبد الله بن عامر بن كريز، وعبد الرحمن بن سمرة⁽³⁾ إلى المدائن. ويبدو أن وفد معاوية قد جاء حسب خطة مدروسة لاستغلال ظروف الاضطراب في معسكر الحسن. وقد نجح رجال معاوية في مفاقة مشاكل الحسن إلى الحد الأقصى:

فهم أولاً قد أحضروا معهم مجموعة من الرسائل والكتب التي أرسلها

(1) ويتقديري أن علياً أراد تعويض بني العباس، وبني هاشم عموماً، عن التهميش الكبير الذي تعرضوا له خلال فترة الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان، وإقصائهم من كافة المناصب المهمة (التي كانت تكون حكراً على بطون قريش الأخرى) طوال ربع قرن بعد وفاة الرسول(ص)، فقرر تعيينهم في مناصب رئيسية في حكومته، هم والأَنْصار أيضاً.

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ اليعقوبي (ج2 ص214-215)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص145)، انساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص292 وص279)، تاريخ الطبري (ج4 ص122)، الاخبار الطوال للدينوري (ص217)، كتاب الفتح لابن أشم (ج4 ص288)، أسد الغابة لابن الأثير (ج2 ص14)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج13 ص269).

(3) وكلاهما، عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة، من اقرباء معاوية وابناء عمومته، من بني عبد شمس. وفي تاريخ اليعقوبي يرد اسم «عبد الرحمن بن أم الحكم» بدل «بن سمرة». كما يُذكر المغيرة بن شعبه من ضمن بيئة معاوية.

بعض الزعماء القبائليين من العراق إلى معاوية يعلنون فيها ولاهم له ويدعون له
للقدم إليهم!

وهم حرصوا، وهم خارجون من مضارب الحسن، على أن يرفعوا
أصواتهم حتى يسمعون أفراد الجيش العراقي المترقبين لما يجري من الله قد
حقن بآب رسول الله الدعاء، وسكن به الفتنة، وأجاب إلى الصلح⁽¹⁾

وقال الدينوري أن عبد الله بن عامر كان قد خاطب الناس بصوت عالٍ
«يا أهل العراق، إني لم أزل القتال، وإنما أنا مقبلة معاوية، وقد وافى الانبار في
جموع أهل الشام. فأقرؤوا أبا محمد - يعني الحسن - مني السلام، وتولوا له:
أنشدك الله في نفسك وأنفس هذه الجماعة التي معك»

وأدى كل ذلك إلى خلق جو مأساوي لاهب من الفتنة في المعسكر
العراقي، إلى درجة أن عناصر مغتلة قامت بالهجوم على مضارب الحسن بن
علي وانتهت متاعه.

وقد ساءت أحوال الحسن وتفاقت، عندما تعرض إلى محاولة اغتيال
خطيرة كادت تؤدي بحياته. فقد طعنه أحدهم، ولكن الضربة جاءت في فخذه،
فوصلت العظم. ونجا الحسن من الموت بعد علاجه. قال اليقوي «وحمّل
الحسن إلى الملائن وقد نزف نزفا شديدا، واشتدّت به العلة، فافترق عنه الناس
». والأرجح أن يكون الخوارج هم أيضاً من نفذوا تلك العملية، رغم وجود
احتمال بأن يكون عميلٌ لمعاوية هو الذي قام بها. قال الدينوري في الأخبار
الطوال «فكمن له رجل ممن يرى رأي الخوارج، يسمى الجراح بن قبيصة⁽²⁾
من بني أسد بمظلم ساباط⁽³⁾، فلما حاذاه الحسن قام إليه بمغولٍ قطعته في
فخذه. وحمّل على الأسدي عبد الله بن خطل وعبد الله بن ظبيان فقتلاه.
ومضى الحسن رضي الله عنه متخفياً حتى دخل الملائن»

(1) تاريخ اليقوي

(2) قال ابن هشام في كتاب الفتح إن الرجل اسمه «الجراح بن ستان» وإضاف «لمجرحه
بمغول كان معه جراحة كادت تأتني عليه. فصاح الحسن صيحة وبتر عن لرسه مفضياً
عليه. وابتدر الناس إلى ذلك الأسدي لقتلوه. وأفاق الحسن من غشائه وقد ضعف
نصبراً جراحه وأقبلوا به إلى الملائن»

(3) اسم المكان الذي وقعت به الحادثة.

ويبدو أن تلك المحاولة الفاشلة، كانت هي القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة للحسن. فهو شعر أن كل شيء ينهار، وأنه حتى حياته هو شخصياً معرضة للخطر على يد أناسٍ يحيطون به، لا يدري أيهم معه وأيهم عليه!

وقد أخرج الذهبي في سير أعلام النبلاء رواية عن عوانة بن الحكم تصف اضطراب معسكر الحسن « سار الحسن حتى نزل المدائن، وبعث على المقدمة قيس بن سعد في اثني عشر ألفاً. فبينا الحسن بالمدائن إذ صاح صائح: ألا إن قيساً قد قتل! فاختبط الناس⁽¹⁾. وانتهب الغوغاء سرادق الحسن، حتى نازعوه بساطاً تحته. وطمعته خارجي من بني أسد بخنجر... »

وقال البلاذري «وقد رُقَّ أمر الحسن، وتواكل فيه أهل العراق، فوثبوا عليه فاتشروا دواؤه عن ظهره، وأخذ بساطه من تحته، وحرق سرادقه»

وقد بلغ تهلهل وضع الحسن وانهيار جبهته حدّاً دفع البعض إلى طرح فكرة تسليمه بشخصه إلى معاوية طمعاً في الحظوة عنده! روى الطبري أن المختار بن أبي عبيد الثقفي، وهو يومئذ شاب، قدّم اقتراحاً إلى عمه سعد بن مسعود، وهو كان والي عليّ على المدائن، حين كان الحسن يتعالج عنده من أثر طعنة الخنجر « فقال له المختار، وهو غلامٌ شاب، هل لك في الفنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: توثق الحسن وتسلمن به إلى معاوية! فقال له سعد: عليك لعنة الله، أثب على ابن بنت رسول الله (ص) فأوثقه! بش الرجل أنت⁽²⁾ »

ولافتة للنظر تلك العبارة التي استعملها الحسن مرة في خطابه لأهل الكوفة: نحن ضيوفٌ عليكم! وهنا النص كما أورده البلاذري «اتقوا الله

(1) وفي رواية الطبري «... إذ نادى مناد في المعسكر ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا، فانفروا ونهبوا سرادق الحسن»

(2) ينهي الانتباه إلى احتمال وجود نية للإساءة إلى المختار بن أبي عبيد من خلال هذه الرواية. فالمختار كان من كبار الطالبين بدم الحسين بن عليّ في العراق بعد هذه الأحداث بعشرين عاماً، وتزعم ثورة وغاض حروباً كبيرة في العراق ضد الحكم الأموي ضد الزبيريين كذلك. أي أن أعداءه كثيرون. لكن الإطار العام للرواية مفيد في إيضاح صورة وضعية الحسن الصعبة جداً في تلك الظروف.

ابها الناس حق ثقاته، فَرَأَى أَمْرًا لَكُمْ وَأَضْيَاكُمْ، وَنَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ الَّذِينَ قَالَ
اللَّهُ (لِيُنْعِبَ عَنْكُمْ الرَّجْسُ أَهْلُ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)⁽¹⁾. إن هذا الكلام
العاظمي، الذي يخاطب به الحسن الناس، ليس كلام رئيس لمؤوسين، كما
هو واضح.

الحسن يقرر التسليم لمعاوية⁽²⁾

قرر الحسن التضحية بالخلافة والجنوح إلى مسالمة معاوية.
وفيما يلي مجموعة من النصوص في المصادر توضح أسباب الحسن:
روى ابن الأثير أن الحسن قال لأتباعه من العراقيين:
«إِنَّا وَاللَّهِ مَا نَتَنَا عَنْ أَهْلِ الشَّامِ شَيْءٌ وَلَا نَدُم. وَإِنَّمَا كُنَّا نَقَاتِلُ أَهْلَ الشَّامِ
بِالسَّلَامَةِ وَالصَّبْرِ. فَحَسِبْتُ السَّلَامَةَ بِالْمَعَاوَةِ وَالصَّبْرَ بِالْجَزَعِ.
وَكُتِمَ فِي مَتَنِّكُمْ إِلَى صُفَيْنَ وَدِينَكُمْ أَمَامَ دُنْيَاكُمْ، فَأَصْبَحْتُمْ الْيَوْمَ
وَدُنْيَاكُمْ أَمَامَ دِينِكُمْ.
أَلَا وَإِنَّا لَكُمْ كَمَا كُنَّا، وَلَسْتُمْ لَنَا كَمَا كُتِمَ.
أَلَا وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ بَيْنَ قَتِيلَيْنِ: قَتِيلٌ يَصْفَيْنَ تَبْكُونَ لَهُ، وَقَتِيلٌ بَالْتِهْرُونَ
تَطْلُبُونَ بِثَأْرِهِ.
فَأَمَّا الْبَاقِي فَمُخَاذِلٌ، وَأَمَّا الْبَاقِي فَثَائِرٌ.
أَلَا وَإِنْ مَعَاوَةَ دَعَانَا لِأَمْرِ لَيْسَ فِيهِ عَزٌّ وَلَا نَصْفَةٌ.

-
- (1) وفي رواية أسد الغابة لابن الأثير أن الحسن بقي يكرر كلامه حتى بكى كل الحاضرين
وسمِعَ نَشِيْجَتَهُمْ. ونفس هذه الرواية أخرجهما ابن حساكر في تاريخ دمشق بسنده عن
الزهرى فقال قُتِلَ مَا بَقِيَ أَحَدٌ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا وَهُوَ يَبْكُ بِكَاتٍ»
(2) مصادر هذا البحث: سير أعلام النبلاء للطهطا (ج 3 ص 145)، أسد الغابة لابن الأثير
(ج 2 ص 13)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج 4 ص 289)، شرح نهج البلاغة لابن أبي
المعالي (ج 16 ص 38 و 22)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص 465)، تاريخ
اليعاقبة (ج 2 ص 215)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الأريلي (ج 2 ص 162)، تاريخ
دمشق لابن حساكر (ج 13 ص 268) و (ج 59 ص 149)، انساب الاشراف للبلاذري
(ج 3 ص 285).

فإن أردتم الموتَ رقدناه عليه، وحاكمناه إلى الله عز وجل بظباء السيف.
وإن أردتم الحياة قبلناه وأدخلنا لكم الرضاء.

فناداه القوم من كل جانب: البقية البقية!

فلما أفرده أمضى الصلح⁽¹⁾

وروى الذهبي في سير أعلام النبلاء «قال الحسن بن علي: يا أهل الكوفة!
لو لم تذهل نفسي عليكم إلا ثلاث لذهلت: لقتلكم أبي، وطعنكم في فخذلي،
وانتهابكم ثقللي»

وقال ابن هشام الكوفي في كتاب الفتوح إن الحسن قال «يا أهل العراق!
ما أصنع بجماعتكم معي وهذا كتاب قيس بن سعد يخبرني بأن أهل الشرف
منكم قد صاروا إلى معاوية! أما والله ما هذا بمنكر منكم لأنكم انتم الذين
أكرهتم أبي يوم صفين على الحكمين فلما أمضى الحكومة وقبل منكم
اختلفتم. ثم دعاكم إلى قتال معاوية ثانية فتواليتم. ثم صار إلى ما صار إليه
من كرامة الله إياه. ثم انكم بايعتموني طائعين غير مكرهين، فأخذت ببعثكم
وخرجت في وجهي هذا والله يعلم ما نويت فيه. فكان منكم إلي ما كان يا أهل
العراق! فحسبي منكم لا تفروني في ديني، فإنني مسلم هذا الأمر إلى معاوية»

وفي رواية أخرى عبر الحسن بكل وضوح عن إحباطه الشديد من الكوفة
وأهلها والذي كان السبب الرئيس لقراره «...ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق
بهم أحد إلا غلب. ليس أحد منهم يوافق الآخر في رأي ولا هوى، مختلفين،
ولا نية لهم في خير ولا شر. لقد لقي أبي منهم أموراً عظيماً...»⁽²⁾

ووصف ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة كيف كان الحسن يحاول،
بلا جدى، حشد الناس من خلفه للتصدي لزحف جيوش معاوية، فقال أنه لما
بلغه أن معاوية وصل العراق وقطع جسر منبج ألقى خطبة في الناس قال فيها
«أخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وننظروا ونرى وترى».

(1) أسد الغابة لابن الأثير. ونفس هذه الرواية أخرجهما شمس الدين عساکر في تاريخ دمشق.

(2) الكامل في التاريخ لابن الأثير.

قال: وأنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له.

قال: فسكوا فما تكلم منهم أحد، ولا أجابه بحرف!

فلما رأى ذلك عدي بن حاتم قام فقال: انا ابن حاتم! سبحان الله، ما أتبع هذا المقام! ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم؟

وروى ابن أبي الحديد أيضاً أن الحسن «خطب الناس ووبخهم وقال: خالفتم أبي حتى حكم وهو كاره، ثم دعاكم إلى قتال أهل الشام بعد التحكيم فأبيتهم، حتى صار إلى كرامة الله. ثم بايتموني على أن تسالموا من سألني وتحاربوا من حاربنِي. وقد أتاني أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية وبايعوه. فحسبي منكم! لا تفروني من ديني ونفسي»

وقال اليعقوبي «قدم معاوية العراق، فغلب على الأمر. والحسنُ عليٌّ شديد العلة، فلما رأى الحسن أن لا قوة به، وأن أصحابه قد افترقوا عنه فلم يقوموا له صالح معاوية»

وقد أجاد ابن أبي الفتح الأريلي في كشف الغمة وصف الذين كان يفودهم الحسن «واستفر الناس للمجاهد، فتناقلوا عنه ثم خفوا ومعه أغلاط من الناس:

بعضهم من شيعته وشيعة أبيه عليه السلام

وبعضهم محكَّمة يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة

وبعضهم أصحاب طمع في الفنايم

وبعضهم شكاك

وبعضهم أصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم، لا يرجعون إلى دين»

وكانت فترة خلافة الحسن بحدود الستة أشهر حسب أغلب الروايات. وتم الصلح في جمادى الأولى سنة 41⁽¹⁾.

(1) يقول ابن عساکر أن الصلح تم في شهر ربيع الآخر أو في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وأن مكان اجتماع الصلح والتسليم هو «مكنا» التي تقع ما بين بغداد الحالية والأنبار.

كان القرار الصعب الذي اتخذه الحسن تميراً عن إدراكه لحقيقة موازين القوى المادية التي صارت تميل لصالح عدوّه. لقد قدر الحسن أنه ليس بمقدوره إصلاح الخراب الذي اجتاحت الجبهة العراقية. اختار الحسن تجنب مواجهة كبيرة وطاحنة مع جيش الشام ليس هناك أي أمل في الانتصار بها، لأنه لم يُرد أن يفرض توجهاً انتحارياً على أنصاره المخلصين. وليس صحيحاً أبداً أن ما جرى كان طواعية أو برغبة من الحسن.

شروط الصلح: الروايات الظالمة للحسن⁽¹⁾

هناك عدد كبير من الروايات حول هذا الأمر. وبعضها تذكر تفاصيل أو مطالب غريبة يمكن الشك فيها ورفضها. ومجموعة كبيرة منها تذكر متطلبات مالية شخصية للحسن واشترطات بمبالغ ضخمة له ولأخيه الحسين! وأنه طلب من معاوية أن يفضل بني هاشم في العطاء على بني عبد شمس!

وفيما يلي بعض هذه الروايات التي تظهر الحسن بصورة الناقذ لأي إحساس بالمسؤولية القيادية تجاه أهل العراق وتراث أبيه، وكأنه لا هم له سوى نفسه وراحته الشخصية!

روى الطبري في تاريخه:

عن اسماعيل بن راشد أن مندوبي معاوية صالحا الحسن «على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف في أشياء اشترطها» وأضاف في موقع آخر «وقد كان صالح الحسن معاوية على أن جعل له ما في بيت ماله، وخراج داربجرد، على أن لا يشتم علي وهو يسمع. فأخذ ما في بيت ماله بالكوفة وكان فيه خمسة آلاف ألف»

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4 ص 121-124)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 13 ص 261، 264)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج 3 ص 264)، انساب الاشراف للبلاذري (ج 3 ص 292 و ص 287-289)، فتح الباري لابن حجر (ج 13 ص 54-55)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 8 ص 18 و ص 20)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 180-182)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص 231)، الاخبار الطوال للذهبي (ص 218)، اسد الغابة لابن الاثير (ج 2 ص 13)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج 4 ص 290-292)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الايوبي (ج 2 ص 164)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 184).

وعن الزهري في رواية قصيرة انه بعد مقتل عليّ «كان الحسن لا يرى القتال ولكنه يريد أن يأخذ نفسه ما استطاع من معاوية ثم يدخل في الجماعة»

وتوجد رواية طويلة وسخيفة عن الزهري تجعل موضوع الصلح عبارة عن تناورات وفذلكات متبادلة بين الحسن ومعاوية. فنقول ان الحسن كان ارسل لمعاوية كتابا به شروط للصلح، في ذات الوقت الذي كان معاوية ارسل للحسن كتابا فارغا مختوماً بتوقيعه ويطلب من الحسن أن يكتب فيه ما شاء من الشروط فلما وصلت صحيفة معاوية المختومة كتب بها الحسن أضعاف الشروط والمطالبات التي كان ارسلها لمعاوية اصلا. ولكن معاوية في النهاية، عندما قابل الحسن فيما بعد، رفض الاعتراف بالشروط التي كتبها الحسن في الصحيفة المختومة وقال له انه يلبي فقط الشروط التي طلبها الحسن في الاول، قبل استلامه صحيفة معاوية. فاختلفا، ومن ثم لم ينفذ للحسن شيئا من الشروط ! ويلاحظ انه ليس في الرواية الطويلة ذكر لتلك الشروط بالتحديد!

ولكن اذا جمعنا روايتي الزهري القصيرة والطويلة لبعضهما سيظهر لنا ان شروط الحسن كلها مادية وشخصية.

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق ان الحسن كتب لمعاوية بالصلح على ثلاثة شروط:

«يسلم له بيت المال فيقضي منه دينه ومواهبه التي عليه ويتحمل منه هو ومن معه عيال أهل أبيه وولده وأهل بيته.

ولا يسب عليّ وهو يسمع

وأن يحمل اليه خراج قسا ودارا مجرد من أرض فارس كل عام الى المدينة ما بقي.

فأجابها معاوية الى ذلك وأعطاه ما سأل»

وروى الذهبي في سير اعلام النبلاء عن ابن سعد عن الشعبي «ثم كاتب معاوية في الصلح على ان يسلم له ثلاث خصال:

يسلم له بيت المال فيقضي منه دينه ومواعيده ويتحمل منه هو وآله

ولا يُسب علي وهو يسمع

وأن يحمل اليه غراج نسا ودرا بجرد كل سنة الى المدينة

فأجاب معاوية وأعطاه ما سأل»

وذكر البلاذري في رواية عن صالح بن كيسان «ولم يزل معاوية بالحسن حتى بايعه وأعطاه كل ما ابتغى، حتى قيل انه أعطاه حيرا أولها بالمدينة وآخرها بالشام»

وروى ابن حجر في فتح الباري عن طريق عوانة بن المحكم دركان الحسن صالح معاوية على ان يجعل له ما في بيت مال الكوفة، وان يكون له غراج دار ابجرد»

وجدير بالذكر ان كثيرا من الروايات المسيئة للحسن والتي تتحدث عن متطلبات مالية شخصية للحسن واشترائط بمبالغ ضخمة له ولأخيه الحسين! وأن يفضل معاوية بني هاشم في العطاء، انما مصدرها ابن شهاب الزهري، وقد اعتمدها ونشرها الطبري في تاريخه. والزهري رغم كونه من كبار رجال الحديث الموثقين عند اهل السنة (مثلا: صحيح البخاري) إلا انه كان أموي الهوى والتوجه، وكان شديد القرب والارتباط بعبد الملك بن مروان وابنته وتقلد مناصب رفيعة في دولتهم.

واما مؤرخ المذهبية السنية، ابن كثير، فترى في روايته أكبر قدر من الاحتقار للحسن وتفاوضه وشروطه! فهو يؤكد ان الحسن هو الذي بادر الى الاتصال بمعاوية الذي ارسل له مندوبين فدارت بينهم مفاوضات تكاد تكون مالية بحثة «فقدما عليه الكوفة، قبل لا له ما اراد من الاموال. فاشترط ان يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة الاف درهم، وأن يكون غراج دار ابجرد له وأن لا يُسب علي وهو يسمع. فاذا فعل ذلك نزل عن الإمرة لمعاوية». وقال ابن كثير في البداية والنهاية نقلا عن البخاري في كتاب الصلح أن الحسن قال لمندوبي معاوية، عبد الرحمن بن سمرة

وعبد الله بن عامر الذين قدما اليه ليعرفا شروطه للصالح «إننا بنو عبد
المطلب قد أصبحنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دماءها.
قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب اليك ويسالك. قال: فمن
لي بهذا؟ قالا: نحن لك به. فما سألهما شيئاً إلا قال له: نحن لك به.
فصالحه».

وقرة أن الحسن اشترط «أن لا يُسب عليّ وهو يسمع» فيها قدر من
الاهانة يهبط بحفيد رسول الله إلى مستوى لا يمكن قبوله أبداً من الوضاعة
والدناوة. لأنها تعني، بكل بساطة، أنه لا يمانع أن يُسب عليّ ما دام هو لا
يسمع! وليس هناك من بأس عند ابن كثير أن يكون «بنو عبد المطلب»، وعلى
لسان الحسن، قد «أصابوا من هذا المال» و«أصابوا من هذا المال» تعني
سرقوه. لا بأس عند مؤرخ الملحية السنية أن تكون العائلة النبوية قد نهبت
الاموال، حالها كحال بني أمية، فالكل سواء! عدا عن موضوع انها عاثت في
دماء الأمة

وكذلك كان ابن عبد البر في الاستيعاب ملتزماً بالنظرية الملحية
السنية في تناوله لموضوع صلح الحسن لمعاوية. فقد امتدح الحسن بن علي
بسبب جنوحه للسلم وقال عنه «وكان رضي الله عنه حليماً ورعاً فاضلاً،
دعاه ورعه وفضله إلى أن ترك الملك والدنيا رغبة فيما عند الله. وقال: والله
ما أحييت منذ علمت ما ينفعني وما يضرني أن ألتئ أمر أمة محمد (ص) على
أن يهراق في ذلك محجمة دم» وهذا الكلام الذي ظاهره المنيح يحمل في
طيّاته قدحاً في الامام علي، وخاصة عند كلامه عن «ترك الملك والدنيا رغبة
فيما عند الله»، فهل كان الامام علي راعياً في الملك والدنيا ولذلك لم يسلم
لمعاوية؟

واستكمالاً لهذه النظرة يروي ابن عبد البر أن الحسن ردّ على من اتهمه
بإذلال المؤمنين بسبب تنازله لمعاوية «... فلئن لم أذلّ المؤمنين، ولكنني
كرهت أن أقتلهم في طلب الملك» فهذه الرواية فيها ايضاً طعن من الحسن
بأبيه!

ويتابع ابن عبد البر، انسجاماً مع هذا السياق، فيقول إن الحسن سار بجيش العراق (وقد بايعه أكثر من أربعين ألفاً)، وسار معاوية بجيشه، حتى التقى الجمعان في مسكن من ناحية الأنبار، وعندها قدر الحسن أنه لن تغلب إحدى الفئتين حتى تبيد أكثر الفئة الأخرى، فبادر إلى طلب الصلح⁽¹⁾.



وعدا عن الروايات المبيحة للحسن التي استعرضنا جانباً منها، هناك طائفة من الروايات تخلط في طياتها ما بين شروط شخصية ومالية للحسن وبين شروط لها علاقة بالمسؤولية القيادية والأخلاقية له. ومن هذه الطائفة:

ما رواه الدينوري في الأخبار الطوال. فقد ذكر أن الحسن أرسل شروطه للصلح مع مندوب معاوية، عبد الله بن عامر، فوافق عليها فوراً وبذل عليه العهد والایمان وأشهد عليها الناس.

«وكانت الشروط:

ألا يأخذ أحداً من أهل العراق بإحنة

وأن يؤمن الأسود والاحمر، ويحتمل ما يكون من هفواتهم

ويحمل له خراج الأهواز مسلماً في كل عام

ويحمل إلى أخيه الحسين بن علي في كل عام ألفي ألف

ويفضل بني هاشم في الصلوات على بني عبد شمس»

ومنها أيضاً ما رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء «... فأرسل إليه الحسن

ببذل له تسليم الأمر إليه

على أن تكون له الخلافة من بعده

(1) والملاحظ أن كل روايات ابن عبد البر لم تذكر شيئاً عن مطالبات أو اشتراطات مالية للحسن من أي نوع. بل هي تركزت على فكرة «رغبة» الحسن بالسلام «طوعاً» وإيثاراً منه لمصلحة الأمة.

وعلى ان لا يطالب أحداً من اهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما
كان ايام ابيه

وعلى ان يقضي عنه ديونه

فأجاب معاوية الى ما طلب فاصطلحا على ذلك^(١)



وخلافاً للروايات المسببة للحسن، التي تجعل تفاوضه مع معاوية
متمحوراً حول مطالبات مالية، نجد الرواية التالية في كتاب الفتح لابن
اعثم، وفيها رفض مباشر من الحسن لكل المزايا المالية التي عرضها عليه
معاوية. تقول الرواية «ثم دعا الحسن بن علي بعبد الله بن نوفل بن الحارث بن
عبد المطلب بن هاشم، وهو ابن اخت معاوية، فقال له: حير الى معاوية فقل
له عني: انك لئن آمنت الناس على انفسهم واموالهم ولولادهم ونسائهم بايعتك،
ولئن لم تؤمنهم لم بايعك». وهكذا فإن هم الحسن الاساسي كان تأمين اهل
العراق جميعا، بعيدا عن أي شؤون مالية. ثم نتابع مع الرواية لنرى ان مندوب
الحسن، من تلقاء ذاته على ما يبدو، قد عرض مطالبات مالية على معاوية
بالاضافة الى شرط الحسن الاساسي (والوحيد) بشأن الأمان لكل الناس
«فقدم عبد الله بن نوفل بن الحارث على معاوية فخبيره بمقالة الحسن. فقال له
معاوية: سل ما أحببت! فقال له: أمرني أن أشرط عليك شروطا. فقال معاوية:
وما هذه الشروط؟ فقال: انه مسلم اليك هذا الامر على أن له ولاية الامر من
بعدك، وله في كل سنة خمسة آلاف ألف درهم من بيت المال، وله خراج دار
ابجرد من ارض فارس، والناس كلهم آمنون بعضهم من بعض. فقال معاوية:
قد فعلت ذلك.

فدعا معاوية بصحيفة بيضاء فوضع عليها طينة وختمها بخاتمه ثم قال:
خذ هذه الصحيفة فانطلق بها الى الحسن وقتل له: فليكتب فيها ما شاء وأحب،
ويشهد اصحابه على ذلك. وهذا خاتمي باقراي.

(١) نفس هذه الرواية بالحرف تقريبا وردت في اسد الغابة لابن الاثير ولكن دون ذكر
(وعلى ان يقضي عنه ديونه) بل (وغير ذلك من القواعد) بدلا منها.

فأخذ عبد الله بن نوفل الصحيفة وأقبل إلى الحسن ومعه نفر من أصحابه من اشراف قريش منهم عبد الله بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن سمرة ومن اشبههما من اهل الشام. فدخلوا فسلموا على الحسن ثم قالوا: أبا محمد ! ان معاوية قد أجابك إلى جميع ما أحيت. فكتب الذي تحب.

فقال الحسن: أما ولاية الأمر من بعده فما أنا بالراغب في ذلك، ولو أردت هذا الأمر لم أسلمه إليه. وأما المال، فليس لمعاوية ان يشرط لي في المسلمين. ولكن أكتب غير هذا. وهذا كتاب الصلح.

ثم دعا الحسن بن علي بكتابه فكتب: هذا ما اصطاح عليه الحسن بن علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. صالحه علي:

/اولا/ أن يسلم إليه ولاية امير المؤمنين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وستة نيه (ص) وميرة الخلفاء الصالحين.

/ثانيا/ وليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد لأحد من بعده عهدا بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين.

/ثالثا/ وعلى ان الناس آمنون حيث كانوا في ارض الله في شامهم وعراقهم وتهامهم وحجازهم.

/رابعا/ وعلى أن اصحاب علي وشيعته آمنون على انفسهم واموالهم ونسائهم واولادهم. وعلى معاوية بن أبي سفيان في ذلك عهد الله وميثاقه وما أخذ الله على احد من خلقه بالوفاء بما اعطى الله من نفسه.

/خامسا/ وعلى انه لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من اهل بيت النبي (ص) شائلة سرأ وعلاية، ولا يخيف احدا منهم في أفق من الأفاق.

شهد على ذلك عبد الله بن نوفل بن الحارث وعمر بن أبي سلمة وفلان وفلان

ثم رد الحسن بن علي هذا الكتاب إلى معاوية مع رسل من قبله ليشهدوا عليه بما في هذا الكتاب»

وقد أثبت هذا النص الطويل نظراً لأهميته، ولأنه يوضح كيف كان موقف الحسن واهتماماته الأساسية الحقيقية، وليس المزعومة المقصود منها تلطيف السمعة عن طريق التركيز على النواحي الشخصية وإظهار الحسن كلاميالي بشيعته وشيعة أبيه وانصارهم الذين نصرّوهم وقتلوا معهم.

ومن الروايات المنصفة للحسن تلك التي أوردها البلاذري بصيغة الجمع «قالوا» وفيها أن الحسن كتب «هذا ما صالح عليه الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان. صالحه علي أن يسلم اليه ولاية أمر المسلمين، علي أن يعمل فيها بكتاب الله وستة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين، وعلي أنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده وأن يكون الأمر شورى، والناس آمنون حيث كانوا علي أنفسهم وأموالهم وذرائعهم. وعلي أن لا يبغي الحسن بن علي غائلة سرا ولا علانية، ولا يخيف أحداً من أصحابه»

ويمكن إدراج ما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب في باب الروايات المنصفة نوعاً ما للحسن «كتب الي معاوية يخبره أن يصير الأمر اليه علي أن يشترط عليه ألا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز ولا أهل العراق بشيء كان في أيام أبيه.

فأجابه معاوية، وكاد يطير فرحاً، إلا أنه قال: أما عشرة أنفس فلا أؤمنهم! فراجعهم الحسن فيهم. فكتب اليه يقول: اني قد أليتُ أني متى ظفرتُ بقيس بن سعد أن أقطع لسانه ويده. فراجعهم الحسن: اني لا أباعدك أبداً وأنت تطلب قيساً أو غيره بجنة قلت أو كثرت.

فبحث اليه معاوية حينئذ برق أبيض وقال: أكتب ما شئت فيه وأنا ألتزمه. فاصطلحا علي ذلك. واشترط عليه الحسن أن يكون له الأمر من بعده»

ومن الطبعي والمتوقع ان تكون المصادر الشيعية منصفة للحسن، فلا تتحدث بتلك الطريقة المهينة عن مطالبات ومساومات مالية، بل تذكر مضامين مهمة أصر عليها الحسن في مفاوضاته مع معاوية. ذكر ابن أبي الفتح الأربلي في كشف الغمة أن الحسن اشترط علي معاوية:

«ترك سب أمير المؤمنين عليه السلام والعدول عن القنوت عليه في الصلاة

وأن يؤمن شيعة رضي الله عنهم ولا يتعرض لأحد منهم بسوء
ويوصل إلى كل ذي حق حقه
فأجاب معاوية إلى ذلك وعاهده عليه وحلف له بالوفاء»



وهناك شرط يتردد ذكره في العديد من المصادر: أن يكون للحسن بن علي الخلافة من بعد معاوية.

فمثلاً روى ابن حجر في فتح الباري:

«عن محمد بن قدامة أن الحسن بن علي قال "أني اشتطتُ على معاوية لنفسي الخلافة بعده»

وروى أيضاً عن طريق ابن أبي خيثمة أن الحسن بايع معاوية «على أن يجعل العهد للحسن من بعده»

وروى ابن عساکر في تاريخ دمشق عن عمرو بن دينار «وأعطاه معاوية عهداً إن حدث به حدثٌ والحسن حي لسميته وليجعلن هذا الأمر إليه»

ولم يذكر ابن قتيبة في الامامة والسياسة من شروط الصلح سوى أن الامامة تكون لمعاوية ما دام حياً فإذا مات فالأمر للحسن من بعده.

ولا اعتقد أن هذا الشرط حقيقي، لأنه بلا معنى ولا قيمة، ولا يخفى ذلك على الحسن. ربما يكون اشتراط «العمل بكتاب الله وسنة نبيه» أقرب إلى منطق الحسن وخلفيته من اشتراط ولاية العهد⁽¹⁾.



(1) روى ابن حجر في فتح الباري (ج 13 ص 55) عن ابن بطال مسلم الحسن لمعاوية الأمر وبإيابه على: إقامة كتاب الله وسنة نبيه»

اذن يمكن تلخيص الشروط الأساسية التي وضعها الحسن بن عليّ أمام معاوية مقابل تسليم الأمر إليه كما يلي:

أن لا يأخذ أحداً من أهل العراق بإحتة، فلا يُحاسِبون على ما مضى من مواقف لهم ضد معاوية، وأن يكون الناس آمنون حيث كانوا. وعلى معاوية عهد الله وميثاقه أن أصحاب عليّ وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائلهم ودمائهم.

ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده عهداً، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين.

وعدّ من معاوية أن يُحسن في سياسته في الحكم وأن يلتزم بما جاء في كتاب الله وسنة النبي (ص).

ولكن ماذا عن الأموال التي دفعها معاوية للحسن، أو التي وعد بدفعها؟ هل يمكن انتكار كل تلك الروايات التي تتحدث عنها 14 الجواب عندي أنه من الصعب ردّها جملة وتفصيلاً وتجاهلها كأنها لم تكن. ولكن الأرجح أن موضوع الأموال والمبالغ التي دفعت وخراج دارابجرد، الخ كان بمبادرة من معاوية. أي أن معاوية كان يعرض على الحسن كل ذلك⁽¹⁾ لاثبات حسن نيته ولطمثته على وضعه ومعيشة عائلته والمقربين منه. وليس ذلك ببعيد عن معاوية، بل كان من مميزاته وسيماء: اللجوء الى الدفع، او الوعود بالدفع، لتيسير شؤونه والحصول على مبالغه بأقل الخسائر.

ومن المشروع التساؤل: هل كان الحسن ساذجاً إلى درجة أن يعتقد أن معاوية سيلتزم فعلاً بشروط الصلح؟ وما هي الضمانات لتنفيذ هذه التعهدات؟ هل كان الحسن يظن أن معاوية، بعد أن يتفرد بالحكم ويضم العراق إلى ملكه، سيحترم وعده التي قطعها لعدوه؟

(1) وهناك رواية لدى البلاذري في انساب الاشراف وفيها يظهر أن معاوية هو الذي يرسل للحسن كتاباً للسلم مليئاً بالتعهدات ويؤكد له فيه أنه سيمنحه الف الف درهم كل سنة من بيت المال وأن له خراج فسا ودارابجرد خالصاً له، وقد تجاهل الحسن عروض معاوية هذه ورد بكتاب عرض فيه شروطه للصلح دون أي ذكر للتواحي المالية.

والجواب هو بالنفي. فالحسن كان يعرف أن معاوية رجلٌ لا تسيرُه المبادئ ولا الأخلاق، بل المصالح المجردة. ولم يكن معاوية ليرتدع عن فعل أي شيء في سبيل تمكين دعائم سلطانه ومُلْكِهِ ودولته. ولكن الصلح الذي أبرمه الحسن هو انمكاسٌ لما هو قائم على الأرض من اختلال في موازين القوى المادية بين الطرفين. ومن المؤكد أن الحسن كان لا يمكن أن يُسلم لعدوّه لو كان هناك أي أمل واقعي، ولو ضئيل، في كسب المواجهة، أو حتى الصمود فيها. وفي حقيقة الأمر، كان صلحُ الحسن تخرّجاً سَلْمِيّاً لإعلان هزيمة الجبابرة المراقية من الصراع. لقد كُرم مشروع عليّ بن أبي طالب، وسياساته وبرنامجه، وانتصر معاوية ونظامه، وقرشٌ وطلقالها.

تلك هي الحقيقة المجردة، ومن الظلم تحميل الحسن المسؤولية التاريخية عن سيطرة معاوية على العراق أو اتهامه بالتقاعس والتخاذل. وكان من سوء حظ الحسن أن الإعلان الرسمي عن هزيمة أبيه في ذلك الصراع الطويل كان لا بد أن يحصل على يديه هو.



وقبل الانتهاء من موضوع شروط الصلح لا بد من الإشارة إلى رواية تتكرر في كثير من المصادر، خلاصتها أن معاوية، بعد أن بويع وتم له الأمر، أعلن تنكّره لكل الشروط والتعهدات التي كان أعلنها ووقع عليها وأشهد عليها الناس! وهذا النص من انساب الاشراف للبلاذري:

«ثم قام معاوية فخطب الناس، فقال في خطبته: ألا إني شرطتُ في الفتنة شروطاً أردتُ بها الألفه ووضع الحرب، ألا وإنها تحت قدمي.»

وهذه الرواية لا يمكن تصديقها، وهي بعيدة عن الواقع تماماً. فهي تتعارض مع شخصية معاوية وطريقة تفكيره وحكمه وإدارته. فهو رجل مصلحة وسياسة، وحتى لو أراد بالفعل نقض بنود الصلح والتحلل من التزاماته وتعهدهاته، فلن يفعل ذلك علناً وعلى رؤوس الأشهاد. كما أن هذه الحركات المستغزة للجمهور، المتحدية والمُهينة، لم تكن مما يمتاز به معاوية ولا من خصاله.



وهناك من الروايات ما يُظهر أن الحسن كان يريد وفقاً مرحلياً للصراع ضد بني أمية، وكان يأمل أن يتم استئناف المواجهة في مستقبل الأيام إن سمحت الظروف بذلك. وهذا يبين في خطبته العلنية في الكوفة بعد الصلح، ويحضور معاوية شخصياً.

قال ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن ابن جرير «أن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يأمر الحسن بن علي أن يخاطب الناس ويعلمهم بنزوله عن الأمر لمعاوية. فأمر معاوية الحسن فقام في الناس خطيباً فقال في خطبته بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله (ص): أما بعد أيها الناس إني إن الله هداكم بأولنا وحقق دماءكم بأخرونا. وإن لهذا الأمر مدة، والدنيا دول، وإن الله تعالى قال لنبيه (ص) (وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين).

فلما قالها غضب معاوية وأمره بالجلوس، وعتب على عمرو بن العاص في إشارته بذلك»

وذكر ذلك ابن حجر في فتح الباري عن ابن منصور والبيهقي يستدعيهما إلى الشعبي قال «لما صالح الحسن بن علي معاوية قال له معاوية: قم فتكلم. فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن أكيس الكيس التقى وإن أصحز المعجز الفجور. ألا وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية حق لا مراءى كان أحق به مني أو حق لي تركته لإرادة إصلاح المسلمين وحقق دمائهم. وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين. ثم استغفر ونزل» وقد وردت هاتان الروايتان في الاستيعاب لابن عبد البر نقلاً عن الزهري والشعبي.

استطرد بشأن حديث نبوي: ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فتيين عظيمتين من المسلمين⁽¹⁾

(1) مصادر هذا البحث: صحيح البخاري (كتاب الفتن ج 9 ص 71 و ص 64)، فتح الباري لابن حجر المصنوعي (ج 13 ص 57)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 7 ص 15)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 782)، المستدرک علی الصحیحین للحاکم النیسابوری (ج 3 ص 119)، سنن أبي داود (حديث 4268 ج 2 ص 306)، سنن الترمذي (ج 3 ص 341)، سير أعلام النبلاء للشعبي (ج 3 ص 8)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 8 ص 19-20).

روى البخاري في صحيحه عن ابي بكره قال «ينا النبي(ص) يخطب
جاء الحسن فقال النبي(ص): ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين
من المسلمين»

يمكن القول ان هناك جملة من المآرب والاهداف يرمي لها هذا الحديث
المنسوب للنبي(ص)، ألخصها كما يلي:

اولا: تصوير ما جرى من حرب اهلية فظيمة بين المسلمين بأنه مجرد
خلاف بين مجموعتين متكافئتين المسلمين: فئة عليّ وفئة معاوية، وكلاهما
على خير، ولا امتياز اخلاقيا لاحدهما على الاخرى.

ثانيا: تزكية معاوية وإظهار أن غلبته على الخلافة أمرٌ جيدٌ لأمة
محمد(ص).

ثالثا: اظهار أن الحسن بن علي إنما كان ينفذ تعليمات جده له، وإن
تسليم الحسن الأمر لمعاوية لم يكن اضطراراً وقهراً، ولكن حباً وطواعية!

وكدليل على ما قلناه، وعلى خطورة حديث ابي بكره هذا لا بأس من
استعراض الاستنتاجات التي استخلصها ابن حجر العسقلاني منه. فقد قال
في فتح الباري:

«وفي هذه القصة من الفوائد علم من اعلام النبوة ومتقبة للحسن بن
علي، فإنه ترك الملك لا لقلقه ولا للقلقه ولا لعلقه، بل لرغبته فيما عند الله لما رآه
من حقن دماء المسلمين. فراجع أمر الدين ومصلحة الأمة.

وفيها ردٌ على الخوارج الذين كانوا يكفرون علياً ومن معه ومعاوية ومن
معه بشهادة النبي(ص) للطائفتين بأنهم من المسلمين

واستدلّ به على تصويب رأي من قعد عن القتال مع معاوية وعلي، وإن
كان علي أحق بالخلافة وأقرب الى الحق، وهو قول سعد بن ابي وقاص وابن
عمر ومحمد بن مسلمة وسائر من اعتزل تلك الحروب. وذهب جمهور
اهل السنة الى تصويب من قاتل مع علي لا مثقال قوله تعالى (وان طائفتان
من المؤمنين اتتلوا - الآية) ففيها الأمر بقتال الفئة الباغية، وقد ثبت ان من

قاتل علياً كانوا بغاة، وهؤلاء مع هذا التصريب متفقون على انه لا يفتّم واحد من هؤلاء بل يقولون اجتهدوا فأخطأوا. وذهب طائفة قليلة من اهل السنة وهو قول كثير من المعتزلة الى ان كلا من الطائفتين مصيب، وطائفة الى ان المصيب طائفة لا بعينها^١.

وأما صاحب الحديث، ورواه الأبرز، فهو الصحابي أبو بكرة بن مسروق. فمن هو أبو بكرة وما هي مكانته في ميزان الصحابة؟

هو من عبيد قبيلة ثقيف. وهو ابن سمية، البغي المشهورة التي أنجبت زياد بن أبيه، فهو أخوه لأمه. وبالتالي كان مجهول النسب^(١) رغم ان كثيرا من الناس ينسبونه الى قبيلة ثقيف بحكم ولادته بها، فيقول بعضهم «أبو بكرة الثقيفي». وقد حاصر رسول الله (ص) ثقيفاً في الطائف بعد فتح مكة ومعركة هوازن في السنة الثامنة للهجرة. وصمدت ثقيف في حصنها وامتنعت عن الاستسلام رغم وطأة الحصار. وفي محاولة لزعزعة صمودها أعلن رسول الله (ص) ان من نزل الحصن من ثقيف فهو آمن وان من هرب من عبيدها فهو طليق. فكان أبو بكرة ممن هرب من الحصن فأعتقه رسول الله (ص). قال ابن سعد في الطبقات الكبرى عنه «واسمه ثقيع بن مسروق، وفي بعض الحديث اسمه مسروح. وأمه سمية، وهو أخو زياد بن أبي سفيان لأمه. وكان عبداً بالطائف. فلما حاصر رسول الله (ص) أهل الطائف قال: ايما حر نزل إلينا فهو آمن، وايما عبد نزل إلينا فهو حر. فنزل اليه عدة من عبيد أهل الطائف فيهم أبو بكرة، فكانوا أبا بكرة. فكان يقول: أنا مولى رسول الله (ص)».

أي أنه في ميزان الصحابة: هامشي بلا قيمة حقيقية ولا مكانة تذكر. فلا هو من المهاجرين ولا الانتصار، ولا اهل بدر أو أحد، ولا ممن يُذكر لهم أي دور أو تميز. فقط هو من عامة الذين أسلموا في أواخر أيام النبي (ص) بعد انتصاره على قريش. ورغم ذلك فإن المتبع لشأنه يلاحظ عنده نزعة لإبراز مدى «علاقته» برسول الله (ص) الى حد أن كثيرا من الأحداث التي شهدناها بعد ثلاثين عاماً من وفاة النبي (ص) كان قد حدثت عنها مسبقاً

(١) روى ابن عبد البر في الاستيعاب «كان أبو بكرة يقول: أنا من أنتم في الدين، وأنا مولى رسول الله (ص). لأن أبي الناس إلا أن يتسبوني فلنا نضع بن مسروح»

فبالإضافة الى حديث (ابني هذا سيد) كان هو ايضا صاحب حديث (ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) الذي قاله بمناسبة حرب الجمل. وحديث «ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» يتدرج في سياق «النبوءات النبوية» التي تخصص بها أبو بكر. فقد روى الحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحين رواية «عن أبي بكر رضي الله عنه قال: عصمني الله بشيء سمعته من رسول الله (ص) لما ملك كسرى. قال: من استخلفوا؟ قالوا: ابنته. فقال: لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة. قال: فلما قدمت عائشة ذكرت قول رسول الله (ص) فعصمني الله به»

اذن كان أبو بكر يمتاز بشخصه في ربط الأحداث التاريخية بأحاديث نبوية ينسبها للرسول (ص)، ويشكل فوري ساحة المحدث.

ومن ذلك ايضا: أن الاحنف بن قيس لما ذهب يريد أن يقاتل مع عليّ قبيل معركة الجمل لقيه أبو بكر ونبطه عنه بحديث نسب الى الرسول (ص). ورد في سنن أبي داود «عن الاحنف بن قيس قال: خرجت وأنا أريد، يعني في القتال، فلقيني أبو بكر. فقال: ارجع. فإني سمعت رسول الله (ص) يقول: إذا تواجد المسلمان سيفهما فالقاتل والمقتول في النار. قال: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه». وذكر البخاري في صحيحه أن الاحنف بن قيس لما خرج بسلاحه يريد نصرة عليّ لقيه أبو بكر وقال له هذا الحديث على لسان النبي (ص).

وروايات نبوءات أبي بكر ليست حيادية بل كانت دائما تصب في الخط المعادي لعليّ بن أبي طالب. فقد أخرج الذهبي في سير أعلام النبلاء الرواية الأخيرة التي ذكرناها بصورة فيها قذح مباشر من أبي بكر في شخص عليّ بن أبي طالب، حيث يجعله مجرد طالب للدنيا قال الذهبي «عن الاحنف قال: يا بعث علياً، فرأني أبو بكر وأنا متقلد السيف. فقال ما هذا يا ابن أخي؟ قلت: يا بعث علياً. قال: لا تفعل. انهم يقتلون عليّ الدنيا. وإنما أخذوها بغير مشورة»

وكذلك دافع عن والي عثمان، عبد الله بن عامر، بحديث نبوي أيضاً

فكَانَ أَحَادِيثُ أَبِي بَكْرَةَ كَانَتْ تَفْصِلُ فَوْراً عَلَى مَقَاسِ الْحَاكِمِينَ مِنْ أَجْلِ إِسْكَاتِ كُلِّ مُتَقَدِّمِهِمْ عَلَى أُسَاسِ أَنَّ تِلْكَ هِيَ إِرَادَةُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. فَمَتَمَدَّا انْتَقَدَ النَّاسُ وَالِي عَشْمَانَ بْنِ عِفَّانَ عَلَى الْبَصْرَةِ وَعَابُوا عَلَيْهِ لِبَسِهِ مَا رَقِيَ وَلَا نَ مِنْ الثِّيَابِ، خِلَافاً لِرِعِيَّتِهِ، انْبَرَى أَتْبَاعُ الْوَالِي لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ، مِمَثِّلِينَ بِأَبِي بَكْرَةَ، عَلَى النِّحْوِ التَّالِيِ:

«... كُنْتُ مَعَ أَبِي بَكْرَةَ تَحْتَ مَنَبْرِ ابْنِ عَامِرٍ وَهُوَ يَخْطُبُ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ رَمَقَاقٍ.

فَقَالَ أَبُو بِلَالٍ: أَنْظِرُوا إِلَيَّ أَمِيرَنَا يَلْبِسُ ثِيَابَ الْفَسَاقِ!

فَقَالَ أَبُو بَكْرَةَ: أَسَكَتُ! سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ص) يَقُولُ: مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ أَهَانَهُ اللَّهُ^(١)»

فَحَسَبَ كَلَامَ أَبِي بَكْرَةَ يَكُونُ ابْنُ عَامِرٍ هُنَا هُوَ سُلْطَانُ اللَّهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا تَجُوزُ إِهَانَتُهُ أَوْ انْتِقَادُهُ.

إِذْ لَدَيْنَا أَرْبَعَةُ أَحَادِيثَ لِأَبِي بَكْرَةَ «مَا أَفْلَحَ قَوْمٌ» وَ«ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ» وَ«إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بَيْنَهِمَا» وَ«مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ». وَبِالتَّأَمُّلِ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْأَرْبَعَةِ، يَظْهَرُ لَنَا مَا يَلِي:

رَأَى أَبُو بَكْرَةَ النَّاسَ يَتَقَدُّونَ وَالِي عَشْمَانَ عَلَى الْبَصْرَةِ، فَأَسْكَتَهُمْ عَلَى الْفَوْرِ بِحَدِيثِ نُبُوِي يَدْفَعُ عَنِ الْحَاكِمِ. وَرَأَى عَائِشَةَ وَقَدْ تَزَعَمَتْ الْجَبِيوْسَ فَهَزَمَ أَتْبَاعُهَا فَأَعْلَنَ أَنَّ ذَلِكَ مَذْكُورٌ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ (ص). وَرَأَى الْأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ وَهُوَ يَهْبُتُ لِنَصْرَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَأَرَادَ تَشْيِيطَهُ عَنْ طَرِيقِ أَمْرِ نُبُوِي مُبَاشَرٍ. وَأَخِيرَ رَأَى الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَقَدْ صَالَحَ مَعَاوِيَةَ وَسَلَّمُ الْأَمْرَ لَهُ فَأَتَّكَدَ أَنَّ ذَلِكَ أَيْضاً إِرَادَةُ النَّبِيِّ (ص) نَفْسِهِ.

وَذَلِكَ كُلُّهُ يَدْعُونَا لِلشُّكِّ فِي مُصَدَّقِيَةِ أَحَادِيثِ أَبِي بَكْرَةَ. خَاصَّةً وَأَنَّ أَحَادِيثَهُ تَلْكَ تَتَضَمَّنُ أَحْكَاماً دِينِيَّةً فِي غَايَةِ الْأَهَمِّيَّةِ، مِثْلَ الْمَوْقِفِ السَّلْبِيِّ مِنَ الْمَرَأَةِ، وَطَاعَةِ الْحُكَّامِ الْفَاسِقِينَ، وَالْقَعُودَ عَنْ نَصْرَةِ الْحَقِّ، وَالتَّسْلِيمَ بِحُكْمِ

(١) سنن الترمذي.

الغضب والقهر. وحتى سيرة أبي بكره إمام حكم الأمويين تثير الشبهة أيضاً. فعلى الرغم من أن خلافاً حصل بين أبي بكره وبين أخيه زياد بن أبيه لما شهد أبو بكره على المغيرة بن شعبة بالزنا بينما امتنع زياد عن تأكيد ذلك أمام عمر بن الخطاب، مما دفع عمر إلى جلد أبي بكره بتهمة الغدق، إلا أنه سرعان ما زال الخلاف بين الأخوين. فتوسط أبو بكره عند معاوية حينما كان زياد متحسناً بفارس معارضاً له من أجل ردع بسر بن أرطاة عن إيقاع الأذى بأولاد زياد الذين كانوا بالبصرة. فلما ولي معاوية زياداً، بعد أن أذعاه، ردّ هذا الأخير معروف أخيه. قال ابن سعد «وكان زياد قد قرب ولد أبي بكره وشرههم وأقطعهم وولاهم الولايات، فصاروا إلى دنيا عظيمة وادعوا أنهم من العرب، وأنهم من ولد نضج بن الحارث الثقفي»

وبالعودة إلى حديث «ابني هذا سيد» الذي بدأنا به: لقد تطرق العلامة ابن كثير في البداية والنهاية إلى إخراج هذا الحديث عن أبي بكره من مصادر الحديث. فقال إن الحديث رواه البخاري في كتاب الفتن، ورواه أحمد وابن أبي شيبة. وكذلك أبو داود والنسائي والترمذي وابن عساکر. وتناول تفصيل إسناده الذي به دائماً الحسن البصري. ويمكن القول إن هذا الحديث هو حصرياً لأبي بكره، وبامتياز⁽¹⁾

معارضة الصلح في المعسكر العراقي⁽²⁾

لقد تجرّع الكثيرون مرّ العلقم. فلا شك أن القرار الذي اتخذه

(1) هناك بعض الأخبار إن الحديث روي أيضاً عن طريق غيره من الصحابة. لكن هذه الأخبار ضعيفة جداً ولم يأخذ بها كبار أهل الحديث، فيمكن تجاهلها. ومنها ما ذكره ابن كثير «قال شيخنا أبو الحجاج المزي في أطرافه: وقد روى بعضهم عن الحسن بن أم سلمة. وقد روي هذا الحديث عن طريق جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه. ولكنه لم يوضح تفاصيل هذا القول الأخير وأين ورد. وقال ابن حجر في فتح الباري: قال البيهقي: روي هذا الحديث عن أبي بكره وعن جابر. وحديث أبي بكره أشهر وأحسن إسناداً، وحديث جابر غريب. وقال الفهرست: اختلف على الحسن بن علي عنه عن أم سلمة، وتقبل عن ابن عتبة عن أبي برب عن الحسن، وكل منهما وهم»

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساکر (ج 13 ص 280)، تاريخ الطبري (ج 4 ص 125 و ص 122)، انساب الاشراف للبلخاري (ج 3 ص 289)، الأخبار الطوال للدينوري (ص 220 و ص 218)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 609)

الحسن بن علي كان قاسياً وصعباً جداً على أنصار علي وشيعته، وخاصة القاعدة الصلبة منهم الذين كان وقعه عليهم كالصاعقة، وعلى معسكر أهل العراق برمته.

كانت القاعدة الصلبة لأنصار علي بن أبي طالب في العراق مستعدة للمضي في المواجهة إلى النهاية، حتى لو كانت موازين القوى المادية تميل لصالح العدو، وحتى لو كان الموت هو المصير المحتوم الذي ينتج عن صراع غير متكافئ مع عدو منظم ومصمم.

فالتسليم لمعاوية بن أبي سفيان بقيادة أمة محمد (ص) كان أمراً لا تحتمله نفوس عامة المسلمين، وبالأخص في العراق. كان الذين عايشوا علياً واتبعوه وساروا في ركابه وشاركوا في جهاده وآمنوا بسموّ رسالته ورفعة نوابه، كمن يتجرّع مرّ العلقم وهم يرون الأمور تزول إلى معاوية.

كانت المقارنة بين معاوية، بتاريخه الملتفخ في الإسلام، والملتجئين حوله من بقايا طلقاء قريش وأبنائهم، وبين علي بن أبي طالب وآل بيته، ساطعة صارخة تفرض نفسها على العراقيين في كل حين.

روى الدينوري:

«وكان أول من لقي الحسن بن علي رضي الله عنه، فتلقاه على ما صنع، ودعاه إلى رد الحرب حجر بن عدي^(١)».

فقال له: يا ابن رسول الله: لو ددْتُ أني متّ قبل ما رأيتُ! أخرجتنا من العدل إلى الجور، فتركنا الحق الذي كنا عليه، ودخلنا في الباطل الذي كنا نهرب منه! وأعطينا الدنيا من أنفسنا، وقبلنا الخيبة التي لم تلق بنا.

فاشتد على الحسن رضي الله عنه كلام حجر.

فقال له: إني رأيتُ هوى معظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب. فلم أحب أن أحملهم على ما يكرهون. فصالحْتُ بقاءً على شيعتنا خاصة من القتل. فرأيتُ دفع هذه الحروب إلى يوم ما، فإن الله كل يوم هو في شأن.

(١) وسوف يقوم معاوية، بعد بضعة سنوات، بإعدام حجر بن عدي بدم بارد.

فخرج من حنّده ودخل على الحسين رضي الله عنه، مع عيلة بن عمرو
 فقالوا: أبا عبد الله! شريتم الذل بالجزا وقبّلتُم القليل وتركتُم الكثير!
 أطلعنا اليوم وأعطينا الدرهم: دبح الحسن وما رأى من هذا الصلح، واجمع إليك
 شيعةك من أهل الكوفة وغيرها، وولني وصاحبي هذه المقدمة فلا يشعر ابن
 هند إلا ونحن نقارعه بالسيوف!

فقال الحسين: إنا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل إلى نقض بيعتنا!

واضطر الحسن إلى سماع المزيد من العبارات الغاضبة، المليئة
 بالاتهامات القاسية، من أتباعه المحبطين. وبذل جهده ليوضح لهم أنه أقدم
 على الصلح، مكرهاً، حفاظاً على حياتهم هم بالذات، ومن أجل مصلحة دين
 جده رسول الله:

قال له مالك بن زمرة: «السلام عليك يا مُسْخَم وجوه المؤمنين!

قال: يا مالك لا تقل ذلك. إني لما رأيتُ الناس تركوا ذلك إلا أهله،
 خشيتُ أن تجشوا من وجه الأرض. فأردتُ أن يكون للدين في الأرض
 ناصي»⁽¹⁾

وروى البلاذري «وقام سفيان بن ليلى إلى الحسن فقال له: يا مُمْلَكُ
 المؤمنين! وعاتبه حجر بن عدي الكندي وقال: سَوَدَتْ وجوه المؤمنين!
 فقال له الحسن: ما كل أحمر يحب ما تحب، ولا رأيه كرايك. وإنما فعلتُ
 ما فعلتُ لبقاء عليكم»

وكذلك كان وقع الصلح قاسياً على قيس بن سعد الذي كان لا يزال في
 قيادة جيش العراق. قال الطبري:

«وكتب إلى قيس بن سعد بالصلح، ويأمره بتسليم الأمر إلى معاوية
 والانصراف إلى المدائن»

ولكن قيس بن سعد، ومعه قواته، لم يقبل ذلك الأمر الوارد إليه في

(1) تاريخ دمشق لابن عسّكر.

البداية، وبقي مصراً على عدم التسليم لمعاوية وعبر عن استعداده وجيشه للقتال حتى النهاية⁽¹⁾!

فتشاور معاوية وعمرو بن العاص بشأن هذه المعضلة وكيفية التصرف السليم. واستقر رأيهما على ضرورة تجنب القتال بأي وسيلة ممكنة. يضيف الطبري:

«قال معاوية: إنا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام. فما خير العيش بعد ذلك؟ وإني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بُداً»

وحاول معاوية أسلوب الإقناع. نتابع مع الطبري:

«وأرسل معاوية إلى قيس بن سعد، يذكره الله، ويقول: على طاعة من تقاتل؟ وقد بايعني الذي أعطيت طاعتك! فأبى قيس أن يلبس له»

وأخيراً اضطر معاوية إلى أن يكتب تعهدات وضمائن إضافية خاصة بقيس بن سعد ومن معه⁽²⁾ تتضمن «الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال» وأرسلها لسعد في سجل مختوم.

ويعد ذلك فقط لم يعد أمام قيس ومن معه سوى القبول بالأمر الواقع، فقام قيس بن سعد:

«فقال: أيها الناس: اختاروا الدخول في طاعة إمام خلافة أو القتال مع غير إمام»

(1) روى ابن عبد البر في الاستيعاب عن هشام بن عروة «كان قيس بن سعد بن عباد مع الحسن بن علي رضي الله عنهم على مقلته، ومعه خمسة آلاف قد حلقوا رؤوسهم بعد ما مات علي رضي الله عنه وتبايعوا على الموت»

(2) روى ابن عبد البر في الاستيعاب «فلما دخل الحسن في بيعة معاوية أبى قيس أن يدخل، وقال لأصحابه: ما شتم؟ إن شتم جالندك بكم حتى يموت الأعمش منا، وإن شتم أخلدت لكم أماناً. فقالوا: خذ لنا أماناً. فآخذ لهم أن لهم كفاً وكفله، ولا يمالجوا بشيء، وأنه رجل منهم، ولم يأخذ لنفسه خاصة شيئاً»

فقالوا: لا . بل نختار أن ندخل في طاعة إمام ضلالة»⁽¹⁾

وكان تسليم قيس بن سعد آخر عقبة أمام سيطرة معاوية الرسمية على العراق.

قال عباس محمود العقاد: «وليس أضل ضلالاً، ولا أجهل جهلاً، من المؤرخين الذين سمّوا سنة 41 هجرية بعام الجماعة، لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحدٌ فيها. لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها، كما وقع فيها»

(1) تاريخ الطبري، وفي رواية الأخبار الطوال للدينوري أن قيساً قال «أيها الناس: اختاروا أحد الأمرين: القتال بلا إمام، أو الدخول في طاعة معاوية»

الفصل الثالث: معاوية يكمل السيطرة على امبراطورية الاسلام

زياد بن أبيه يرفض الانصياع لمعاوية⁽¹⁾

لم يبقَ أمام معاوية سوى مدّ نفوذه إلى ولاية فارس حتى تكتمل سيطرته على الامبراطورية الإسلامية.

ولكن كانت هناك مشكلة صعبة تواجهه: إنها والي عليّ القويّ زياد بن أبيه! تصلح قصة زياد بن أبيه أن تكون نموذجاً للجحود ونكران الفضل. فهو من أصل دنيء بمعايير العرب: ابنٌ بغيّ مشهورة عند قبيلة ثقيف في الجاهلية، سمية. وقد أنجبت ابنتها الذي أسسته زياداً ولم يُعرف له أبٌ فسُمي «ابن أبيه». وكان أحياناً يُنسب إلى زوج أمه، الذي كان يمارس دور القواد، واسمه عبيد، وهو من أصل رومي، وكان غلاماً للحارث بن كلدة الثقفي، فيقال له «زياد بن عبيد». وكان أيضاً يعرف بـ «زياد بن سمية».

وقد شامت إرادة الله أن يكون هذا الشاب على قدر عالٍ من الذكاء والنشاط والقوة. ولكن طبعاً في المجتمع العربي - حيث تسود قيم العشائرية والشرف - تبقى دناوة الأصل عائقاً صلباً أمام فرص الصعود والتقدم.

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 4 ص 106 و ص 129-130)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 16 ص 184-186 و ص 181 و ص 190)، تاريخ دمشق لابن حسّان (ج 12 ص 214 و ج 19 ص 173 و ص 175 و ص 171 و ص 203)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج 4 ص 357)، تاريخ اليعقوبي (ج 2 ص 219 و ص 230)، سنن ابن ماجه (ج 2 ص 905 باب لا وصية لوارث)، تاريخ ابن خلدون (ج 3 ص 7-8)، البيان والتبيين للجاسط (ج 2 ص 196).

وكان الأمر بحاجة الى شخصية من المدرسة النبوية حتى يمكن لهذا الشخص أن يأخذ فرصة لاظهار قدراته، وهنا دور الإمام علي الذي لم ينظر الى وضاعة أصله ولا الى نسبته المجهول، وعامله كإنسان مسلم متساوي الحقوق مع غيره من العرب الأصلاء. ولم ينظر الإمام علي اليه إلا كشاب مسلم طموح وذكي، فاعتمدته ككاتبٍ لعبد الله ابن عباس: واليه على البصرة.

وهكذا أتاحت الفرصة لهذا الشخص أن يُظهر قدراته الإدارية والقيادية الفذة، والتي تجلّت أثناء مشكلة البصرة، حينما حاول معاوية أن يستولي عليها عن طريق عملائه أثناء غياب واليها ابن عباس عنها. عندها أظهر زياد بن أبيه رباطة جأش نادرة ونجح في منع سقوط البصرة بأيدي رجال معاوية، وتثبيتها تحت سلطة أمير المؤمنين عليّ.

وقدّر الإمام عليّ ذلك فولّاه فيما بعد حكم إمارة فارس الشاسعة والغنية. فقد بلغ أهل فارس ما هو حاصل بين العرب في الشام والعراق من حرب أهلية طاحنة استنزفت قواهم، فبدت لهم الظروف مواتية للتمرد على السلطة العربية في بلادهم. وجاءت الأخبار علياً أن مناطق عديدة في ايران قد أخذت في الامتناع عن دفع الجزية والخراج، بل إن بعضها قامت بطرد واليها العربي منها. فكان لا بد له من إرسال والٍ قويّ قدير يعيد فرض الأمن والنظام.

وكان زياد عند حسن ظن الإمام عليّ. وقد وصف الطبري ما فعله زياد فقال:

«... ولما قُيِّم زيادُ فارسَ، بعث إلى رؤسائها، فوعده من نصرته وتناها، وغوّف قوماً وتوعدّهم، وضربَ بعضهم ببعض، ودلَّ بعضهم على عورة بعضهم.

وهرب طائفة، وأقامت طائفة. فقتلَ بعضهم بعضاً. وصنّعت له فارس، فلم يلقَ فيها جمعاً ولا حراً.

وفعل مثل ذلك بكرمان.

ثم رجع إلى فارس فسار في كورها، وتناهاهم، فسكنَ الناس إلى ذلك. فاستقامت له البلاد.

وأتى اصطخر، فترلها وحصن قلعة بها، ما بين يضاء اصطخر واصطخر
فكانت تسمى قلعة زياد، فحمل إليها الأموال ثم تحصن فيها بعد ذلك.

...وكان أهل فارس يقولون: ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان
من سيرة هذا العربي في اللين والمفارقة والعلم بما يأتي..»

المفاوضات بين عقيلين متشابهين:

حينما اغتيل عليّ وتولّى ابنه الحسن القيادة، كثف معاوية من جهوده
لاستغتاب زياد وإحكام الطوق على الإمام الجديد. ولكن زياداً أظهر نفوراً
شديداً وأصرّ على موقفه المعادي لمعاوية. يقول الطبري:

«كتب معاوية حين قتل عليّ عليه السلام إلى زياد يتهدده.

فقام خطيباً فقال: العجب من ابن أكلة الأكباد وكهف التفاق ورئيس
الأحزاب!

كتب إليّ يتهدني ويمني وبينه ابنا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم،
يعني ابن عباس والحسن بن علي، في تسعين ألفاً واضمي سيفهم على
عواتقهم لا يشنون!

لئن خلص إلى الأمر ليجلني أحمر ضراباً بالسيف»

ولكن الأمور تغيرت بعد الصلح الذي أبرمه الحسن مع معاوية. فقد
امتدت سيطرة معاوية الآن إلى العراق، ولم يبق أمامه سوى إخضاع إقليم
فارس حتى يجلس متوجاً على عرشه. ولكن مشكلة معاوية أن زياداً لم يلق،
ولم يُظهر رغبة في الدخول في طاعته، رغم أنه لم يعد لديه قائلاً يتبعه!

فتبادل معاوية وزياد المزيد من الرسائل^(١) المليئة بالشتائم والتهديدات:

«من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن عبيد. أما بعد:

فإنك عبء قد كفرت النعمة، واستدعيت النقمة. ولقد كان الشكر أولى
بك من الكفر. وإن الشجرة لتضرب بعرقها وتنفزع من أصلها.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

إنك - لا أم لك بل لا أب لك - قد هلك وأهلك، وظننت أنك تخرج من قبضتي، ولا ينالك سلطاني.

هيهات! ما كل ذي لب يصيب رأيه، ولا كل ذي رأي ينصح في مشورته. أمس عبد، واليوم أمير! خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية.

وإذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة، وأسرع الإجابة. فإنك إن تفعل فدمك حققت، ونفسك تداركت. وإلا احتطفتك بأضعف ريش ونلتك بأهون سمي.

وأقسم قسماً مبروراً ألا أوتى بك إلا في زمرة تمشي حافياً من أرض فارس إلى الشام، حتى أقيمك في السوق، وأبيعك عبداً وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه. والسلام! فغضب زياد بشدة وأجابه:

فأما بعد. فقد وصل إلي كتابك يا معاوية وفهمت ما فيه. فوجدتك كالغريق يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ويتعلق بأرجل الضفادع، طمعاً في الحياة.

إنما يكفر النعم ويستدعي النقم، من حاد الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً.

فأما سبك لي: فلو لا حلم ينهاني عنك، وخوفي أن أدهى سفيهاً، لأثرت لك مخازي لا يسلها الماء.

وأما تعييرك لي بسمية، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن جماعة.

وأما زعمك أنك تخطفني بأضعف ريش، وتناولني بأهون سمي، فهل رأيت بازياً يفرقه صغير القناير، أم هل سمعت بلبب أكله خروف؟

فامض الآن لطيتك، واجتهد جهلك فليست أنزل إلا بحيث تكره، ولا أجتهد إلا فيما يسوءك. وستعلم أينما الخاضع لصاحبه، الطالع إليه. والسلام! وطلع الكيل بمعاوية، فلجأ حين ذاك إلى أسلوب آخر، ليغذ سقاه

المشهور بسر بن أرطاة. فقد كانت عائلة زياد لا زالت تقيم في البصرة، فوجه معاوية سرّاً إلى البصرة وأمره بإلقاء القبض على أبناء زياد! قال الطبري:

«كتب بسرّ إلى زياد: لئن لم تقدم لأصلين بنيك!»

ورغم هذا الوعيد الرهيب، إلا أن زياداً صمد وقاوم:

«فكتب إليه: فإن تفعل فأهل ذاك أنت. إنما بعث بك ابن أكلة الأكباد»

فكان بسر بن أرطاة على وشك تنفيذ تهديده وقتل أبناء زياد، لولا أن أبا بكر، أخا زياد، ذهب إلى معاوية ورجاه أن يأمر بسرّاً بعدم قتلهم، متعهداً له أن يساعده في إقناع زياد بتغيير موقفه، فاستجاب له معاوية.

ولما تأكد معاوية أن أسلوب التهديد لن يجدي نفعاً مع زياد، كان عليه أن يفكر بطريقة أخرى. لجأ معاوية إلى مستشاره المخلص: المغيرة بن شعبة، طالباً نصحه. روى ابن أبي الحديد أن معاوية استدعاه وقال له:

«يا مغيرة اني اريد مشاورتك في أمر أهمني، فانصحنني فيه وأشر عليّ برأي المجتهد، وكُنْ لي أَكْنَ لَكَ...»

إن زياداً قد أقام بفارس، يكشّر لنا كشيّش الأناصير. وهو رجلٌ ثاقب الرأي، ماضٍ العزيمة، جوال الفكر. مصيبٌ إذا رمى.

وقد خفّت منه الآن ما كنتُ آمنه إذ كان صاحبه حياً. وأغشى معالاته حسناً.

فكيف السبيل إليه؟ وما الحيلة في إصلاح رأيه؟

قال المغيرة: أنا له إن لم أمت. إن زياداً رجلٌ يحب الشرف والذكر وصعود المناير. فلو لاطفته المسألة، وألنت له الكتاب، لكان لك أميل، وبك أوثق. فاكتب إليه وأنا الرسول»

وليس غريباً أن يلجأ معاوية إلى المغيرة بن شعبة ليحيته في شأن زياد، فمعاوية كان ولا شك يعرف أن الصلة وثيقة بين الرجلين منذ أن قام زياداً بإتقاذ حياة المغيرة من حد الموت رجماً في عهد عمر بن الخطاب بعد أن شهد

ثلاثة رجال على المغيرة بالزنا مع امرأة بالبصرة، فكان زياد^١ رابعهم فقرر إنقاذ المغيرة الذي رجاء أن يفعل، فشهد زياد^٢ أمام عمر بأنه رأى المغيرة عارياً بين فخذَي المرأة ولكنه لم يرَ «الميل في المكحلة» فأنقذ رقبة المغيرة بشهادته تلك. ولذا فالمغيرة تهمة حتماً مصلحة زياد^٣ ولن يتوانى عن بذل الجهد في التوفيق بينه وبين معاوية.

وبالفعل شدَّ المغيرة بن شعبة الرحال إلى بلاد فارس، حاملاً رسالة بلغو جندية من معاوية. فبدلاً من قوله له إنه عبد، وابن العاهرة سمية، ولا أب له، أصبح الآن أخاه، وابن أبيه وصل المغيرة يحمل عرضاً لا يمكن لزياد أن يرفضه:

«من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان: أما بعد.
فإن المرء ربما طرحة الهوى في مطارح العطب. وإنك للمرء المضروب به المثل، قاطع الرحم، وواصل العدو. وحملك سوء ظنك بي، وينفضك لي على أن عقلت قرابتي، وقطعت رحمي، وبتت نسي وحرمتي، حتى كأنك لست أخي، وليس صخر بن حرب أباك وأمي.... فأرجع رحمك الله إلى أصلك واتصل بقومك.... وقد أصبحت على بيت من أمرك، ووضوح من حجتك، فإن أحييت جانبي ووثقت بي، فأمرت بإمرة....»^(١)

واستجاب له زياد «الحمد لله الذي عرفك الحق ورقك إلى الصلة، ولست ممن يجهل معروفًا ولا يخفل حسباً....»

لأن كنت كتبت كتابك هذا عن عقاب صحيح ونية حسنة وأردت بملك برّاً، فستزيع في قلبي مودة وقبولاً...»

يتابع ابن أبي الحديد «فأعطاه معاوية جميع ما سأله، وكتب إليه بخط يده ما وثق به، فدخل إليه الشام، فقرّبه وأذناه، وأقرّه على ولايته، ثم استعمله على العراق»

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وبتت نسي أي قطعت.

استلحاق معاوية لزياد:

اذن قرر معاوية الاعلان أن زياداً هو أخوه ا وليس ابن أبيه، ولا ابن عبيد، بل ابن أبي سفيان، وأما الأساس الذي استند اليه فهو ما يلي:

«كان أبو سفيان صار إلى الطائف، فنزل على خمار يقال له أبو مريم السلولي.

فقال أبو سفيان لأبي مريم بعد أن شرب عنده: قد اشتدَّت بي العزوبة فالتمس لي يتماً!

قال: هل لك في جارية الحارث بن كلثة، سمية امرأة عبيد؟

قال: هاتها، على طول ثديها وفخر إبطيها.

فجاء بها إليه فوقع لها»⁽¹⁾

وحينما كان أبو سفيان لا يزال على قيد الحياة، أظهر زياد، وهو شاب يافع، في مجلسي ضم الخليفة عمر وكبار رجالات قريش، فصاحة لافتة دلَّت على شخصية واحدة:

«فقال عمرو بن العاص: لله أبوه! لو كان قرشياً لسأق العرب بعصاه!

فقال أبو سفيان: أما والله أنه لقرشي، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك!

فقال: ومن أبوه؟

قال: أنا والله وضعت في رحم أمه»⁽²⁾

كانت هذه العبارة التي قالها أبو سفيان قبل أكثر من 20 عاماً هي الأساس الذي استند عليه معاوية في ادعاء زياداً وكان زياد على علم بكلمة أبي سفيان تلك. وكذلك معاوية الذي يبدو أنه كان يستعملها ورقة يتاور بها عند الحاجة. وقد كان عليّ بن أبي طالب أشار إلى هذه الحادثة في إحدى رسائله إلى زياد حينما بلغه أن معاوية يحاول إغراءه ويلوح له بقول أبي سفيان المذكور:

(1) تاريخ دمشق لابن عسّكر.

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وقريب من ذلك ورد في تاريخ دمشق لابن عسّكر.

«وقد عرفتُ أن معاوية كتب إليك، يستزكرك، ويستغفر غريك. فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم فقلته ويستلب حرته.

وقد كان من أبي سفيان في زمن حمر فائقة من حديث النضر، ونزعة من نزغات الشيطان، لا يثبت بها نسب، ولا يستحق بها إرثاً، والمتعلق بها كالواغل المدقع، والنوط المذبل»⁽¹⁾

وأحضر معاوية وزاد ذلك الخمّار المعجوز من الطائف ليؤدّي دوره في المسرحية: فتقدم أبو مريم السلولي فقال: «كنتُ خماراً بالطائف، فمربي أبو سفيان منصرفاً من سفرٍ له، فطعم وشرب ثم قال: يا أبا مريم، طالت الغربة، فهل من بقي؟

فقلت: ما أجدر لك إلا أمة بني عجلان.

قال: فأتني بها على ما كان من طول ثدييها وتن رفقها.

فاتيت به، فوقع عليها ثم رجع إلي.

فقال: يا أبا مريم! لا سلّت ماء ظهري استللاً تشيب ابن الحبل في عينها.

فقال له زياد: إنما أتيتك بك شاهداً، ولم تأت بك شاماً»⁽²⁾

ويبدو أن الخمّار المعجوز اندمج في الدور الذي يؤدّيهِ إلى درجة أنه غير مصدق أن هكذا مهزلة يمكن فعلاً أن تحصل علناً، فلجأ إلى قول بعض التفاصيل حول قذارة سمية، مما استغّر زياداً ودفعه إلى إسكات المعجوز وتذكيره بأن لا يتجاوز الدور المطلوب منه أن يؤدّيهِ.

(1) نهج البلاغة بشرح محمد عبده. والواغل هو الذي يهجم على الشارين وهو ليس منهم فيبقى محاجزاً. والنوط المذبل هو ما يعلق برجل الراكب من قدح أو ما شابه فيبقى يتقلقل كلما سار. وفي رواية ابن خلدون في تاريخه أن علياً كتب لزياد «إني وأبيك وأنا أولك أعلّ». وقد كان من أبي سفيان قلعة من آمال الباطل وكذب النضر، لا توجب ميراثاً ولا نسباً. ومعاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذرك ثم احذر»

(2) تاريخ الجعفي. وفي رواية ابن أبي الحديد أن أبا سفيان تحدث عن ثمانية إعطي سمية وأن زياداً قال لأبي مريم «لا تشتم أمهات الرجال».

إذن تمت الصفقة، وكملت فصول المسرحية، وأعلن معاوية أن زياداً
أخوه، وابن أليه!

وكان هذا هو الثمن الوحيد الذي يمكن لزياد أن يقبله في مقابل انضمامه
لمعاوية وحزبه. فزياد كان يتحصّن عميقاً داخل بلاد فارس مسيطراً على
مقدراتها وثرواتها. وكان مستعداً للصمود فترة طويلة في أية مواجهة مع
معاوية. كان زياد يدرك موازين القوى، ويفكر بعقول خصومه والخيارات
المتاحة امامهم. أدرك زياد أنه في وضع ممتاز للمساومة، وأن بإمكانه رفع
الثمن المطلوب من معاوية.

وبذات الطريقة يفكر معاوية! فهو رجلٌ عمليٌ وهدفه واضحٌ محدد،
ولا تهمة الوسيلة المتبعة للوصول إلى غايته: الانفراد بحكم دولة الإسلام،
القرشبة بنظره، في كل أمصارها. لم يكن بإمكان معاوية أن يتناسى أمر زياد،
ويكفي بالسيطرة على بقية الأمصار الإسلامية، لأن ذلك يعني أن عمله غير
مكتمل وانجازه مهدد. إذ من المتوقع أن تصبح الولاية الرافضة لطاعته،
فارس، قطباً جاذباً لكل العناصر المعادية له، وهي كثيرة جداً، وهذا ما لا
يستطيع معاوية أن يتحمله.

كان أمام معاوية خياران لا ثالث لهما: إما أن يوجّه حملة عسكرية ضخمة
إلى عمق بلاد فارس، حيث زياد، لهزيمته وإخضاعه، وإما أن يتوصل إلى حل
وذي مع حاكم فارس القوي، ويدفع الثمن المطلوب.

كان الخيار الأول، العسكري، باهظ التكاليف، خطراً وصعباً. لقد كان
دخول معاوية إلى العراق وبسط نفوذه عليها حديثاً جداً، وكانت تنتظره مهمة
ليست باليسيرة، لتثبيت حكمه هناك. وكان آخر ما يريد هو الانجرار إلى مزيد
من الحروب. فأهل الشام وجيشها كانوا لا شك متعبين بعد كل تلك المعارك.
ولا يستطيع معاوية طبعاً الاعتماد على مقاتلي العراق في مهمة كهذه.

ولحسن حظ معاوية انه كان يتعامل مع خصم من نفس طيته. وبحكم
تركيبتهما، كان الرجلان قادرين على التوصل، في النهاية، إلى تفاهم مبني
على أساس حسابات الربح والخسارة، والمتفعة والمصالح المتبادلة.

ولكن الثمن الذي يطلبه زياد كان مختلفاً تماماً عن كل ما عهده معاوية واعتاد عليه. فهو يطلب نسباً، ويريد اسماً، ويحتاج أصلاً

وقرر معاوية أن دفع هكذا ثمن لزياد هو أيسر وأهون من شن حملة عسكرية صعبة ومؤلمة. سيمنح معاوية زياداً نسباً قرشياً صريحاً. ليس ذلك فحسب، سيجعله أخاه!

وسيصيح «زياد بن أبي سفيان» أخاً أمير المؤمنين! وهكذا كان.

لم يبال معاوية بحكم الشرع، ولا بفتوى الرسول (ص) في حديثه الصحيح:

«... الولد للفراش وللماهر الحجر. ومن أذى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين...»⁽¹⁾.

ولم يبال «بالرأي العام» وما يمكن أن يقوله الناس حول هذه المسرحية الهزلية. فكل هذه الأمور تهون وتصفو ولا تستحق أي اعتبار بنظر معاوية، أمام سياسة الدولة ومقتضيات الحكم! فما قيمة حديث نبويّ بنظر معاوية؟ هو ببساطة قادر على اصطناع فقهاء ومفتين عملاء يبررون له كل قراراته.

قال الشاعر⁽²⁾ معبراً عن رأي الناس في الاستلحاق:

ألا أبلغ معاوية بن صخرٍ مغلفة من الرجل اليماني

أنكره أن يقال أبوك عَفّ وترضى أن يقال أبوك زان

فأشهد أن رحمتك من زياد كرحم الفيل من ولد الأثان

وأشهد أنها حملت زياداً وصخرٌ من سمية غير دان

وكان الناس واهين للعقدة النفسية التي يعاني منها زياد، وكيف أنه لا يصدقُ نسبَ الجديد! ولذا أصبحَ مَنْ له حاجة أو مصلحة عند الوالي يلجأ إلى التفاق في موضوع نسبهِ بالتحديد. روى ابن عساكر أن رجلاً كانت له

(1) سنن ابن ماجه .

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. والشاعر هو يزيد بن ربيعة الحميري.

حاجة عند زياد، فلجأ إلى عبد الرحمن بن أبي بكر، الذي وافق أن يكتب له كتاباً لكنه رفض أن ينسب زياداً إلى أبي سفيان، فخاف الرجلُ غضبَ زياد فجاء إلى عائشة لكي تتوسط له، فقبلت أن تساعدته فكتبت له كتاباً حملة إلى زياد:

«كتبتُ له من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان.

فلما جاء بالكتاب قال له: إذا كان غداً فاجتني بكتابك.

وجمع الناس، وقال: يا غلام اقرأ.

فقرأه من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان.

فقضى له حاجته»

وحتى بنو أمية أنفسهم، لم يكونوا يأخذون هذا النسب الجديد لزياد على محمل الجد. فقد روى ابن أبي الحديد أن الفرع الأموي الآخر، آل أبي العاص، رأى في حركة معاوية محاولة لتقوية الفرع السفياني على حسابه، حتى أن عبد الرحمن بن الحكم قال لمعاوية «لو لم تجد إلا الزنج لاستكثرت بهم علينا» بل إن أخا زياد، وابن امه سمية، الصحابي أبا بكرة لم يكن يعترف بنسب زياد الجديد. روى ابن أبي الحديد أن أبا بكرة قال لزياد «لا والله، ما علمتُ سمية رأت أبا سفيان قط».

وروى ابن أبي الحديد طريقة عن شخص قرشيٍّ عجوز، من بني هدي، اسمه أبو العريان، الذي سمع ضجة موكب زياد في البصرة فقال «ما هذه الجلبة؟ قالوا: زياد بن أبي سفيان. قال: والله ما ترك أبو سفيان إلا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبة وحنظلة ومحمدًا، فمن أين جاء زياد؟

فبلغ الكلام زياداً. وقال له قائل: لو سددت عنك فم هذا الكلب.

فأرسل إليه بمائتي دينار. فقال له رسول زياد: إن ابن عمك زياداً الأمير قد أرسل إليك بمائتي دينار لتنفقها.

فقال: وصلته رحم أبي والله ابن عمي حقاً!

ثم مر به زياد من الغد في مركبه، فوقف عليه فسلم. ويكنى أبو العريان /
فقيل له: ما يبيحك؟ قال: حرفت صوت أبي سفيان في صوت زياد⁽¹⁾

وروى ابن خلدون أن عبد الله بن عامر بن كريز غضب يوماً من زياد، فهمم
بأن يحضر مجموعة من رجال قريش ليشهدوا على رؤوس الأشهاد ويقسموا
أن أبا سفيان لم ير سمية قط، لولا تدخل معاوية



وهكذا فإن معاوية ضم إلى صفوفه رجلاً من طراز قيادي وإداري رفيع.
وسوف يصبح زياد من أعمدة الحكم الأموي وأركانه بعد أن ربط مصيره
به. قال عنه ابن خلدون «كان أول من شدد أمر السلطان وشيّد الملك. فجرد
السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة». لم يجد معاوية أفضل من زياد
ليعيّنه في منصب والي العراق. فزياد يعرف العراق بكل دقة، وهو قادر بلا
شك على إرهاب أنصار عليّ ومحبيه الكثر في العراق، فهو يعرفهم لأنه كان
منهم. ومارس زياد دوره بإخلاص وفعالية، فحوّل حياة شيعة عليّ إلى جحيم
لا يطاق على مدى سنين طويلة.

وما قاله زياد لحجر بن عدي الكتندي لا يمكن إلا أن يصدر عن نفسية
مریضة:

زياد: يا أبا عبد الرحمن / كيف تعلم حيي لملي؟

حجر: شديد.

زياد: فإنّ ذلك قد اتسلخ أجمع، فصار بُنْضاً / فلا تكلمني بشيء نكرمه
فلاني أحلرك⁽²⁾

وأظهر زياد لولماً غريباً في تعامله مع آل علي بن أبي طالب. فعندما كتب

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وربما حدث لبس في أسماء أبناء أبي سفيان الذين
ذكرهم المعجوز، فأسقط منهم عمرو وأضيف إليهم محمد.

(2) تاريخ دمشق لابن عساكر. ومثل ذلك ورد في تاريخ الطبري، وفيه أن زياداً قال أيضاً
أن ينفض لمعاوية انقلاب حياً ومراً

الحسن بن علي له رسالة تدعوه إلى عدم التعرّض لأحد أصحابه الذي كان زياداً بطارده، ردّ عليه بكتابٍ يقطع بحسنة من زياد بن أبيي سفيان إلى الحسن: أما بعد فقد أناني كتابك في فاستق يولييه القُصّاق من شيعتك وشيعة أبيك. وأيم الله لأطلبنهم ولو بين جلدك ولحمك. وإن أحب الناس إليّ لحماً أن أكله للحم أنت منه⁽¹⁾

ولم يقطع زياد بن أبيه أن يبقى بنفس عليّ أمراً مقتصرأ عليه وحده، فقام بجمع أهل الكوفة في المسجد ليجبرهم على البراءة من عليّ⁽²⁾

كلمة ختامية: هل كان عليّ الخاصراً؟

يلوم بعض الباحثين علياً لكونه لم يُحسن شؤون الحكم والسياسة، فلم يدار الظروف السياسية ولم يتألف الناس أو يساوم الولاة والرؤساء. وينظر محترفي السياسة الذين لا يرون في التاريخ سواها، عليّ خاصراً كبير أضاع الحكم والخلافة وقصد كل شيء. فكثير من الأعمال التي قام بها عليّ أثناء فترة «خلافته» القصيرة تُظهره كمن لا يفهم السياسة ولا تفهمه، أو كمن هو بليدٌ أو حتى معتوه، لشدة ما يُرى في أعماله من قصر نظر وكثرة القرص التي لم يفتنهما. فعليّ فشل في ميدان السياسة حقاً، وكانت تفصله فجوة عن عصره وزمانه.

ولكن المشكلة هي في المعايير فعليّ كان ثائراً، وظل ثائراً حتى مات. وينظر أولئك الذين يعتبرون التاريخ معركة مبادئ، عليّ بطل جبار لا يُشق له خباراً فمن الخطأ أن يقاس عليّ بمعايير معاوية وأمثلة من دهاقين السياسة ودعاتها لأن له مقياساً مختلفاً من الأساس: إنه قائد ثورة ورائد تغيير، وللثوريين منطقهم الذي يعتبر التضحية والفداء في سبيل المبادئ نصراً مؤزراً، أو حسب تعبيره هو «الفالِبُ بالشر مغلوب».

إن أعمال عليّ وسياسته أثناء فترة «حكوه» لا يمكن أن تصدر عن من يريد

(1) البيان والتبيين للجاحظ.

(2) تاريخ دمشق لابن عسّكر.

أن يحكم الناس ويستفيد منهم. إنها أعمالٌ من يريدُ أن يموتَ لتبقى نماذجٌ
تقتدي بها الأجيال التالية. إنه أرادَ أن يضرب المثل ويكون القدوة ويقم
الحجة على من يأتي من بعده.

وبهذا المعنى، انتصر عليٌ كما لم يتصر بشر.

بقي عليٌ بطلاً للعقيدة، للعلم والعدل والمساواة، وللجهاد. لقد تحدّى
الزمانَ، وتحدى كل مراحل الانهيار التي مرّت بها حضارة المسلمين، وبقي
اسمه ملاذاً لآلام المعذّبين والمظلومين، وللثائرين في كل زمان ومكان. لقد
ارتفع عليٌ فوق عوارض السياسة من خلال القيم المستديمة التي جسدها،
وكان له حياةٌ متمتدة جداً بعد وفاته مستتة إلى مزاياه الدينية والأخلاقية
والفكرية.

وباسم عليٍّ قامت ثورات، وانهارت دولٌ وحكومات، ونشأت ممالك
وخلافات. وباسم عليٍّ انتشرت أفكارٌ ودعوات. لقد سَحَقَ عليٌّ كل أعدائه
بعد وفاته، وكان انتصاره خالداً وعظيماً ومُدعشاً.

مُلحق: عهد الامام عليٍّ لمالك الاشر حين ولّاه مصر

وهو رسالة طويلة عظيمة ومُبهرّة في روعتها وكمالها. وقد رأيتُ أن أثبت
هذا الخطاب، أو كتاب التكليف، كما ورد في نهج البلاغة، لما به من فائدة
ولفردته وتميّزه

هذا ما أمر به عبد الله عليُّ أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشر في
عهدِه إليه حين ولّاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها،
وعمارَة بلادها. أمره بتقوى الله وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه: من
فرائضه وسنته التي لا يسعد أحد إلا باتباعها، ولا يشقى إلا مع جحودها
وإضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه، فإنه جل اسمه قد تكفل
بنصر من نصره وإعزاز من أعزه. وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات ويزعها
عند الجمعات، فإن النفس أمارَة بالسوء إلا ما رحم الله.

ثم اعلم يا مالك أنني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من

عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاية قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده. فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح. فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحببت أو كرهت.

وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تختتم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك. وقد استكفأك أمرهم وابتلاك بهم. ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنه لا يدي لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته.

ولا تتدمن على عفوه، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة، ولا تقولن إني مؤمر أمر فأطاع فإن ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدين، وتقرب من الغير.

وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانتك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يطامن إليك من طماحك، ويكف عنك من غريك، ويغى إليك بما عزب عنك من عقلك إياك وساماة الله في عظمتة والتشبه به في جبروته، فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدهس حجة وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب. وليس شيء أدهى إلى تغيير نعمة الله وتمجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل وأجمعها لرضى الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة، وإن سخط الخاصة

يفخر مع رضى العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكثره للإنتصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكرا عند الاعطاء، وأبطأ عفرا عند المنع، وأضعف صبيرا عند ملعات الدهر، من أهل الخاصة. وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والمعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صفوك لهم وميلك معهم.

وليكن أبعد رعيك منك وأشنؤهم عندك أطلبهم لمعائب الناس، فإن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها. فلا تكشف عن عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك. فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيك. أطلق عن الناس عقدة كل حقد. واقطع عنك سبب كل وتر. وتغاب عن كل ما لا يضح لك، ولا تمجلن إلى تصديق ساع فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين. ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعمدك الفقر ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.

إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الأثام فلا يكونن لك بطانة، فإنهم أعوان الأئمة وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفادهم، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم، ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا أتما على إثمه. أولئك أخف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفاً، وأقل لغيرك إلغاً، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك.

ثم ليكن أثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع، والصق بأهل الورع والصدق، ثم رُضهم على أن لا يطروك، ولا يتجسوك باطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تُحدث الزهوة، وتدني من الفثرة. ولا يكون المحسن والمسر عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة، وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه.

واعلم أنه ليس شيء يادعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم،

وتخفيفه المؤونات عليهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس قبلهم، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيك، فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده. ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت عليها الرعية. ولا تحدثن سنة تضر بشئ من ماضي تلك السن فيكون الأجر لمن سنها. والوزر عليك بما نقضت منها.

وأكثر مدارسة العلماء ومناظرة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك. واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض. فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الانصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة وكلا قد سمي الله سهمهم، ووضع على حده فريضته في كتابه أو سنة نبيه، عهداً منه عندنا محفوظاً

فالجند بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم. ثم لا قوام للجند إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقرون به في جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاهد، ويجمعون من المنافع، ويؤمنون عليه من خواص الأمور وعوامها. ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مراقبهم، وقيموه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم.

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفقهم ومعونتهم، وفي الله لكل سعة، ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه. وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستمانة بالله، وتوطين نفسه على لزوم الحق، والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل. فوَلِّ من

جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيئاً، وأفضلهم
حلماً، ممن يطرأ عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء وينبو
على الأقوياء. وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف. ثم الصق بذوي
الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة
والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنيهم جماع من الكرم، وشعب من العرف.

ثم تفقد من أمورهم ما ينفقه الوالدان من ولدتهما، ولا يثاقمن في
نفسك شيء قويتهم به. ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وإن قل فإنه داعية لهم إلى
بذل النصيحة لك وحسن الظن بك. ولا تدع تفقد لطيف أمورهم انكلاً على
جسيمها فإن للسير من لطفك موضعاً يتشعرون به، وللجسيم موقعاً لا يستفنون
عنه. وليكن أثر رؤوس جنتك عندك من وإساهم في معونته، وأفضل عليهم
من جدته بما يسمعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهلهم، حتى يكون مهمهم
هماً واحداً في جهاد العدو. فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك.

وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية.
وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم
على ولاة أمورهم، وقلة استئصال دولهم، وترك استبطاء انقطاع مدتهم. فافصح
في آمالهم، وواصل في حسن التثاء عليهم، وتعديد ما أبلى ذور البلاء منهم.
فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله. ثم
أعرف لكل امرئ منهم ما أبلى، ولا تضيفن بلاء امرئ إلى غيره، ولا تقصرن به
دون غاية بلاءه، ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلاءه ما كان صغيراً،
ولا ضمة امرئ إلى أن تستصغر من بلاءه ما كان عظيماً.

واردد إلى الله ورسوله ما يضلحك من الخطوب وشبته عليك من
الأمر فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا
اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ
وَالرَّسُولِ...} فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول الأخذ
بسته الجامعة غير المفارقة.

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيك في نفسك ممن لا تضيق به

الأمر، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتماذى في الزلة، ولا يحصر من القى إلى الحق إذا عرقه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاء، وأوقفهم في الشبهات، وأخذهم بالحجج، وأقلهم تيرما بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرهم عند اتضاح الحكم. ممن لا يزديه إطراره ولا يستميله إغراء. وأولئك قليل.

ثم أكثر تعاهد قضائه، وافصح له في البذل ما يزيل علة وتقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك احتيال الرجال له عندك. فانظر في ذلك نظراً بليفاً، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يُعمل فيه بالهوى، وتُطلب به الدنيا

ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولهم محاباة وأثرة، فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياه من أهل البيوتات الصالحة والتقدم في الإسلام المتقدمة، فإنهم أكرم أخلاقاً، وأصح أعراضاً، وأقل في المطامع إشرافاً، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً. ثم أسخ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو تلموا أمانتك.

ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن نعاهلك في السر لأموارهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالريعية. وتحفظ من الأعران، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتضت بذلك شاهداً، فبسطت عليه العقوبة في بدنه وأخذته بما أصاب من عمله، ثم نصبته بمقام المذلة ووسمت بالخيانة، وقلدته عار التهمة

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أغرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً، فإن شكوا ثقلأ أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اختمرها غرق أو أجحف بها عطش، خفت عنهم

بما ترجو أن يصلح به أمرهم، ولا يظن عليك شيء خفت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعدون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك، مع استجلاك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم، فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طية أنفسهم به، فإن العمران محتمل ما حملته، وإنما يؤتى خراب الأرض من إغواء أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر.

ثم انظر في حال كتابك قول على أمورك خيرهم، واخصص رسالتك التي تدخل فيها مكائلك وأسراك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق، ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملا، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك، وإصدار جواباتها على الصواب عنك وفيما يأخذ لك ويعطي منك. ولا يُضعف عقداً اعتقده لك، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لا يكن اختيارك لإياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك، فإن الرجال يتعرفون لفراست الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء. ولكن اختيارهم بما ولوا للصالحين قبلك، فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثراً، وأعرفهم بالأمانة وجهاً، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله وللمن وليت أمره. واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها، ولا يشتت عليه كثيرها، ومهما كان في كتابك من عيب فتغايبت عنه الزمته.

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق بيذنه، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق، وجلابها من المبادئ والمطارح، في برك وبحرك، وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتزم الناس لمواضعها، ولا يجترئون عليها، فإنهم سلم لا تخاف بافتة، وصلح لا تخشى غائلة، وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. اعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع،

وتحكماً في البياعات، وذلك باب مفسدة للعامة وعيب على الولاة. فامنع من الإحتكار فإن رسول الله ' منع منه، وليكن البيع بيعاً سمحاً، بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به، وعاقب في غير إسراف.

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم، والمساكين والمحتاجين، وأهل البؤس والزمن، فإن في هذه الطبقة قانناً ومعتراً. واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعيت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تعذر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك فتتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه. وتمهد أهل اليتيم وذوي الرقة في السن، ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل والحق كله ثقيل. وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم، ووتقوا بصدق موعود الله لهم.

واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقدم عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متنع، فإني سمعت رسول الله يقول في غير موطن: «لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متنع». ثم احتمل المخرق منهم والعمي، ونجّ عنك الضيق والأثف يسط الله عليك بذلك أكتاف رحمته، ويوجب لك ثواب طاعته. وأعط ما أعطيت هنئاً، وامنع في إجمال وإعذار.

ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها: منها إجابة عمالك بما يعي عنه كتابك. ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تخرج به صدور

اعوانك. وأمض لكل يوم عمله فإن لكل يوم ما فيه، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت، وأجزل تلك الأقسام، وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية. وليكن في خاصة ما تخلص به لله دينك، إقامة فرائضه التي هي له خاصة. فأعط الله من دينك في ليالك ونهارك، ووف ما تقرت به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص، بالغاً من دينك ما بلغ. وإذا أقمت في صلاتك للناس فلا تكونن مغرراً ولا مضيعاً، فإن في الناس من به العلة وله الحاجة. وقد سألت رسول الله ﷺ حين وجهني إلى اليمن: كيف أصلي بهم؟ فقال: صل بهم كصلاة أضغفهم، وكن بالمؤمنين رحيماً.

وأما بعد فلا تطولن احتجاجك عن رعيك، فإن احتجاج الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور. والإحتجاج منهم يقطع عنهم علم ما احتجوا دونه، فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل. وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور، وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ سخت نفسك بالبدل في الحق فقيم احتجاجك من واجب حق تعطي، أو فعل كريم تسديه ؟ أو مبتلى بالمنع، فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك، من شكاة مظلمة، أو طلب إنصاف في معاملة.

ثم إن للوالي خاصة ويطانة فيهم استتار وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال. ولا تقطن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس، في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم، فيكون مهناً ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة. وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً، واقم ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبه بما يثقل عليك منه، فإن مغبة ذلك محمودة.

وإن ظنت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذرِكَ، وأعدل عنك ظنونهم بإصهاركَ، فإن في ذلك رياضة منك لنفسك، ورفقاً برعيتك، وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق. ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى، فإن في الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، وأماناً لبلادك. ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل، فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن.

وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحطّ عهدك بالوفاء، وأرع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شئ الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالمهود. وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين، لما استولوا من عواقب الغدرا فلا تغفرون بذمتك، ولا تخينن بعهدك، ولا تختلن عدوك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي. وقد جعل الله عهده وذمته أماناً أفضاه بين العباد برحمته، وحرماً يسكنون إلى منته ويستغيضون إلى جواره. فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه.

ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل، ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انصاخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انتفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته، وأن تحيط بك من الله فيه طلبه، فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك.

إياك والدماء وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شئ أدمى لنعمة ولا أعظم لتبعة ولا أخرى يزوال نعمة وانقطاع مدة، من سفك الدماء بغير حقها ! والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تعوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهته بل يزيله وينقله. ولا عذر لك عند الله ولا عندى في قتل العمد، لأن فيه قود البدن. وإن ابتليت بخطاً وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يديك بعقوبة، فإن في الوكزة فما فوقها مقتلة فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم.

ولياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين.

ولياك والمن على رعيك بإحسانك، أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تعدهم فتبح موعدهك بخلفك، فإن المن يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله تعالى: كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ. ولياك والعجلة بالأمور قبل أوانها، أو التسقط فيها عند إمكانها، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت، أو الوهن عنها إذا استوضحت. فضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه. ولياك والاستئثار بما الناس فيه أسوء، والتغابي عما يعنى به مما قد وضع للعيون، فإنه مأخوذ منك لغيرك. وعما قليل تنكشف عنك أغلبية الأمور ويتصف منك للمظلوم.

املك حمية أنفك، وسورة حدك، وسطوة يدك وغرب لسانك. واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة، حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار. ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك. والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة، أو سنة فاضلة، أو أثر عن نبينا، أو فريضة في كتاب الله، فتقتدي بما شاهدته مما عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا واستوثقت به من الحجة لنفسك عليك، لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها.

وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة، أن يوفقني ولياك لما فيه رضاء، من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه، مع حسن الثناء في العباد، وجعل الأثر في البلاد، وتمام النعمة وتضعيف الكرامة، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، وإنا إليه راغبون. والسلام على رسول الله وآله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً كثيراً.

مصادر الكتاب

- عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، توفي 630 للهجرة:
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تصحيح مصطفى وهبي. المطبعة الوهية 1280.

• الكامل في التاريخ

- اللباب في تهذيب الانساب، دار صادر، بيروت.
- أبو الحسن علي بن عيسى ابن أبي الفتح الاريلي، توفي 693 للهجرة، كشف الغمة في معرفة الأئمة، دار الاضواء، بيروت، الطبعة الثانية 1405 هـ - 1985 م.

- أحمد ابن أحم الكوفي، توفي 314 للهجرة، كتاب الفتح، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى، سنة 1411هـ - 1991م، مطبعة دار الاضواء، الناشر: دار الاضواء للطباعة والنشر والتوزيع
- محسن الأمين، أعيان الشيعة، حققه وأخرجه حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

- أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، توفي 256 للهجرة:
- الجامع الصحيح، طبعة دار الجيل، بيروت - لبنان
- التاريخ الصغير، تحقيق محمود ابراهيم زايد، الطبعة الأولى 1406، دار المعرفة - بيروت.

- محمد بن حبيب البغدادي، توفي 245 للهجرة، المنق في أخبار قریش، صححه وعلق عليه خورشيد أحمد فاروق، 1964، مطبعة دائرة مجلس المعارف العشمانية - حيدر آباد - الهند

- أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، توفي 279 للهجرة:
- أنساب الأشراف، حققه وعلّق عليه محمد باقر المحمودي، منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت ط1، 1394 - 1974.
- أنساب الأشراف، تحقيق / سهيل زكار، ورياض زركلي، دار الفكر، 1417.
- فتوح البلدان، مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة.
- أبو عيسى الترمذي، توفي 279 للهجرة، سنن الترمذي (وهو الجامع الصحيح)، حققه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 1983.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، توفي 255 للهجرة، البيان والبيان، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، الطبعة الأولى 1998، دار الكتب العلمية - بيروت.
- هشام جعيط، معاصر، الفتنة، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الرابعة 2000
- أبو عبد الله محمد بن محمد الحاكم النيسابوري، توفي 405 للهجرة، المستدرک علی الصحيحین، تحقيق د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة - بيروت. 1406
- محمد بن حبان أبو حاتم البستي التميمي السجستاني، توفي سنة 354 للهجرة
- صحيح ابن حبان، تأليف الأمير علاء الدين علي بن بليان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلّق عليه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1993
- كتاب الثقات، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية 1393 - حيدر آباد/ الهند. الناشر مؤسسة الكتب الثقافية
- أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر العسقلاني الشافعي، توفي 852 للهجرة.
- الإصابة في تمييز الصحابة، دراسة وتحقيق وتمليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت / الطبعة الأولى 1995
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الطبعة الثانية، دار المعرفة - بيروت.
- عز الدين أبو حامد بن هبة الله ابن أبي الحديد، توفي 656 للهجرة، شرح

نهج البلاغة، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية،
الطبعة الأولى 1959

• محمد بن الحسن الحر العاملي، توفي 1104 للهجرة، وسائل الشيعة إلى
تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق محمد رضا الجلاي، مؤسسة آل البيت
لإحياء التراث بقم المشرقة، مطبعة مهر - قم، الطبعة الثانية 1414.

• أحمد بن محمد بن حنبل، توفي عام 241 للهجرة:

• كتاب العطل ومعرفة الرجال، تحقيق وتخريج د. وصي الله بن محمد عباس،
المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة الأولى. دار المخاني للنشر والتوزيع -
الرياض.

• مسند أحمد، طبعة دار صادر - بيروت

• أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، توفي 463 للهجرة، تاريخ بغداد،
دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت -
لبنان، ط1 1417 - 1997.

• عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، توفي 808 للهجرة، كتاب العبر وديوان
المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي
السلطان الأكبر المشهور بتاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي،
ط4، 1971.

• خليفة بن خياط المصري، توفي 240 للهجرة، تاريخ خليفة، رواية بقي
بن خالد، حققه وقدم له د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،
بيروت - لبنان 1993

• علي بن عمر الدارقطني، توفي 385 للهجرة، علل الدارقطني، تحقيق
محفوظ الرحمن زين الله السلفي، منشورات دار طيبة - الرياض، ط1
1405.

• عبد الله بن بهرام الدارمي، توفي 255 للهجرة، سنن الدارمي، مطبعة
الاعتدال - دمشق.

• سليمان بن الأشعث السجستاني المعروف بأبي داود، توفي 275 للهجرة،
سنن أبي داود، تحقيق سعيد محمد اللحام، الطبعة الأولى 1990، دار
الفكر - بيروت.

- أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، توفي 282 للهجرة. الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، ط 1، 1960، دار إحياء الكتب العربية.
- أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، توفي 748 للهجرة:
- تاريخ الاسلام، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1407-1987.
- سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه شبيب الأرنؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، 1413 - 1993
- السيد سابق، فقه السنة، ط 1، 2003، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- محمد بن سعد، توفي 230 للهجرة، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت
- كتاب سليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي، توفي 76 للهجرة، بتحقيق الشيخ محمد باقر الانصاري (الناشر غير مذكور).
- جلال الدين السيوطي، توفي 911 للهجرة، تاريخ الخلفاء، تحقيق سعد كريم الفقي، الطبعة الأولى 2003. دار اليقين - مصر.
- الفضل بن شاذان الأزدي النيسابوري، الايضاح، توفي 260 للهجرة، بتحقيق جلال الدين الحسيني الارموي (الناشر غير مذكور).
- أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري، توفي 262 للهجرة، تاريخ المدينة المنورة، حققه فهم محمد شلتوت، الطبعة الثانية 1410 هـ، مطبعة قدس - قم.
- سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، توفي 360 للهجرة، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة دار إحياء التراث العربي، ط 2، الناشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، توفي 310 للهجرة، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق نخبة من العلماء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.
- أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، توفي 460 للهجرة، رجال الطوسي، تحقيق جواد القيومي الاصفهاني، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرقة، الطبعة الأولى، رمضان 1415.
- ابو عمر بن عبد البر القرطبي النمري، الاستيعاب في معرفة الاصحاب، صححه وخرّج أحاديثه عادل مرشد. دار الاعلام - الاردن. الطبعة الاولى 2002.

- احمد بن محمد بن هيدويه الاندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، المكتب الجامعي الحديث - الاسكندرية. الطبعة الاولى 1998
- محمد عبده، شرح نهج البلاغة، اعتنى به وراجعه علي أحمد حمود، المكتبة المصرية - بيروت، 2002.
- أبو القاسم علي بن الحسين ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر، توفي 571 للهجرة، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابر محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، توفي 276 للهجرة، الامامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق الاستاذ علي شيري. الناشر: انتشارات الشريف الرضي، الطبعة الأولى - ايران، 1413
- محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة، دار المعرفة - بيروت.
- عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن كثير، توفي 774 للهجرة:
- تفسير القرآن العظيم، تقديم الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت - لبنان 1992
- البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، الطبعة الاولى 1408 للهجرة، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- علي الكوراني العاملي، معاصر، جواهر التاريخ. الناشر: دار الهدى الطبعة الاولى 2004.
- محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه، سنن ابن ماجه، حقق نصوصه وعلّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر
- علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، توفي 975 للهجرة، كنز العمال، تحقيق بكري حياتي وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، توفي 345، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة المصرية - لبنان، 2007.
- أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، طبعة المكتبة المصرية - صيدا \ لبنان - 2003
- محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد، كتاب الجمل، مكتبة الداوري، قم - ايران.

- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، توفي 845 للهجرة، النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، تحقيق السيد علي عاشور.
- د. عدنان محمد ملحم، معاصر، المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، دار الطليعة - بيروت. الطبعة الأولى 1998.
- أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي الاسدي الكوفي، أسماء مصنف الشيعة المشتهر برجال النجاشي، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الخامسة 1416.
- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، توفي 303 للهجرة، سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي. طبعة 1348/1930، دار الفكر - بيروت.
- نصر بن مزاحم المقرئ، المتوفي سنة 212 للهجرة، وقعة صفين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط2، 1382، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع.
- أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، ضبط وتحقيق الشيخ محمد علي القطب والشيخ محمد الدالي بلطة. طبعة المكتبة العصرية. صيدا - لبنان، 2003
- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، توفي 468 للهجرة، أسباب النزول، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة 1968. الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاء للنشر والتوزيع - القاهرة.
- محمد بن عمر بن واقد، المعروف بالواقدي، توفي 207 للهجرة، كتاب المغازي، تحقيق د. مارسدن جونس. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت. الطبعة الثالثة 1989
- أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي، توفي 292 للهجرة، تاريخ اليعقوبي، دار صادر - بيروت.

نبذة عن المؤلف

ولد حسام عبدالكريم، واسمه الكامل حسام محمود حسن شحادة عبد الكريم، في مدينة إربد في الأردن عام 1968، لأسرة فلسطينية نازحة.

وفي عام 1986 حصل على شهادة الثانوية العامة من الزرقاء - الأردن، وكان من ضمن الطلاب العشرة المتفوقين على مستوى المملكة الأردنية الهاشمية.



وفي عام 1991 حصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة الكيميائية، من الجامعة الأردنية - عمان. وكان صاحب الترتيب الأول.

وفي عام 1992 حصل على شهادة الماجستير في الهندسة الكيميائية المتقدمة، من جامعة لندن، بمرتبة الشرف ومنذ ذلك الوقت عمل كمهندس في القطاع الخاص في الأردن والسعودية والإمارات العربية المتحدة.

وقد صدر له من قبل:

«قرئش وعليّ» نشر عام 2006

«اخبار الفتنة الكبرى: عهد عثمان» نشر عام 2012



معوود معاوية صفين، الخوارج، ونهاية عليّ



هذا هو الجزء الثالث من العمل الموسوعي الكبير (معوود معاوية)، الذي يبحث في أحداث قضيتي كبرى من قضايا تاريخ صدر الإسلام، ويغوص في تفاصيلها محلاً وبحثاً في وقائع الفتنة الكبرى التي امتدت أحداثها في الفترة ما بين السنة 23 للهجرة (بداية حكم الخليفة عثمان) والسنة 41 للهجرة (سيطرة معاوية على مقاليد الحكم).

وفي هذا الجزء يتركز الحكم على صراع عليّ ومعاوية وحبهما في صفين، وتطورات الأحداث حتى استيلاء معاوية على السلطة وتأسيسه أول حكم سلالي في الإسلام؛ وقد رأى المؤلف أن يستفي هذا السفر (معوود معاوية) نظراً لما في ذلك من غرابة تصل إلى حدّ العجب، إذ كيف يصل أحد الطلقاء إلى رئاسة دولة الرسول وهم الذين أصبوا على معاداته ومعاداة دعوته إلى الرمح الأخير؟! كيف استطاع أن يتجاوز المهاجرين والأنصار الذين صنعوا ملحمة الإسلام بدمائهم وتضحياتهم وصبرهم 19؟ وما الذي جرى ليتمكن رجل يحمل وسم «الطليق» من أن يصعد إلى القمة، ويؤسس عرشاً عائلياً تتوارثه سلالته 19؟

الناشر

يسبق هذا الجزء، جزء أول يتناول خلفيات الفتنة الكبرى وعهد عثمان، وجزء ثانٍ يتناول موضوع حرب الجمل بين عليّ وعائشة.

حسام عبد الكريم ◆ معود معاوية صفين، الخوارج، ونهاية عليّ

3

ISBN 978-6589-09-003-1



9 786589 099031

الأردن: عمان، وسط البلد، بداية 12، وجبة 34
م.ب. 7855 هاتف 4638688 6 4638682 00962
البحرين: ص.ب. 4657445 6 4657445 00962
الكويت: ص.ب. 95297109 7 95297109 00962

